

اعلام
الادب
البروسي



نيقولاى غوعول

الأنفس الميتة

رواية

ترجمة د . عبد الرحيم بدر
راجع الترجمة واكمل الناقص منها
غائب طعمة فرمان



دار «ادوعا»
موسكو

غوغول اللغز

حين أصدر غوغول المجلد الاول من «الانفس الميتة» ، وهي اروع عمل له ، في عام ١٨٤٢ كتب الناقد الروسي الشهير فيساريون بيلينسكى : «دلونا ، أين تلك الروح التاريخية العالمية في اعمال غوغول ، أين ذلك المحتوى المشترك بقدر واحد بالنسبة لجميع الشعوب والقرون ؟ دلونا ماذا سيحصل لى عمل من اعمال غوغول اذا ما ترجم الى اللغة الفرنسية او الالمانية او الانجليزية ؟»

كان بيلينسكى معجباً متحمساً بغوغول ، وجد فيه كاتباً روسياً عظيماً الشأن ، ومع ذلك فحتى هو كان يعتبر أهمية ميدوع «الانفس الميتة» ، و«المفتش العام» و«المعطف» مقتصرة على روسيا وحدها .

ونحن اليوم واتقون من أن الامر ليس كذلك . فقد ترجم غوغول ويترجم الى اللغة الفرنسية والالمانية والانجليزية واليابانية والى الكثير من لغات العالم الاخرى . وتنشر المقالات والكتب المكرسة لغوغول فى جميع أنحاء المعمورة . وتقام مناقشات ولقاءات علمية حوله .

ناهد من الامتياز

Николай Гоголь

МЕРТВЫЕ ДУШИ

Поэма

На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية والمقدمة والملاحظات محفوظة لدار وراذواغ ، ١٩٨٩ .

طبع فى الاتحاد السوفيتى

Н. В. Гоголь. Мертвые души. Поэма.

На арабском языке.

Редактор Л. Ф. Чеботкивич.

Перевод осуществлен по изданию:

Н. В. Гоголь. Сочинения в 2-х томах.

Москва, «Художественная литература», 1973, т. 2.

ولعل صفة «اللغزى» اكثر ما يتردد من بين الصفات التى تطلق الآن عن ابداع هذا الكاتب . فكثيراً ما يقال : «غوغول للغز» .

وقد تجلّت صفة «اللغزى» ، بالطبع ، فى فريدة المال الذى صار اليه غوغول بعد الوفاة ، وفى اطراد تنامى صيته العالمى . ولكن ليس هذا وحسب . فان كلمة «اللغزى» تتضمن انعكاساً لحياة الكاتب ، وصورة لخصائص طبعه السايكولوجى والروحى ، وطبعاً لخصائص طريقته فى الابداع ايضا .

نحن لا نستطيع ، طبعاً ، ان نحدد كم ستكشف الملاحظات الحالية من هذه الخصائص ، والى اى حد من الكمال . ولكننا سنحاول الاشارة اليها على الاقل ، وتقديم المعلومات الاكثر ضرورية عن حياة الكاتب وابداعه .

• • •

ولد نيقولاى فاسيليفيتش غوغول فى الاول من نيسان (فى ٢٠ آذار حسب التقويم القديم) عام ١٨٠٩ فى الجزء الجنوبى الغربى من الامبراطورية الروسية ، فى اوكرانيا ، فى منطقة «فيليكه سوروتشيتسى» . وكان والداه من ملاكى الاراضى المتوسطين . وكان لهما حوالى ٤٠٠ قن من الفلاحين وضيعة صغيرة باسم «فاسيليفكا» (لها اسم آخر هو يانوفشينا) تقع غير بعيد عن فيليكه سوروتشيتسى فى نفس ولاية بولتافا . وقد قضى كاتبنا المقبل اعوام طفولته فى فاسيليفكا .

كان الاقليم غنياً بالاساطير والنوادير والحكايات العجيبة التى حفزت مخيلة الصبى الحساس العصبى . عندما بلغ غوغول الثانية عشرة ارسل الى مدرسة العلوم الرفيعة ، وهى مؤسسة تعليمية عالية فتحت حديثاً فى مدينة نيجين الصغيرة فى ولاية تشيرنيغوف المجاورة . وقضى «نيكوشا» الصغير هناك سبعة اعوام ، ولم يؤخذ الى بيت والديه فى فاسيليفكا الا فى العطل المدرسية ، وما عدا ذلك ابقى بين جدران المدرسة فى وسط من الاولاد متنوع الطوائف جامع ، حاد المزاج .

لم تكن علاقة غوغول بزملانه بسيطة . فكانوا يسمونه بالغريب واللغز فى هذه الازمنة ايضا . وقد كتب غوغول الى امه قبل بضعة اشهر من تخرجه من المدرسة : «انا اعتبر لغزاً لدى الجميع ، ولا احد حلّنى اطلاقاً» . واضاف : «ولك ان تعتبرنى ما تشائين . فقط ان تصدقنى بان العواطف النبيلة تملأ نفسى دائماً ، واننى لم احط من قدر نفسى ، وانسى طوال حياتى كنت الى جانب الخير» .

فى سن مبكرة جداً ، منذ السادسة عشرة من عمره ، اخذ يعد نفسه لنشاط اجتماعى . ولم تكن لغوغول بعد فكرة عن الاشتغال فى الكتابة ، رغم انه بدأ يكتب وهو فى المدرسة ، بل وبعض المعلومات تشير الى انه بدأ الكتابة فى سن ابرك ، وهو ما يزال صبياً صغيراً جداً . وكان «المجال» الذى ذكره غوغول فى رسالته الى امه ، والذى اراد ان ينذر له نفسه كلياً هو الخدمة فى

عليها من تربة أرضه - معرفته الرائعة في الاساطير
الاوركانية ، ومعيشة الشعب ، والعادات . وقد حبيب
غوغول ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، اوكرانيا الى الآف
والآف من القراء الروس .

وقد كتب الكسندر بوشكين تحت تأثير الجزء
الاول من كتاب غوغول هذا : « . . . الآن آمنت قراءة
«امسيات قرب ديكانكا» . وقد أذهلني . ذلك هو المرح
الحقيقي الصافي ، الصادق ، بدون تكلف ، ولا تحفظ .
وفى بعض الاماكن شعر ، وأى شعر ! أى رهافة حس !
كل ذلك غير اعتيادي فى ادبنا الحالى ، بشكل ما زلت
منهولاً به » .

وخلال ذلك كان فى انتظار القراء مفاجأة جديدة . فى
الروايات القصيرة التى اعقبت «امسيات» وجمعت فى
مجموعتين هما «ميرغورد» و«منمنمات» (كلتاها صدرتا
فى عام ١٨٣٥) لم يعد غوغول رومانسياً ملهماً ، بل
كاتباً اجتماعياً صارماً ، محللاً بصفاً ذهن للوضاعة
والحقارة الحياتية (رغم ان الاساس الشاعرى العميق فى
هذه الروايات القصيرة وفى كل ابداع غوغول احتفظ
بقوته) . وفى بعض الاعمال ، مثل «كيف تشاجر ايفان
ايفانوفيتش مع ايفان نيكيفوروفيتش» نظر غوغول من
زاوية نظر جديدة الى الحياة الريفية التى عرفها منذ
الطفولة ، الى اوكرانيا الحبيبة . وفى أعمال أخرى ، وهى
ما اطلق عليها «قصص بطرسبورج» («شارع نيفسكى» ،
«مذكرات مجنون» الى آخره) عكس بصفاً ذهن بالغ وبلا
رأفة حياة العاصمة الروسية . وقد اعطت القنطرة عسى

مؤسسة من مؤسسات الدولة ، والادق مجال القانون ،
العمل فى ميدان القضاء ، والتشريع . «لقد رأيت أن العمل
فى هذا المجال سيكون الاكثر . . . ان الجور القضائى ،
التعاسة العظمى فى الدنيا ، كان يمزق قلبي اكثر ممن
أى شئ آخر» .

ولكن حدث ما لم يكن فى تصور غوغول . فبعد انهاء
المدرسة ، ووصوله الى بطرسبورج فى نهاية ١٨٢٨
حاول بالفعل أن يبني مستقبله فى الخدمة ، وكان وقتاً
ما يشغل منصب موظف صغير ، ولكنه لم يستطع أن
يقوم بأى أعمال مهمة فى ميدان القضاء . والخدمة فى
مؤسسة الدولة التى كانت تسلم غوغول الى خيبة أمل
متنامية ساعة بعد أخرى ، أخذت تتراجع أمام نشاطات
أخرى ، هى النشاطات الادبية والتعليمية . وصار
غوغول مدرساً فى معاهد بطرسبورج التعليمية -
المعهد الوطنى ، وبعد ذلك جامعة بطرسبورج . وهنا ،
ولا سيما فى الاعمال الادبية ، قد حقق غوغول نجاحات
مشيرة مباشرة دفعة واحدة تقريباً .

وإذا كان كتاب غوغول الصغير الاول - وهو
القصيدة العاطفية «هانز كيوخيلغارتن» التى صدرت عام
١٨٢٩ تحت اسم مستعار ، هو ف . الوف قد انشأ
سخریات الصحفيين ، فإن الكتاب التالى - وهو مجموعة
«امسيات فى قرية قرب ديكانكا» من مجلدين صدرتا
١٨٣١-١٨٣٢ - رفعت مؤلفه الى عداد الكتاب الروس
الافذاذ . وقد كسب غوغول رأساً المهارة والنضج
واصالة الطريقة . لقد جسّد فنياً التجربة التى حصل

الملاحظة ، وتصوير التناقضات الاجتماعية الحادة ،
وتعارضات الحلم والواقع ، وفنطازية النكهة غير القابلة
للمحاكاة ، والشاعرية العميقة المروثي فيها طابعا حياتيا
غير مالوف ، ونمطية لتصوير غوغول لبطرسبورج .

وفي مجموعتي «ميرغورد» و«منمنمات» تكشفت بكل
حجها موهبة غوغول الهائلة وغنى سخريته وألقها .
وعندها ، وحسب اعترافه ، اتخذ هذا القرار : «إذا كنت
تريد أن تضحك فمن الاحسن أن تضحك بقوة ومما
يستاهل الضحك العام بالفعل» («اعترافات مؤلف»)
وهكذا انضمت الى فكرته في أن يكون «في خدمة
الدولة» فكرة الاشتغال في مجال الكتابة . وتوصل
غوغول الى استنتاج حاسم حدد كل مستقبله : يجب
البحث عن المنفعة الاجتماعية غير بعيد عن طريق
الكاتب ، لكن لا في العمل الوظيفي ، بل يمكن ايجاد
هذه المنفعة في عمل الكاتب نفسه ، والكاتب المعاصر ،
الكوميدي ، بشكل خاص .

في عام ١٨٣٦ ظهرت كوميديا «المفتش العام»
منشورة وممثلة على خشبة المسرح ، وقد صورت
بوضوح ، وكانها من خلال عدسة مكبرة ، حياة بلدة
صغيرة اقليمية . وكانت صورة هذه البلدة المتخيلة
واضحة للعيان عميقة المعاني وفي نفس الوقت تكساد
تكون من كثرة الدلالات الرمزية مما جعلها تترك أثرا
قويا جدا على المعاصرين ، وجلبت لؤلؤها لا استحسان
الاصدقاء فقط ، بل السباب اللفظ من قبل المعرضين .
ورغم ازعاج غوغول الشديد من هذه الشتائم ، الا انه

لا بعيد عن الطريق الذي سلكه ، وبيدا بتحقيق مشروع
اكثر ضخامة ، وهو قصيدة «الانفس الميتة» التي بداها
في وقت مقارب ليدته في «المفتش العام» أي حوالي
١٨٣٥ ، فضلا عن أن موضوعي هذين العاملين هما من
ايحاء الكسندر بوشكين .

قضى غوغول الفترة ما بين حزيران ١٨٣٦ ونيسان
١٨٤٨ خارج روسيا (في ألمانيا ، وسويسرا ، وفرنسا ،
وبلجيكا ، ولكن معظم هذه الفترة قضاء في ايطاليا) .
ولا يعود الى روسيا الا لفترة قصيرة ، لا تتجاوز بضعة
شهور ، مرة في عام ١٨٣٩ لترتيب أمور اخواته
الدواتي تخرجن من المعهد الوطني ، ومرة أخرى في
عام ١٨٤١ للقيام بنشر المجلد الاول من «الانفس
الميتة» (نشر في عام ١٨٤٢) .

وكان غوغول قد صرح في عام ١٨٣٦ بأن «الانفس
الميتة» ستكون من عدة مجلدات . وقد شبه الكاتب
المجلد الاول ب«مقدمة» القصر الذي اشيد» (من رسالة
مؤرخة في ١٧ آذار ١٨٤٢) . وحين صدر المجلد الاول
عرف القارئ من الفصل الحادي عشر أن القصيدة مكونة
من ثلاثة مجلدات («الجزان الكبيران يتبعان . . .»)

ورغم أن غوغول في الاربعينات نشر اعمالا جديدة
(من بينها نفائس قصة «المعطف» والعاملين المسرحيين
«خطوبة» و«المقامرون») الا أن حياته كلها كانت مكرسة
للعمل الرئيسي ، وهو اكمال «الانفس الميتة» ومن
جديد ظهرت الصفتان «اللغز» و«السر» ، وكانتا ، في
هذه المرة ، تعودان الى قصيدة غوغول هذه ، لأن

«الانفس الميتة» كانت موكلة بالكشف عن سر الحياة الروسية ، ورسالة روسيا في التاريخ المعاصر . وبذل غوغول جهداً هائلاً فوق الطاقة الانسانية في العمل على هذه القصيدة . وفي صيف عام ١٨٤٥ ، احرقت مخطوطة المجلد الثاني ، تعبيراً عن عدم رضاه عمداً انجزه .

ويكتب غوغول ، وهو يتحدث عن اسباب حرقها للمخطوطة : «ثمة ساعات لا يمكن فيها أن تحت المجتمع أو وحتى جيلاً كاملاً الى الرائع الجميل ، الا إذا اظهرت كل عمق وضاعته الراهنة . ثمة ساعات لا ينبغي فيها حتى التحدث عن الرفيع والرائع دون أن تشيّر بوضوح ، كوضوح النهار ، الى السبل والطرق التي يسلكها كل انسان اليه . وكانت هذه الناحية الاخيرة قليلة وضعيفة التطور في المجلد الثاني من «الانفس الميتة» ، بينما كان يجب أن تكون الرئيسية أو تكاد ولهذا احرقته» . («أربع رسائل الى أشخاص مختلفين بشأن «الانفس الميتة» ، الرسالة الرابعة) وبهذا الشكل كانت الصعوبات الناشئة مرتبطة بالهدف الرئيسي للمجلد الثاني . فقد كان يجب الاحتفاظ ب«جسام» الشخصيات ، وتحاشي الافتعال والمثالية في ذات الوقت ، والاقتراب من «الرفيع والرائع» في وعو القاري .

في عام ١٨٤٨ وبداية ١٨٤٩ عمل غوغول عملاً مكثاً في صيغة جديدة للقصيدة . وبعد سبعة أعوام ، في بداية ١٨٥٢ انفجرت أزمة

جديدة . في ليلة ١١ على ١٢ شباط يحرق غوغول في البيت الذي كان يسكنه في بولفار نيقيتسكي الصيغة النهائية للمجلد الثاني . وبعد عدة أيام ، في صباح ٤ آذار (٢١ شباط في التقويم القديم) فارق غوغول الحياة .

واخذ الكاتب معه الى القبر «سر» بقية القصيدة ، ومحتواها الذي تروى فيه المؤلف بسعة واستيعاب . والفصول التي سلحت من الجزء الثاني نشرت لأول مرة في عام ١٨٥٥ ، على شكل مجلد اضافي الى الطبعة الثانية لمؤلفات غوغول (الطبعة الاولى للمؤلفات صدرت في عامي ١٨٤٢-١٨٤٣) : «مؤلفات نيقولاي فاسيليفيتش غوغول التي وجدت بعد وفاته . مغامرة تشيتشيكوف او الانفس الميتة . قصيدة ن . ف . غوغول . المجلد الثاني (٥ فصول) ، موسكو ١٨٥٥» .

وجوهراً ما يؤلف «لغزية» غوغول هو أنه في ظاهره يبدو كاتباً بسيطاً جداً ، بينما هو ، في داخله ، في باطنه الخفي ، معقد جداً . يجب أن يقرأ غوغول في غاية الاهتمام ، دون التوقف عند الموضوع والحدث ، نافذين الى اصغر الدقائق والتفاصيل . كان الكاتب والشاعر الروسي الشهير والباحث الادبي أندريه بيل يقول ان المحتوى الغوغولي غارق في التفاصيل . وهذا بالطبع ، ينطبق ، بالدرجة الاولى على «الانفس الميتة»

أعقد أعمال غوغول . والطريق الى الطبقات العميقة
لمحتوى هذا العمل يمتد أيضا خلال أدق التفاصيل
والدقائق .

فلنوضح ذلك بمثال .

في الفصل المخصص للمالك مانيلوف توجد هذه
العبارات : «وقد كان في الواقع يقف ، في بعض الاحيان
في الشرفة وينقل بصره من الساحة الى البركة ويقول
لنفسه ، كم يكون رائعا في الحقيقة لو ان مرأى شو
تحت البركة ، وان ينصب جسر حجري فوق البركة
فجأة أيضا ، وان تقوم في لمح البصر حوانيت ، فيها
جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية» .

اذن ، جسر حجري فوق البركة ! يمكن ان يتصور
المرء (مثل هذه الاعتقادات موجودة بالفعل في ادب
غوغول) ان هذا التفصيل الصغير قد أوحى به للكاتب
انطباعاته الواقعية عن الحياة الايطالية - قنطرة
«ريالته» في البندقية او «بوتته فيكو» في فلورنسا .
الا ان الامر ليس كذلك ، فان السطور الواردة في
كتبها غوغول قبل سفره الى ايطاليا .

ان لوصف غوغول معناه الفريد الخاص به ، وهذا
المعنى قائم على محتوى القصيدة كلها .

وفي حقيقة الامر ان لجسرى البندقية وفلورنسا
المذكورين غاية معينة قائمة بذاتها . فالجسر القائم على
نهر (او قناة) هو مركز اتصالات . وساكن المدينة
يعبر هذا الجسر مرة في الاسبوع (وربما في اليوم)
وتلفت انتباهه الدكاكين الموجودة على جانبيه . ثم

ان هذين الجسرين جميلان جداً ، وكل من رآهما متيقن
من ذلك .

ولكن لصورة غوغول معنى مختلف تماما . فهل من
المصادفة ان الجسر الذي يتخيله مانيلوف غير قائم
على نهر ، بل على بركة لا تحتاج له طبعاً ؟ ومعنى ذلك
ان الباعة والمشتريين (الفلاحين ، وهذا تفصيل آخر
ليس قليل الاهمية عند غوغول) يجب ان يشوا على
الجسر خصيصاً ، ليقوموا بمشترياتهم . والجسر الضخم
المقام على البركة (مانيلوف يريد ان يبنيه من
الصخر !) هو في مغزاه الجمالي منظر سخيف وغير
معقول . وبهذه الطريقة يصير مغزى جسر مانيلوف بلا
غاية محددة ، وبلا معنى .

والموضع الذي اشرنا اليه يميز بناء القصيدة كلها .
بل يمكن القول ان هذا جوهر أسلوبها ، لانه قد ثبت
عمداً نوعان من انعدام الهدف في عالم مانيلوف
وتشيتشيكوف : اقتصادى صرف (عملي) وجمالي . وهما
في «الانفس الميتة» يتبعان كتيارين ، وأحياناً يتحدان
سوية .

ولتضرب مثلاً في انعدام الغاية الاقتصادية (العملي)
في بيت مانيلوف نفسه ، على الاقل ، ذلك البيت المقام
على «مرتفع متعزل مكشوف ، تضرب فيه الرياح من اى
ناحية هبت» . ومثال انعدام الغاية الجمالي هو بيت
مالك آخر ، هو سوباكيفيتش . فان كل شيء في هذا
المنبنى مريح وراسخ ، ولكن على حساب الجمال
والتناسق «فقد فشلت جهود المهندس القوية في جعل

اضافية . بينما سيرهتهم تشيشتشيكوف في مجلس
الرعاية باعتبارهم احياء ، ويحصل على مبلغ كبير من
المال .

ولكن الحقيقة أن كل ما يجري في القصيدة - وحدثها
الركزي (التلاعب الاحتمالي بالنفوس الميتة) متزعزع
ومشكوك فيه بنا فيه الكفاية . وهو مشكوك فيه
ليس فقط في المعنى الرفيع للخير الاجتماعى (طفيلية
تشيشتشيكوف لا تثير اى شك) بل ومن وجهة نظر
المنفعة الشخصية ايضا ، من وجهة نظر النجاح الفردى
للنصاب . فان «متاجرة» تشيشتشيكوف على مدى القصيدة
المنظور لم تؤدى الى النجاح المرتجى . فهو يغادر
البلدة على عجل عائداً من حيث اتى ، ولو انه لم
يفضح . وكانت في انتظاره في المجلدين التاليين ،
حسب المعلومات المتوفرة ، اتمام جديدة بل وخيبات
ساحقة جديدة . ومهما يكن المبلغ الذى ينزعه
تشيشتشيكوف من حين لآخر فان الهدف الاساسى يبتعد
عنه اكثر فاكثر ، مثل سراب في صحراء راضة ، وهذا
السراب قرين لمنشأة مانيلوف الفنطازية .

وغوغل يرتفع الى التعميمات القسوى ، وهو يبسط
صيغة السماجة الفروتسكية التى اكتشفها لتشمل
معيشة الانسان نفسها . وهكذا نجد سطوراً فلسفية
مريرة عن ضلالات الانسان وضياعاته : «فكم من الطرق
المعوجة المسدودة ، الضيقة ، المنيع المنحرفة بعيداً
اختارتها الانسانية فى سعيها للوصول الى الحقيقة
الازلية وكس من مرة ، حتى بعد أن تزودوا

قمة الهرم فوق مركز البناية لأن المالك ازال احدى
اعمدتها الاربعة الاساسية» .

وكلا المبنيين مشترك فى السماجة . والشاعريّة
الفروتسكية للسماجة شائعة فى «الانفس الميتة» الى حد
الدقة المبالغ فيها ، الى حد الكمال الفنى البالغ .
ويصير المظهر الخارجى للاشياء ، احداث السفر ،
وتأملات الشخصيات واقوالها مجالات لظهور اللامعقولة
والسماجة . وحماقة الانسان ، وغياب الفهم الاولي بل
والمنطق البدائى تحرز النصر تلو النصر . حين يستنتج
مدير البريد (الفصل العاشر - اجتماع عند مدير
الشرطة) أن تشيشتشيكوف هو الكاتبين كوبيكين ، غافلاً
تماماً أن كوبيكين هذا بلا رجل ولا يد ، بينما اطراف
تشيشتشيكوف كلها ، فى مكانها ، والحمد لله ، فانه
بذلك اقام مبنى ذهنياً غير معقول يشبه جسر مانيلوف .
ان شاعرية السماجة مرتبطة اوثق الارتباط بالحدث
والموضوع - شراء ، وبيع «الانفس الميتة» .

(يجب التوضيح هنا أن الفلاح فى ظل قانون القنانة
فى روسيا كان يمكن أن يباع ويشترى كشيء ، كملكية
غير منقولة . والى جانب ذلك كان عدد الفلاحين -
«النفوس المسجلة» - تثبت بقوائم خاصة توضع وتقدم
مرة كل بضعة اعوام . وفى الفترة بين تسجيل وتسجيل
يعتبر الفلاحون الموتى احياء ، بل وأن ملاكها ملزمون
على دفع ضرائب للسلطة . وعلى هذا الاساس بنيت
حسابات تشيشتشيكوف . فان المالك يتخلى له برحابة
صدر عن الفلاحين الموتى حتى لا يدفع عنهم تقوفاً

الأنفوس الميتة

رواية

بالرسالة المنزلة من السماء ، زاغوا وانحرفوا سواء ،
السبيل ، وقعوا من جديد وفي وضع النهار في مغازات
ثانية مسدودة ، وانزلوا من جديد غشاء العمى على
عيون بعضهم البعض ، منجذبين الى السراب الخادع ،
ووصلوا الى حافة الهاوية ، ليسال بعضهم بعضاً فيما
بعد : اين المخرج ، اين الطريق ؟ . . .»

وتكتشف علاقة مباشرة ، توافق مباشر بين الصور
الصغيرة التي ينتسب اليها وصف جسر مانيلوف ،
وتراكيب هذا العمل الرئيسية . وتكتشف الفكرة
الاصيلة الصادقة لقصيدة غوغول كلها ، وهي العلم
الملتهب بطريق حقيقى نزيه للانسانية وفضح شديده
للخطوات الكاذبة السمجة ، لكل ما يؤدي الى انحراف
مهلك عن هذا الطريق .

لقد وفي غوغول الكاتب بالكلمة التي اعطاها فسر
بداية حياته : « . . . صدقينى ، لقد كنت طوال حياتى
الى جانب الخير» .

يورى مان

المجلد الاول

الفصل الاول

انسابت الى باب فندق في مدينة «ن» عاصمة الولاية
عربة انيقة ، متوسطة الحجم ذات لوالب من النوع الذي
يقتنيه العزاب : الضباط المتقاعدون من ذوى الرتب
المتوسطة والضباط الصغار والملاك الذين يمتلك الفرد
منهم قرابة مئة نفس ، وباختصار ، كل الاشخاص الذين
يكونون الطبقة الوسطى . كان يجلس في العربة سيد
ليس بالجميل ولا بالقيبح ، ولا هو بالكثير السمعة ولا
بالكثير النحول ، ومع انه غير بالغ الكبر الا انه لم يكن
بالغ الصغر ايضا . ولم يثر وصوله ضجة في المدينة
ولم يُحدره حدثا خاصا ، سوى ان فلاحين كانا يقفان
صدفة امام حانة في الجانب المقابل من الفندق ، تبادلوا
بعض الحديث بشأن العربة لا بشأن الرجل الجالس
فيها . قال احدهما «انظر الى هذه العربة ، اتظن انها
بهذه العجلات ستتمكن من الوصول الى موسكو ؟» -
فاجاب زميله «أظن ذلك» . وسأل الاول «انا لا اظنها
ستصل الى قازان ، ايه ؟» فقال الثاني : «لن تذهب
بعيدا حتى قازان» . وبهذا انتهى الحديث . وعندما كانت
العربة تقترب من الفندق ، قابلها شاب يرتدى سراويل

الجوية ؛ اما النصف العلوي من العمارة فقد كان مطليا بالدهان الاصفر العادي الذي لا يبهت ؛ وكان فسي الطابق الاول حوائت تبيع لحم الخيل والحبال والكعك المدور . وفي نافذة الحائوت الواقع في الزاوية اطل بائع المسل المخمر بوجهه الاحمر وبالتقرب منه سماور نحاسي ، حتى يخيل الى من ينظر اليهما عن بعد ان في النافذة سماورين ، لولا ان لاحدهما لحية سوداء كالقار .

وبينا كان المسافر يتفحص الغرفة ، احضرت امعته اليها . احضرت اول الامر حقيبة من الجلد الابيض تدل رثانتها على انها قامت بعدد من الاسفار . وكان يحمل هذه الحقيبة رجلان : احدهما سيليفان ، حوذي السيد (وهو رجل صغيرة في معطف فرو) ، والآخر بيتروشكا ، وصيف السيد ، وهو شاب في حوالى الثلاثين من العمر ، يرتدى سترة مشعطة بالية ، يتضح انها كانت لصاحبه . وكان له اقف كبير وشفتان غليظتان وكان صارماً قليلاً . وتلا الحقيبة صندوق للمراسلات مصنوع من الخشب الاحمر مزين الاطراف ، ثم صندوق احذية ، ودجاجة مشوية ملفوفة بورقة زرقاء . وبعد ان تم ايداع كل هذه الاشياء ، انصرف السائق للعناية بخيوله ، وانصرف الوصيف الى مخدع صغير منزو مظلم كجحر الكلاب ، حيث كان قد اعد لنفسه عباءة لها رائحتها الخاصة وكيسا مملوا بالتياب وركسن الى الحائط . واقام السرير الضيق ، وغطاه بقطعة زهيدة من حشية - قطعة كالفطيرة في رقتها وتفاقتها (وربما

قطنية بيضاء ضيقة جدا ، قصيرة جدا ، ومعطفا طويلا على الطراز الحديث ، وقميصا معلق فيه دبوس برنزي على شكل مسدس . وادار الشاب راسه عندما مر بالعربة ونظر اليها نظرة فاحصة ، رفع يده بعدها ليمسك قبعته (فقد كادت الريح تقلب بها عن راسه) واستأنف السير في طريقه .

وعند وصول العربة باب النزول وجد راكبها خادم الفندق واقفا لاستقباله ، وكان هذا خفيف الحركة سريعها لدرجة يتعذر على المرء فيها ان يتبين طابع ملامحه . وهوول حاملا على يديه فوطه ، بمعطف مقسوم من اسفل المؤخرة يغطي ظهره التحيل حتى اعل عنقه ، وهز خصل شعره الى الوراء ، ورافق السيد الى الطابق العلوي عبر رواق خشبي ، ليريه غرفة النوم التي انعم الله به عليها . وكانت الغرفة المذكورة ذات منظر عادي جدا ، اذ ان الفندق كان من نوع الفنادق التي تعج بها عواصم الولايات والتي يستطيع المسافر فيها ، مقابل روبلين في اليوم ان يستحصل على غرفة تطل فيها الصراصير ، الشبيهة باجاص مجفف من جميع اركانها ، وذات باب مستور كالعادة بدولاب ويؤدي الى الغرفة المجاورة التي يسكن فيها جار صامت ، مرخياً اذنيه يتحرق شوقا لسماح كل هنة عن القادم الجديد . وكان مظهر الفندق الخارجى يدل على مظهره الداخلى : كان طويلا يتألف من طابقتين ؛ نصفه السفلى خلو من التبييض ، مما جعل الطوب الاحمر القاتم الذي كان مكثدا في الاصل ، يزيد اكمدادا تحت تأثير التغيرات

فى دهنها أيضاً) - لتلك التى تمكن من استجدائها
من صاحب النزل .

وبينما كان الاتباع يدبرون امورهم نزل السيد الى
قاعة الاستقبال العامة . وهذا النوع من قاعات الاستقبال
معروف لكل من يقوم بالانفسار . فلها جدران مطلية
دائما ، يعلو الاسوداد قسمها العلوى من اثر دخان
التبغ ويكتسب القسم السفلى لمعانا من احتكاك ظهور
الزبائن به ، وخاصة ظهور اولئك التجار المحليين
الذين يبدأون على اللجوء الى نزل البلدة أيام السوق ،
واحتساء كوبين معهودين من الشاي فيه . وقاعات من
هذا القبيل أيضاً ، لها فى العادة سقفو قدرة ، وثرىات
بالقدارة نفسها تتدلى منها علاقات تشب وتقرقع كلما
هرول الخادم فوق البساط الزيتى البالى ، حاملا معه
طبقا مليئا بالكزوس (وتبدو الكزوس كأنها سرب من
الطير جاثم على شاطئ بحر) ، ثم نفس المجموعة من
الصور الزيتية . وبايجاز ، هناك اشياء معينة يراها
المرء فى كل فندق . اما فى حالتنا هذه فقد كان ابرز
ظاهرة فى الغرفة صورة زيتية لحدوية برزت انداؤها
بحجم لا يمكن ان يرى القارى مثله فى حياته . تصوير
مماثل للطبيعة نراه فى الصور التاريخية التى حملها
الينا فى روسيا من ايطاليا فى وقت ما أناس مجهولون
بل ووجهاء فى بعض الاحيان يدعون انهم خبراء فى
الفن : وذلك ان الوجهاء المشار اليهم اشتروا ما اشتروه
بناء على ارشادات الدليل الذى كان يرافقهم فى السفر .
خلع مسافرنا قبعته ، ونزع عن عنقه لفاعا صوفيا

ملونا ، من ذلك النوع الذى تحيكه الزوجة لزوجها
بيديها وحينما تعطيه اياه توصيه وصايا معتبرة عن
كيفية طيه . والواقع ان العزاب ايضا يلبسون لفاعات
مماثلة ، لكنهم فى حالتهم هذه لا يعلم الا الله من الذى
حاكها لهم ! فانا لم البسها قط . وطلب السيد الغداء
بعد ان نزع اللفاع ، وبينما كانت الصحون المختلفة
رهن التحضير : حساء الكرنب وفطيرة لها من العمر
بضعة اسابيع ، وصحن من منغ مع بازلاء ، وصحن من
المقاتق مع الكرنب ، ودجاجة مشوية ، وبعض الخيار
المملح ، والكمكة التى تكون دائما فى محلات كهذه
تحت الطلب - اقول ، بينما كانت هذه الاشياء تسخن
او يجلب بعضها باردا ، جر السيد الخادم الى التحدث
عن نتف من الاخبار بشأن المالك الأخير للنزل ،
وشخصية صاحبه الحالى ، وكمية الدخل الذى يدركه
النزل . ورد الخادم على السؤال عن صاحب الفندق
بجواب يرد به دائما فى حالات كهذه ، وهو «ان معلمى
انسان نصّاب جدا يا سيدى» . ومن الغريب ان هناك
كثيرا جدا من الناس من الطبقة المستنيرة فى روسيا
كما فى اوربا المستنيرة لا يستطيعون ان يتناولوا
طعاما فى فندق دون ان يثرتوا مع الخادم فى الحديث
بل ويمزحوا معه احيانا . ومهما يكن من امر ، فلم تكن
جميع اسئلته بلا هدف . فقد سألته بدقة عن حاكم
الولاية وعن رئيس المجلس المحلى وعن المدعى العام .
وباختصار لم ينس موقفا ذا مكانة . وراح يسأله
ايضا بمزيد من التدقيق ان لم يكن من التعاطف عن

الشؤون الخاصة جداً للملاكين في تلك الناحية .
فسأله أيهم يملك اقتناها ، وكم نفساً يملك ؟ وعلى أية
مسافة من المدينة يقطنون ؟ وما هي شخصية كل مالك ؟
وهل له عادة التردد على المدينة ؟ واستفهم السيد مدققاً
عن الاوضاع العامة في المنطقة . وتساءل ان كانت
هناك امراض كحمايات متفشية ، او برداء مبيتة او جدري
او ما الى ذلك . وكل ذلك بتفصيل ودقة تخرج عن حدود
حب الاستطلاع المحض . الا انه ظل محتفظاً بهيبته ،
فكان بين الحين والآخر يتخط بصوت غايية في
الارتفاع . وكان يقوم بهذه العملية بطريقة مدهشة
جداً . فمع ان صوت انفه كان يشبه البوق في حدته ،
الا ان هذا الصوت ، باقترانه مع الكبرياء الاصيلة ،
كان يستثير احترام الخادم الشديد . وقد بلغ هذا
مبلغاً كبيراً جداً حتى ان الصوت لم يكذب يصل سمع
الاجير حتى يهز هذا خصل شعره الى الورا ، ويعتدل بكل
احترام ، ويسال من جديد - مع اعناء الراس ثانية -
ما اذا كان عند السيد رغبة في شيء آخر . وبعد الغداء
احتسى الضيف فنجان قهوة ، ثم جلس على الارىكة
وخلفه احدى الوسائد المكسوة بالصوف ، والموجودة
عادة في الحانات الروسية ، والتي تشبه الطوب او
الصوان . ثم اخذ يتناب وطلب ان يوصل الى غرفته ،
حيث استلقى بطوله على الفراش ، ونام مدة ساعتين
نوماً عميقاً . وافاق عندما دخل عليه الخادم طالباً اليه
ان يكتب اسمه ولقبه ومركزه على قصاصة من الورق
لارسالها الى الشرطة بحسب القانون ، ففعل . وانحنى

الخادم في العمر على قصاصة الورق ، وقرا فيها ما
يلي ، مقطعا مقطعا : بافيل ايفانوفيتش تشيشتيشيكوف -
مستشار ، ملاك ، مسافر في مهمة خاصة . ولم يكذب
الخادم ينهى قراءتها حتى انطلق بافيل ايفانوفيتش
تشيشتيشيكوف الى المدينة ليستطلع امرها . ويبدو انها
حازت على رضاه . وفي الحقيقة ، كانت على الاقل فسي
المستوى العادي لعواصم الاقاليم . وحيث لم تسر
مباني الحجر الاصفر عينيه ، كان يجد المباني الخشبية
ذات اللون الرمادي الاكثر اتزاناً . وكانت البيوت من
طابق او طابقين بعلياب دائما ، وهذا ما يفرم به
مهندسو الاقاليم ، فكانت تظهر وكأنها ضائعة فسي
الفسحة وفيما اختلط بينها من جدران لا نهاية لها .
وفي اماكن اخرى كانت تبدو دلالات اكثر من ذلك على
الحياة والحركة . وكانت البيوت هنا تتجمع فوق بعضها
البعض ، وعليها لوحات اعلان متهرقة ابلتها الامطار ،
متقوش عليها صور احذية او قطع حلوى او سراويل
زرقاء ، وقد كتب عليها «ارشافسكى - خياط» او ما
ماثل ذلك . وعلى محل صغير فيه مختلف القبعات كتب
«فاسيلي فدروف - اجنبي» ، بينما علق على ناحية اخرى
لوحة رسمت عليها طاولة بلياردو ولاعبان - وهذان
الاخيران يلبسان معطفين اسودين من النوع السذى
يرتديه - عادة - الضيوف الذين يدخلون المسرح في
نهاية الفصل الاخير . ومع ذلك فقد كان لاعبا البلياردو
السابقان يصوبان الى الهدف في اهتمام شديد ، باذرع
شديدة الالتواء ، وسيقان مائلة ادت لتوها حركات

راقصة في الهواء . وكان قد كتب في اسفل كل لوحة من هذا القبيل «هذا محل عال العال» . وفي بعض الاماكن في الشوارع موائد عليها اكوام من الجوز والصابون وكلمك الزنجبيل (والأخير يصعب تمييزه عن الصابون) . وعلى جدران احد المطاعم بدت سمكة سمينة انغرزت فيها شوكة . ولكن اكثر ما كان يشاهد على الجدران هو النسر ذو الراسين ، شعار الدولة آنذاك (بهذه المناسبة ، قد تغير الآن هذا الشعار الى صورة مختصرة لعانة) . اما بشأن ارضنة المدينة فقد كانت كلها على نسق واحد من السوء . واطل تشيتشيكيوف على حدائق البلدية التي لا تحوى سوى بضع شجيرات بالسة سيئة النمو تستندها دعائم ثلاثية مدهونة بالدهان الزيتي الأخضر الجميل ، وليس لها ما تزهو به من الطول اكثر من يراع عادي . الا ان الجرائد المحلية نشرت في المدة الأخيرة على سبيل الاحتفاء بها تقول «الشكر للحاكم الاداري الذي اصبحت المدينة بمجهوده غنية بالاشجار الظليلة الممتدة الاغصان . فهي تفرغنا بالظلال الوافرة حتى في اشد الايام حرا . وكم هو جميل حقا ان نرى قلوب المواطنين تنبض بعرفان الجميل ، متلما يتفرق الدمع في عيونهم اعترافا بما قدمه حاكمهم في سبيلهم» . وبالتالي ، بعد ان سأل تشيتشيكيوف شرطيا عن احسن السبل والوسائل للاهتمام الى الكاتدرائية والدوائر الحكومية والمحاكم المحلية وحاكم الولاية ، فيما لو احتاج اليها ، ذهب لكي يلقي نظرة على النهر الذي يخترق المدينة . وفي الطريق

نزع اعلانا ملصقا على عمود كي يتمكن من قراءته على راحته بعد رجوعه الى الفندق . وحدث ان كانت سيدة ذات منظر بهيج تسير في ممر خشبي جانبي بصحبة خادم يحمل لها متاعا ، فجاد عليها بنظرة طويلة ايضا . واخيرا لقي نظرة شاملة حوله (كما لو كان يريد ان يتبّت صورة المكان في دماغه) وعاد الى مقره . وهناك ، بمساعدة الخادم اللطيفة ، صعد السلالم الى غرفته ، وشرب قححا من الشاي ، وبعد ان جلس الى المائدة طلب شمعة . وما ان احضرت اليه حتى اخرج الاعلان من جيبه وقرّبه الى لهب الشمعة واخذ يدرس فحواه ، مغمضا عينه اليمنى بعض الاغماض . غير ان الاعلان لم يكن فيه شيء يستحق الاهتمام . فكل ما يتحدث عنه هو ان احدى روايات كوتزيبو * ستمثل قريبا وان شخصا معيننا اسمه بوبليفين سيأخذ دورا في الرواية . وهنا دور آخر ستأخذه المدعو زيل زيا بلوفا ، اما الادوار الأخرى فسيأخذها آخرون اقل شأنا . ومع هذا فقد تبسح السيد الاعلان بكل عناية واهتمام ، بل ولم يهمل أسعار التذاكر . ولاحظ ايضا ان الاعلان مطبوع في مطبعة حكومة الولاية . ومن ثم قلب الورقة على ظهرها ليرى اذا ما كان هناك شيء آخر للقراءة على الصفحة الأخرى . ولما لم ير شيئا فرك عينيه ووضع الورقة ثانية في محفظته التي يضع فيها كل ما تقع عليه يده . وانهى يومه

* كوتزيبو - مؤلف دراما العاني (١٧٦١-١٨١٩) .
الناسخ .

بقطعة من لحم العجل البارد وصحن شوربة من الكرنب
المكبوس ونوم عميق .

وكرس اليوم التالى للزيارات ، فزار جميع وجهاء
المدينة ، وزار حاكم الولاية زيارة بالغة الاحترام . وقد
تبين ان حاكم الولاية يشبه تشيتشيكوف نفسه من
حيث انه لم يكن بالسمين ولا بالنحيل . وكان يلبس
حول عنقه شريطا مع وسام آتا ، وقيل انه كان مرشحا
للحصول على وسام النجمة . وفيما عدا هذا كان طيبا
كبير القلب . ولكن له عادة تنتابه احيانا وهى التسلى
بتطريز الدنتلا . ثم زار تشيتشيكوف نائب حاكم
الولاية ، فبيت المدعى العام ، ورئيس المجلس المحلى ،
فئيس الشرطة ، فريس الجباة ، فالمدير المحلى
لمصانع الدولة . ان تذكر كل صغيرة وكبيرة فى عالمنا
هذا ليس بالامر البسيط . ولكن زائرنا على الاقل اظهر
منتهى النشاط فى عمله هذا بالقيام بالزيارات ، حتى
انه ذهب الى مفتش دائرة البلدية الصحى والى مهندس
المدينة المعمارى لتقديم واجبات الاحترام . وبعد
ذلك جلس فى العربة لوقت طويل مفكرا غارقا فى
التفكير فيما تستحسن زيارته من غير هؤلاء . ومهما
يكن من امر فهو لم يهمل وجيهاً واحداً ، وكان يجيبه
الملق فى حديثه مع مضيفيه ، كل على حدة . وقد لمح
لحاكم الولاية مثلا بان الغريب اذا وصل الى ولايته
يندك انه وصل الى الفردوس بطرقه المخملية . وقد
قال تشيتشيكوف «ان الحكومات التى توظف محافظين
قديرين لتستحق اجزل فروض المديح» وكذلك ، ابدى

بطلنا فى حديثه مع رئيس الشرطة ملاحظة بشأن الشرطة
المحلية كانت موضع عرفان الجميل . بينما اخطأ مرتين
فى حديثه مع نائب حاكم الولاية ورئيس المجلس المحلى
(وكلاهما موظف فى الدرجة الخامسة من الوظيفة) بان
ناداهما «يا صاحب السعادة» ، فراق لهما هذا الخطأ .
وكانت نتيجة هذا كله ان دعاه حاكم الولاية لزيارته
ذلك المساء ، وتلاه بعض الموظفين فدعوه واحداً بعد
الآخر ، احدهم للغداء ، والآخر لحفلة شاي وما الى
ذلك .

على اية حال ، فان المسافر لم يتكلم عن نفسه الا
القليل . واذا حدث ذلك ، فقد كان بصورة عامية
وباعتدال شديد . وقد كان فى الواقع ، اذا ما تطرق
الى هذا النوع من الحديث ، يتناوله بقلب ادبى .
فكان يروى انه غير جدير باى تقدير من اترابه ،
نظرا لكونه دودة لا يحسب لها حساب فى هذا العالم ،
وانه مر بتجارب غريبة عديدة فى زمانه ، وانه بنسأ
على ذلك قد عانى كثيرا فى سبيل الحقيقة . وان هناك
اعداء كثيرين يطلبون حياته ، وانه - طلبا للراحة -
يقوم الآن بالتفتيش على بقعة يستقر فيها . وحيث انه
عثر على هذه المدينة والى نفسه فيها ، فقد رأى من
واجبه الحتمى ان يقدم احترامه الى السلطات المسؤولة
فيها . كان هذا ولا شىء غيره هو ما عرفته المدينة عن
القادم الجديد فى تلك الاونة . ولم يضع - بالطبع -
فرصة تقديم نفسه فى حفلة حاكم الولاية تلك الليلة .
وقبل كل شىء ، على اية حال ، استفسر عن استعداده

حربته في اسراب جوية يحملها التسييم ، ويفتتم فرصة
 ضعف بصر العجوز وتوهج اشعة الشمس في عينيه ،
 فينتشر على قطع السكر زرافات ووحداناً ، ومع ان وفرة
 المشهيات التي يجدها في كل خطوة من خطواته تدعوه
 للدخول ، الا انه كان يدخل للتعريف بنفسه اكثر مما
 يدخل للاكل ، فيجرب استعراضاً على القالب وهو صاعد
 نازل عليه ، ويفرك ارجله الخلفية وارجله الامامية
 بعضها ببعض ، وينظف جسده مما تحت الجناح ، او
 يفرك ارجله الامامية فوق الراس ومن ثم يطير من
 النافذة ليعود بأسراب نهاية أخرى . وقد كان
 تسييتشيكوف في الحقيقة يبدأ بالنظر حوله حتى اخذه
 حاكم الولاية بالذراع ليقدّمه الى زوجته ، الا ان ضيفنا
 العديد الوصول احتفظ في راسه بما يكفى لكي يختلق
 ويفتتم بعض المجاملات ، وهو ما ينتظر تماماً من رجل
 متوسط العمر ، من طبقة ليست بالرفيعة جداً ولا
 بالوضيعة جداً . وبالتالي ، حين تشكلت الأزواج للرقص
 وتراجع بقية الجمع الى العائط ، طوى تسييتشيكوف
 ذراعيه وراءه واخذ لدقيقتين يتفحص الراقصين باهتمام
 متزايد . كان بعض السيدات يلبسن لباساً جيداً من
 طراز حديث ، اما بقيةن فكن يلبسن اخلاقاً هي ما يهب
 الله عادة لعاصمة الولاية . وكان الرجال هنا ايضا -
 كما هم في أي مكان آخر ينتمون الى صنفين مختلفين
 متمايزين : صنف يتألف من الرجال المشوقين الذين لا
 تكاد تميزهم ، عند تحويهم حول السيدات ، عن سكان
 العاصمة . فقد شذبت افوادهم في منتهى العناية ومنتهى

لهذه المهمة مدة تزيد على الساعتين ، واستلزم ان
 يعتنى بهندامه اعتناء قل ان يشاهد له مثل . وتفصيل
 ذلك ، انه بعد اغفائة قصيرة عقب العشاء ، طلب الماء
 والصابون وامضى وقتاً طويلاً في دعك خديه اللذين
 كان بغية ذلك يدعهما من الداخل بلسانه ، ثم فسى
 تجفيف وجهه الممتلئ المستدير ببطوة تناولها عسناً
 كتف الخادم . وقد نخر في وجه الخادم مرتين وهو يفعل
 ذلك ، ثم استقر اما المرأة ، ولبس قميصاً حقيقسي
 المقدمة كاذب الجوانب والمؤخرة ، وتنف من انفسه
 شعرتين بارزتين ، وخرج لابساً معطلاً رسمياً ذا لون
 احمر . ومن ثم ركب خلال الشوارع الواسعة الضئيلة
 الالوانة ووصل بيت حاكم الولاية فوجده يتلالا نورا كما
 تعد البيوت للحفلات الراقصة . وعلى الباب كانت عربة
 مشتعلة المصابيح ، وشرطيان متهيئان ، ولغظ السائقين
 وصياحهم . وكل ما يبعت الهيبة موجود كما يجب ان
 يكون . وما وصل الزائر الصالة حتى وجد نفسه مضطراً
 لاغلاق عينيه برهة وجيزة . فقد كان شديداً جداً ذلك
 البريق الخليط من المصابيح والشموع وملابس
 السيدات . كان كل شيء يبدو مخضباً بالثبور ،
 والمعاطف السوداء في كل مكان تيرق وتمرق - كما
 يحوم الذباب في يوم من ايام الصيف القانظ حول قالب
 من السكر ، حين تجلس ربة البيت العجوز امام النافذة
 المفتوحة لتقطع القالب الى مكعبات صغيرة فيتجمع
 حولها اطفال البيت ليراقبوا حركات يديها الخشتين
 وهما تهويان بالمدقة ، والذباب يدخل بشجاعة ويصل

الفن ، وفي غاية القبول بدت وجوههم البيضاء الحليقة ، وكانت غاية السلاسة طريقتهم في رعاية من يراقصونهم من السيدات ، وفي غاية الانطلاق حديثهم بالفرنسية حين يطرحون الاحاجى لصديقاتهم من النساء . كما في بطرسبورج . اما الصنف الآخر فيتألف من الأشخاص السمان او الذين هم في بنية تشيتشيكوف (اي ليسوا بالكثيرى السمنة ولا بالكثيرى النحول) . وهؤلاء تراجعوا او حادوا عن طريق السيدات واخذوا يحدقون هنا وهناك ليروا فيما اذا كان خدم حاكم الولاية قد اعدوا الموائد الخضراء للعبة الوست . كانت ملامحهم مليئة سميئة ، وكان لبعضهم تأليل ولم يكن اى واحد منهم يشعر اجعد او متوج او على الطراز الذى يسميه الفرنسيون «لياخذنى الشيطان» ، بل على العكس ، فقد كانت رؤوسهم اما طويلة او مشط الشعر عليها فقدت ملساء جدا . اما وجوههم فكانت مستديرة رصينة . وهذا الصنف يمثل اكثر الموظفين احتراما في المدينة . ويمكننى ان اذكر ، للاسف ، ان الرجال السمان في هذه الدنيا يثبتون دائما تفوقهم على اخوانهم النحاف في شؤون الاعمال . فالنحاف تمهد اليهم مهمات خاصة في الاكثر اذ يتقاضون رواتب على ذلك لا غير ويعملون ويتسكعون هنا وهناك ، وجودهم هوائى تافه هو خيبة الامل المحضة . وزيادة على ذلك ، فالسمان لا يجلسون في مقعد خلفى ، ولهم المقعد الامامى دائما ، ويجلسون بثبات وثقة اينما كانوا ، ويأبون التحرك حتى لو تفسخ المقعد وهوى تحت ثقل اجسامهم . وهم

لجمال مظهرهم لا يكثرثون ابدا ، ولهذا لا يستريح المظف على اكتافهم كما يستريح على اكتاف النحاف . الا ان السمان دائما يجعمون الثروة الكبرى . اما النحيف ففي ثلاث سنوات لن تجد عنده فلاحا لم يرهه . واذا نظرت الى السمين فستجد عنده قصرا في الضاحية مسجلا باسم زوجته ، ثم قصرا اكبر في ضاحية اخرى ، ثم ضيعة قرب المدينة ، ثم قرية واسعة فيها الخير كله . اى ان السمين ، بأرضاء الله وأرضاء الدولة يحوز على احترام الجميع . وتكون نهايته ان يعتزل العمل ويعيد تنظيم حياته من جديد ، ويصبح سيدا لطيفا يوزع الكرم ويحيا حياة بذخ ورخاء ، ويكون مصيره ان يخلّف ورثة نحافا بعد موته ، يستولون على املاكه ويبعزقونها بسرعة على العادة الروسية . انا لا انكر ان ما سبق وصفه يمثل الى حد كبير خلاصة ما كان يدور في مخيلة تشيتشيكوف عندما وقف يراقب الجمع . وكانت نتيجة هذه التاملات ان صمّم على الانضمام الى القسم الاسمن من الضيوف ، لا سيما وقد عرف بينها وجوها عديدة اليفة لديه ، منها وجه المدعى العام (وهو رجل بحواجب بارزة سوداء ونغمة ضعيفة في عينه اليسرى وكانها تغمز وتقول «تعال الى الغرفة المجاورة يا صديقى فعندى ما اقول لك» ، الا ان صاحبها غالبا ما يكون رجلا مهيبا صوتا) ، ومدير البريد (وهو شخص قصير الا انه ذكى وفيلسوف) ، ورئيس المجلس المحلى (وهو انسان على كثير من الدواعى) . حيا هؤلاء الرجال الثلاثة تشيتشيكوف وكأنه

أحد المعارف القدماء ، ورد على حياتهم بانحناءة جانبية فيها الكثير من التأهيل . وقد تعرف على ملاك شديد الألفة والتهديب اسمه مانيلوف ، وعلى ملاك آخر أكثر خشونة اسمه سوباكفيتش . وقد بدأ الأخير بالتعارف بعد أن داس بشدة على قدم تشيتشيكوف ثم رجاء العفو . ودعى تشيتشيكوف بعد ذلك إلى لعبة الوست فقبل الدعوة باحثة الرأس اللطيفة المعهودة . وحين جلسوا إلى المائدة الخضراء لم ينهضوا حتى موعد العشاء المتأخر . وفي هذه الفترة خيم الضمت على اللاعبين كما هي عادة الرجال عندما يكرسون أعصابهم لعمل ظهير حقا . حتى أن مدير البريد الترتار بطبيعته ، ما كاد يمسك الورق بيديه حتى يبدأ على وجه التفكير العميق ، وزم شفتيه ، وظل محافظا على هذه الصورة طيلة فترة اللعب . ولم يكن يتكلم إلا إذا لعب لعبة رابحة ، عندئذ كان يضرب المائدة بقبضة يده ، وإذا كانت الورقة الرابعة هي ملكة الورق يقول - «وبعد ، أيتها الكاهنة العجوز» ، أما إذا كانت الورقة الرابعة هي ملك الورق ، فيقول - «وبعد ، يا فلاح تامبوف» . وكان رئيس المجلس المحلي يرد دائما على هذه الصيحات ويقول - «آه ، امسكته من شاربييه ، امسكته من شاربيها» . ومن حوالى المائدة كانت تتعالى صيحات تنناسب مع اللعب ، تتخللها كنية أو أخرى يطلقها المشتركون في اللعب على الأوراق المختلفة . ولا أظن بى حاجة إلى القول بأن اللاعبين تشاجروا في نهاية اللعب ، وأن صاحبنا اشترك في الشجار . وقد فعل

ذلك بكل حذق ودراية بحيث جعل كل من رآه ، عسى الرغم من دوره الفعال في الشجار ، يعتقد أنه قام بدوره هذا في اللف اسلوب مستطاع . فلم يكن يقول للاعبين قط «لقد لعبت الورقة الغلانية» . لا ، بل أنه كان يستعمل جملا كالتالية - «لقد سمحت لنفسك بلعب الورقة الغلانية» ، ولقد ظل في الحقيقة محافظا على الوداد بينه وبين منافسيه ، يقدم لهم عليه السعوط المطلية بالفضة (وقد وضع في قعرها زهرتى بنفسج لرائحتها الجميلة) . وقد وجه القادم الجديد اهتمامه إلى الملاكين مانيلوف وسوباكفيتش المذكورين سالفا واستفسر عنهما في الحال حين تمنى برئيس المجلس ومدير البريد . ودلت الاستمالة التي وجهها إلى هذين الملاكين لا على حب الاستطلاع وحسب ، بل على قدر من الذكاء العميق . فقد بدأ بالتساؤل عن عدد الأنفس التي يحملها كل منهما ، وكيف تسير أمورهما حاليا ، واخذ يستطلع عن اسميهما وعن عائلتيهما . وفسى الحقيقة ، لم يستغرق وقتا طويلا حتى خلب عقول اصداقائه الجدد خلبا جميلا . أما مانيلوف بالذات - وهو رجل لا يزال في عتوانه وله عيتان فسى حلاوة السكر تفضضان كلما ضحك - فقد وجد نفسه غير قادر على إبداء الكفاية من إعجابيه ، فتوسل إليه - وهو يحضن تشيتشيكوف احتضانًا طويلا - أن يشرفه بزيارة في بيته الريفي الذي قال أنه يقع على بعد لا يزيد عن خمسة عشر فرستا* من حدود المدينة . وأكد

* قياس طول روسى يساوى ١٠٦ كيلومتر . الناشر .

له تشيشتشيكوف رداً على ذلك (بانحناءة هي في منتهى اللطافة ومصافحة ترحم بغاية الاخلاص) انه ليس مستعداً لتنفيذ مشيئته وحسب ، بل انه يرى نفس تنفيذ هذه المشيئة واجباً مقدساً . وقال لـه سوباكيفيتش على طريقته الخاصة وبايجاز «اتزورنى؟» وراح يحرك حذائيه الكبيرين اللذين بلغت ضخامتهما درجة يصعب ان تجد زوجا بحجمهما - خاصة في هذه الايام التي اخذ فيها الابطال القصصيون الخرافيون في روسيا بالانقراض .

وفي اليوم التالي ذهب تشيشتشيكوف مليببا دعسوة عشاء وقضى المساء في بيت مدير الشرطة ، حيث جلس كل فرد فيه بعد العشاء منذ الساعة الثالثة للعبة الوست وظل في جلسته اياها حتى الساعة الثانية صباحا . وفي هذه الفرصة كان من بين من تعرف عليهم تشيشتشيكوف ملاك يسمى نوزدريف ، وهو انسان مرح في الثلاثين من عمره . ولم يكذب يتبادل معه ثلاث كلمات او اربعا حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثاني . ومع انه فعل الشيء نفسه مع مدير الشرطة والمدعى العام ، الا ان الجمع لم يكذب يستقر في المقاعد على مائدة اللعب حتى بدا هذان الموظفان يراقبان لعب نوزدريف باهتمام ويدققان في كل ورقة يلعبها . واضى تشيشتشيكوف المساء التالي عند رئيس المجلس المحلي الذي استقبل ضيوفه برداء بيتي متسخ مع ان بين الضيفوف سيدتين . وتبع ذلك مساء في بيت نائب حاكم الولاية ، وحفلة عشاء كبيرة في بيت رئيس الجبابة ، وحفلة اصغر

في بيت المدعى العام وهي حفلة كبيرة في الحقيقة ، وحفلة استقبال عند رئيس البلدية . وباختصار ، لم يجد تشيشتشيكوف ساعة واحدة في اليوم يضطر الى قضائها في نزله ، ولم يعد رجوعه الى المنزل ضروريا الا في ساعات النوم . وكيفما كان الامر فقد استقر به النوى ، وظهر في كل مكان على انه رجل حنكته الحياة . فقد كان دائما يحافظ على ان يكون له نصيب فسي الحديث ، لا يعيقه عن ذلك مهما كان موضوع الحديث . فلما دار الحديث عن تربية الخيول ، فمن تربية الخيول خاصة فهو اهل للكلام . ولو دار عن الكلاب المدربة ، فله في الحال رأى جدى في هذا الموضوع . ولو تطرق الكلام الى محاكمة قضت فيها حديثا محكمة التمييز ، ففي الترو يظهر انه غير جاهل في شؤون القانون . ولو ابدى رأى بشأن البلياردو ، فقد كان باستطاعته في هذا الموضوع ان يتحاشى اى خطأ . ولو اثير حديث عن الفضيلة ، فمن الفضيلة يفيض بحديث يستنزف الدمع من كل عين . ولو كان موضوع الجدل عن تقطير الخمر ، اجل ، فهذا امر عنده فيه العلم الصحيح . ولو ذكر احد موظفي الجمارك او احد المفتشين ، ففي اللحظة يسهب في الحديث كما لو كان موظفا في الجمارك او مفتشاً . الا انه كان عنده امر ملحوظ ، وهو قدرته على ان يجعل كل شيء جديا وكان يستطيع كبح جماح نفسه في اثناء الحديث ، وهو في سبيل ذلك يتكلم لا عاليا جدا ولا منخفضا جدا ، ولا يزيد عما يكسبون مناسباً . بكلمة واحدة ، كان سيدا ذا طبائع متميزة ،

الشايع - وقتاً ممتعاً . وصمم أخيراً على أن يمد نطاق زيارته الى خارج حدود المدينة بالذهاب الى الملاكيتين مانيلوف وسوباكيفيتش نظراً الى أنه وعدهما بشرفه ان يفعل ذلك . الا ان ما دعاه في الحقيقة الى هذا الامر قد يكون سبباً أكثر ضرورة وهدفاً اشد خطورة وغرضاً اقرب الى قلبه من السبب الذي ذكرت وسيحيط القارى' علماً بهذا الغرض اذا كان لديه من الصبر ما يقرأ به هذا الاستهلال القصصى الذي مهما بدا طويلاً الا أنه قد يتسع ويزداد طولاً كلما قاربنا العقدة التي قدّر ان يتّوجّج بها هذا الكتاب . وعلى ذلك فقد تلخّص الحوذى سيليفان ذات مساءً امراً باعداد الخيول في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ؛ بينما تلقّسى بتروشكا امراً بالتخلف للعناية بالحقيبة والغرفة . وقد يرغب القارى' هنا في التعرف على الخادمين المذكورين . طبعاً لم يكونا من الشخصيات التي تستحق الذكر بل مجرد من يسميهم الناس شخصيات ثانوية ، او حتى اقل من ذلك شأناً . وبالرغم من أن جوهر القصة ومحورها لا يعتمد عليهما بل سيمسهما مساً رقيقاً فقط او قد يشملهما احياناً - الا أن للمؤلف رغم روسيته غراماً في التفصيل ورغبة في الدقة كما عند الالمانى . فمن الضروري اذن أن نزيد قليلاً على ما عرفه القارى' عن أن بتروشكا كان يرتدى عادة سترة بُنية منبوذة اصلاً بحجم كبير عليه جداً ، وكان له أيضاً - كما هي عادة من هم في صناعته - زوج غليظ من الشفاه ، واقف بارز جداً . وكان بطبعه صموتاً اكثر منه ثرثاراً ،

وكان كل موظف يفرح بوصول الوجه الجديد . وكان راي حاكم الولاية في تشيستشيكوف انه رجل ذو اهداف سامية ، وراى المدعى العام انه رجل اعمال بارع ، وراى عقيد الدرك انه رجل مثقف ، وراى رئيس المجلس المحل انه دمث الاخلاق مهذب ، وراى رئيس الشرطة انه انسان محترم ومتأدب ، ورات زوجة رئيس الشرطة ان ادب سلوكه لا يعادله الا حسن تربيته . بل ان سوباكيفيتش الذي كان من مبدئه ان لا يذكر الناس بالحسنى الا نادراً ، قال لزوجته الهزيلة عند عودته متأسراً من المدينة ، وبعد ان خلع ملابسه ليتمدد بجانبها على الفراش «تناولت العشاء هذا المساء عند حاكم الولاية ، وذهبت الى بيت رئيس الشرطة ، وهناك قابلت من بين المدعويين شخصاً اسمه بافيل ايفانوفيتش تشيستشيكوف ، وهو من متوسطى الاعيان ، وله شخصية محببة جداً . واجابت زوجته على ذلك قائلة «م-م-م» ولكرته بقدمها .

هكذا كانت آراء المديح التي جناها القادم الجديد في المدينة . وقد ظلت هذه الآراء على ما هي عليه حتى حدثت حادثة غريبة (سيعرفها القارى' فيما يلي) اغرقت سكان المدينة في بحر من الحيرة .

الفصل الثانى

عاش الزائر في المدينة ما يزيد عن اسبوع وسط اللولم والحفلات ، حيث امضى - على حد التعبير

«الشیطان وحده يعلم ما بك . انك بلا شك تحرق كثيراً ، اليس كذلك ؟ وأفضل ما يمكن أن تعمله هو أن تذهب فتستحم» . ولم يكن بتروشكا يجيب على هذا الكلام بشئ . ويعاول أن يشغل نفسه بعمل ما ، كان يقرب والفرشاة في يده الى حيث يكون معطف سيده معلقاً ، او يأخذ بترتيب شئ من الأشياء . بماذا راح يفكر في صمته هذا ؟ ربما كان يقول لنفسه «وانت ما تمرك ، الا تمل من اعادة هذا الكلام اربعين مرة» . لا يعلم ولا يرى كل شئ ، غير الله ، ولهذا فمن السهول اطلاقاً أن يعلم كائن بشري كل ما كان يدور في عقل الخادم عندما يعنفه سيده . ومهما يكن من امر ، فلا حاجة بنا مبدئياً الى زيادة في القول عن بتروشكا . اما من الناحية الاخرى ، فكان الحوذى سيليفان شخصاً آخر . . .

ولكنى اود ان اذكر هنا اننى لا احب ان اشغل بال القارى بشؤون اشخاص هم من طبقة احط من طبقتهم ، فقد علمتني التجارب ان لا رغبة لهم في التعرف على الطبقات الدنيا ، وان من طبع الروسى العادى ان يتعرف على اشخاص في درجات السلم الاجتماعى العليا . وفي الواقع فان تعرفه على امير او كونت ، حتى ولو بانحائه لهما ، يعتبر في نظره اهم كثيراً من العلاقات المتينة بينه وبين الناس العاديين . ولهذا السبب نفسه فان مؤلف القصة يشعر بالخوف على بطله لا سيما وقد جعل هذا البطل من متوسطى الاعيان فقط - اى مجرد شخص قد يانس اليه كبار الاعيان ، ولكن من كانوا

وبه ميل الى تنقيف نفسه . اعني انه كان مغرمًا بقراءة الكتب وان لم يكن لديه فرق بين محتوياتها ، سواء منها كتب المغامرات البطولية او الحب او كتب الصرف والنحو او الكتب السماوية المقدسة . وكما اقول ، فقد كان يتتبع كل كتاب وقع بين يديه بالدرجة نفسها من الاهتمام ؛ ولو قدّم اليه كتاب في الكيمياء لقبه ايضاً . كان مجرد السلوى التى يستمدها من فعل القراءة - لا الكلمات التى يقرؤها - هو ما يرتاح اليه عقله . على انه في اية لحظة قد تبرز له في الصفحة الواحدة كلمات شيطانية لا يفرق فيها بين الرأس والذنب . وكان في الغالب يقوم بمهمته هذه وهو مضطجع في مخدعه ؛ وهذا ما ادى بفراشه الى ان يصبح كالفطيرة الرقيقة ، وبلاضافة الى حبه الانكباب على الكتب ، كان يزهر بعادتين هما ميزتان اخريتان اساسيتان في تكوين شخصيته : اولاهما عاداته في ان ياوى الى مضجعه بملابسه (اى بالسترة البنية السالفة الذكر) ، والاخرى في ان يحمل حيث ذهب جوه الخاص ورائحته الخاصة - رائحة بلغت من الاختصاص به مبلغاً كبيراً حتى انه ما يكاد يتحسب فراشه ويجلب معطفه الى مكان ما - حتى لو كان مسكناً جديداً لم يقطنه احد بعد - حتى تنبعث رائحة تدل على انه كان عامراً طوال السنين العشر الخوالي . ومع ان تشبثه سيكوف رجل متائق - او بالاحرى سريع الانفعال - غير انه اذا التقت خياشيمه هذه الرائحة مع اريج الصباح يقطب اساريره فقط ويهز راسه ويقول :

برتبة جنرال سينظرون اليه نظرتهم الى كل من لا يتذلل تحت اقدامهم الجليلة . واسوا من ذلك ، فان اشخاصاً كهؤلاء ممن يحملون رتبة جنرال ، من المحتمل ان يعاملوا تشيتشيكوف باعمال مقصود ، والاهمال المقصود ينث الموت للمؤلف . مهما يكن من امر ، وعلى الرغم من القنوط الذي توحيه الاحتمالات السابقة ، فقد حان الوقت لان اعود الى بطل . فبعد ان امل عمل الخدم اوامره الليلية الضرورية ، نهض ميكراً واغتسل ، ودعك نفسه من الرأس الى القدم باسفنجة مبتلة (وهو امر كان يقوم به كل يوم احد فقط ، وقد حدث ان كان ذلك اليوم بالصدفة يوم احد) وحلق وجهه بعناية حتى اخذ خدها يشرقان اشراقة الحرير اللعاب ، واصبحا ناعمين نعيمته ، وارتدى اولاً معطفه الرسمي بلون التوت ، ومن ثم وضع معطفه المصنوع من جلد الدب وراح نازلاً على السلم والخادم طوال هذه الآونة واقف على خدمته ودخل العربية . وبقرفة عالية انطلقت العربية من الفندق الى الشارع . ورفع كاهن قبعته اذ مرت العربية عليه ، واخذ بضعة من الصببية بملابس كنيية يصيحون طلباً لشيء من الاحسان لليتامى . ولكن السائق لمح نذلاً منهم يوشك ان يتعلق برغرف العربية ، ففرق بسوطه فقفزت العربية بسرعة متزايدة على الارض المبلطة . واخيراً تنفس المسافر الصعداء عندما لمح عن بعد بداية الطريق الحصباء التي تبشره بنهاية الطريق المبلط ونهاية متاعب اخرى شتى . ولم يكن تشيتشيكوف يصدق ان يرى نفسه والعربة تدرج به

على الطريق المستوية بعد ان انخبط رأسه بصندوق العربية عدداً غير قليل من العرات . وما كادت المدينة تتباعد في الافق حتى اخذت جنبات الطريق تعرض مناظرها المختلفة من الاكمام المألوفة واشجار الشربين وخنازل الصنوبر الصغيرة والاشجار الهرمة ذات الجذوع الجرحمة واينكات العرعر البرى ، وما مائل ذلك . وسرعان ما لاحت للابصار البيوت الريفية المتسلسلة التي كانت قريبة الشبه باكوام العطب نظراً لدعاماتها المائلة وسقوفها الرمادية التي كانت تدل من الجوانب كما تدل الملاة على اطراف المائدة . وبالمثل فقد كان الفلاحون بعاطفهم المألوفة المصنوعة من جلد المعزى يجلسون كالعادة متتائبين على مقاعد نصبت امام اكوامهم ، بينما اطلت تساوهم ذوات التقاطيع الممتلئة والنهود الملتفة من الشبايبك العليا ، اما الشبايبك السفلى فقد بدا من احدها عجل متطلع ، ومن الآخر بدا فكاً خنزير قبيحان . وباختصار ، كان المنظر من المناظر العادية المألوفة . وبعد ان مر تشيتشيكوف بالحجر الذي نقشت عليه علامة الخمسة عشر فرستا تذكر فجأة ان المسافة بين بيت مانيلوف الريفي وبين المدينة هي خمسة عشر فرستا تماماً كما قال له مانيلوف بنفسه . لكن علامة الفرست السادس عشر مرت أيضاً دون ان يظهر أى اثر للقرية . وفي الحقيقة لو لم يقابل المسافر فلاحين في الطريق لذهبت مهمته من الرحلة عتياً . ورداً على ما اذا كانت قرية زامانيلوفكا تقع في تلك الضواحي ، خلع الفلاحان قبعتيهما ، ومن ثم اتبري

احدهما ويبدو انه معتز بذكانه اكثر من زميله وله
لحية تشبه الاسفين ، وقال :

- ربما كنت تعنى مانيلوفكا - لا زامانيلوفكا ؟
- اجل ، اجل ، مانيلوفكا .

- مانيلوفكا ، اية ؟ عليك ان تتابع السفر فرستا
آخر ، وعندئذ ستراها امامك مباشرة الى اليمين .
فردد السائق الصدى يقول «الى اليمين؟»

فاكد الفلاح قائلا «نعم الى اليمين . انك فى الطريق
الصحيح الى مانيلوفكا ، لكن زامانيلوفكا - لا وجود
لمكان بهذا الاسم . فالقرية التى تعنيها تدعى مانيلوفكا
لان اسمها مانيلوفكا ، لكن لا وجود لقرية باسم
زامانيلوفكا . والبيت الذى تعنيه يقع هناك على تلك
الرابية ، وهو بيت مبنى من حجر ذو طابقين يعيش فيه
سيد ، اسمه مانيلوف . ولكن زامانيلوفكا غير موجودة
فى هذه النواحي ، ولم تكن موجودة فى يوم من الايام .
وهكذا شرع المسافرون فى التفتيش عن مانيلوفكا .

وبعد ان ساروا فرستين آخرين وصلا الى بقعة تتشعب
منها طريق فرعية . غير انهم ساروا فى الطريق الفرعية
فرستين وثلاثة ثم اربعة قبل ان تلوح لهم اولى علامات
البيت الحجرى ذى الطابقين . عندئذ تذكر تشيتشيكوف
فجأة ان الصديق اذا دعا صديقه الى زيارته فى بيته
الريفى وقال له بان المسافة اليه خمسة عشر فرستا
وجب ان يفهم من ذلك ان المسافة لا تقل عن الثلاثين .
ان موقع قرية مانيلوف لا يحلو لكثير من الناس ، وكان
بيت السيد على مرتفع منعزل مكتشف ، تضرب فيه

الرياح من اى ناحية هبت . وعلى سفح المرتفع زرع
حشيش اخضر جار المقص عليه فى التقطيع ، بينما
انتشر هنا وهناك حوضان او ثلاثة احواض من الزهور
على الطراز الانجليزى فيها اضغاث من البنفسج والطلح
الاصفر . وكانت هناك ايضا خمس او ست من اشجار
البتولا ذات ذرى هزيلة الاوراق . وتحت اثنتين من
هذه الاشجار عريش بقبة مسطحة خضراء ودعائم خشبية
مدعونة باللون الازرق ، ولوحة كتب عليها «هذا معبد
التفكير الوحيدانى» . وعند اسفل السفح كانت بركة
مظلمة باللون الاخضر - فالبرك ذات الطلاء الاخضر هى
المنظر المألوف المتكرر فى حدائق الملايين الروس
وعند سفح المرتفع وفى بعض المواضع من منحدره
تمتد سلسلة من الاكواخ المبنية من جذوع الاشجار ،
والتي ابتدا بطلنا - لسبب لا يعلمه احد -
باحصانها . وقد احصى مئتين او اكثر ولكنه لم يشاهد
بينها عرقا واحداً اخضر . كل ما كانت تقع عليه العين
هو جذوع الاشجار التى بنيت منها تلك الاكواخ . لقد
كان المنظر كثيباً حقا لولا امراتان فلاحتان رفعتا ذيل
ملابسهما بشكل يسترعى الانتباه ، واخذتا تغوضان فى
ماء البركة حتى ركبتيهما ، وهما تجران شبكة صيد
متفرقة ذات مقابض خشبية وقد «علق» بين ثناياها
سرطانان واسماك صغيرة نهربية بقشورها البراقة .
ويبدو ان المرأتين كانتا على خصام شديد لسبب ما لان
العجل العاد كان قائماً بينهما . ومع الاتفاق على احدى
ناحيتى البيت كان يبدو شبح غابة الصنوبر الازرق

الاغبيش . وحتى الطقس كان منسجماً مع تلك الظروف ، فلم يكن اليوم بالصافي ولا بالغائم ، ولكن السماء كانت مكسوة باللون الرمادي الذي نمهد في ملابس الجنود الحرس الذين قضوا في الخدمة عهداً طويلاً وتعودوا السكر أيام الأحاد . واكتمالا للوحة التي وصفناها ، كان الديك نذير التقلبات الجوية ، موجوداً . ومع ان 'عُرفه' كان عارياً ، نظراً الى ان الديوك الأخرى قد تنفتحه لأمور تتعلق بالشهامة ، الا انه زفر بجناحين أجردين كبرقع قديم ، وزعق بالصوت عالياً . وما ان اقترب تشيتشيكيوف من البيت حتى وقع بصره على مضيئه مرتدياً معطفاً رسمياً أخضر وواقفاً على الشرفة ، واضعاً إحدى يديه على عينيه لكي يقيهما اشعة الشمس ، ويصبح في امكانه ان يستوضح العربة القادمة . وبالقدر الذي كانت فيه العربة تقترب من الشرفة كان يبدو الابتهاج في عيني المضيف وتزداد ابتسامته عرضاً .

وما كاد يقع نظره على تشيتشيكيوف وهو يهبط من العربة حتى صاح قائلاً « بافيل ايفانوفيتش . لم يكن يدور بخلدي اننا سنخطف لك على بال » .
وتعاقب الصديقان عناقاً حاراً ، ثم قاد مانيلوف ضيفه الى قاعة الاستقبال . وسوف اغتئم الفترة القصيرة التي سيقتضيانها في اجتياز القاعة والغرفة الامامية وغرفة الطعام ، لاحاول ان يتحدث شيئاً عن رب البيت . ولكن امراً كهذا مليء بالمصاعب ، وهو اكثر سهولة من تصوير شخصية من الشخصيات البارزة التي لا تحتاج عنده

رسمها الا الى اخفاء شتى الألوان عليها ، كان تقول :
العينان سوداوان ملتهبتان والحاجبان غليظان ناتئتان والجبهة تعلوها التجاعيد والعباءة سوداء او حمراء قانية مرمية على الكتف ، وما الى ذلك . اجل ان ملاكي الاقناب الروس كثيرو العدد جداً ، ومتشابهون ، ومع ان دراستهم العميقة المتفحصنة ستبيد لنا خصائص غريبة عديدة للأفراد منهم ، الا ان وصفهم من الصعوبة بمكان عظيم . وعلى من اراد ذلك ان يستنزف جهده العقلي حتى آخر قطرة قبل ان يصبح في استطاعته معرفة ملامح الوجه الدقيقة التي لا تكاد ترى والتي تميز بها هذه الطبقة . وباختصار ، يتحتم على المرء ، قبل ان يقوم بهذا العمل ، ان يسير غور هذا الموضوع اهدأ طويلاً بفطنة حادة ونظر بعيد عميق .

الله وحده يعلم حقيقة شخصية مانيلوف . ان هناك فئة من الناس ينطبق عليها المثل القائل « لا هو في العير ولا في النغير » . لهذه الفئة يجب ان ننسب مانيلوف . كان مظهره الخارجي على قدر كبير من الوسامة لا يتقصه شيء من اللطف ، ولكن هذا اللطف مضاف اليه قسم كبير من عنصر السكر ، بحيث اصبحت كل لمحة من لسعته وكل وضع من اوضاعه تدل على رغبة في التعارف وشوق لربط اوامر الوداد .

كان ذا ابتسامة مغرية وشعر اشقر وعينين زرقاوين واذا ما بدأ المرء بالحديث معه ، فان ابتسامته المحببة وشعره الكتاني وعينيه الزرقاوين تجعل المرء يقول عنه في اللحظة الاولى « ياله من رجل لطيف محبوب » ، لكنه

كان يهتم بأمور مزرعته لا في الكثير ولا في القليل ،
لانه لم يذهب لتفقدتها قط ، وكانت المزرعة عملياً
هي التي تدير نفسها . واذا قال له مأمور املاكه يوماً
«قد يكون من المستحسن ان نعمل الشيء الفلاني»
اجابه قائلاً ، «نعم انها فكرة لا بأس بها» ثم ياتخذ في
تدبير غلبونه - وهي عادة اكتسبها اثناء خدمته في
الجيش حين كان اترابه ينظرون اليه على انه ضابط
محترم مرفق رقيق العاشية . ومن ثم يكرر قائلاً «نعم
انها فكرة لا بأس بها» . واذا ما جاء يوماً فلاح واقتررب
منه وهو يحك مؤخرة عنقه وقال «سيدي ، اتسمح لي
باجازة لكي اذهب واشتغل لنفسى حتى اجمع ضريبتى»
كان يجيبه حالاً بقوله ، «اجل ، اذهب» ولئن يتعجب
نفسه في التفكير عما اذا كان هدف الفلاح الحقيقي
الذهاب للسكر في الحانة . وقد كان في الواقع يقف ،
في بعض الاحيان في الشرفة وينقل بصره من الساحة
الى البركة ويقول لنفسه ، كم يكون رائعاً في الحقيقة
لو ان مرراً شق تحت البركة ، وان ينصب جسر حجري
فوق البركة فجأة ايضاً ، وان تقوم في لمسح البصر
حوانيت ، فيها جميع مستلزمات الفلاحين الضرورية .
وفي لحظات كهذه تبدو في عينيه علامات النصر وعلى
ملامحه امارات الرضى العميق . غير ان هذه المشاريع
لم تتمد مرحلة التأمل اطلاقاً . وبالمثل ، ففي مكتبته
كتاب مقلوب ابدأ على الصفحة الرابعة عشر . انه
الكتاب الذي كان ولا يزال يقرأ فيه في السنتين
الاخيرتين ! اما قصره الجميل فكان يبدو ان هناك شيئاً

في اللحظة التالية سوف يشعر بأنه غير راغب في ان
يقول شيئاً ، اما في اللحظة التي تلى ذلك فلن يجد
امامه ما يقول الا «السيطان وحده يعلم ما هو هذا
الانسان» . واذا لم يسرع المرء بتركه لسبب من
الاسباب فما لا شك فيه انه سوف يحس بذلك
السام القاتل الذي يشعر به كل انسان اذا ما عرف ان
ليس هناك من جديد او طريف في وضع من الأوضاع
وان عليه ان لا ينتظر اية كلمة حية او متعجرفة يتدفق
من شفتى انسان آخر اكتشفت هويته . ولكل انسان
هواية . فهواية البعض تربية الكلاب ، وهواية آخسر
الاعتقاد بأنه محب للموسيقى وان باستطاعته ان يسير
هذا الفن الى غوره ، وآخر ان يظهر بمظهر الخبير بانواع
المأكولات الطيبة ، وهواية آخر الطموح في ان يلعب في
هذه الحياة دوراً اكبر من ذلك الذي خصصته له
الطبيعة ، وهواية آخر (وهذا اقل طموحاً) قد تكون في
النوم ليحلم - انه ينتزه في الشارع مع ضابط كبير
امام ابحار اصدقائه وغير اصدقائه ، وقد تكون هواية
آخر ان تصيح يده قادرة على خدش طرف الأس فسى
اوراق اللعب ، وقد تكون هواية انسان آخر ان يضع
الامور في نصابها ، ويتقرب من شخصية مدير محطة
تبديل الخيول او الحوذية . وباختصار لكل انسان
هواية وميل - الا مانيلوف ، فلم يكن له شيء من
هذا القبيل . فقد كان في البيت قليل الكلام وكان يقضى
القسم الأكبر من اوقاته في التفكير - اما مضمون هذا
التفكير فلا يعلمه الا الله . ولا أستطيع ان اقول بأنه

ينقصه على وجه التعميم . فمع أن غرفة الاستقبال مثلا ، كانت مليئة بالآثاث الحريري الجميل الذي كلفت مبالغ غير قليلة ، فقد كان فيها كرسيان لا غطاء لمتقدميهما بل حصيرة من ليف ، الا أن رب البيت كان قد اعتاد في السنوات القليلة الماضية أن يحذر ضيوفه من الجلوس عليهما قائلا «لا تجلسوا على هذين الكرسيين ، لم يتم إنجازهما بعد» . وهناك غرفة أخرى خالية من الآثاث ، مع أنه في الأيام الأولى التي تلت عرسه قال لزوجته «غداً يا عزيزتي سوف نجلب بعض الآثاث لهذه الغرفة ، ولو كان آثااً مؤقتاً» . ففي كل أمسية يضع الخدم على مائدة غرفة الاستقبال شمعداناً برنوزياً لطيفاً مزينا بالصدف عليه ثالث الجمال وشمعداناً عادياً عتيقاً من نحاس تعلوه طبقة كثيفة من الأوساخ ، الا أن أحداً لم يفكر في هذا الموضوع ، لا رب البيت ولا ربته ولا أحد من الخدم . وفي الوقت نفسه كان مانيلوف وزوجته راضيين عن بعضهما البعض كل الرضى . فقد مر على زواجهما أكثر من ثماني سنوات ، الا أن كل واحد منهما كان دائماً وأبداً يقدم للآخر قطعة من التفاح أو الحلوى أو الجوز ، وهو - أو هي - يتتم كلمات عاطفية صادرة من أعماق القلب . كانت الجملة التي يرددها هي الجملة المحفوظة التالية «افتحي (أو افتح) فمك يا عزيزتى (أو يا عزيزي) ودعنى اضع فيه هذه القطعة» وعلى القارىء أن يتأكد أن الفم العزيز كان ينفث بكل دلال . وإذا جاء عيد ميلاد الواحد منهما كان الآخر يقدم له هدية المفاجأة ككيس

مزين بالخرز لحفظ تسليك الاسنان أو ما مائل ذلك . وإذا ما كانا يجلسان معاً على الديوان فانه ، فجأة ولسبب غير معروف ، يضع غليونه جانباً وهي بدورها تلقى ما في يديها من شغل الصوف (إذا حدث أن كان آذاك بين يديها) ويتعاقق الزوجان ليطلع كل واحد منهما على شفتى الآخر قبلة فائرة طويلة يستطيع المرء اتناهما أن يدخن سيجاراً صغيراً . وباختصار ، كانا من النوع الذي يطلق عليه «زوجين سعيدين» . الا أنه يجب أن نذكر هنا أن الزواج السعيد يتطلب أموراً أخرى يهتم بها الزوجان غير المعانقة واعداد الهدايا المفاجئة . أجل ، فهناك أعمال يجب أن تحظى باهتمام الزوجين . فلماذا يُنظَنّ مثلا ، بأن اشراف ربة البيت على شؤون المطبخ أمر معيب أو ماسٍ بالكرامة ؟ ولماذا لا يصرف الاهتمام الكافي الى المغازن ومستودعات البيت لكي لا ينقص من مستلزماته شيء ؟ ولماذا تعطى الفرصة للفهرماتة في البيت لكي تسرق ما فيه ؟ ولماذا يبقى في البيت خدمه المهملون السكرارى ؟ ولماذا يسمح لهم بالنوم والعربدة طول الوقت ؟ لكن لا شيء من هذه الامور جدير بالاهتمام في عيني مدام مانيلوف لأنها كانت قد تربت تربية راقية . والتربية الراقية - كما تعلم - موجودة في المدارس الداخلية . والمدارس الداخلية - كما هو معروف لدى الجميع - ترى أن أسس الفضيلة تقوم على ثلاثة مبادئ رئيسية هامة ، اللغة الفرنسية (وهي أمر لا غنى عنه للحياة الزوجية) ، والعزف على البيانو (وهو أمر ضرورى لتسلية الزوج في

«انى لن أفعل ، فأرجو عفوك . اننى لن أسمح لنفسى بأن أتقدم على ضيف عزيز مهذب ، مثلك ، اطلاقاً» .
«ولماذا تصفنى بالمهذب يا سيدى العزيز ؟ أرجوك ان تدخل» .

«كلا ، لن يكون ذلك ، تفضل» .

«ولماذا؟»

فابتسم مانيلوف ابتسامته الحلوة ، وقال «للسبب الذى ذكرت» .

وأخيراً دخل الصديقان سوية بجانبيهما يزحم أحدهما الآخر بعض الشيء .

واستأنف مانيلوف حديثه قائلاً «اسمح لى ان أقدم لك زوجتى» . وقال لزوجته «هذا بافيل ايفانوفيتش يا عزيزتى!» وفى تلك اللحظة وقعت عيننا تشيتشيكوف على سيدة كان قد سها عن رؤيتها حين كان يتبادل الانحناءات مع مانيلوف فى مدخل الباب . لم تكن قبيحة المنظر قط ، وكانت ترتدى ثوباً من الحرير الملون ، وعندما دخل الزائر الغرفة رمت من يديها الصغيرتين شيئاً على المائدة وأمسكت بمنديل من الشيت قبل ان تنهض من على الديوان الذى كانت تجلس عليه . وأخذ تشيتشيكوف يدها بغير قليل مسن الارتياح ، وراح يستمع إليها وهى تحدثه بلشغة بسيطة فى اللفظ ، وتخبره أنها هى وزوجها يشعران بالامتنان العظيم لعجبته ، وان زوجها فى المدة الأخيرة كان يذكره كل يوم .

وأكد مانيلوف هذا الحديث بقوله «وفى كل يوم

أوقات الفراغ) ، وذلك الفرع من التدبير المنزلى الذى يختص بحياكة المحفظات واعداد المفاجآت . على أية حال ، فقد بدأت الاصلاحات والتغييرات تحتل مكانها فى هذه المؤسسات فى الوقت الراهن لأن الامور فيها أصبحت تسير وفق رغبات القائمين عليها وحسب أهوائهم الشخصية . ففى بعض هذه المعاهد مثلا ، أصبح العزف على البيانو يحتل المرتبة الاولى والفرنسية تحتل المرتبة الثانية أما التدبير المنزلى المذكور اعلاه فيأتى فى المرتبة الأخيرة . بينما نجد فى معاهد اخرى ان حياكة هدايا المفاجآت تحتل الدرجة الاولى تليها اللغة الفرنسية ثم العزف على البيانو - الى هذه الدرجة بلغ الاختلاف فى الانظمة السائدة ! ومع ذلك فيمكن ان أقول ان مدام مانيلوف . . . لكننى يجب ان اعترف بأننى اخشى دائماً ان اتحدث الكثير عن السيدات . وبالإضافة الى ذلك فقد حان الوقت لكى نعود الى بطلينا اللذين كانا واقفين فى الدقائق القليلة العاضية امام باب غرفة الاستقبال يتباريان فى تقديم بعضهما البعض فى السبق الى الدخول .

قال تشيتشيكوف «أرجو ان تتكرم بالدخول وان لا تزعج نفسك بسببى ، فسوف أتبعك» .

فاشار مانيلوف الى الباب وقال «لا يا بافيل ايفانوفيتش ، لا ! انك ضيفى» .

فقال تشيتشيكوف «لا تجعل من هذه المسألة امرأ كبيراً ، أرجوك لا تجعل منها امرأ كبيراً وان تتفضل بالدخول قبل» .

فأكد تشيتشيكوف هذا بقوله «تماماً . انه في غاية
الانس والدواعى . ويا له من فنان ! لم اكن تصور انه
يستطيع ان يعمل هذه الاشغال اليدوية المنزلية التي
عملها ! ان بعض اشغال الابرة التي اطلعنى عليها لا
تستطيع سيدة في البلاد ان تجاريه فيها !»

وتسأل مانيلوف مقضاً عينيه مرة أخرى «وثائب
حاكم الولاية ، انه شخص لطيف . اليس كذلك ؟»
فاجاب تشيتشيكوف «جداً جداً ! انه شخص عظيم
حقاً» .

«وما رأيك في رئيس الشرطة ؟ اليس هو في الواقع
انساناً طيباً خلوقاً جداً ؟»

«طيب ، خلوق بكل تأكيد . ويا له من انسان بارع
واسع الاطلاع ، لقد لعبت معه ومع المدعى العام ورئيس
المجلس المحلى لعبة الوست الى ان صاح ديك الصباح
صيحاته الأخيرة . انه لشخص رائع .

وتسألت مدام مانيلوف «وما رأيك في زوجته ؟
اليس شخصيتها من الفخامة على قدر كبير ؟» فوافق
تشيتشيكوف قائلاً «انها من احسن من عرفت» .

ولم ينس الجمع في حديثهم رئيس المجلس المحلى
ومدير البريد ، حتى مروا بذكر موظفى المدينة كلهم .
وقد تبين في كل حالة مسن هذه الحالات ان هؤلاء
الموظفين في اسمى درجات الكفاءة .

ثم تسأل تشيتشيكوف قائلاً ، «وهل تقضى وقتك
كله في الريف ؟»

فاجاب مانيلوف «معظم الوقت ، مع اننا أيضاً نقوم

كانت تسألنى - ولماذا لم يطل علينا صديقك حتى
الآن - وكنت دائماً اجيئها قائلاً - انتظرى قليلاً يا
عزيزتى ، فلن يمر وقت طويل حتى يأتى - وها انت قد
جئت ، ها انت قد شرفتنا بهذه الزيارة ، وها انت قد
اغدقت علينا البهجة الكبرى ، بهجة تجعل هذا اليوم
عيداً ، اجل انه عيد ميلاد القلوب» .

وما ان سمع تشيتشيكوف ان المسألة قد تطورت
بحيث أصبحت عيد ميلاد القلوب حتى اعتراه بعض
الارتباك . فاجاب اجابة متواضعة بأنه لا يعتز باصل
ممتاز ولا برتبة ممتازة ، ولكن مانيلوف قاطعه
بإتسامته الآسرة قائلاً ، «انك كذلك ، بل اكثر من
ذلك» .

وتسألت مدام مانيلوف ، «وكيف رأيت مدينتنا ؟
هل قضيت فيها وقتاً طيباً ؟» .

فاجاب تشيتشيكوف «اجل ، انها للطيفة جداً ، وقد
اعجبنى فيها كرم اهله» .
«وما رأيك في حاكمنا ؟»

واضاف مانيلوف «الا تراه شخصية عظيمة ساحرة ؟»
فقال تشيتشيكوف «انه كذلك ، وهو في الحقيقة
رجل يستحق كل احترام . ويا للدقة التي يقوم بها
بانجاز مهامه حسب ما يرشده اليه عقله النير ! ليت
في البلاد الكثير من امثاله !»

فابتسم مانيلوف وأغمض عينيه نصف اغماضاً
كالقطة التي يداعبها صاحبها من خلف اذنيها ، وقال ،
«يا للروعة التي يقابل بها كل انسان» .

بزيارات للمدينة بغية الاختلاط مع الطبقة ذات النشأة
الحسنة . ان المرء ليعلوه الصدا اذا ما سيجيا حياة
العزلة» .

فوافق تشيتشيكوف قائلا «ان هذا لصحيح» .
فتابع مانيلوف يقول «اجل هذا صحيح ، وفي الوقت
نفسه سيكون الامر مختلفا فيما لو كان هناك جوار
واع - اى ان يكون هناك صديق مثقف يستطيع
الانسان ان يبحث معه فى الاخلاق والآداب او ان
يتجادل معه فى فرع من فروع العلم ، لكى يحرك المرء
عقله . لان هذه الامور تبعث الحيوية فى الانسان .
ان ، ان . . .» ووجد نفسه ضائعا فى التفتيش عن
كلمات يعبر بها عن مشاعره و اشار اشارة تدل على
انه قد ذهب بعيدا فى الموضوع ، واستمر يقول «ان
ما اعنيه انه لو كان ذلك الشئ موجودا ، فاننى سوف
اجد متعة كبيرة فى العيش فى الريف . ولكن شيئا
كهذا فى الواقع غير موجود ، وكل ما استطيع عمله هو
اننى فى بعض الاوقات اقرأ مجلة «ابن الوطن» .
وقد وافق تشيتشيكوف على هذه المشاعر موافقة
كاملة ، واضاف الى ذلك يقول بان من المبهج حقاً
للانسان ان يحيا حياة العزلة اذا ما استطاع ان يقضى
اوقاته بين التأمل فى الطبيعة وقراءة الكتب .
ولكن مانيلوف استمدرك قائلا «ولكن هذا كله لن
يساوى شيئا اذا لم يجد المرء صديقا يشاطره الحياة» .
فوافق تشيتشيكوف على ذلك ايضا بقوله «حقا ،
حقا ، فما قيمة كنوز العالم كلها بدون صديق . وقه

قال احد الحكماء - الكنز الثمين لا يفنيك عن الصديق
الامين» .

هنا بدت على وجه مانيلوف اشراقه ليست حلوة
وحسب ، وانما لها صفة المزيج الذى يخلطه الطبيب
العاذق بالدواء المر فيجعله حلوا عندما يريد ان يسقيه
للمريض الوجل . وقال «اجل يا بافيل ايغانوفيتش ، لا
اطنك تستطيع ان تتصور اى سعادة او على الاصح اى
سعادة كاملة شاملة اغدقتها علينا هذه الفرصة الحالية .
فهى قد اتاحت لى ان احظى بسماع حديثك العذب وان
استمتع بهذا الحديث» .

فاجاب تشيتشيكوف «انك تبالغ يا سيدى . اى
حديث عذب ! ما انا الا انسان ضئيل ، اننى فى
الواقع لا شئ» .

فصاح الآخر «كفى يا بافيل ايغانوفيتش ، اذا شئت
ان اكون صريحا معك فاننى اقول لك باننى ساكون
سعيدا لو اعطيت نصف ما املك مقابل ان احوز على
قسم من مواهبك» .
«على العكس من ذلك ، فانا اعتبر ان اسمى شرف فى
العالم . . .»

ولا يعلم الا الله طول المدى الذى كان سيمتد اليه
هذا الحديث الروحانى المتدفق المتبادل لو لم يدخل
احد الخدم ليعلم لهما ان الغداء جاهز .
وقال مانيلوف «بكل احترام ادعوك لاصطحابنا على
المائدة . وانى لانتس منك المعذرة لعدم استطاعتنا ان
نهيى لك احتفالا مناسبيا كما يفعلون فى المدينة او فى

وقال الأب «ثيمستوكليوس ، قل لي ما هي أجمل مدينة في فرنسا؟»

وعندما سمع المعلم هذا السؤال ركز اهتمامه على ثيمستوكليوس ، وكان يريد أن تقع عيناه على عينيه . ولم يبد على المعلم الهدوء إلا عندما لفظ ثيمستوكليوس كلمة «باريس» فخفض رأسه .

وعاد مانيلوف السؤال «وما هي أجمل مدينة في روسيا؟»

وعاد المعلم الى وضعه السابق من الاهتمام والتركيز الشديدين .

وأجاب ثيمستوكليوس «بطرسبورج» .

«وما هي المدينة الاخرى؟»

فاجاب الصبي «موسكو» .

فالتفت تشيتشيوكوف الى الأب وعلانم الدهشة على وجهه «يا للصفير البارح ! ويا لسعة معرفته في سن كهذه السن ! علي* ان أقول بان مواهب عظيمة تكمن في هذا الطفل الصغير» .

فابتهج مانيلوف وقال «انك لا تعرفه معرفة صحيحة بعد ، فان حدة ذكائه تفوق التصور . ان اخاه الاصغر الكيد ليس في هذه العدة من الذكاء . اما الأكبر فان عينيه تكادان تخرجان من رأسه كلما رأى شيئاً ، مهما كان ذلك الشيء - سواء كان صرصاراً او جندباً او أى شئ آخر ، ويركض ليمسك بذلك الشئ . ويتفحصه . انى اعنء لمنصب دبلوماسي» والتفت الأب الى ابنه مرة اخرى وسأله «هل تحب ان تكون سفيراً؟»

العاصمة . فليس لدينا غير حساء الكرتب الروسي ، ولكننا تقدمه اليك من قلب مخلص . تفضل بكل احترام ، ارجوك» .

وبعد جدل طويل في تقديم الواحد على الآخر فسي الدخول الى غرفة الطعام ، اجتاز تشيتشيوكوف الباب

وهو يسير وجنبه الى الامام . ووجدنا طفلين فسي انتظارهما . كانا ولدي مانيلوف ، وهما في سن يسمح

لهما بالجلوس على الموائد ، اذا ما وضعت لهما الكراسي العالية الخاصة لهذا الغرض . وكان يقف الى جانب

الصبيين معلّمهما الذي ابتسم وانحنى للضيف بكل ادب . ومن ثم جلست ربة البيت امام طبق حسائهما ،

فاجلس ضيف الشرف بينها وبين رب البيت ، بينما اخذ احد الخدم يربط الفوط البيضاء على عنقى الطفلين .

وحقق تشيتشيوكوف في الصبيين وقال «يا لسحر هذين الطفلين ! كم عمرهما؟»

فاجاب مانيلوف «الكبير في الثامنة اما الصغير فتد

اكمل السادسة امس» .

والتفت الأب الى الابن الأكبر ، وكان يجاهد فسي تخليص ذقنه من الفوطه التي لفته بها الخادم ، وقال

«ثيمستوكليوس» . وما ان سمع تشيتشيوكوف هذا الاسم الاغريقي الصرف (الذي كان الأب لسبب غير

معروف يضع في آخره دائماً «يوس») حتى رفع حاجبيه قليلا ، ولكنه سارع في اللحظة التي تلتها الى استرجاع

المظهر الملائم لعلامه .

دائماً بقوله «شكراً ، لقد أكلت فوق الكفاية . ان الحديث الطريف أحسن من كل أطباق الطعام فى العالم» . ونهض الجمع أخيراً عن المائدة . وكانت معنويات مانيلوف عالية جداً ، وقد وضع يده على كتف تشيتشيكوف لكى يسير به الى غرفة الاستقبال عندما أعلن الأخير فجأة انه يريد أن يحادثه فى موضوع هام جداً .

فقال مانيلوف «إذا كان الامر كذلك فاسمح لى ان أعودك الى مكتبى» وسار به الى غرفة صغيرة تطل على الغاية الزرقاء ، وأضاف قائلاً «هذا معتكفى» . قال تشيتشيكوف «يا له من معتكف رائع !» وراح ينفصص الغرفة بعناية .

والواقع انه لم يكن ينفصصها أى جمال . كانت الجدران مطلية بلون بين الازرق والرمادى ، وكان فيها من الأثاث اربعة كراسى ومقعد ومنضدة - وكان على الأخيرة بضعة اوراق بيضاء والكتاب الذى سنحت لى فرصة سابقة ان أتحدث للقارى عنه . ولكن أهم ميزة للغرفة بارزة فيها بشكل ملحوظ هى التبغ . فقد كان يبدو فيها بمظاهر مختلفة - محفوظاً فى علب من الورق ، وفى أوان خزفية ، وعلى شكل أكوام منثورة على المنضدة . أما على حافة الشبايك فقد صفت أكوام صغيرة من الرماد مرتبة بشكل لا يخلو من فن وفسى صفوف فيها شئ من الانتظام . من الجلى ان التدخين كان متعة يقضى فيها رب البيت اوقاتاً طويلة .

فقال ثيميستوكليوس وهو يمضغ قطعة من الخبز ويحرك رأسه من جهة الى أخرى «نعم ، أحب» . وفى هذه اللحظة انبرى الخادم الواقف خلف مسير المستقبل ومسح فمه بالفرطة . وقد أحسن صنعاً بعمله هذا ، فلولاه ل زاد طبق الحساء الموجود أمامه نقطة غير ظريفة الشكل ولا التكوين . وتحول الحديث بعد ذلك الى مباحث الحياة الهادئة ، لولا أن ربة البيت كانت تقاطعه بالحديث عن التمثيل والممثلين فى المدينة . وكان المعلم اثناء ذلك يركز بصره على وجوه المتكلمين ، وإذا ما لاحظ أن الجمع على وشك الضحك فتح فمه وأخذ يضحك بحماس . وقد يكون صاحب عرفان بالجميل أراد ان يكافئ مستخدمه على المعاملة الحسنة التى يلقاها فى منزله . مهما يكن من امر ، وفى فترة من الفترات علت وجهه امارات العبوس والتقطيب ، وسدد نظره على الولدين الجالسين أمامه وقرع المائدة قرعة رصينة . حدث ذلك عندما رأى ان ثيميستوكليوس عض الكيد من أذنه ، فقطب الكيد المذكور عينيه وفتح فمه استعداداً للبكاء بصوت يستدعى الشفقة . وما أن أدرك أن اجراء كهذا قد يترتب عليه حرمانه من طبق أكله حتى سارع الى اعادة فمه الى الوضع الطبيعى وراح ، والدموع تتساقط من عينيه ، ينهش قطعة من عظم سرعان ما غطى دهنها خديه . بينما كانت ربة البيت بين الأونة والأخرى تلتفت الى تشيتشيكوف قائلة «انك لا تأكل شيئاً ، ان ما أكلته لقليل جداً» . ولكن الضيف كان يجيبها

وقال مانيولوف «اسمح لي أن أقدم لك هذا المقعد لتجلس عليه . وسنتعم بالهدوء هنا أكثر» .

«ولكنني أفضل الجلوس على هذا الكرسي» .

فاعترض مانيولوف قائلاً «انني لن اسمح بذلك . فاني احتفظ بهذا المقعد خصيصاً للضيوف . وسواء حلا لك أم لم يحل' ، فيجب أن تجلس عليه» .

وبناء على ذلك انصاع تشيتشيكوف .

«ودعني أقدم لك غليوناً» .

فأجابه تشيتشيكوف بكل أدب وبمظهر الأسف «إني لا ادخن إطلاقاً» .

فتساءل مانيولوف بأدب وبأسف أصيل «ولماذا؟»

«انني أخشى أن اكتسب هذه العادة . ويقال إنها تورث الرئتين الجفاف» .

«إذن فاسمح لي بأن أقول لك بأن هذا غير صحيح .

بل أستطيع أن أقول بأن تدخين الغليون هو أحسن للصحة من استنشاق الصعوط . لقد عرفت في كتيبتنا

ملازمًا مهذبًا ممتازًا كان لا يستطيع أن يرفع الغليون من

فمه ، سواء كان على مائدة الطعام أو كان ، لا مؤاخذه ،

في محلات أخرى . انه الآن في الأربعين ويتمتع بفضل

الله بصحة لا يتمتع بها شخص آخر» .

فأجابه تشيتشيكوف بأن هذا الشيء معقول ، لأن

الطبيعة فيها الغاز لا يستطيع أكبر عقل بشري أن يجد

لها تفسيراً .

ثم قال «اسمح لي أن أطرح عليك سؤالاً» وبدأ في

صوته نغم غريب أو في الواقع كان غريباً . ولسبب

غير معروف نظر من فوق كتفه . ولسبب غير معروف نظر مانيولوف من فوق كتفه أيضاً .

والتي الضيف سؤاله يقول «منذ متى قدمت للحكومة

الإحصاء الأخير؟»

«منذ مدة طويلة ، طويلة جداً . انني لا أذكر في

الحقيقة متى كان ذلك» .

«ومنذ تلك الفترة ، هل مات الكثير من اقنانك؟»

«لا أعرف . اذا شئت أن اتأكد لك من ذلك يجب

أن أسأل مأمور املاكى . ايها الخادم ، اذهب وناد مأمور

الاملاك . كان لا بد أن يكون اليوم موجوداً هنا» .

وجاء مأمور الاملاك آخر الأمر . كان يقارب الأربعين

من العمر ، حليق الذقن ، يرتدى معطفاً رسمياً ، ويبدو

على سيماء انه اليق الراحة . نظرا الى ان وجهه كان

من ذلك النوع الممتلئ الناعم ، كان لون الجلد المحيط

بعميقه الصغيرتين الشبيهتين بشقين شاحباً مما يدل

على أن صاحب هذه الملامح اليسف فراش من ريش

النعام . وفي لمحة البصر يدرك الانسان انه لعب في

الحياة الدور الذي يلعبه اضرابه المأمورون الآخرون .

أى انه كان في البداية قنناً حاز على قسط من التعليم

• كان الملاكون يقدمون للحكومة لائحة باسماء الاقنان

والفلاحين الموجودين لديهم ، وبناء على هذه اللوائح كانت

توضع الضريبة التي تتقاضاها الحكومة . وكانت هذه اللائحة

تقدم كل بضع سنوات . فاذا مات مثلاً ، أحد الاقنان مسا

بين الاحصائين فان المالك يدفع الضريبة عنه ال أن يشطب

اسمه من اللائحة في الاحصاء التالي . الناشر .

وتزوج وصيفة أو خازنة اثيرة عند ربة البيت ، ومن ثم أصبح نفسه خازنا وارتقى تبعا لذلك الى رتبة مامور . وسار بعد ذلك على الطريقة التي يسير عليها ابناء عشيرته - اى انه وقف مع الاقنان الاقوياء فى المزرعة وجاراهم وازاد اسماء الفقراء المستضعفين منهم الى قائمة دافى الضرائب الاضافية بينما كان هو نفسه يغادر الفراش فى التاسعة صباحا ، ينتظر السماور وشرب الشاي فى هدوء بال .

وساله مانيلوف «اسمع ايها الرجل الطيب ، كم مات لدينا من الاقنان منذ الاحياء الاخير ؟»
«كم مات منذ الاحياء الاخير ؟ عدد غير قليل» . وفاق ووضع يد على فمه .

فايد مانيلوف هذا الخبر بقوله «اجل ، هذا ما كنت اتصور ؛ فلقد مات عدد غير قليل منهم فى الواقع»
والثقت الى تشيتشيكيوف وكرر القول مرة اخرى .
فتساءل تشيتشيكيوف «كم يبلغ الرقم مثلا ؟»
فردد مانيلوف صدها قائلا «نعم ، كم يبلغ الرقم ؟»
فردد المامور الصدى للمرة الثالثة «كم يبلغ الرقم ؟ لا احد يعرف الرقم الصحيح ، لاننا لا نحتفظ بسجلات لهذا الغرض» .

فقال مانيلوف «تماما كذلك . انى اعرف معدل الوفيات عالية ولكنى اجعل الرقم الصحيح» .
فقال تشيتشيكيوف «فهو لك ان تسدى لى معروفا فتهمى لى لائحة تفصيلية باسماء الموتى منهم ؟»
فوافق مانيلوف «اجل ، سأفعل - لائحة تفصيلية» .

فقال المامور «سمعا وطاعة» واحنى رأسه وخرج . وبعد خروجه تساءل مانيلوف «ولاي غرض تريدها ؟»

ويبدو ان السؤال قد اخرج الضيف ، اذ ان ملامحه تغيرت واحمر وجهه كما لو كان يجاهد بغية التعبير عن امر ليس من السهل وضعه فى كلمات . وقد شاء القدر لاذنى مانيلوف ان تسمعا امرا غريبا عجيبا لم يترك سماع انسان من قبل .

وراح تشيتشيكيوف يقول «تسألنى لاي سبب اريد اللائحة ؟ ان غرضى منها هو هذا - هو اننى اريد ان اشترى بضعة اقنان» . قال ذلك وهو يقطع حديثه تقطعا .

عندئذ تساءل مانيلوف «ولكن هل لى ان اسالك كيف تريد ان تشتري الاقنان ؟ بالارض التى هم عليها ام تريد ان تنقلهم الى ارض اخرى - اى ان تشتري النفوس فقط ؟»

فاجاب تشيتشيكيوف «لا اريد الاقنان الاحياء بل اريد الموتى منهم» .
«ماذا ؟ ارجو عفوك ، ان سمعى تقيل بعض الشيء . ان كلماتك فى الواقع تبدو لى غريبة حقا» .

فقال تشيتشيكيوف «والذى اريد هو ان اشترى الاقنان الموتى الذين ورد اسمهم فى لوائح الاحياء الاخير على انهم احياء» .
فاسقط مانيلوف غليونه على الارض وفتح فاه فترة من الزمن . ان الصديقين اللذين كانا قبل لحظة

يتطرحان عواطف الصداقة ومشاعر الوداد ، جلسا الآن ساكنين يحدق أحدهما في الآخر كصورتين متشابهتين من تلك التي كان توضع منذ قديم الزمن على جانبي المرأة في صالات الاستقبال . وأخيراً ، انحنى مانيلوف لكي يلتقط غليونته عن الأرض ، ونظر من طرف خفي أثناء ذلك الى تشيتشييكوف ليرى فيما اذا كان هناك اثر لابتسامة على شفتيه ، اى فيما اذا كان الرجل يقصد المزاح . ولكنه لم يلحج اثرا لشيء من هذا القبيل . بسل على العكس من ذلك ، رأى وجه تشيتشييكوف صارما حازما أكثر منه في اى وقت مضى . وبالتالي ، أخذ مانيلوف يفكر فيما اذا كان ضيفه لسبب من الأسباب قد فقد عقله ، وراح بناء على ذلك يحدق فيه فترة من الزمن بقلق شديد . ولكن عيني الضيف كانتا صافيتين هادنتين خاليتين من تلك الومضة النارية الغريبة التي تحوم في اعين المجانين . كان كل شيء طبيعياً كما يجب ان يكون . وبناء على ذلك ، وعلى الرغم من الاتجاه الذى سبعت فيه افكاره ، لم يجد افضل من ان يجلس نافئا من فيه دخان التبغ على شكل عامود نحيف يخترق الهواء .

واكمل تشيتشييكوف يقول «وعلى هذا الاساس اريد ان اعرف فيما اذا كنت تنوى ان تسلمنى هؤلاء الاقنان - الذين هم فى الواقع موتى ولكنهم يحكم القانون احياء» .

كان مانيلوف فى حالة عميقة جداً من الاضطراب

النفسانى والبليلة الفكرية بحيث لم يجد ما يفعل الا ان يحدق فى محادثه .

ولكن تشيتشييكوف لاحظ يقول «أظن أنك سادر فى اضطراب لا لزوم له» .

فتمتم مانيلوف قائلاً «أنا ؟ اوه . لا ! ابداً ! انما ارجو عفوك . فانى لم افهمك تماماً . فانا لم ابليج حدأ من الثقافة اكتسب بها هذه الالعية التى - كما يقولون - تتجلى فى كل حركة من حركاتك . حتى اننى لم اكن فى يوم من الايام قادراً على التعبير عما يعجول فى نفسى بوضوح . وبناء على ذلك فقد يكون هناك احتمال بان وراء الكلمات التى لفظتها معنى آخر لا يستطيع ادراكه ، او من المحتمل ايضا ان تكون قد جرت هذا الحديث بغية جمال القالب الادبى الذى استلعت ان تضعه فيه» . فردو تشيتشييكوف مسرعاً «كلا ، كلا ، اننى افهم الوضع كما هو عليه ، بمعنى تلك النفوس التى ماتت بالضبط» .

كان مانيلوف الا يزال يحس بأنه ضائع ، ولكنه كان يشعر بان عليه ان يعمل شيئاً ما - يجب ان يلقي سؤالاً ما . اما ما هو هذا السؤال ؟ فالشيطان وحده يعلم ! وانتهى آخر الأمر الى الاكتفاء بنفث دخان التبغ ، لا من فمه وحسب كما كان يفعل من قبل ، بل من انفه ايضاً .

واستأنف تشيتشييكوف الحديث قائلاً «وعلى ذلك اذا لم تكن هناك عقبة تقف فى الطريق فى إمكاننا ان نعتد صفقة البيع» .

وراح مانيلوف بهزة بسيطة من رأسه ينظر فسى وجه تشيتشيوكوف نظرة ذات معنى . وكان يبدو على ملامحه - بما فى ذلك شفتاه المطبقتان على بعضهما اطيافاً محكمآ - مظاهر التفكير العميق الذى لا نراه على محيا انسان - اللهم الا اذا كان وزيرآ فى الدولة ويناقش فى مسألة غاية فى الخطورة .

ومع هذا فقد آجابه تشيتشيوكوف ببساطة بشأن مشروع بيع الأنفس الذى بيتغيه لا يتعارض بأى حال من الاحوال مع الانظمة والقوانين الروسية ، واذاف الى ذلك بان الدولة نفسها سوف تنتفع من هذه الصفقة لانها سوف تتقاضى النسبة المئوية القانونية المعتادة .

فقال مانيلوف «وما الذى تراه الآن ؟»

«انى اعتقد بان ذلك سيكون جيداً» .

وظهرت الآن على وجه مانيلوف امارات الاطمئنان الكامل ، وقال «اذا كان الامر كذلك فهذه قضية اخرى ليس لى عليها اى اعتراض» .

«اذن فلم يبق الا ان نتفق على الثمن» .

«الثن ؟» - وقطع مانيلوف كلامه فجأة ، ثم استأنفه يقول «وهل أستطيع ان اتقاضى ثمنآ عن نفوس هى فى العدم ، على الاقل من وجهة نظر معينة . ونظراً لوجود هذه النزوة الغربية - اذا سمحت لى بان استعمل هذا التعبير - المستحكمة فيك الى هذه الدرجة فأننى من ناحيتى على استعداد لتقديم هذه النفوس اليك دون قيد او شرط ، وسوف ادفع من جيبى كل النفقات اللازمة لاجراء المعاملة» .

«ماذا ؟ بيع النفوس الميتة ؟»

«النفوس الميتة ؟ طبعاً لا يا عزيزى ! اتنا سنكتيهم فى العقد احياء لان هذه هى حقيقتهم كما هى مدونة فى سجلات الاحياء . اتنى لا اسمح لنفسى اطلاقاً ان اتجاوز حدود القانون ، على الرغم من الاضرار التى لحقت بى فى الخدمة من جراء ذلك . ان ارتباط المرء بتنفيذ القوانين فى نظرى هو شىء مقدس . اتنى امام القانون لا ابدى حراكاً» .

كان مفعول الكلمات الاخيرة فى نفس مانيلوف غير قليل ، ومع ذلك فان معنى القضية كلها لم يزل فسى عينيه غير مفهوم . وانكب استجابة لذلك يسحب من غليونه بعنف شديد حتى بدأ الأخير يصدر صوتاً كالزمار . وكانه يريد ان يستلم منه الوحي ليدله على التصرف الصحيح فى هذه المشكلة التى لم يسع بمثلها بشر حتى الآن . ولكن الغليون كان يزمر فقط ، ولم يكن ينزل من الوحي شيئاً .

وقال تشيتشيوكوف «ربما لديك شك فى هذا العرض ؟»

فاجاب مانيلوف «لا ، ابداً ! ولكن ، اجل ، اظن انك ستسمح لى اذا قلت وارجو ان الا تحمل قولى على انه انتقاد لشخصك او تحامل عليك بان . . . وارجو ان تسمح لى . . . بان ال . . . اى اقصد هذا المشروع . . . هذه الصفقة . . . قد . . . قد تشمل بالمرء اذا ما وجد انها تخالف الانظمة والقوانين وتطور روسيساً بالذات» .

وسوف يلومنى القارى اشد اللوم فيما لو اغفلت ان اذكر له ان تشيتشيكوف لم يكسد يسمع هذه الكلمات من فم مضيفه حتى تلالا وجهه بامارات الشبطة والارتياح . وعلى الرغم مما هو عليه من الاتزان والظنونة فقد بذل مجهوداً كبيراً جداً فى كبح جماح نفسه عن القفز من موضعه كما تفعل الشاة التى يعرف الجميع قفزتها العالية جداً فى الحالات التى تكون فيها نشوتها قد بلغت الذروة . على اية حال ، فان تشيتشيكوف ، بالرغم من ذلك كله ، تحرك حركة سريعة هى اشبه بالقفز ، مزق بها غطاء المقعد الذى كان يجلس عليه مما جعل مانيلوف يحدق فيه باندهاش . اما عرفان تشيتشيكوف بالجميل فقد قاده آخر الامر الى الانجراف فى تيار من الحمد والشكران ، تيار عنيف جداً مما اعاد اليليلة الى مضيفه وجعل خديه يتضرجان بحمرة الخجل ودعا ان يحرك راسه استعادة من ان يكون قد عمل غير الواجب ، وان ينتهى الى التصريح بان هذا الاتفاق كله هو لا شىء ، وان رغبته الوحيدة هى فى ان يمثل لما يمليه عليه قلبه تجاه المغناطيسية النفسانية التى يحس بها نحو صديقه ، اى باختصار ، كان يرى ان النفوس الميته شىء تافه لا يستحق الذكر .

فاجاب تشيتشيكوف «لا ابدأ» . وهز يده ضاغطاً عليها . وتنفس بصق وقد شعر آنذاك بأنه فى وضع يستطيع فيه ان يبت مكنونات قلبه ، استمر يقول بصوت يفيض بالعاطفة «آه لو عرفست اى معروف اسديت بهذا الشىء الذى «لا يستحق الذكر» لشخص

تانه ، شخص وحيد حرمه الزمان من الاهل والاقارب ! فإى مصيبة لم تصبىنى فى هذه الحياة ؟ لقد كنت المركب التائه فى خضم نواب الحياة وويلاتها . واى ثبور واى خلب لم يمر بسى ؟ واى حسرة لم اذق مراراتها ؟ ولماذا ؟ لاننى كنت دائماً وابدأ اضع الحق نصيب عينى . لاننى كنت دائماً وابدأ اذنية صافية وضمير طاهر . لاننى كنت دائماً امد يد العون للارملة الضعيفة واليتيم المحروم . وبعد هذا السيل الجارف من العواطف الفياضة سحب تشيتشيكوف منديله ومسح دعة تترقق فى عينيه .

ولقد تحركت عواطف مانيلوف حتى اعماق النواد ، فآخذ الصديقان يضغطان على ايدى بعضهما البعض مرة تلو الأخرى ، وهما فى صمت عميق يحدقان فى عيون بعضهما التى كانت تترقق بالدمع . وفى الحقيقة ، لم يكن مانيلوف بقادر على ترك يد بطلنا وانما كان يتشبث بها بحرارة حتى ان البطل المذكور وجد نفسه فى حيرة وهو يفتش عن احسن الوسائل لتخليص يده . ولكنه آخر الامر تمكن من سحبها بلطف وقال ان اكمال الصفقة بسرعة امر لا بأس به ، فيستطيع بناء على ذلك ان يعود الى المدينة لتسوية الامر . فتناول قبعته ونهض ليلقى تحية الوداع .

فعاد مانيلوف الى نفسه فجأة ، واحس بشىء من الرهبة ، وقال «ماذا ؟ أنت ذاهب بهذه السرعة ؟» واذا بزوجته فى تلك اللحظة تخطر داخل الغرفة . «بالفيل ايفانوفيتش يريد ان يتركنا يا عزيزتى

ليزانكا» - قال مانيلوف بشيء من التوسل .
فاجابت - «يبدو اننا اورثناه الملل» .

فقال تشيتشيكوف واضعا يده على قلبه . «ابدأ يا مدام ، ففي هذا القلب ساحتفظ بذكرى جميلة للوقت الانيس الذى قضيته معكم . تقى بانى لا اجد نعمة اكبر من ان اعيش معكم تحت سقف واحد وعلى الاقل فى الجوار القريب» .

ويبدو ان هذه الفكرة راقت لمانيلوف جداً ، فقال «حقاً ؟ كم يكون رائعاً لو جنث تعيش معنا فى بيتنا هذا . اننا سنتفياً ظل شجرة دردار ونجلس معا نتحدث فى الفلسفة ونبحث الاشياء من اصولها» .

فتنهت تشيتشيكوف وقال «اجل ان هذا يكون جنات النعيم !» ومع ذلك صافح المدام ، «وداعا ايها السيدة الكريمة» ، وصافح المضيف «وداعا ايها الصديق العزيز . لا تنس طلبى اليك» .

فاجاب مانيلوف «تاكد اننى لن انسى . وسوف نتقابل فى المدينة بعد يومين» .
وبهذا تحرك الجمع الى غرفة الاستقبال .

فوقعت عينا تشيتشيكوف على الصبيين وكانا يلعبان بجندى خشبى مجدوع الأنف مكسور اليد ، وقال لهما «وداعاً ايها الطفلان العزيزان ، وداعاً ايها الصغيران . اغفرا لى هذه المرة اننى لم احضر لكما هدايا ، فما كنت اعلم بوجودكما قبل زيارتى هذه . ولكنى عندما احضر المرة القادمة فلن انسى ان احضر لكما الهدايا التى تليق بكما . سوف احضرك سيفاً يا ثيميستوكليوس» .

انت تحب السيف ، اليس كذلك ؟
«نعم» .

«وانت يا الكيد ، سوف احضر لك طبلًا ، اتحسب الطبل ؟» قال هذا وادار راسه واحناه نحو الكيد .
فارجح الصبى راسه ولشغ قائلاً «معهم ، تبلى» .
«اذن فليكن طبلًا ، وای طبل جميل سيكون . اذا ما قرعت عليه سيقول ترا ترا ترم ترم ترم . . . وداعاً يا صغيرى» . وقبل راس الصغير ، ثم التفت الى مانيلوف وزوجته بابتسامة تدلها على مدى اعجابيه بصغيريهما .

ثم خطا الثلاثة الى الشرفة وقال الأب «أظن من الافضل ان تبقى يا بافيل ايفانوفيتش ، انظر الى السماء انها متلبدة بالغيوم» .

فقال تشيتشيكوف «انها غيوم صغيرة لا ضير منها» .
«وهل تعرف الطريق الى بيت سوباكفيتش ؟»
«لا ، لا اعرفها ويسرنى لو دلتنى عليها» .

«اذن دعنى اخبر السائق عن تفاصيل الطريق» . وهنا حضر سيليفان ، وكان مانيلوف رقيقاً جداً معه بحيث اخذ يخاطبه بضمير المخاطب الثانى .

وما سمع سيليفان ان عليه ان يتعدى منعطفين ثم يسير فى الثالث ، حتى قال «حسنا يا سيدى ، سنصل الى هناك بسلام» . وانطلق تشيتشيكوف وسط عاصفة من التحيات والهتافات وتلويح المناديل - كان يقوم بها رب البيت وربته ، وكانا يعلان ذلك وهما يرتقان نفسيهما على رؤوس الاصابع من فرط الحماس .

الفصل الثالث

كانت العربية تدرج على الطريق وتشيتشنيكيوف
جالس فيها يشعر بأنه راض عن نفسه تمام الرضى .
ولا بد أن يكون القارى قد أدرك من الفصل السابق ما
انطوت عليه نفسه وما هو الغرض الرئيسى الذى يهدف
اليه . فلا عجب إذن ، أن رأيتاه ينغمس فى الموضوع
بالروح والجسد انغماساً كلياً . كانت افكاره
وحساباته ومشاريعه تنعكس على وجهه فتتشارك فى
إسباغ البشر والرح عليه ، إذ تترك كل واحدة منها -
ساعة تخطر - ابتسامه رضى خاطفة تتبع الابتسامه
التي تركتها سابقتها . وقد كان فى الحقيقه مستغرقاً
فى هذا الشأن بحيث لم يلاحظ أن سائقه - الذى كان
مزهو³ بكرم خدم مانيلوف - كان يتكلم مع الحصان
الأرقل ، أحد الخيول الجانبية فى الترويكاً * . كان هذا
الأرقل حيواناً عليماً ، فكان يتظاهر بالسُّعْب . بينما
كان رفيقاه ، الحصان الأوسط (وهو حصان احمر اللون)
والحصان القريب (وهو بنى اللون) ويعرف بالمستشار
لان الرجل الذى اشترى منه كان يحمل هذه الرتبة
يعملان بشهامه وتظهر فى عيونها الغبطة التي يستمدانها
من اجهاد نفسيهما فى سبيل قيامها بالواجب . كان
نسيليغان يرتفع عن مقعده ليضرب الحصان الكسول
بالسوط وهو يقول «أيه أيها السافل ، أيه أيها

* الترويكاً - عربة تجرها ثلاثة خيول . الناشر .

ووقف مانيلوف فترة طويلة من الوقت وهو يتبع
العربة بنظراته . وقد استمر فى الواقع يتبعها بانظاره
وهو يدخن غليونه حتى بعد أن اختفت وراء الأفق
بمدة غير قليلة . ومن ثم عاد الى غرفة الاستقبال مرة
أخرى وجلس على أحد الكراسى مستسلماً للتفكير
وكانت القضية التي ابتدا بالتفكير فيها فى الحقيقه ،
هى فيما اذا كان قد قام نحو الضيف بما هو واجب عليه
كضيف . ثم سرح تفكيره الى امور أخرى لا يعلم الا
الله الغيايب التي وصلت اليها . فكر فى مباحج الحياة
ومسراتها ، وفى الصداقة ، وكم هو جميل أن يعيش
الانسان مع صديق ، على شاطئ نهر مثلاً ، وأن يقيم
جسراً خاصاً له على النهر ، وأن يبني عمارة ضخمة
جدا عالية جدا ، ببرج بحيث يرى الانسان من شرفتها
العليا مدينة موسكو ، وسيجلس على تلك الشرفة هو
وصديقه يتناولون شاي الأصيل فى الهواء الطليق
ويتناقشون فى المواضيع الطريفة الشتى . ومن ثم
ينتقلون بعد ذلك فى عربة انيقة الى منتدى يسبحون
فيه الجميع بلطف تعاملهما حتى اذا عرف الامبراطور
بصداقتهما خلع عليهما رتبة جنرال ، وما الى ذلك مما
لا يعرفه الا الله . ولكنه أحس فجأة أن طلب
تشيتشنيكوف الغريب قد قطع عليه جبل الاحلام ،
ووجد أن عقله أعجز من أن يهضم هذه القضية . فاخذ
يقلمها على وجوه مختلفة شتى ، ولكنه لم يستطع أن
يجد لها تفسيراً . واستمر جالساً فى موضعه يدخن
غليونه ، حتى حان موعد العشاء .

الآخر كان مشغولاً عن كل شيء بموضوعه الخاص .
ولكن انفجارية مدوية من الرعد ايقظته من احلامه ،
فثلثت حوله . كانت السماء مغطاة كلها بالغيوم ،
واخذت قطرات المطر تتناثر فوق الأرض المغيرة .
ثم انفجر صوت آخر ، اقرب وأعلى من
سابقه ، وانهمر المطر صيباً مدراراً كما لو كان من
فوهات القرب . كانت قطراته تضرب سقف العربة
بانحراف ثم في جانب ، وبعد ذلك تغير شكل هجومها
وتصير مستقيمة وتنقر على الحوض فتتناثر مبللة
وجهه ، بحيث اضطُرَّ الى سحب الستائر الجلدية
(وكان في الستائر فتحات مستديرة تمكنه ان يلمع
منها جانبي الطريق) ، واضطر أيضاً الى الصياح على
سيليفان حاثاً اياه ان يسرع الخطى . وارى السائق
الذي قوطع في منتصف خطابه ان لا يضع الوقت
سدى ، فسحب من تحت صندوق المقعد قطعة عباءة
قديمة قنرة لها على كميته وامسك بالعنان وصاح
بفرقة الثلاثية (التي كانت تحت تأثير خطابه قد
استترخت استرخاءاً كاملاً حتى اصبحت لا تكاد تقدم
رجلاً على أخرى) . ولم يستطع سيليفان لسوء الحظ ان
يتذكر فيما اذا كان قد تعدى منعطفاً او منعطفين . وما
ان استجمع ذاكرته مراجعاً معالم الطريق حتى ادرك ان
عنداً كبيراً جداً من المنعطفات قد مر عليه حتى الآن .
وبما ان الروسى سريع في اكتشاف احسن الطرق
الواجب اتباعها في الملحظت التي تستوجب سرعة البت
في الأمور ، فقد طرح سائقنا التساؤل جانبا ودار في

النذل ، سوف اربيك . انك تعرف جيداً ماذا تعمل ،
ايها الصعلوك الالمانى ! ان الحصان الأحمر طيب القلب
قائم بالواجب ، وسوف ازيدُه علفاً ، انه حصان جدير
بالاحترام ، والمستشار طيب ايضا ، اما انت . فلماذا
تحرك اذنك ؟ انك غبي . عليك منذ الآن ان تأخذ
حذرك عندما تتلقى أمراً . هذه نصيحة مني اليك ايها
الجاهل ، وانها لنصيحة خالصة . ايه ، انك تستطيع
السير لو اردت» . وأهوى على الحيوان بضربة من سوطه
وهو يقول «اذا كنت لعيناً فانا العن منك» ، وقال
مخاطباً الخيول الثلاثة «هيا يا اعزائي» ومر بالسوط
مرورا رقيقاً على ظهري الحصانين الآخرين دلالة على
الرضى لا العقاب . ثم عاد الى مخاطبة الأرقط مرة أخرى
«أتظن اننى لا ادرى ماذا تفعل ؟ انك تستطيع ان تسلك
سلوكاً اكثر احتراماً فتجعل المرء يحترمك» وعندئذ
راح يستعيد بعض الذكريات . وأنشأ يقول «لقد كانوا
قوماً كراماً ، اؤلئك الناس في بيت السيد الذي هناك .
انى اتوق الى مؤانسة الرجال الكرام اذا كانوا حقاً
كراماً ، ومع امثالهم اترك النفس على سجيبتها . انى
احب ان اشاطرهم شرب الشاي وتناول الحلوى . ان
المرء لا يستطيع الا ان يحترم الانسان المحترم .
وسيدى مثل طيب على ذلك ، والكلم يحترمه ، فقد كان
في خدمة الحكومة وهو الآن من الأعيان» .

وسرح وهو يحدث نفسه على هذه الوثيرة الى احلام
اكثر بعداً ، ولو انصت اليه تسميتشيكوف لسمع
تفاصيل غريبة بهذا الشأن تخصه نفسه . الا انه هو

عن الغناء . وسأله تشيتشيكوف «أى طريق سلكت
إيها النذل ؟»

فاجاب السائق «لا ادري ، فماذا يستطيع المرء ان
يفعل فى وقت بلغت فيه حلقة الليل درجة لا يكاد يرى
فيها سوطه ؟» وبينما كان سيليفان يتكلم مالست
العربة الى جانب بحيث لم يعد خيار امام تشيتشيكوف
الا ان يتعلق بيديه واسنانه . عندئذ عرف يقينا ان
سيليفان كان سكران .

فصرخ عليه «قف ، قف والا انقلبنا !»

فاجاب سيليفان « لا ، لا يا سيدى ، كيف يمكن ان
اقلبك ؟ ان قلب الناس خطأ ، انتى اعرف هذا جيداً ،
ويستحيل على ان اسلك سلوكا كهذا . وهنا بدأ يدير
العربة قليلا واستمر يفعل ذلك حتى انقلبت على جانبها
انقلاباً كاملاً ، فهبط تشيتشيكوف فى الوحل على يديه
ورجليه . وقد نجح سيليفان ، لحسن الحظ فى ايقاف
الخيول مع انها كانت ستقف بنفسها بطبيعة الحال نظراً
الى انها كانت قد اجهدت غاية الاجهاد . اما السائق -
على ما يظهر - فقد ادهشته هذه الحادثة غير المنتظرة .
فانزلق من مقعده على الارض ووقف امام العربة بينما
كان تشيتشيكوف يتخبّط ويتسرّع فى الوحل ، باذلا
جهد عبتاً للخلاص منها . وقال سيليفان مفكراً ومخاطباً
العربة «يا لك من عربة ، لم اكن اظن انك ستقلبيننا
على هذا الشكل» .

فقال تشيتشيكوف متعجباً «انت سكران طينة !»
«لا ، لا يا سيدى . احقيقة انى سكران ؟ انا اعرف

المنتطف التالى الى اليمين وصاح «ايه يا جياى
الحسان» . فانطلقت خبياً ولم يدّر فى خلد له لحظة ان
يفكر الى اين تقوده تلك الطريق .

الا ان العطر ظل يسقط طويلا وبلا انقطاع حتى
اختلط بتراب الطريق فصار اوحالا علقّت بالعجلات ،
فاصبح معها جرّ العربة على الخيول امرأ ثقيلاً . وبدأ
تشيتشيكوف يحس بخيبة أمل فى رؤية بيست
سوباكيفيتش الريفى . اذ كان يجب ان يصل اليه بناء
على حساباته منذ امد طويل . واخذ يجبل البصر فى كل
ناحية ، الا ان الظلمة كانت اكنث من ان يخرقها
بصر .

واطل من العربة وصاح «سيليفان !»

فاجابه السائق «ماذا تريد يا سيدى ؟»

«هل ترى البيت الريفى فى ناحية ما ؟»

«لا يا سيدى» . ولوح بسوطه فى الهواء واخذ يفتش
اغنية من ذلك النوع الذى لا نهاية له . كان فى تلك
الاغنية موضع لكل شىء ، واعنى «بكل شىء» تلك
الصيحات المشجعة التى يستحث بها عامة الروس
خيولهم وتلك الصفات المختارة التى يلقونها خبط
عشواء . ثم انتهى الامر به الى ان اخذ يسميها يا
حضرات !

وبدا تشيتشيكوف يلاحظ ان العربة اخذت تتأرجح
بشدة مما راح يسبب له بعض الصدمات ، واحس بناء
على ذلك بانها قد حادت عن الطريق الى حقل محروث .
وخيم على عقل سيليفان احساس من هذا القبيل فامسك

ان السكر مرذول . انها مؤانسة مع صديق ، هذا كل ما حدث لى . ان كل امرى يشعر بالانس اذا ما جلس مع رجل محترم . ليس فى ذلك اى خطأ . وقد تناولنا جرعة ايضاً . وليس فى تناول الجرعة اى خطأ - لا سيما اذا كانت مع رجل محترم .

فقال تشيتشيكيوف «ماذا قلت لك عندما لقيتاك سكران آخر مرة ؟ هل نسيت ما قلت لك ؟»

«لا ، لا يا سيدى . كيف يمكن ان انساه ؟ انسى اعرف مواضع الاشياء ، واعرف ان السكر غير صواب . وكل ما حدث لى هو مجرد مؤانسة مع انسان محترم . وذلك لأن . . .»

«حسنًا ، فلو لفتت السوط الآن حول عنقك لعرفت كيف تؤانس الانسان المحترم» .

فاجاب سيليفان موافقا «كما تشاء يا سيدى . اذا شئت ان تضربنى بالسوط فلك ذلك ، ولن اشكو منه . ولِمَ لا تضربنى اذا كنت استحق الضرب ؟ لك ان تفعل ما تشاء . وضرب السياط ضرورى احيانا ، فكثيراً ما يتصادى الفلاح فى هواء ، ويجب على المرء ان يحفظ النظام . فاذا استحققتَه فاضربنسى ، ولِمَ لا تفعل ؟»

وقد ظهر ان هذا التعليل فى تلك اللحظة سليم لا يدحض ، فسكت تشيتشيكيوف ولم ينهس ببنت شفة . وقد شاء القدر ان يكون به رحيماً . فطرق سمعها من بعيد نباح بعض الكلاب . واستبشر تشيتشيكيوف واصدر اوامره بتعديل العربة والسير بالخيل قُدماً .

وحيث ان للسانك الروسى ميزة واحدة على الاقل ، وهو انه يستطيع عند الضرورة ان يستعيض عن عينيه بحاسة طريق حادة ، وبارشادها يقود عربته اعتبارا ولكنه مع ذلك يصل الى مكان ما ، فقد افلح سيليفان وهو عاجز عن تمييز اى شىء ، فى ان يوجه خيوله الى بيت ريفى قريب . وقد كان احساسه قويا جداً حتى انه لم يوقف العربة الا لما اصطدم عامودها بجدار الحديقة وتبين ان التقدم خطوة اخرى عاد مستحيلا . وكل ما استطاع تشيتشيكيوف ان يتبينه من خلال القناع الكثيف من العطر المنهمر هو شىء يشبه السقف . ولهذا ارسل سيليفان يفتش عن مدخل المكان . وكانت هذه العملية ستدوم مدة غير محدودة لو لم يقصرها شىء واحد وهو ان كلاب الحراسة فى روسيا كثيراً ما تحل محل الحارس . فبدا عدد كبير من هذه الحيوانات يعلنن قدوم المسافرين بصوت عال جدا حتى ان تشيتشيكيوف اضطر الى اقفال اذنيه . وبالتالي سطح ضوئى من احد الشبايك وتسرب على شكل جدول رفيع الى جدار الحديقة ، وهكذا ظهر موضع باب الدخول . ومن ثم انهال سيليفان على الرتاج قرعا حتى سحب مزلاج الباب الداخلى وظهر منه شبح ملتف برداء متهدل .

وسمعا صوت امرأة عجوز ابعج يقول «من ذا الذى يقرع الباب ؟ وما هذه الضوضاء الساعة ؟» فقال تشيتشيكيوف «انا مسافرون ايتها الام الطيبة . فترجو ان تسمحى لنا بقضاء الليلة هنا» .

فتمتت العجوز «مستعجل ! وقت لطيف من الليل هذا
الذي وصلت فيه ! ليس لدينا فندق ، نحيطكم علما
ان هذا بيت سيده» . «لكن ماذا نعمل يا امه ، فقد
اضعنا الطريق ولا نستطيع ان نقضى ليلتنا فى العراء
فى طقس كهذا ؟»
واضاف سيليفان «لا ، لا نستطيع فالليل مظلم
بارد» .

فنهزه تشيتشيكوف قائلاً «أخرس يا أحمق» .

وتساءلت العجوز «من انت اذن ؟»

«نبيل أيتها الأم الطيبة» .

وقد ظهر ان كلمة نبيل - بشكل ما - كانت غذاء
لتفكير العجوز ، فقالت «انتظر لحظة حتى اخبر
سيدتى» .

وعادت بعد دقيقتين وفى يدها مصباح .

وفتحت الرجاج ، بينما تالت ضوء آخر من نافذة
البيت . ودخلت العربية الساحة ووقفت امام بيت
متوسط الحجم . ولم يكن الظلام يسمح بالملاحظة
الدقيقة ، انما كان يلوح بان البيت قد اضيئت نصف
نوافذه فقط ، فكانت الاشعة تنعكس منها على بركة امام
الباب . هذا بينما استمر المطر فى انهماره ، فكان يقع
بصوت طنان فوق سطح خشبي ومن ثم يسمع صوته
وهو ينصب من شؤبوب فى اناه كبير . اما الكلاب
فلم تنقطع لحظة عن النباح بكل ما فى رثتها من قوة .
واخذ احدها ينبج وهو رافع رأسه الى اعلى بكل ما
لديه من طاقة وباطول ما يستطيع من الوقت حتى

ليخيل الى ناظره انه يطعم فى كسب رهان ثمين .
والثانى ينبج بسرعة وكأنه قندلفت ، بينما اخذ آخر
له صوت جرو صغير ينبج بلا ملل بحيث يملأ صوته
مقاطع صوت الكلب السابق ، وكأنه جرس ساعسى
البريد . واخيراً ، انبرى كلب كبير ذو مزاج عنيف
خاص واخذ يقوم بالرد عليهم وكأنه قائد جوقة يرد
مع جوقة على المعنى الاصيل ، وكانت نبجاته تشبه
هدير ذلك القائد حينما تكون الجوقة فى أوج ترديدها
وحينما يرتفع المنشدون مع قائدهم على رؤوس الاصابع
وهم يبذلون جهدهم فى رفع حدة النغم ، ويمد المرتلون
رؤوسهم قبل بلوغهم الشأو ، ويلصق قائد الجوقة
ذقنه الملتحية الى ياقته ويجمع نفسه فى حنكه حتى
تحسبه جالساً على الارض القرفصاء ليخرج نغمًا قوياً
يهر الشبايك ويرج الزجاج . وجوقة من ذوات الانياب
كهذه الجوقة تدل بطبيعة الحال على ان القرية ليست
صغيرة .

هما يكن من أمر ، فان بطلنا المبتل المرتجف بردا
لم يشعر ذلك اهتماماً ، فقد كان يشغل عقله شئ واحد
وهو الفراش . وفى الواقع لم تكده العربية تقف حتى قفز
الى عتبة البيت ولم يكن بينه وبين الوقوع شئ كثير .
وقد تصدّت لمقابلته سيده اصفر سنماً من الاولى
ولكنها تشبهها شنبها كبيراً . ولما دخل غرفة الاستقبال
كانت لمحتان كافيتين لترياه ان الغرفة مكسوة بستائر
قديمة مقلّمة وجدرانها مزينة بصور الطيور وبعض
العرايا الاثرية الصغيرة - والاخيرة موضوعة فى اطراف

غامقة اللون عليها نقوش تشبه ورق الشجر . وقد الصق خلف كل مرآة خطاب أو مجموعة قديمة من أوراق اللعب أو بعض الجوارب ، بينما علقت على الحائط ساعة بيضاء مرصعة بالازهار . ولم يستطع تشبيتشيكوف ، على أية حال ، أن يتبين أكثر من ذلك لأن جفونه كانت ثقيلة كما لو تلطخت بالعسل . وحضرت ربة البيت بنفسها حالا - وهي امرأة كبيرة السن تضع على رأسها غطاء (يظهر انها أسرع في ارتدائه) وتلف حول عنقها لفاعا صوقيا .

كانت من طبقة الملاكات اللواتى يشكين دائما وأبدا من اخفاق الموسم وما يترتب عليه من خسارة لهن ، من طبقة اللواتى يطاطئن رؤوسهن ياساً وقنوطاً وهنّ كل الوقت يحشين النقود فى اكياس مقلمة ويكتنزنها فى ادراج الخزائن . فيحشين قطع الروبل فى كيس ونصف الروبل فى كيس آخر وقطع ربع الروبل فى كيس ثالث . والا يبدو من منظر الخزانة أن فيها شيئاً سوى قطع القماش الكتانية وثياب داخلية وشلّ من الصوف وقطعة القماش الرثة التى يقدر لها عادة أن تتقلب الى ثوب جديد فيما لو احترقت اطراف الثوب الحالى ايام الاحاد عند خبز الكمك والحلويات والطيبات الاخرى ، او فيما اذا تهرأ الثوب من نفسه . ولكن الثوب لا يحترق ولا يتهراً أبداً ، وذلك لأن السيدة محتاطة كل الاحتياط حذرة كل الحذر . وعلى ذلك تظل قطعة القماش الرثة غير مشغولة الى ان يأتى الوقت لتوزيع التركة فيوصى

باعطائها - مع كمية اخرى من سقط المتاع - لابنة اختها .

واعتذر تشبيتشيكوف على ازعاجه البيت بقدمه غير المنتظر .

فاجابت السيدة ، «لا ، أبداً ، لا أبداً ، ولكن فى اى ملقس فظيح بعث الله بكم الى هنا ! اى ربح واى مطر هذا ! كان من المحتّم ان تضلّ الطريق . نرجو المعذرة اذ لا نستطيع فى هذا الوقت من الليل ان نهيم لكم الطعام» .

وقطع كلام المضيفة فجأة صوت ذو فحيح غريب ، صوت عال جداً اجفل الضيف منه خوفاً ، وزاد خوفه بازدياد الصوت الذى جعل الغرفة تبدو وكأنها ملأى بالأفاعى . ومهما يكن من امر ، فقد استعاد سكينته حينما رفع بصره الى أعلى وادرك ان الصوت صادر عن الساعة التى كانت على وشك ان تدق . وتلا الفحيح شخير دل على ان الساعة تبذل منتهى جهدها حتى ضربت ضربتين كان لهما من القرقة ما للحرارة حين تهوى على قدر من حديد مكسور . وما ان تمت فعلتها هذه حتى عاد الرقاص الى تذبذبه من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين .

وشكر تشبيتشيكوف المضيفة بلطف وقال لها انه لا يحتاج الى شئ ، وان لا دواعى لازعاج نفسها ، فهو لا يريد غير الراحة وان كان يود ان يعلم ايضا اين وصل وفيما اذا كانت هناك مسافة كبيرة بينه وبين البيت الريفى للملاك سوباكيفيتش . واجابت السيدة على

احرق الشمع امام الايقونة في مخدعي . يا الهى ! ظهرك
وجوانيك ملطخة بالوحل كالخنزير البرى . ماذا عملت
حتى وصلت الى هذه الحال ؟»

«من حسن حظى ان لا يكون بى اكثر من التلطبخ
بالوحل ، فلو لا العناية الربانية لكنت مكسر
الاضلاع» .

«يا الهى ! ان القلب ليحفظ ان خطرت به الاهوال
التي مرت بك . اليس من الافضل ان امسح لك
ظهرك ؟»

«شكراً ، شكراً ، لا داعى لأزعاج نفسك . يكفينى
منك ان تتلطفى فتقولى للخادم ان تنظف وتجفف
ملابسى» .

كانت فيتينا آنذاك قد لحقت تدخل الغرفة وهي تجر
حشية الريش يتطاير الريش منها ليملا جو المكان .
فقات لها ربة البيت . «اتسمعين يا فيتينا ؟ خذى
هذا المعطف وهذا الصدر ، وبعد ان تجففيهما امام
النار - كما كنا نعمل بملابس المرحوم سيدك افركيهما
فركا جيداً واطويهما بعناية» .

فقات فيتينا وهي تضع الملابس على حشية الريش
وترتب الوسائد «سمعاً وطاعة يا مولاتى» .

فقات ربة البيت لتشييتشيكوف «فراشك جاهز
الآن . اسعدت مساء يا سيدى ، اتمنى ان تصبح على
خير . الا تريد شيئاً آخر قبل ان اتركك ؟ ربما تعودت
ان يدغدغ احد قدميك قبل النوم . ان زوجى المرحوم
لم يكن يستطيع النوم بغير ذلك» .

ذلك بانها لم تسمع بهذا الاسم قط وليس صاحب هذا
الاسم فى تلك النواحي .

واستمر تشييتشيكوف قائلاً «ولكن تعريفين على الاقل
الملاك مانيلوف ؟»

«لا ، من هو ؟»

«ملاك آخر يا مدام» .

«لم اسمع بهذا ايضا . ليس فى هذه النواحي ملك
كهذا» .

«فمن هم الملاكون المحليون اذن ؟»

«بوبروف ، سفينين ، كاناباتييف ، خريباكين
تريباكين ، بليشاكوف» .

«هل هم اغنياء ؟» - سال تشييتشيكوف .

«لا ، لا احد منهم . قد يملك احدهم عشرين نفساً
ويملك الآخر ثلاثين ، اما من السادة الذين يملكون
المئة فلا يوجد احد» .

فطن تشييتشيكوف الى انه فى منطقة ريفية نائية .
وتساءل «على اية حال ، هل المدينة بعيدة ؟»

«حوالى ستين فرستا . كم انا آسفة اذ ليس لدى ما
اطعمك ! اتحب ان تشرب الشاي ؟»

«شكراً ايها الام الطيبة . ولكنى لا اريد شيئاً عدا
الفراش» .

«اجل ، بعد رحلة كهذا لا شك فى انك بحاجة الى
الراحة . سنتنام على هذا الديوان . فيتينا ، يا فيتينا ،
احضرى حشية ريش ومخدات وملات . اى طقس ارسل
لنا الله ! واى رعد مخيف ! ما زلت منذ مغيب الشمس

كوتوزوف * وصورة زيتية لرجل عجوز بملابس رسمية
 زينها شرائط حمراء من النوع الذي كان يرتدى أيام
 الامبراطور بافيل * * . وفي تلك اللحظة فحت الساعة
 فبحها المعتاد ودقت عشر دقائق ، بينما اطل وجه
 امرأة من شق الباب وانسحب حالا ، لان تشيتشيكوف ،
 رغبة في ان يستمتع بالنوم ما استطاع ، كان قد نضى
 كل ما عليه من ثياب . غير ان الوجه كان يبدو البياض
 لديه ، فاخذ يسترجع في ذاكرته وجه من يكون .
 وتذكر اخيرا انه وجه مضيفته . ووجد ثيابه بالقرب
 منه جافة ونظيفة فارتداها واقترب من المرأة وعطس
 مرة اخرى عطسة عنيفة جدا ، حتى ان ديكاً هندياً
 كان قريباً من النافذة (التي لم تكن بدرها تعلق عن
 الارض كثيراً) فوقاً جملة قصيرة ، قد تعنى بلغته
 الغريبة انه يحيى تشيتشيكوف تحية الصباح . ولكن
 تشيتشيكوف نعته بالغباء ثم تقدم الى النافذة ليستجلى
 المنظر الذي تطل عليه . وتبين ان المنظر الرئيسي
 كان خملاً للدجاج . كانت الساحة ما بين الغم والنافذة
 - على اية حال - مليئة بأنواع الدجاج المختلفة بينها
 ديك يعطر ويتبختر بغطى متزنة ويثابر على هز عنقه
 والالتفات براسه كما لو كان يتسمع الى شيء . والى
 احدى جوانب الحظيرة جلست خنزيرة وعائلتها ممسا

* كوتوزوف - القائد الروسى الذى قاوم نابليون بشدة
 فى معركة بورودينو . الناشر .
 * * * اى فى او اخر القرن الثامن عشر . الناشر .

ولكن الضيف رفض دغدغة الاقدام هذه ، وما كادت
 تتركه السيدة حتى سارع الى انتضاء ملابسه كلها ،
 العلوية والسفلية منها على السواء ، وتسليمها الى
 فيتينا . وبعد ان حيتته هذه تحية المساء اخذت
 الملابس المبتلة وانصرفت ، فوجد نفسه وحيداً . ونظر
 الى الفراش الذى يكاد يصل السقف علواً نظرة كلها
 رضى . من الجلي ان فيتينا كانت فتاة عريقة نسي
 تنجيد فراش كهذا الفراش . وترتب على ذلك انه ما
 كان يصعد على احد الكراسى ليرمي بنفسه عليه ، حتى
 هبط به الفراش فكاد يداني ارض الغرفة ، وانطلقت
 من فتحات صغيرة جانبية فى حوائط اسراب كتيفة من
 الريش اخذت تحلق فى سماء الغرفة وتملا كل زاوية
 فيها . ولكنه على الرغم من هذا كله ، اطفأ المصباح ،
 وسحب على نفسه غطاء ، من التثيت تقوقع تحته ،
 واستغرق حالا فى نوم عميق . واستيقظ فى ساعة
 متأخرة من صباح اليوم التالى . كانت اشعة الشمس من
 النافذة تصب فى عينيه ، والذباب الذى كان يجثم فى
 الليل هادنا على السقف والجدران تنبه الآن لوجود
 الزائر . فاستقرت احداها على شفته واستقرت اخرى
 على اذنه وثالثة اخذت تحلق فوق عينيه كأنها تريبه
 الهبوط فيهما ، اما الرابعة فقد جازفت بالرسو على
 منخره ، فاستنشقتها وهو فى حالة الوسن قطعس عطسة
 شديدة عادت به الى كامل وعيه . فنظر الى ما حوله فى
 الغرفة فوجد ان الصور ليست كلها صور طيور كما عهد
 فى الليلة السابقة ، بل كان بينها صورة للقائه

ويظن بنا، على ذلك من شق الباب الذي اطل منه
راسها قبل قليل ، فراها جالسة الى منضدة الشاي ،
تدخل عليها وحياتها بابتسامة ملؤها البشر والمرح .
نهضت السيدة احتراماً وقالت :

«صباح الخير يا سيدى ، كيف كان نومك ؟»
كانت ترتدى ملابس احسن من ملابسها فى الليلة
السابقة . كانت ترتدى رداء غامق اللون ، وعلى راسها
قبعة اخرى غير قبعة الليلة الماضية ، وكان عنقها
ملفوفاً بشىء ما ، يخفيه لفاع .

فقال تشيتشيكوف وهو يجلس على كرسي «لقد نمت
نوماً هينئاً جداً . وكيف حالك ايتها السيدة الطيبة ؟»
«على غير ما يرام يا سيدى العزيز» .
«ولماذا ؟»

«لأننى لا أستطيع النوم . ان الما يشد وسطى
ويستد الى ساقى مما فوق الكاحلين حتى اخال عظامى
تتكسر» .

«لك الشفاء ، لك الشفاء العاجل باذن الله . يجب ان
لا تعيريه كثير الاهتمام» .

«سمع الله دعاك . على اية حال فقد كنت افركه
بالدهن والتربتين . ماذا تريد ان تشرب مع الشاي ؟
لدى فى هذه العلبة بعض الروم» .

«عظيم جداً ايتها الام الطيبة . اذن سأحتسى منه» .
ومن المحتمل ان يكون القارى قد لاحظ ان
تشيتشيكوف ، على الرغم من رقة قلبه الظاهرية ، اخذ
يناطب مضيقته الجديدة بنغمة مختلفة كل الاختلاف عن

يضى على المنظر رونقا وبهاء . كانت تحفر اول الامر
فى كومة من القش ومن ثم اكلت فى طريقها فرجة
صغيرة وبالتالي اخذت تقضم قطعاً من قشور البطيخ فى
راحة وهدوء بال . وحول هذه الساحة الصغيرة اقيم
سياج خشبى . وفيما وراء ذلك كانت حدائق البيت
الكبيرة التى زرع فيها الكرنب والبصل والبطاطا
والشمندر والخضروات البيتية الأخرى . وكان فس
الحديقة ايضاً بضعة اشجار تفاح وفواكه مختلفة
وضعت عليها شباك لكي تحفظ ثمارها من العصفور
والعقرب . وكان من هذه الطيور اسراب تنطلق وتحوم
حول الشباك من تظلة الى اخرى . وللسبب نفسه
نصبت بضعة هياكل من مزارع الطيور ، وعلى رأس
واحد منها وضعت قبعة كانت فى زمانها الغابر لربة
البيت . ومما وراء الحدائق قام عدد من الاكواخ
الفلاحين . كانت الاكواخ مبعثرة بدلا من ان تكون
منتظمة فى صفوف بدت فى عيني تشيتشيكوف انها
تضم سكانا فى سعة من العيش ، لمظاهر العناية البادية
عليها والسقوف الخشبية المتعفنة عادة كانت هنا
جديدة ، ولم يكن يظهر فيها بان منحرف او مخلوق ،
ومظلات العربات المائلة امام عينيها كانت تدل ، على
الاقبل ، على وجود عربة او عربتين احتياطية زائدة
جديدة تقريبا تقف تحتها .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «ان هذه السيدة تمتلك
قرية غير فقيرة ابداً» ، ولهذا قرر آتئذ ان يتحدث فى
الموضوع مع مضيقته وان يوتق معها اواصر المعرفة .

نعمته التي يبذل فيها ؛ نعمة فيها الكثير من البشر وفيها أيضاً من الحرية ورفع الكلفة أكثر من تلك التي استعملها مع مانيلوف ولي هنا أن أؤكد بأن الأجانب مهما كانوا يفوقونا - نحن الروس - في وجوه عديدة ، فاننا على الأقل نفوقهم في مواضع الكلم ولباقة الحديث . فاننا نستطيع في الواقع أن نضفي على مخاطباتنا واحاديثنا في المجتمع مختلف الظلال وان نضيفها بمسحات متعددة تتحدى كل حصر . فالفرنسي أو الألماني يعجز عن تصور أو فهم كل خصائص هذه الظلال أو المسحات لأن نعمته في مخاطبة صاحب الملايين لا تختلف الا قليلا جدا عن تلك التي يخاطب بها بانسج التبخل الفقير ، هذا على الرغم من محاولته الشديدة في التذلل النفسي امام الاسبق . لكن الامور عندنا تختلف على أية حال . ففي المجتمع الروسي قوم ماهرون يستطيعون أن يتكلموا بنعمة معينة للملاك الذي يمتلك مئتي نفس وبنعمة أخرى لذلك الذي يمتلك ثلاثمائة وبأخرى لصاحب الخمسمائة ، وهكذا . أي ان الروسي لديه من نعمات الخطاب المختلفة ما يستطيع ان يخصص منها لكل ملاك حسب درجته حتى ذلك الذي يمتلك مليون نفس . لنفرض أن هناك دائرة حكومية في مكان ما ، وفي هذه الدائرة رئيس . أرجو أن تتصوره ، أيها القارئ جالساً بين موظفيه الطمحين . ان غطرسته سوف تمنعك من أن تنبسط ببنت شفة ، فدلائل العظمة والكبرياء الظاهرة على وجهه أكثر من أن توصف . وإذا شئت يوماً أن ترسم له صورة في مخيلتك فلن تجد له

شبيهاً بغير بروميشيوس * لأن نظرتك نظرة النسر ومشيته مشية الهيبة والاعتداد بالنفس . ولكن ما يكاد النسر يترك الغرفة ذاهباً الى مكتب رئيسه الاعلى حتى يهرول وهو يلصق الاوراق بأنفه كأي حجل يدرج في الغلاة . ولكنه في المجتمع وفي حفلات المساء (عندما يكون الموجودون اقل رتبة منه) يعود بروميشيوس ، بروميشيوس مرة أخرى . اما اذا كان من هو اعلى منه ، فانه سوف يسلك معه سلوكاً لم يحلم به أوفيدى * . ويتحول الى ذبابة وحتى الى احقر من ذبابة ، الى حبة رمل . واذا نظرت الى رجل كهذا فانك ستقول «ليس هذا زيداً بكل تأكيد ، ان زيداً طويل وهذا قصير ، ان زيداً ذو صوت جهورى عميق لا يبتسم ابداً ، وهذا الرجل (أي رجل كان) يرتجف كالعصفور ويبتسم طوال الوقت» . لكن اقترب من الرجل وانظر اليه ملياً تجد زيداً بعينه ، ولا تستطيع الا أن تقول «والأسفاه والاسفاه» ولتعد الآن الى شخصياتنا من الحياة الواقعية . فقد عرفنا ان تشيستشيكوف آنذاك عقد العزم على وضع حد للمجاملات ، فأمسك بأناه الشاى وصعب عليه الروم وبدأ الحديث كما يلي :

«ان قريتك الصغيرة جميلة يا سيدتى ، كم نفساً فيها ؟»

* بطل خرافي يوناني تحدى كبير الالهة زيوس واحضر النار لبشر الانسان على الارض . الناشر .
* شاعر روماني . الناشر .

نعمته التي يبذل فيها ؛ نعمة فيها الكثير من البشر وفيها أيضاً من الحرية ورفع الكلفة أكثر من تلك التي استعملها مع مانيلوف ولي هنا أن أؤكد بأن الأجانب مهما كانوا يفوقونا - نحن الروس - في وجوه عديدة ، فاننا على الأقل نفوقهم في مواضع الكلم ولباقة الحديث . فاننا نستطيع في الواقع أن نضفي على مخاطباتنا واحاديثنا في المجتمع مختلف الظلال وان نضيفها بمسحات متعددة تتحدى كل حصر . فالفرنسي أو الألماني يعجز عن تصور أو فهم كل خصائص هذه الظلال أو المسحات لأن نعمته في مخاطبة صاحب الملايين لا تختلف الا قليلا جدا عن تلك التي يخاطب بها بانسج التبخل الفقير ، هذا على الرغم من محاولته الشديدة في التذلل النفسي امام الاسبق . لكن الامور عندنا تختلف على أية حال . ففي المجتمع الروسي قوم ماهرون يستطيعون أن يتكلموا بنعمة معينة للملاك الذي يمتلك مئتي نفس وبنعمة أخرى لذلك الذي يمتلك ثلاثمائة وبأخرى لصاحب الخمسمائة ، وهكذا . أي ان الروسي لديه من نعمات الخطاب المختلفة ما يستطيع ان يخصص منها لكل ملاك حسب درجته حتى ذلك الذي يمتلك مليون نفس . لنفرض أن هناك دائرة حكومية في مكان ما ، وفي هذه الدائرة رئيس . أرجو أن تتصوره ، أيها القارئ جالساً بين موظفيه الطمحين . ان غطرسته سوف تمنعك من أن تنبسط ببنت شفة ، فدلائل العظمة والكبرياء الظاهرة على وجهه أكثر من أن توصف . وإذا شئت يوماً أن ترسم له صورة في مخيلتك فلن تجد له

«أقل من ثمانين بقليل ، يا سيدى العزيز . ولكن
الزمان صعب قاس ، وقد فقدت الكثير فى قحط السنة
الماضية» .

«ولكن فلاحيك رجال اقوياء اصحاء . هل لى أن اسالك
عن اسمك ؟ ان وصولى المتأخر فى الليلة الماضية
جعلنى افقد الصواب» .

«كوروبوتشكا ، أرملة موظف فى الدرجة التاسعة» .

«شكراً جزيلاً ، واسمك الاول ؟»

«ناستاسيا بتروفنا» .

«ناستاسيا بتروفنا ! يا لها من اسماء جميلة ! ان لى
خالة بالاسم نفسه» .

«وما اسمك أنت ؟ هل أنت مختار • كما يبدو لى ؟»

فاجابها تشيتشيكوف بابتسامة «لا يا سيدتى ، لست
مختاراً ، انما انا مسافر فى مهمة خاصة» .

«اذن يجب أن تكون ممن يشترون المنتوجات ؟ يا
للأسف لأننى بعت كل ما لى من العسل لتجار آخرين
بشئ زهيد . ولو لا ذلك لبعته لك ايها السيد
العزيز» .

«لا ، لا اشترى العسل ابدا» .

«اذن ما الذى تشتريه يا الهى ؟ قتب ؟ عندى شئ
قليل منه ، نصف بود •• او أكثر بقليل» .

• مختار - شخص يختار للاشتراك فى اعمال مؤسسه
ما فى روسيا قبل الثورة . الناشر .
•• البود - ١٦,٢٨ كيلوغراما . الناشر .

«لا يا سيدتى ، فانى اتعامل باشياء اخرى . قولى لى ،
هل سمات فى السنين السابقة عدد كبير من فلاحيك ؟»
فتنهدت العجوز وقالت «اجل ، لا اقل من ثمانيه

عشر ، وكلهم من الاقوياء العاملين . لقد نما غيرهم فى
الواقع ولكنسى لا ارجو خيراً من الاحداث . انهم
طاشون . وعندما جاءنى المختار فى المرة الأخيرة رحى

ابكى امامه . كان على أن ادفع ضريبة عن رجالى
الاموات كما لو كانوا احياء . ومنذ اسبوع فقط توفى
عندى الحداد حرقا . لقد كان فى مهنته بارعاً ضليعاً» .

«ماذا تقولين ؟ هل شب حريق فى القرية ؟»

«لا ، لا ، وقانا الله شر ذلك ! ان الامر لم يكن بهذه
الدرجة من السوء . انما الحداد قد احرق نفسه بنفسه .

فقد اشتعلت النار فى امعائه من كثرة الشراب . نعم ،
فقد بدا فجأة منه لهب أزرق واخذ لونه يتحول الى

السواد شيئاً فشيئاً حتى اصبح وكأنه قطعة من فحم .
لكن أى فلاح بارع كان . ليس لى الآن خيول تقود

العربة ، فلا احد فى القرية يستطيع حذوها» .

فتنهدت تشيتشيكوف وقال «انها مشيئة الله فى كل
شئ» ، يا مدام . وليس لنا ان نرفض مشيئته . اعطنى
اياهم يا ناستاسيا بتروفنا» .

«اعطيك ماذا ؟»
«الفلاحين الموتى» .

«ولكن كيف يتسنى ذلك ؟»
«الامر بسيط . بيعهم لى ، وسوف اعطيك بدلا منهم
تقودا» .

«لكن كيف ابيعهم لك ؟ انى لا اكاد افهم ما تعنى ! هل تريدنى ان انبش قبورهم واخرجهم لك» ؟
 فرأى تشيتشيكوف ان العجز فى بحر من الضياع ، وان عليه ان يوضح لها الامر . وعلى ذلك افهمها ببضعة كلمات ان بيع الانفس الميتة هذه او نقلها سوف يتم على الورق فقط ، وانها ستسجل كما لو كانت حية .

فحدقت ربة البيت بعينين شاخصتين وقالت «وما الفائدة التى سوف تجنيها منها ؟»

«ان هذا من شأنى» .

«ولكنها نفوس ميتة !»

«ومن قال انها غير ذلك ؟ انها مجرد نفوس ميتة تتالمين حزناً عليها وتضطرين الى دفع الضريبة عنها . وكل ما اريد ان اعمله هو ان اخلصك من هذه الاحزان وارفع عنك عبء دفع الضرائب . هل فهمت الآن ؟ ولن افعل ذلك وحسب وانما سوف اعطيك خمسة عشر روبلا عنها . هل اصبح واضحاً ما اقول ؟»

قالت المضيفة مترددة «نعم - لكن . . . لا اعرف . فانا لم ابع ابدأ نفوساً ميتة من قبل» .

«تماماً ، وسيكون مستغرباً لو فعلت . وهل توتنين فى قرارة نفسك بان الانفس الميتة ذات فائدة ؟»

«اوه ، طبعاً لا . وما جدوى الانفس الميتة ؟ انسى واثقة من عدم نفعها . انما الشئ الذى يجيرنى هو انها ميتة !»

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «انها لعجوز عنيدة حقاً»

واضاف بصوت عال «انظرى يا سيدتى ، فكرى جيداً . ولكنك ، بصريح القول ، ستجربين الخراب والدمار على نفسك بالاستمرار فى دفع ضريبة عن نفوس ميتة كما لو كانت حية» .

فقالت السيدة «يا للهول يا سيدى ! لا تتكلم عنها ! فنذ اساسيخ ثلاثة فقط دفعت مئة وخمسين روبلا للجابى ورشوته . . .»

«ها انت ترين بأم عينك ما يحدث لك . اليس كذلك ؟ تذكرى انك اذا اصغيت اليّ لن تضطرى فسى المرة القادمة الى رشوة الجابى ، لاننى انا الذى سادف الضريبة عندئذ - لا انت - بل انا سوف اصبح مسؤولاً عنها كلياً ، بعد ان اصبح المالك لهذه النفوس بنقودى ، ومسؤولاً عن كل ما يترتب عليها . بل وادفع نقوداً لحق الامتلاك . هل فهمت اخيراً ؟»

مهما يكن من امر ، فان نفس السيدة العجوز ظلمت تساورها . كانت ترى ان بيع النفوس فى مصلحتها ، ولكن القضية ذات طبيعة غريبة جداً حتى انها بدأت تتحسب من ان هذا المشتري يريد ان يخدعها . لقد جاء من حيث لا يعلم الا الله ، وهبط على البيت فسى ظلمة الليل ايضاً .

وقال تشيتشيكوف ناصحاً «هلا اتفقنا ؟»

«ولكن لم ابع فى حياتى قوماً موتى ! لقد بعث الاحياء فقط . فمنذ سنوات ثلاث خلت بعث فتاتين للكاهن ، كل فتاة بمئة روبل ، وقد شكر لى ذلك شكراً جزيلاً ، فقد تبين له انها عاملتان ماهرتان تصنعان الفوط» .

«نعم ، ولكن حديثنا لا يتناول الأحياء منهم - اطال
الله أعمارهم - انى اطلب اليك الموتى فقط» .

«نعم ، نعم ، بالطبع . ولكنى خشيت بادى الأمر ان
تكون لى فى الصفقة خسارة - وان يكون قصدك ان
تعلمينى يا سيدى العزيز . . . ربما تمن النفوس الميتة
أعلى مما عرضت» .

«اسمعينى أيتها السيدة (كم صعبة أنت !) كيف يمكن
ان يكون ثمنها أعلى من ذلك ؟ فكرى بنفسك . انها
رفات - رفات ، هل تفهمين ؟ خذى أى شىء تأفقه
مهمل - كقطعة بالية متهرئة من القماش مثلا ، ان لها
ثمننا ما ، فهى تباع على الأقل لصنع الورق . ولكن
الانفس الميتة هذه - انها لا تصلح لشىء اطلاقاً . هل
تستطيعين ان تذكرى لى شيئاً واحداً لها نفع
فيه ؟»

«لا ، لا ، انها لا تنفع لشىء . ولكن الذى يزعجنى هو
انها ميتة» .

فابتداً تشيتشيكوف يفقد الصبر وقال فى نفسه «يا
لها من مخلوقة غيبية حقاً ، صعبة المراس لا مجال للاتفاق
معها . لقد جعلتنى اتصيب عرقاً هذه العجوز اللعينة» .
وهنا سحب من جيبه منديلاً ومسح العرق عن جبينه .
بيد انه ما كان عليه ان يفعل الى هذا الحد . فان كثيراً
من رجال السياسة اذا ما جوبهوا بقضية هامة يتكشف
المرء مدام كوروبوتشكا اخرى . فاذا حمل فى رأسه
فكرة معينة فليس من سبيل الى نزعها او تغييرها . وقد
تُدلى له بالحجة تلو الحجة وبالبينة تلو البينة ، وكل

منها واضح وضوح الشمس الا ان حججك وبيناتك تردت
راجحة عن دماغه كما تردت كرة من مطاط بعد ان تضرب
فى قطعة من صخر . على أية حال ، فبعد ان مسح
تشيتشيكوف عرقه قرر ان يكرر محاولته فى الوصول
بالسيدة الى ما يريد عن طريق آخر . فقال «اسمعى يا
سيدتى ، اما انك لا تفهمين ما اطلب اليك او انك
تحدثين لعجرد الحديث فقط . انا اعطيك نقوداً -
خمس عشرة روبلاً ورقياً . . . هل تفهمين ؟ انها نقود ،
وليست شيئاً يمكن ان تجديه فى قارعة الطريق . . .
قولى لى ، بكم بعث عسلك مثلاً ؟»

«بائنى عشر روبلاً لكل بود» .

«ايه انك بهذه الكلمات يا سيدتى تكذبين على
نفسك . لانك لم تبيعي العسل بائنى عشر روبلاً» .
«بلى والله لقد بعته بهذا الثمن» .

«لا بأس ، لا بأس ، ان العسل هو العسل . ولكنك
قد جمعته فى مدة طويلة من الزمن قد تكون سنة
كاملة بذلت فيها من العناية والجهد ما لا نهاية له .
كنت تهتمين بأمره وتروحين وتأتين اليه ، وحفظت
التحل واطعمته فى خلايا طيلة ايام الشتاء والبرد .
ولكن النفوس الميتة التى اتحدث عنا لم تبذل فى أى
مجهود . مشينة الله هى التى وضعت حداً لحياتها على
الأرض وانقضت عدد الأقدان فى قرينتك . ففى الحالة
الأولى ، استلمت اثنى عشر روبلاً لكل بود (كما تقولين)
عن تمبيك ومجهودك فى العسل . ولكن فى الحالة الثانية
ستأخذين - لا اثنى عشر روبلاً - بل خمسة عشر .

وسوف لا اعطيها لك روبلات فضية ، بل روبلات من العملة الورقية *» .

لم يكن هناك شك لدى تشيتشيكوف في ان هذه الحجج الدامغة سوف تغرى العجوز بالاستسلام بكل تأكيد .

فاجابت العجوز تقول «يا لغرابة الاعمال التي تعترضنى وانا ارملة عديمة الحيلة ! قد يكون من الافضل لو انتظرت بعض الوقت فقد يمر بعض المشتريين الآخرين وارى فيما اذا كانوا سيدفعون ثمناً آخر ، واقارن عندئذ بين الائمان» .

«يا للعار يا سيدتى ! يا للعار ! هل تفكرين فيما تقولين ؟ فمن هو الذى سيشتري هذه النفوس ؟ وى فائدة يمكن ان يجنيها انسان منها ؟»

فاخذت العجوز تفكر بصوت عال وتقول «اذا كان الامر كذلك فقد يتبين ان لها فائدة لى» . ومن ثم جلست تحدد في تشيتشيكوف بغم مفتوح ووجه متوتر تنتظر ماذا سيكون رد الفعل عند محدثها .

فقال تشيتشيكوف متمجّباً «فائدة ترجى من الموتى فى عقر بيت . ماذا ؟ ما الذى يمكن ان تفعله بهم ؟ تنصيبهم على اعمدة لتخيفى المصافير فى الحديقة ؟» فقالت وهى تصلب على نفسها «احفظنا يا رب ! لكن ما هذا الذى تقول ؟»

* كانت قيمة العملة الورقية اكثر من قيمة مثيلتها الفضية . الناشر .

«اجل ، ماذا ستفعلين بهم ؟ انهم اصبحوا الان عظاما وقبوراً لا شىء آخر . وانتقالهم سيكون على صفحات الورق فقط . كفى ! كفى ! هيا اعطنى الجواب الاخير» . وراحت العجوز مرة اخرى تستشير نفسها .

فقال تشيتشيكوف «ما الذى تفكرين به يا ناستاسيا بترفنا ؟»

«انى لا اكاد اعرف ماذا سافعل . قد يكون من الافضل ان ابيعك تيل قنب ؟»

«وما الذى اريده من تيل القنب ؟ اسمح لى . . . عندما اقترح عليك اقتراحاً ، ارى انك تطنطنين لى بقصة تيل القنب . تيل القنب هو تيل القنب . وقد احتاج منه شيئاً فى زيارتى القادمة ، اما الان فارىد ان اعرف ما هو رايك فى الاقتراح الذى هو موضع البحث» .

«اظن انها مساومة غريبة جداً ، فلم اسمح بشىء كهذا اطلاقاً !»

عندئذ فقد تشيتشيكوف ما تبقى لديه من الصبر ، فقلب الكرسي على الارض وقال لها ان تنصرف الى الشيطان . ولكن ذكر الاخير جعلها ترتجف هلعاً . فشحب لون وجهها وقالت «اتوسل اليك ، لا تذكره ! عفا الله عنه ! كانت الليلة الماضية ثالث ليلة يظهر لى فيها فى المنام . فبعد ان انهيت صلاة المساء ، خطر لى ان اعرف حظى فى ورق اللعب . يجب ان يكون قد ارسله الله لى عقاباً على ذلك . كان منظره مرعباً جداً وقرناه اطول من قرنى النور !»

«لا أدري لماذا لا ترين عشرات من الشياطين فسي
احلامك . قد يكون جاء عطفاً عليك ورافة بك يخبرك
بانك عجوز فقيرة سائرة في طريق الدمار وستنتهين في
القريب العاجل الى العوز والفاقة . هيا - الى جهنم بك
وبقريتك !»

ف نظرت العجوز الى ضيفها برعب وهلع وراحت تقول
«يا للامانات !» فأكمل تشيتشيكوف قوله «لا أجد في
الحقيقة الكلمات المناسبة لأصفك بها . انك كالكلب
المربوط الى اليمذود ، لا يأكل العلف ولا يدع غيره
يأكل منه . كل ما كنت أريده منك هو ان اشترى بعض
المنتجات من قريتك ، لاننى متعهد للحكومة بمثل هذه
الحاجات» .

ذكر هذه الفكرة الأخيرة ، عابراً ، لأنها مرت فسي
خاطره كفكرة حلوة دون ان يكون له من ورائها هدف
بعيد . ولكن ذكر تعهدات الحكومة كان له تأثير قوى
على ناستاسيا بتروفنا ، فسارعت تقول بنغمة متضرعة
كانها في صلاة «ولماذا اشتد بك الغضب على ؟ لسو
كنت أعلم ان الغضب سيساورك من هذا الحديث لما
ناقشتك فيه» .

«لا عجب ان غلا غضبي . ان الامر لثافه جداً ، ولكنه
قد يصل بالانسان احياناً الى درجة الغليان» .
«سوف أعطيك النفوس ، بخمسة عشر روبلاً ورقياً ،
على ان تعدنى عند التعهدات ان تذكرنى في اى وقت
تحتاج فيه الى الحنطة والجويدار او الجريش واللحم
المجففة» .

«لا ، لن انساك أبداً يا سيدتى» . واخذ يمسح عن
جبهته ثلاثة جداول من العرق تصب على وجهه . ثم
سألها اذا ما كان لها فى المدينة اى قريب او وكيل
تستطيع ان توكل اليه التوقيع على الصفقة ، وان ينوب
عنها فى كل ما تتطلبه العملية من اجراءات فى دوائر
الحكومة» .

فاجابت السيدة كوروبوتشكا «طبعاً ، ابن قستيسنا
الاب كيريل ، هو نفسه محام» .

عندئذ وجها تشيتشيكوف ان تكتب للرجل المذكور
صيغة التوكيل ، وذهب بنفسه تيسيراً للامور فى التسو
والساعة لكتابة التوكيل المطلوب .

بينما راحت السيدة تفكر فى نفسها قائلة «مسن
المستحسن ان اغريه بشراء طحيتى وحيواناتسى
لتعهدات الحكومة . وعلى ان اجد طريقة اشجعها فيها
على ذلك . لدينا عجيب من الليلة الماضية . ساذهب الى
فيتينيا واجعلها تقلى له بعضاً . ولا بأس ان اقدم له
منها فطيرة بالببيض . اننا نحسن صنع هذه الاكلة هنا ،
وهى لا تاخذ وقتاً طويلاً» . وهكذا انطلقت تترجم
افكارها هذه الى حيز التنفيذ ، ولكى تزيد على الفطير
اشياء اخرى من محتويات المطبخ . اما تشيتشيكوف
فقد عاد الى صالة الاستقبال - حيث قضى ليلته
السابقة - ليحضر من صندوق رسائله اوراق الكتابة
اللازمة . كانت الغرفة قد اعيد ترتيبها ورفع منها
فراش الريش الضخم ووضعت منضدة امام الديوان .
فوضع صندوق رسائله على المنضدة . ثم تنهد تنهداً

لطيفة عندما أحس انه مبلل بالعرق كما لو غطس في نهر . كانت كل ملابسه من القميص الى الجوارب تنقط عرقاً . وبعد أن استراح لحظة قال «اه» ، كم أتعبتني ، هذه السمطاء اللعينة !» ثم فتح صندوق الرسائل . وقد يكون عند بعض قرائي ، على الأقل ، رغبة في معرفة محتويات هذا الصندوق والشكل الذي رتبته عليه . ولماذا لا ألبس هذه الرغبة ؟ كان أولاً في وسط الصندوق صحن لقطعة الصابون يحيط بها ستة أو سبعة جيوب صغيرة لامواس الحلاقة ، وتلي ذلك قواطع مربعة الشكل لعلبة الرمل * وللمحيرة وما بينهما قاطع مستطيل لربشة الكتابة ثم قاطع آخر لتشمخ الاختام وما احتاج الى مجال كبير وأخيراً كانت قواطع أصغر للأشياء الصغرى كبطاقات الزيارة وشهادوات الدفن ، وتذاكر المسارح وما احتفظ به تمشيشيكوف على سبيل الذكرى . وهذا القسم كله من الصندوق يمكن أن يرفع الى الخارج حيث يظهر تحته مكان للأوراق وصندوق سري صغير للنقود . والأخير يمكن أن يسحب من الجانب . وكان يفتحه ويسده بسرعة لكي لا يعرف أحد كم لديه من النقود . وشرح تمشيشيكوف ينظف ريشة ليكتب بها وإذا بالمضيقة تدخل عليه مبدية أعجابها بالصندوق ، وقالت وهي تجلس على مقعد مجاور «ما

* كان الرمل يستعمل لتجفيف الحبر قبل وجود ورق الشاف . الناشر .

هذا الصندوق الجميل يا سيدي ؟ هل اشتريته من موسكو ؟»

فاجاب تمشيشيكوف دون أن يقطع حبل الكتابة «نعم ، من موسكو» .

«لقد عرفت ذلك ، فالمرء يستطيع أن يشتري أشياء جيدة من هناك . من ثلاثة أعوام اشترت اختى بعض الأحذية الجيدة لابنائها . وقد كانت بضاعة جيدة جداً ، الى هذا اليوم يلبسها الاولاد . اه ، كم لديك من الأوراق بشعار الحكومة ! (قالت هذا وأخذت عينها تبصيصان داخل الصندوق فوجدت كمية غير قليلة من الورق المذكور) . أتسمح لي بأخذ ورقة منها ؟ ليس عندى منها شيء ، وعلى أن أقدم طلباً الى المحكمة وليس من شيء . اكتب عليه» .

عندئذ أوضح لها تمشيشيكوف بأن هذا الورق ليس من النوع الذي تبغى ، فهو مطبوع خاصة لبيع الاقنان ولا يصلح لتقديم طلبات أخرى . ومع ذلك فقد أعطاها بنية ارضائها ورقة عليها طابع بروبل واحد . ثم سألها الرسالة لتوقعها ، وطلب اليها لقاء ذلك نسخة عن لائحة بأسماء الفلاحين . ولكن لائحة من هذا القبيل ، لسوء العظ ، لم تكتب في يوم من الأيام ، والطريقة الوحيدة هي أنها كانت تحفظ أسماءهم عن ظهر القلب . مهما يكن من أمر ، فقد طلب اليها أن تملئ الاسماء عليه . وقد اندهش بطلنا من أسمائهم كما اندهش من بعض الألقاب أيضاً . وقد وقف لحظة عندما سمع اسم - «بيتر سافيليف غير المحترم للطست» وقال لا ارادياً «أى

سلسلة من الاسماء هذه» . وكان لقب قين آخر
«حجر البقرة» و لقب ثالث «عجلة ايفان» . على آية حال ،
فقد اكمل اللانحة اخيراً وتنفس الصعداء . وفى عمليته
الاخيرة هذه التقط انفه رائحة شهية لشيء مقسلي
بالذم . فرفع رأسه والتي نظرة على المائدة ، فاذا
بها ملأى بالفطر والقطير واللحوم المختلفة .

«ارجوك أن تتناول لقمة . جرب هذه الفطيرة الطازجة
المقلية بالببيض» فامتثل تسيشيكوف للأمر . وبعد أن
أكل أكثر من نصف ما قُدم له أخذ يمدح الفطير
مطناً . كان فى الواقع لذيق الطعم ، وقد يزيد من لذة
طعمه انه جاء بعد المجهود العنيف والمصاعب الهائلة
التي مر بها مع مضيفته .

وقالت السيدة «وبضعة من الفطائر الصغيرة
ايضاً ؟»

وردًا على ذلك طوى تسيشيكوف ثلاثاً مع بعضها
البعض وغمسها فى صحن الزبدة ووضعها فى فمه دفعة
واحدة ثم مسح يديه وفمه بالفوطة . واعاد هذه العملية
ثلاث مرات ايضاً ، ثم طلب من مضيفته أن ترسل
لاعداد العربية . ولما طلبت السيدة من فيتينيا أن تذهب
لتنفذ الامر قالت لها أن تحضر معها عند عودتها طبقاً
جديداً من الفطائر الساخنة . فاخذ تسيشيكوف يقوم
بمهمته فى الطبق الجديد عند وصوله وهو يقول «انها
عظيمة حقاً» .

قالت السيدة «اجل ، اننا نتقن فى صنعها هنا . ولد
لم يكن موسم الحصاد سيئاً هذا العام والطحين غني

جيد ، مما معنى أن . . .» وراته يمد يده الى قبعته
وقالت : «ولكن علام تستحث الخطى يا سيدى ؟ ان
العربة غير جاهزة بعد» .

«لكن هذا لا يستغرق وقتاً طويلاً ، وانى بحاجة الى
دقيقتين كى احزم متاعى» .

«كما تشاء يا سيدى ، لكن لا تنسى من تلك
التعهدات الحكومية» .

فهرع تسيشيكوف مهرولاً الى القاعة وهو يقول «لا ،
لقد قلت لك اننى لن انساك» .

فتبعته مضيفته وهى تقول «الا تريد ان تشتري
شيئاً من شحم الخنزير ؟»

«شحم الخنزير ؟ اوه ، طبعاً ، ولم لا ؟ انما . . . انما
سأترك ذلك للمرة القادمة» .

«سيكون لدى قسم منه جاهزاً بعد عيد الميلاد» .
«اجل ، اجل يا سيدتى . سوف اشترى آئند كل شيء
بما فى ذلك الشحم» .

«وربما كنت بحاجة الى الريش ايضاً ؟ سيكون جاهزاً
عندى للبيع فى عيد القديس فيليب» .

«حسناً جداً ، حسناً جداً يا سيدتى» .
وخرجا الى الشرفة . فقالت «ها أنت ترى ان العربية
ليست جاهزة بعد» .

«ولكنها سرعان ما تجهز . الا انى ارجوك ان تدلبنى
على الطريق الرئيسى» .

«وكيف لى أن أقبل ذلك يا سيدى ؟ ففى هذه الناحية
عدد كبير جداً من المنعطفات . على آية حال ، سوف

عدد كبير جداً من المنعطفات . على آية حال ، سوف

عدد كبير جداً من المنعطفات . على آية حال ، سوف

ارسل فتاة تدلك عليها . تستطيع ان تجد لها موضعاً
قرب مقعد السائق ، اليس كذلك ؟

« بلى ، بلى » .

« اذن سارسلها معك ، انها تعرف الطريق جيداً . انما
لا تذهب بها بعيداً ، فقد فقدت احدى فتياتى اذ اخذها
منى بعض التجار المتجولين » .

فطمان تشيستشيكوف روعها بهذا الشأن . فاطمات
واخذت بناء على ذلك تتفحص الساحة . فوقع بصرها
على احدى خادماتها وهي خارجة من مغزن المؤن تحمل
في يديها ائنا خشبياً مليئاً بالعسل ، ورات فلاحاً آخر
يتلصقاً قرب الرتاج . وهكذا انغمست بنفسها شيئاً
فشيئاً في شؤونها المنزلية واصبحت مهتمكة فيها .

ولكن لماذا نعير كوروبوتشكا اهتماماً ؟ تباً للارملة
كوروبوتشكا ومدام مانيلوفا والحياة المليئة والحياة
الفارغة ! فمن ذا الذى يهتم بهذه الامور ؟ لكن فى الدنيا
من الغرابة شيئاً كبيراً . وان المرء اذا ما فكر فى امر
وابتسم له ، ما يكاد ينهى ابتسامته هذه ، حتى يكون
فكره قد انتقل الى امر آخر قد يكون محزناً . الله وحده
يعلم الافكار العديدة التى تترك فى ذهن الانسان فى
اللحظة الواحدة . وقد تفكر ايها القارىء فى لحظة
كاللحظة التى نحن فيها فتقول - هل صحيح ان مدام
كوروبوتشكا تقف فى سلم الكمال الانسانى على درجة
منحطة جداً ؟ وهل هناك فى الحقيقة هوة كبيرة تفصل
بينها وبين اختها التى تقبع محسودة بين جدران اربعة
فى بيت فخم ارستقراطى ، مليء بالعطور ، ذى سلالم من

حديد مزين بالتحف النحاسية مؤثت بالخشب النفيس ،
مفروش بالسجاد ، تقضى معظم اوقاتها تتناوب خلف
كتب لم تكمل قراءتها ، تنتظر زيارة شخص متميز
اجتماعياً لكى تطلعه على قنطرتها وتشرح له افكارها
المحفوظة المعادة التى سبقت معرفتها والتى شغلت
المدينة منذ اسبوع مضى والتى لا علاقة لها اطلاقاً
بشؤونها المنزلية او شؤون مزرعتها اللتين دب فيهما
الغوى والغراب نتيجة جهلها بما هو هام فى الحياة .
انها تناقش الانقلاب السياسى الذى تنهيا فرنسا للقيام
به ، والاتجاه الحديث الذى اخذت تسيير فيه
الكاثوليكية الجديدة . تباً لهذه الامور ! ولماذا نتكلم
عنها ؟ ولكن لماذا يكون الانسان فى لحظة من اللحظات
سعيداً حينئذ خالى البال والتفكير ويحس فجأة بموجة
من الهمّ تمر عليه لا يعلم لها مصدراً ؟ ولا تكون
الابتسامة قد فارقت ملامحه ويشعر فوراً ان هناك فرقاً
بينه وبين زميله الذى يجلس معه ، ويشع وجهه
باشعاع مختلف جداً .

ولما راي تشيستشيكوف العربية تتقدم ببطء صاح «ها
هى العربية» . ثم لسيليفان «يا للغبى ، لماذا تتلكأ
هكذا ؟ ارى ان خمرة الامس لم تتبخر من راسك بعد» .
ولم ينبس سيليفان ببنت شفة .

وخطب تشيستشيكوف السيدة قائلاً «وداعاً يا مدام .
ولكن اين البنت ؟»

فصاحت «هاهى ، بيلاغيا» . وأشارت الى فتاة فى
الحادية عشرة من عمرها ترتدى ملابس مفزولة ومصبوغة

في البيت ولها قدمان عاريتان يكسوهما الوحل الكثيف ،
إذا نظر اليهما الانسان من بعيد يحسبها تنتعل خُفًا .
«هيا يا بيلاغيا ، اذهبي ودلي السيد على الطريق» .
وساعد سيليفان الفتاة نسي الصعود الى مقعده .
فوضعت قدمًا على الرُفوف الذي يصعد عليه السيد
وملأته بالوحل . ثم صعدت واحتلت مكانها المقرر قرب
السائق . وحذا تشيتسيكوف حذوها (مما جعل العربية
تميل من ثقله) واستقر في مقعده الخلفي وهو يقول
«كل شيء على ما يرام ، وداعا يا مدام» . وانطلقت
الجياد خبيبا .

كانت الجهامة ظاهرة على سيليفان ولكنه كان متنبها
متيقظا لعمله . وكانت هذه عادته الدائمة عندما يرتكب
خطيئة أو يسكر . وكان يبدو على الجياد أيضا أنها
نظيفة أكثر من المعتاد ، فان طوق احدها كان مرتبًا
جداً ، مع ان في السابق الطوق نفسه بلغ درجة بعيدة
في القدم بحيث اخذت حسوته تخترق الجلد وتبرز من
خلال الثقب . اما الصمت فكان يكون كاملا . كان
سيليفان يلوح بسوطه فقط ولم يكن يتكلم مع
الجياد ، مع ان الارقط كان على استعداد - كما هي
العادة - لسماع ارشاد طويل لا سيما وان الأعنة كانت
رخوة في يد السائق الفصيح والسوط يجول جولات
برينة فوق ظهر الترويكا بحكم العادة . مهما يكن من
أمر ، فان الانسان كان يستطيع ان يسمع من شفهي
سيليفان الكئيبتين ، الصيحة البذيئة المعتادة «امشوا
ايها الحيوانات . امشوا ايها الحيوانات» . حتى الكميت

والمستشار لم يكونا يشعران بالرُضى لأنهما لم يسمعا
التداء المألوف «ايها العزيزان» ، أو «ايها البطلان» .
ثم اخذ الارقط يتلقى ضربات عنيفة على كفله العريض
الواسع . فراح يهز اذنيه ويقول في نفسه «ما الذي
غير من طبع سيدي ؟ انه يعرف جيدا أين يضربني . لا
يضربني على الظهر ، انما يفتش عن المواضع الحساسة
كالاذنين او البطن» .

ورأى سيليفان طريقا موحلة تمتد على استقامتها ما
بين الحقول الخضراء ، فآشار اليها وهو يسأل الفتاة «الى
اليمين ، اليس كذلك ؟»

فأجابته «لا ، لا ، ساريك الطريق متى يحين
الحين» .

وسارت العربية سوطا ، وسأل الفتاة مرة اخرى «أى
طريق اذن ؟»

فأشارت الى الطريق السالفة الذكر ، وقالت «هذه» .
فقال السائق «عليك لعنة الله ، ولكن هذه ذاهبة

الى اليمين ، انك لا تعرفين يمينك من شمالك» .
كان الطقس جميلا ولكن الارض كانت موحلة جدا

بعث اكتست عجلات العربية بطبقة من الوحل كما لو كان
لها غطاء من اللباد فوق عجلات الحديد ، وهذا ما زاد

في ثقل العربية . ولم تستطع ان تتخلص من ضواحي
القرية قبل حلول الظهيرة ، ولو لا مساعدة الفتاة أيضا

لكان العثور على الطريق مستحيلا ، لأن عددا كبيرا من
الطرق يتفرع الى كل ناحية كسراطين مصادة طلعت من

الكيس ولو لا المساعدة المذكورة لراح سيليفان يتصرف

بحكمته الخاصة . وأخيرا أشارت الفتاة الى بناية بعيدة
وقالت «تلك هي الطريق العامة» .

فسألها سيليفان «وما هي تلك البناية ؟»
فقال «حانة» .

«اذن نستطيع السير وحدنا . انزل وأرجسي الى
البيت» .

عندئذ اوقف العربة وساعدها على النزول وهو يقول
«انيتها القذرة ، ذات الاقدام السوداء» .

واضاف تشيتشيكيوف الى هذا الكلام قطعة عملة
نحاسية ، فانصرفت البنت مسرورة بركوبها في عربة
السيد .

الفصل الرابع

واذ بلغ تشيتشيكيوف الحانة عرج عليها . وقد
دعاه الى ذلك سيبان - احدهما انه كان يبغى إراحة
الخيول ، والآخر انه كان نفسه بحاجة الى استعادة
النشاط بتناول شيء خفيف من الطعام . ويعد المؤلف
نفسه هنا ملزما بالاعتراف بأن شهية مثل هؤلاء الرجال
وسعة بطونهم امران يحسدان عليهما . اما
اولئك الناس من اهل موسكو وبطرسبورج ، الذين هم
في يسر من العيش والذين يقضون اوقاتهم يحسبون
ماذا سيأكلون في الغد ، وماذا سيأكلون بعد الغد ،
والذين لا يجلسون الى المائدة ابدا دون ان يجرعوا
حبة دواء ثم يلتهمون المحار والسرطان وكمية اخرى من

المخلوقات الغريبة والذين يؤول امرهم الى الذهب
للاستشفاء في كارلسباد او القوقاز - اما بشأن هؤلاء
فليس للمؤلف فيهم الا رأى زهيد . اجل ليس هؤلاء
بالقوم الذين يبعثون في النفس الحسد . انما تلك الفئة
من الطبقة المتوسطة ، الفئة التي تطلب قديد الخنزير
في نزل ، ولحم الخنزير المشوي في نزل آخر
وتطلب في نزل ثالث شريحة من السمك او فطيرة
مخبوزة مع البصل والتي تستطيع بعد ذلك الجلوس الى
المائدة في اية ساعة كما لو انها لم تتناول وجبة طعام
في حياتها من قبل ، وتستطيع ان تلتهم جميع انواع
الاكل وجميع اصناف السمك المختلفة وتمضغها بشكل
تقصده منه زيادة الشهية ، هؤلاء اقول ، هم الجماعة
الذين يتمتعون بنعمة السماء التي ما بعدها نعمة .
وللبلوغ الى هذه النعمة السماوية العلوية نجد ان
الجماعة العظام الذين ذكرتهم فيما سبق ، على استعداد
للمتضحية بنصف عبيدهم ونصف املاكهم . المرهونة
وغير المرهونة ، بما ادخل عليها من اصلاحات اجنبية
واصلاحات وطنية ، في سبيل الحصول على معدة كتلك
التي تحظى بها الطبقة المتوسطة . لكن لسوء الحظ ، لا
المال ولا الاملاك ، سواء ادخلت عليها التحسينات او
لم تدخل ، بقادرة على شراء معدة كهذه .

كانت الحانة الخشبية الصغيرة يستارها الضيق -
وان كان منظر مضياف - المعلق بصارين منقوشين
نقشاً غير مصقول كشمعداني كنيسة قديمين ، تلوح
وكأنها تدعو تشيتشيكيوف الى الدخول . كانت البناية في

الواقع كوناً روسياً وحسب ، من الطراز العادي ، لكنها كانت كوناً ذا ابعاد اكبر من المعتاد ، وقد رسمت ونقشت حول نوافذه وسقفه الهرمي افاريز من خشب بالوان زاهية خفتت من عمته ظلال الجدران وانسجبت انسجاماً كلياً مع الاوصاف ذات الزهور التي رسمت على دقات الشبايك .

وصعد تسميتشيكوف السلم الخشبي الضيق الى الطابق العلوى فوصل الى فسحة متسعة ووجد نفسه امام باب ذي صرير وامرأة عجوز بديسة ترتدي رداء مقلماً طُجبت اقلامه طباعة . وقالت «هذه الطريق ، من فضلك» . فوجد تسميتشيكوف في الغرفة المهيأة له اصداقاه القدامى الذين يجدهم المرء دائماً في الفنادق القائمة على جنب الطريق كهذا الفندق ، الا وهى - سناور اشيب ، واربعة جدران ملساء مخدشة من خشب الصنوبر الابيض ، ودولاب مثلت الزوايا فيه اكواب واباريق شاي ، واوان للبيض من الصينى المذهب واقفة امام ايقونات معلقة باربطة حمران وزرقاء ، وقطة انجبت حديثاً واصبحت لها عائلة ، ومرأة تعكس للناظر فيها عيوناً اربعاً بدلا من اثنتين وفطيرة بدلا من وجه ، وبجانب الايقونات وضعت اضعاف من الاعشاب والقرنفل مغبرة ذابلة اذا حاول المرء شمها انطلق عاطساً .

وسأل تسميتشيكوف ربة البيت وهى واقفة امامه فى الانتظار «هل عندك لحم خنزير رضيع ؟»
«نعم» .

«وفجل ابيض ولبن ؟»

«نعم» .

«احضرها اذن» .

فانطلقت السيدة لهذا الغرض ، وعادت بتطبق وفوطة (منشأة لدرجة اصبحت فيها كاللحاء المجفف) وسكين بقبض من عظم بدأ يحول لونه الى الصفرة ، وشوكة بشعبتين فى رقة الرقاق ، ومملحة لا تقف معتدلة .

واتباعاً للعادة الجارية ، دخل بطننا فى حديث مع المرأة ، وتساءل فيما اذا كانت هى التى تشرف على الحانة او اذا كان هناك مشرف آخر ، وكم هو مدخل الحانة ، وفيما اذا كان اولادها يعيشون معها ، وهل الاكبر اعزب او متزوج ، ومن هى تلك التى تزوجها الاكبر ، وهل كان المهر الذى دفعته كبيراً ، وهل كان ابو العروس راضياً ، وفيما اذا لم يشتك ابو العروس المذكور من صغر الهدية عند العرس . وباختصار ، وقد طرق تسميتشيكوف كل نقطة يمكن ان تمر بالبال . وقد ابدى - بالطبع - رغبة فى معرفة الملاكين فى تلك الناحية ، وتأكد من اسمائهم فاذا بهما بلوخين ، بوتشيتايف ميلنوى ، العقيد تسييراكوف ، سوباكيفيتش . فقال «اذن تعرفين سوباكيفيتش ؟» فاجابته بانها لا تعرفه وحسب ، وانما تعرف ايضا مانيلوف الاكول اكثر من سوباكيفيتش ، فمانيلوف يطلب دائماً فرخة مشوية وقطعاً من لحم العجل ولحم الخروف ثم يتذوق لقمة صغيرة من كل منها ويتسرك الباقى ، اما سوباكيفيتش فانه يطلب طبقاً واحداً فقط

لكنه يأكله ثم يطلب طبقاً آخر من النوع نفسه وبالتمن نفسه .

وبينما كان تشيتشيكوف يتجادب اطراف الحديث مع ربة النزول ويأكل لحم الخنزير الرضيع حتى لم تكسد تبقى منه غير قطعة واحدة . سمع صوت عربية تقترب . فرأى وهو يريثو من النافذة عربية خفيفة تجرّها ثلاثة خيول جيدة تقف بباب الحان . ونزل منها رجلان - أحدهما طويل اشقر الشعر يرتدى معطفا أزرق غامقا والآخر هزيل البنية اسود الشعر ذو معطف مقلّم . ووقفت خلف العربية عربية اخرى ، لكنها فارغة مهملّة ، تجرّها اربعة جياذ طويلة الوبر واطواق متهرثة ليجها من حبال . ولم يلبث الاشقر ان اتجه الى السلاّم وراح يصعد عليها بينما ظل صاحب الشعر الاسود يتسكع حول العربية كأنه يفتش عن شيء فيها ويتكلم اثناء ذلك مع سائق العربية الواقعة الى الخلف ويؤشر للعربية خلفهم . وبدا لتشيتشيكوف ان صوت الرجل ذى الشعر الاسود اليف لديه . وبينما كان يلقي عليه من النافذة نظرة اخرى ليتأكد منه ، دخل صاحب الشعر الاشقر عليه الغرفة . كان القادم الجديد عالى البنية ذا شارب صغير احمر ووجه ن ، بارز التقاطيع تعلوه حمرة تدل على ان لصاحبه صلة وثيقة حميمة ان لم تكن بدخان البارود فعلى الاقل بدخان التبغ . على اية حال ، فقد حيا تشيتشيكوف بادب وردّ الاخير بانحناءة . وقد كاد الرجلان فى الواقع يدخلان معاً فى حديث ويتعارفان على بعضهما البعض (لا سيما وقد كان

يبدو عليهما الارتياح الى ان مطر الليلة السابقة قد رسب الغبار على الارض فغدت سياقة العربات على الطرق لطيفة ممتعة) ، لو لا ان دخل ذو الشعر الاسود ورعى ببقعته على المنضدة وازاح من فوق جبينه خصله مشعنة سوداء من شعره الى الوراء . كان آخر الواصلين معتدل الطول مقداماً منسجم الشكل له خدان فى غاية الاحمرار واسنان فى بياض الثلج وفودان ذ سواد الفحم . كانت ملامحه فى الحقيقة غضة حتى تكاد تحسبها مكونة من الدم واللبن ، بينما كانت الصحة ترقص فسى كل قسمة من قسامته . وصاح وقد فتحت للعناق عندما رأى تشيتشيكوف «ها ، ها ، ها . اى حظ ارسلك الى هنا؟»

عندئذ عرف تشيتشيكوف نوزديرف - الرجل الذى قابلته فى وليمة المدعى العام ، والذى اصبح فسى ظرف دقيقة او دقيقتين من تعارفهما البفاً جداً لزميله فى الضيافة حتى راح يخاطبه بالضمير المفرد الثانى على الرغم من ان تشيتشيكوف لم يعطه المجال لذلك . وسأله نوزديرف يقول «اين كنت اليوم؟» ودون ان ينتظر جوابا استمرّ يقول «اما انا فعاتد من السوق حيث نطفوا جيوبى . لم يحدث لجيوبى ان اصبحت خالية خاوية كهذه المرة . وهذا ما اضطرني فى الواقع الى ان اعود بخيول الاجرة ! انظر من الشباك ترها بسأم عينيك» . وادار راس تشيتشيكوف بشدة الى الجهة المقصودة حتى كاد يصدمه بأطار النافذة . «هل رايت فى حياتك مثلها عجباً ؟ اننى لا اكاد اصدق ان هذه

الخيول التعيسة استطاعت أن توصلني الى هذا المكان .
والواقع انني اضطرت في الطريق الى الانتقال الى عربة
صاحبتنا هذا» . وأشار الى زميله بأصبعه .
«بالمناسبة ، الا تعرفان بعضكما ؟ انه ميخوف ،
صهري . في صبيحة هذا اليوم كنت اكله عنك . لقد
قلت له - سوف تقابل تشيتشيكوف اليوم ، وسترى .
يا آلهي ، كم هي جيوبى خالية الآن ! لم اخسر اربعة
جيات اصيلة وحسب ، بل خسرت ساعتى وسلسلتى
ايضا» . وقد لاحظ تشيتشيكوف في الواقع ان محدته
تنقصه الأدوات المذكورة ، كما لاحظ ايضا ان احد
جانبي فودي نوزديريف كان قصيراً مشعثاً أكثر من
الأخر . واستمر نوزديريف يقول «لو كان في جيبى
عشرون روبلا أخرى لاسترجعت كل ما خسرت ،
ولربحت ثلاثين الفاً . نعم ، اقسم لك بشرفى على
هذا» .

فقال الرجل الاشقر «ولكنك قلت الشيء نفسه حينما
قابلتك المرة الماضية ، واقترضت خمسين روبلا
آنذاك وخسرتها كلها» .

«ولكنى لم اكن لأخسرها هذه المرة لو لم ارتكب
جحافة ، حقاً ، ما كنت سأخسر . اننى اقول لك اننى لم
اكن لأخسرها فلو سحبت الورقة الصحيحة لربحت كل
النقود» .

فاجاب الاشقر «ولكنك لم تسحب» .

«نعم ، وذلك لأنى لم العب الورقة الراجعة . ولكن
كيف كان لعب صديقك العالى حضرة الرائد؟»

«سواء كان لطيفاً أم لم يكن ، فهو على الاقل قد تغلب
عليك» .

«يا للسخرية ! ولكنى سوف اتغلب عليه . دعه
يلعب معى «بالثنائية» وسوف اريك اى لاعب هو ! ايه
ايها الصديق تشيتشيكوف ، لقد قضينا وقتاً رائعاً اول
الامر ، فقد نجحت السوق نجاحاً هائلاً جداً . كان التجار
انفسهم في الواقع يقولون بان ازدحاماً كهذا لم يحدث
في سوق من قبل . اما من ناحيتى فقد دبرت بيع جميع
منتجات املاكى بسعر محترم . يا لعظمة الوقت الذى
قضيناه هناك ! تبا لي ، فانتى لا استطيع الا ان افكر
فيه ! لكن والسفاه لانك لم تكن هناك ! تصور على
بعد ثلاثة فرسات من المدينة تعسكر فرقة من
الفرسان ، ولا تكاد تستطيع ان تصدق عدد ما فيها من
الضباط . هناك على الاقل اربعون ضابطاً يترددون على
المدينة ويشربون فيها . وضابط الفرسان بوتسيلوف
بالذات ، انه انسان عظيم حقاً ! كان عليك ان ترى
شاربه فقط ! اجل ، انه يسمى الخبز الفرنسى المعتقد
سقط المتاع ! ويصبح على التادل يقول - هات بعضاً
من سقط المتاع . والملازم كوفشيتشيكوف ، ايضاً ! انه
غاموز ولانم تماماً . لقد قضينا وقتنا كله معه . . . ولك
ان تتصور تجارة الخمار بونوماريف . على اية حال ،
فهو سافل كما تعرف ، ويجب ان لا يعامله احد ، لأنه
يضع جميع انواع النفايات في مشروباته - الخشب
الهندي والغلين المحروق وعصير البيلسان . . . ذلك
النذل ، ومع هذا كله دعه يحضر لك زجاجة مما يسميه

«من الأفضل أن لا تفعل لأنك ستخسر عندئذ البندقية
والذخيرة معا . على أية حال ، أيها الصديق
تشييتشيكوف ، فقد كان من الوأسف أن لا تكون هناك .
إنك لو كنت لوجدت نفسك غير قادر على مفارقة الملازم
كوفشينيوكوف . ستبلغان - هو وأنت - من العظمة
شاوها ! إنه من جنس آخر يختلف كل الاختلاف
عن جنس المدعى العام وموظفينا المدنيين البخلاء
الأخرين الذين يرتجفون في أحذيتهم قبل أن يصرفوا
كويكا واحداً . إنه على استعداد للعب بالورق - أية
لعبة شئت وفي أي وقت أردت . لماذا لم تأت معنا ؟
أنت تستحق على هذه الفعلة أن أسميك خنزيراً أو راعي
ماشية * . لكن لا عليك . ضمّنى اليك . اننى أحبك
كثيراً . ميچيوف ، هل ترى الطرافة التى انتهت إليها
الأمور ؟ ليس هناك من مصلحة تربطنا فتجمع بيننا ،
ولكن القدر شاء ، أن نكون صديقين ، فهبط من حيث لا
يعلم إلا الله ونزل في البقعة التى أنا فيها ! ولك يا
صاحبى أن تعلم كم كان عدد العربات هائلا فى السوق !
لقد ذهبت هناك لكى ألعب لعبة روليت فربحت فيها
جرتين من المرهم العطرى وإبريق شاي صينيّاً وقيثارة .
وقامرت بعدئذ بأشياء أخرى ، كالمجنون ، وخسرتها

* يقول نوزديريف لتشييتشيكوف انه حيوان على طريقته
فى التحجب . المترجم .

المخدع الخاص فستجد نفسك عندئذ فى السماء ،
السابعة . ويا للكلمات الهائلة من الشهبان التى
شربناها ! اذا قارنتها بمشروب حاكم الولاية حسبته
شرباً عسفاً لا يذاق . لم نشرب خمرة الكليكاتوت
وحسب بل شربنا الكليكاتوت الماترادورا - أى كليكاتوت
مضاعفة المفعول . وقد احضر بونوماريف زجاجة من
الخمير الفرنسى يسميها بون بون . وستسألنى بالطبع
عن رائحتها . كانت فى رائحة ورد البستان أو أى رائحة
عطرة أردت . يا لعظمة الوقت الذى قضيناه ! وما كدنا
نترك محل بونوماريف حتى وصل أحد الامراء الى المدينة
وارسل فى طلب بعض زجاجات الشهبان . ولكن لم
تكن هناك زجاجة واحدة ، لأن الضباط شربوها كلها !
أجل ، فقد اتممت بنفسى سبع عشرة زجاجة فى جلسة
واحدة !»

قال الاشقر «مه ، مه . ليس فى وسعك أن تشرب
سبع عشرة» .
فتمتم نوزديريف قائلاً «ولكنى فعلت . أقسم لك
بشرفى» .

«تخيل ما يحلو لك ، ولكنك لم تشرب حتى عشر
زجاجات فى الجلسة الواحدة» .

«أترأى اننى سأفعل ؟»

«لا ، فما الفائدة من الرهان على ذلك ؟»

«راهن على الاقل بالبندقية التى اشتريتها» .

«لا ، لن أفعل شيئاً من هذا القبيل» .

«ادخل فى المراهنة كمجرد تجربة فقط» .

كلها وخسرت فوقها ستة روبلات . اى زير نساء .
كوفشينيكوف هذا ! قد اشرطنا معا فى حفلات الرقص
كلها تقريبا وكانت ذات مرة فيها امرأة فاخرة الثياب -
يا لها من ابهة ! لقد اكتفيت بان قلت لنفسى -
لياخذها الشيطان - ولكن كوفشينيكوف ، ذلك العاجز ،
جلس بقربها وبدا يسرد امامها سلسلة من المدائح
بالفرنسية . مهما يكن من امر ، فانه لم يترك حتى
السيدات العاديات - مع انه يسمى هذا العمل قطف
التوت . واية اسماك عجيبة قدموا لنا بهذه المناسبة ،
معى قطعة شبيهة من السمك . وهذا كل ما اعدته معى !
لقد كنت فى الواقع سعيد الحظ اذ اشتريت هذه
السمكة قبل ضياع نقودى . الى اين انت قاصد ؟

«انوى زيارة صديق» - قال تشيتشيكوف .

«ومن هو هذا الصديق ؟ فليذهب الى الشيطان : تعال
معى الى منزلى بدلا منه» .

«لا ، لا استطيع فان لى عملا اريد انجازه» .

«اوه : ويا له من عمل !»

«ان لى عملا يجب ان انجزه . انه عمل عاجل
جدا» .

«اننى اراهن انك تكذب ، واذا لم يكن ذلك فاخبرنى
من ستزور» .

«سوباكفيتش» .

عندئذ انفجر نوزديريف فى ضحكة لا يستطيعها الا
الرجل العفى السليم الذى لا يزال كل سن فى ثغره
كالسكر فى بياض اللون . اعنى بذلك ضحكة الخدين

الراجفين ، الضحكة التى تجعل الجار النائم على بعد ثلاث
غرف والذى يفصل بينه وبينها بابان يقفز من فراشه
ويفرك عينيه ويقول «يا للكلب ! الفرحة تدغسغ
ضلوعه» .

فساله تشيتشيكوف وقد اعتراه شىء من الغضب
«وما الذى يستدعى الضحك ؟»

لكن نوزديريف راح يضحك غير مكبوح الجماح اكثر
من قبل ويقول «اووه ! ارحمنا يا الله ! فالامر ممتع
جدا ، اكاد اموت منه !»

فردد تشيتشيكوف يقول «قلت لك ان لا داعسى
للضحك ، فانا ذاهب الى سوباكفيتش رغبة فى الوفاء
وبعد قطعته على نفسى» .

«انك ستضيق ذرعا بالحياة اذا ما وصلت الى هناك ،
لانه ابخل مخلوق فى هذه الضواحي . اوه ، لو عرفت !
على اية حال ، اذا كنت تظن انك ستجد لديه لعبة ورق
او زجاجة بون بون فانت على خطأ . استمع لى يا صديقى
العزيز ، دع سوباكفيتش يذهب الى الشيطان ! وتعال
الى منزلى حيث ستجد على الاقل قطعة من السمك اقدمها
لك فى عشائك . لقد قال لى بونوماريف وهو يودعنى -
هذه هى القطعة التى تليق بسك ، ولو رحمت تفتش
السوق كلها لم تجد احسن منها . ولكنه بالطبع مخادع
نظيح . اما انا فقد اجبته راسا ، وقلت له - انست
وجابى الضرائب اقدر مخلوقين فى الوجود . ولكنه رببت
على لحيته فقط ثم ابتسم . كنت اتناول فطورى كل يوم
مع كوفشينيكوف فى حانوته ولكنسى كدت انسى ان

اخبرك شيئاً . . . نعم ، اننى لن اتنازل لك عنه ، حتى ولا بعشرة آلاف روبل - اخبرك بذلك سلفاً . ولو كنت اعرف انك الآن لن تتخل عنى .

وانطلق عندئذ يركض صوب النافذة ويصيح على خادمه (وكان هذا يمسك فى يده سكيناً وفى اليد الأخرى لقمة من خبز وقطعة من سمك - وقد تمكن من اختلاس الأخيرة بينما كان يقتش العربية عن شىء آخر) «أى بورفيرى ! احضر ذلك الجرو أيتها الوغد ! يساً للجرو الرائع ! ان صاحب الفندق للصوص لم يكن يريد ان يبيعه بأى ثمن ، مع اننى وعدته ان اعطيه المهرة السراء التى قايضت عليها خفوستيريف - كما تذكر» . غير ان تشيتشيكوف فى الواقع لم يكن قد رأى فى حياته المهرة السراء ولا خفوستيريف مطلقاً .

وتساءلت ربة النزول وهى تدخل «هل تريد شيئاً للاكل يا سيدى ؟»

«لا ، لا شىء ابداً . ايه ايها الصديق تشيتشيكوف ! اية اوقات قضيتا ! نعم ايتها العجوز اعطينى كأساً من الفودكا . قولى لى أى نوع لديك ؟»

«ذات اليانسون» .

«اذن هات لى كأساً منها» .

واضاف ذو الشعر الاشقر يقول «وواحدة أخرى لى ايضاً» .

واستمر نوزدريف فى حديثه قائلاً «وفى دار التمثيل كانت هناك ممثلة تغنى ، المحتالة ، كالعصفور الكنارى» . وقال لى كوفشينيكوف وكان يجلس بجانبى -

من الافضل لك يا عزيزى ان تذهب وتقطف تلك الترتة . اما اجنحة التمثيل التى اقيمت فى السوق فلا تتجاوز الحقيقة ان قلت لك بان عددها قد بلغ الخمسين . فيناردى الجمبازى ظل يدور اربع ساعات كالرعى» . وعند هذه النقطة من حديثه توقف ليتناول كأس الفودكا من ربة النزول ، التى انحنت شكراناً له على عمله هذا . وفى اللحظة نفسها دخل بورفيرى ، وهو رجل يرتدى مثل سيده (أى معطفاً مبطناً متمسحاً بالدهن) وكان يحمل الجرو بين يديه .

فامر نوزدريف قائلاً «انزل الحيوان هنا على الارض» .

فوضع بورفيرى الحيوان على الارض حيث اخذ يلعب كعادة الكلاب .

وصاح نوزدريف «اليك هذا الجرو» . وامسكه من ظهره ودفعه . فصاح الجرو صيحة تدعو للثناء . والقى نوزدريف نظرة على بطن الحيوان واستمر يقول لبورفيرى «انسى اراك لم تعمل ما امرتك به . فقد نسيت ان تنظفه بالفرجون» .

فاحتج بورفيرى بقوله «لقد فعلت» .

«اذن من أين جاءت هذه البراغيت ؟»

«لا أعلم . قد تكون قفزت اليه من العربية» .

«يا لك من كذاب ، لم يخطر ببالك ان تنظفه ، بل واطن أنك ، يا غيبى عبرت له بعض براغيثك . ومع ذلك ، انظر يا تشيتشيكوف الى هاتين الاذنين . المسهما فقط» .

«وما الداعي لذلك ؟ اننى ارى انه حسن المنبت دون ان افعل»

«وان يكن ، امسك اذنيه والمسهما» .

فعل تشيتشيكيوف ما طلب منه صاحبه مجازاة له وقال «اجل ، يظهر انه حسن الاصل» .

«والمس برودة انفه ! ضع يدك عليها فقط» .

فلمس تشيتشيكيوف الجرو راغباً فى عدم اثاره مجدته ، وقال «ستكون له فى يوم من الايام حاسة شم جيدة» .

«نعم ، اليس كذلك ؟ انه الاتف المناسب لذلك . لقد كانت بسى رغبة منذ امد طويل الى جرو كهذا .

بورفيرى ، ارجعه ثانية» .

فرفع بورفيرى الجرو مسن جنبه وحمله الى العربية .

واستأنف نوزديريف الحديث قائلاً «اسمع يسا تشيتشيكيوف ، يجب عليك ان تاتى الى منزلى . انه يقع

على بعد خمسة فرسات فقط ونستطيع ان نذهب الى هناك بسرعة الريح ، وتستطيع ان تزور سوباكيفيتش فيما بعد» .

فاخذت نفس تشيتشيكيوف تساوره - «الذهب الى منزل نوزديريف ام لا ؟ وهل فى الامكان ان يكون فيه

خير اكثر من الباقين ؟ ان فيه على الاقل من الامل مثل ما فيه» .

لقد خسر فى المقامرة مخاسر جلي ولم يابى لها . انه يفعل ما يحلو له ولا يبالى . وقد يمطينى ما اريد دون مقابل» .

واضاف بصوت عال «حسن جداً ،

ساتى معك ، ولكن لن نبقي طويلا لان وقتى ثمين جداً» .

فصاح نوزديريف «عظيم ! عظيم ! سنذهب ثلاثتنا ، دعنى اقبلك على هذه الفكرة العظيمة» . ورمى بنفسه

على عتق تشيتشيكيوف . فتدخل الرجل ذو الشعر الاشقر وقال «اما انا فارجو ان تعفينى من الذهب ، لان على ان اعود الى بيتى» .

«كلام فارغ ! كلام فارغ ! لن اسمح لك» .

«ولكن زوجتى ستثور على» . وعليكم ان تسافروا فى عربة السيد .»

«قلت لك ان الامر لا يحتاج الى التفكير . هيا بنا ، هيا بنا» .

كان الرجل ذو الشعر الاشقر من الناس الذين تلمح فى شخصيتهم اول نظرة شيئاً من الجند والرزاة بحيث

تجدهم على استعداد لمناقشة كلمات المرء حتى قبيل ان يلفظها .

انهم يعترضون على كل شىء يمكن ان يتعارض مع رأيهم الخاص . فهم يرفضون مثلاً ، ان تسمى الحماقة حكمة ، ويرفضون الرقص على اى نغم

غير نغمهم الذى يعزفون عليه . مهما يكن من امر ، فى شخصيتهم تظهر دائماً نقطة من الضعف ، بحيث يقبلون

آخر الامر ما رفضوه فى اوله ويصفون ما هو احسق بانه معقول ثم يرفضون احسن مما يفعل الآخرون ، على

نغم لحنه غيرهم . باختصار ، هم يبدؤون على العموم صواباً وينتهون دائماً على اسوأ ما يرام .

صواباً وينتهون دائماً على اسوأ ما يرام .

وقال نوزديف جواباً على اعتراض آخر لصهره «كلام فارغ!»

وبالتأكيد لم يكده نوزديف يخطب قبعته على رأسه حتى بدأ الرجل ذو الشعر الأشقر يتبعه وزميله . فانبرت العجوز قائلة «ولكن السيد لم يدفع ثمن الفودكا» .

«اجل ، أيتها الأم الطيبة . اسمع يا صهرى ، ادفع لها اذا سمحت . فليس فى جيبى كوبيك واحد» .
فسألتها الصهر «كم تريدين؟»
«ثمانين كوبيكا من فضلك» .

«هذا كثير ! أعطها نصف روبل ، فيه الكفاية» .
فاحتجت السيدة قائلة «قليل يا سيدى» ، ولكنها أخذت النقود بامتنان وركضت الى الباب لتفتحه للسادة . ولم تخسر شيئاً فى حقيقة الأمر ، فقد تقاضت أربع مرات زيادة عما تستحق الفودكا من ثمن .

ومن ثم استقر المسافرون فى مقاعدهم . وقد كان فى إمكان الرجال الثلاثة أن يتجاوزوا اطراف الحديث اثناء سيرهم ، لأن عربة تشيشيكوف كانت تسير محاذاة للعربة التى جلس فيها نوزديف وصهره . وكانت عربة نوزديف الصغيرة تسير خلفهم متأخرة دائماً بخيولها العجفاء ، وبورفيرى والجرو .

وبما أن الحديث الذى جرى بين المسافرين لا يعنى القارى فى شىء ، فمن الأفضل أن أتحدث عن نوزديف شيئاً ولو قليلاً ، لا سيما وهو سيلعب دوراً غير بسيط فى قصتنا .

سيكون وجه نوزديف مالوفاً للقارى ، فما لا شك فيه أن كل انسان قد قابل مثيلاً له . والناس من هذا القبيل ، حتى فى الصبا وأيام المدرسة يشتهرون بأنهم رفاق طيبون (وهم مع ذلك يتلقون ضربات قوية) لأن وجوههم تبدي عنصراً من الصراحة والاستقامة والاقدام ما يشجعهم بسرعة على خلسق الصداقات ، فيبدؤون بمخاطبتك بالضمير المفرد الثانى قبل أن يرتد اليك طرفك . الا أنهم بينما هم يولدون صداقات ابدية كهذه اثناء النهار ، تجدهم دائماً يبدؤون بالشجار فى الليلة نفسها ، لأنهم طيلة الوقت قوم رغائون مشتتون محبوبون للظهور ذوو معنويات عالية . وفى الحقيقة كان نوزديف وهو فى الخامسة والثلاثين مثله تماماً وهو فى الثامنة عشرة أو فى العشرين - كان مثله تماماً فى دعاته وانهماكه فى الملذات . ولم يغيره زواجه بحال من الأحوال ، وقل أثر ذلك عنده عندما تركته زوجته الى الدنيا الأخرى وتركت خلفها طفلين لم تكن له بهما رغبة ولهذا عهد بهما الى مربية جميلة . ولم يكن يستطيع مطلقاً أن يبقى فى بيته أكثر من يوم واحد لأن حاسة الشم عنده كانت تتعدى فرستات عديدة وتكتشف الاسواق الموسمية التى ينتظر فيها الحفلات الراقصة والتجمعات البشرية . وبناء على ذلك يكون هناك فى لمح البصر ، مشاجراً خالفاً للبلبل على مائدة القمار (فهو كمن هم على شاكلته ، ذو ميل كبير للوردق) . ولم يكن لعبه بالقدر جداً ولا بالنظيف جداً . ومع انه كان ارعن طائشاً الا انه كان فى الوقت نفسه

قديراً على القيام بسرقات خفية ووسائل مخبورة أخرى . وكانت اللعبة تنتهي عادة بنوع آخر من التسلية مختلف تماماً . أى انه إما ان يتلقى ضربات بالجزء لا بأس بها ، او ان يسحب احد جانبي لحيته العزلة الرائعة الجمال . وتكون نتيجة ذلك ان يعود الى بيته فى بعض الاحيان ، واحد جانبي لحيته منتوف بكل تأكيد . الا ان خديه الممتلئين بالصحة والعافية كانا يتدفقان بالشباب والحيوية حتى ان الجانب المنتوف يبدأ حالا بالنمو محل القديم بل يفوق سابقه . وبالإضافة الى ذلك (وهذه ظاهرة خاصة بروسيا) ما يكاد ينقضى وقت قصير حتى يعود الى اصحابه القدامى الذين صفوه منذ امد قريب ، وينخرط معهم كأن لم يكن بينهم شئ مطلقاً ، ولا يشير الى الموضوع أية اشارة ، ويلوذون هم بالصمت أيضاً .

باختصار ، كان نوزدريف رجل شغب ومشاكل . فلم يحضر اجتماعاً دون ان يثير فيه البلبلة ، وتكون النتيجة اما ان تستدعى الشرطة لطرده من المكان او ان يقذف به اصدقاؤه الى الشارع . على أية حال ، فاذا لم يحدث احد هذين الامرين يكون قد قام بعمل لا يحدث لغيره . كان يسكر فى الحفلات بحيث يعجز ، الا عن الضحك ، او يكذب بشكل فظ يجعله يخل من نفسه فى بعض الاحيان . وبالإضافة الى ذلك ، فان الرجل يكذب دون أى داع الى ذلك الكذب . فيبدأ مثلاً بسرد قصة طويلة ينتهى فيها الى انه يمتلك حصاناً ذا لون احمر او أزرق ، حتى تجد مستمعيه فى النهاية

مضطربين الى تركه قائلين «ان قصتك جميلة أيها الشيخ !» وبالإضافة الى ذلك فان رجالاً من امثال نوزدريف بهم رغبة فى اهانة القريبين منهم دون سبب يدعو الى ذلك (وفيما يتعلق بهذا الشأن ، فانك تجد رجلاً ذا مركز عال ومظهر محترم - رجلاً ذا نجمة على صدره مثلاً ، يتقدم اليك ذات يوم ضاغطاً على يدك ويبدأ بالحديث معك فى مواضيع تستحق التفكير ، الا ان هذا الرجل يبدأ يشتمك فى وجهك بأسلوب يليق بكاتب بسيط لا برجل تحلّى النجعة صدره . كل ما يستطيع المرء ان يفعله فى هذه الحالة هو ان يهز كتفيه هزة استغراب . وقد كان عند نوزدريف مثل هذا الضعف تماماً . فكلما ازدادت صداقته مع انسان اسرع فى توجيه الاهانة اليه وأصبح على استعداد لنشر الشائعات التى تمس سمعته وتؤدى الى تخريب حفلات الزفاف والصفقات التجارية الربحية . مع ذلك فهو يعتبر نفسه دائماً صديقاً للرجل المهان ، واذا ما قابله مرة أخرى حيّاه بالطف أسلوب مستطاع وقال له «لماذا انقطعت عن زيارتى أيها السافل !» وهكذا ، فاننا اذا نظرنا الى نوزدريف من جميع الوجوه نجده شخصاً متعدد المظاهر ومتعدد الامكانيات . فى مقولة واحدة وفى نفس المقولة يقترح عليك ان يذهب معك الى حيث تريد «حتى الى ابعد اطراف الدنيا لو اردت» او ان يشترك معك فى أى مشروع من المشاريع او ان يبادلك أى سلعة باى سلعة أخرى ذكرتها . فالبنادق والخيول والكلاب كلها قابلة للمقايضة ليست للربح

منك . وهذه الخصال تكون في الغالب نتيجة ثورة في مزاجه ، وتظهر جلية اذا ما قابل انساناً ساذجاً بسيطاً في سوق موسمية وسلبه ، فانه يأخذ عندئذ بشراء اول ما تقع عليه يده من اشياء - لحم الخيل ، وولاعات السجائر ، وملابس لمربية اطفاله ، ومهر الخيل والزبيب والاباريق والقماش الهولاندى والحنطة والتبغ والسدسات والسك المجفف والصور والمشاهد الحجرية والأواني الخزفية والأحذية وما الى ذلك حتى يستهلك آخر قطعة من النقود في جيبه . الا ان هذه الاغراض نادراً ما كانت تصل الى بيته . اذ انه كان دائماً يخسرهما في اليوم نفسه اذا ما قابل مقامرأ اربع ، ويخسر زيادة عليها غلبونه والكيس الذي يحفظ التبغ فيه ومبسمه وعربته بخيلوها الاربعة وسائق العربة . وتكون النتيجة ، وقد جرد من كل شيء ، ان يستدين من احد الاصدقاء اجرة عربة يعود فيها . هكذا كان نوزديريف . وقد يقول البعض ان شخصيات كهذه قد اتعدمت ، وان لم يمد وجود لامثال نوزديريف في يومنا هذا . يا للأسف ! ان قولاً كهذا هو عين الخطأ ، لان اياماً عديدة سرف تنقضى قبل ان يختفى امثال نوزديريف عن ابصارنا . انهم في كل مكان بيننا ، والفرق بين القديم منهم والجديد هو الفرق في اللباس فقط . ويكاد ذوو النظرات السطحية ان يعتبروا الرجل الذى غير معطفه رجلاً آخر يختلف عما كان عليه .

ولتكمل الحديث . لقد درجت العربات الثلاث حتى

اعتاب بيت نوزديريف ونزل راكبوها . ولم يكن البيت على استعداد لاستقبال الضيوف ، وقد وقف فلاحان على مصعدين خشبيين في منتصف قاعة الطعام يدهنان جذرانها بالجير ويسترسلان في اغنية لا نهاية لها ، بينما هما يطلخان الارض بالجير الذى يدهنان به . فامرهما نوزديريف ان يذهبا بمصعدهما بسرعة وذهب الى غرفة مجاورة ليلقى اوامر اخرى . وسمع المدعون زنين صوته واضحاً جداً وهو يأمر باعداد الطعام حتى ان تشيستشيكوف - وكان قد بدأ يحس بالجوع مرة اخرى - استطاع ان يقدر ان اعداد اى نوع من الانواع التى يطلبها لن يتم قبل الساعة الخامسة . وعند رجوع نوزديريف دعا صديقيه لمشاهدة ما فى قريته . فرجعا على كل شيء حتى لم يبق ما يستحق الفرجة فى قريته . وبدأت الرحلة بالقاء نظرة على الاسطبلات ، حيث كانت فرسان ادهامها رمادية والاخرى سمراء وحسان كमित . وقال نوزديريف ان الحيوان الاخير - مع عبده الشاسع عن الجمال - قد كلفه عشرة آلاف روبل .

فقال صهره متعجباً «انك لم تدفع عشرة آلاف روبل فى هذه الدابة . انها لا تساوى حتى الألف» .

فأكد نوزديريف حديثه بقوله «تسماً بالله لقد دفعت عشرة آلاف!»

فقال الآخر «لك ان تقسم ما تشاء» .

فسأله نوزديريف «اتراهن اننى لم افعل ؟» ولكن الصهر رفض العرض .

ومن ثم اخذ نوزديريف ضيقه الى ناحية من الاسطبل

وأراها مرايط فارغة ادعى أن قد كان فيها خيول جميلة منذ آمد وجزير . ورايا أيضا تيساً ما لا تزال الخرافة القديمة تعتبر وجوده ضرورياً في محلات كهذه مع أنه لا نفع فيه ولا عمل له إلا التبخر جيئة وذهاباً أمام الخيول كما لو كان سيد المحل . ومن ثم أخذ المضيف ضيفيه لمشاهدة ذئب صغير مقيّد بالسلاسل ، وقال موضعاً ، «إننا لا نطعمه سوى اللحم النيء» . لأننى أريده على اشرس ما يرام» . ثم ذهبت الزمرة لرؤية بركة قال نوزديف أن فيها سمكا بحجم ضخم جداً فلا يستطيع حمل السمكة الواحدة منه الا رجلان قويان يتعاونان فى هذه المهمة . واستقبل الصبر هذه المعلومات باستهجان جديد . ولكن نوزديف لم يعبا بذلك ، وراح يقول «دعنى الآن يا تشيتشيكوف اريك زوجا من الكلاب فحماً حقاً . صوفهما كالأبر وصلابة عضلاتهما سوف تدعشك» .

وقادهما وهو يقول ذلك الى سقيفة صغيرة ، لكنهما حسنة البناء ، تحيط بها اسيجة عالية من جميع نواحيها . وشاهد الزائران لما دخلها عدداً من الكلاب من جميع الألوان والحجوم والانواع والاسماء . وبدأ نوزديف بينها كرب بيت بين عائلته . وبصصت الحيوانات اذناها - او «اصولها» كما يسميها هواة الكلاب . والتقى عدد منها مغالبه على كئسى تشيتشيكوف . وقد دفعت الصداقة احد الكلاب فى الواقع ، الى أن يقف على رجليه الخلفيتين ويلعق شفتى تشيتشيكوف مما اضطره الى البصاق . وبعد أن

تم ذلك شاهد الزائران زوج الكلاب الذى سبق ذكره وايدبا دهشتها من متانة العضلات . وقد كانا فى الحقيقة حيوانين جميلين . وبالتالى رأت الزمرة الكلبة القرمية . التى كما يقول نوزديف - رغم عماها وإشراقها على الفناء - كانت كلبة رائعة حقاً منذ سنتين لا غير ، وعند فحصهم لها تبين أنها عمياء بالفعل . ثم القيا نظرة على طاحونة الماء التى ينقصها موضع حجر الرحن اللولبى الذى كان يجب أن يدور فيه الحجر العلىوى «مرففا» - حسب التعبير الطريف الذى يصفه به الفلاحون الروس . وقال نوزديف «لا عليكم من هذا ، ولنذهب الى محل الحدادة» . والى ذلك المكان سارت الزمرة . ولما أصبح المحل تحت انظارهم أشار نوزديف الى حقل امامه وقال :

- فى هذا الحقل رايت عدداً من الارانب البرية غطى وجه الارض بحيث اخفاها عن البصر . والواقع انسى امسكت ذات يوم ارنبا بيدي من رجليه الخلفيتين .

فعلقت صهره قائلاً «تمسك ارنباً بيديك من رجليه الخلفيتين ؟ انك لم تفعل ذلك مطلقاً» . واكد نوزديف كلامه قائلاً «ولكنى فعلت . مهما يكن من امر» والتفت الى تشيتشيكوف وقال «اريك الحد الذى تنتهى عنده ارضى» .

وبدا يقود ضيوفه وهو يقول ذلك ، عبر حقل يتكون

* نسبة الى شبه جزيرة القرم . الناشر .

غالبه من تتوات حيث بدأت الزمرة تنتقى مواضع
أقدامها بين أخاديد محروثة من الأرض وأخاديد مغطاة
بالعشب الزخاف . وابتدا تشيستشيكوف يحس بالتمب
لأن الأرض كانت منخفضة جداً حتى كان يُسْمَعُ صوت
الماء يخفق تحت أقدامهم في مواقع عديدة . ومسح أن
الزائرين ظلا برهة من الزمن وهما يراقبان مواطى
الأقدام وينقلان الخطى بحذر شديد ، الا انهما ادركا
وشيكاً أن عملا كهذا لن يجدى ، فانكفا كل منهما على
وجهه دون أن يختار أو يتجنب المواقع التي قد يكون
الوحد فيها عميقاً أو ضحلاً . وبعد لأي ، أى بعد أن
قطع الجمع مسافة غير قليلة ، وقعت أنظارهم على
صارية الحدود وخذق ضيق .

وقال نوزدريف «هذه هي الحدود . وكل ما تريان على
هذه الناحية من الصارية هو لى ، بما فى ذلك الغابة
التي تقع على الناحية الأخرى وما وراء الغابة» .
فسأله صهره «متى أصبحت هذه الغابة لك ؟ يظهر
أنك اشتريتها حديثاً جداً ، لأنها لم تكن لك من قبل
اطلاقاً» .

فقال نوزدريف «نعم ، لم يمر على شرائي لها أمسه
طويل» .

«متى لحقت أن تشتريها بهذه السرعة ؟»

«متى ! لقد اشتريتها منذ ثلاثة أيام ، والشيطان
يعرف أنى دفعت فيها ثمناً باهظاً» .

«حقاً ؟ لكنك منذ ثلاثة أيام كنت فى السوق ؟»
«يا للغباء ! الا يستطيع المرء أن يكون فى السوق

وإن يشتري أرضاً فى الوقت نفسه ؟ أجل ، كنت فى
السوق واشترى مأمورى الأرض فى غيابي» .

فقال صهره وقد لاح الشك فى محياه وهز رأسه
«أيه ! مأمورك اشتراها !»

وعاد القوم من الطريق الواعة التي جاءوا منها .
وبعد أن وصلوا البيت قادما الى مكتبه الذى لم يكن
فيه اثر لما يوجد عادة فى غرف كهذه - كالكاتب
والورق . بل على العكس ، فالادوات الوحيدة الموجودة
فيها كانت سيفاً وبندقيتين احدهما تبلغ قيمتها
ثلاثمائة روبل والأخرى حوالى ثمانمائة . وتفحص الصهر
الادوات المذكورة وهز رأسه كالعادة . ثم شاهد
الزائران خناجر تركية اصلية . حُفر على احدها النقش
التالى خطأ «الصانع ساقيل سيبيرياكوف - سكتان *» .

وجاءت بعد ذلك ارغى يدوية بدأ نوزدريف يلعب عليها
احد الانغام . ولبرهة من الزمن لم تكن الانغام كثيرة
الازعاج ، لكن ظهر فجأة نوع من خطأ ، فصدرت نغمة
«المازوركا» تلتها نغمة «مالبورغ ذهب الى الحرب» ثم
تبع هذه نغمة «فالس» معروفة قديمة . وزيادة على ذلك ،
فقد كان احد الانبيب الآلة ذا صوت حاد غير متجسم مع
بقية الانبيب اثناء العزف فراح يصدر صغيراً جامحاً
حسب ما شاء له الهوى حتى بعد أن اوقف نوزدريف
ادارة المقبض بمدة طويلة . وتلا ذلك عرض غلايين
الشيخ - غلايين من الفخار ومن الخشب ومن طين

* صانع السكاكين . المترجم .

الخفان ، غلايين مستعملة وغير مستعملة ، غلايين ملفوفة بجلد السموا وغير ملفوفة ، ثم شيق ومبسه من الكهرمان (وهو صفة ربحها حديثاً في الورق) وكبس للتبغ (ادعى ان كورتيسه وقعت في حبه في محطة قد شغلته له ، وكانت يداها كما يؤكد نوزدريف «الفيض السامى» - تعبير في القاموس النوزديفي يدل على ذروة الاتقان) . واخيراً ، بعد ان اكلوا بعض الكوامخ من ظهور السمك ، واشرفت الساعة على الخامسة ، جلسوا الى المائدة . ولم يكن الطعام بأى حال من الاحوال من الاشياء الرئيسية في حياة نوزدريف ، ولم يهتم بالطبخ نظراً الى ان بعض الاطباق كانت مطبوخة اكثر من النضوج وبعضها الآخر يبدو وكأنه لم يطبخ اصلاً . وكان من الواضح ان صانع الطعام كان يشق اكثر ما يثق بالايحاء - فكان يمسك بأول شيء تقع يده عليه ، فلو كان الفلفل اقرب شيء اليه فانه يضيف الفلفل بغير حساب . ولو حدث ان وقعت يده على قطعة من كرب لحشرها بين اصناف الطعام . والشئ نفسه يقال عن اللبن ولحم الخنزير والفاصوليا . باختصار ، كان شعاره «اعمل طبقاً ساخناً من اى نوع كان ، فلا بد ان يكون له طعم هو اى طعم كان» . اما فيما عدا ذلك ، فقد انكب نوزدريف بشدة على احتساء الخمر . حتى قبل ان يقدم الحساء كان قد صب لكل ضيف كأساً من النبيذ واتبعها بكأس اخرى من شراب السوترن المفتخر (لم يكن شراب السوترن العادى يوجد في الاقاليم) . ثم طلب زجاجة من نبيذ

الماديرا - («اروع ما سكر به مارشال في الجيش») . ولكن كل ما فعلته الماديرا هو ان لذعت الحلق ، وذلك لان صانعها لعرفتهم بأذواق ساداتنا الملاكين (الذين يتعشقون الماديرا الطيبة) يطعمونها دائماً اثناء صنعها بكميات كبيرة من الروم والفودكا القيصرية . املاً فسى ان تتحمله المعد الروسية وبعد هذه الزجاجة جاء نوزدريف بزجاجة من صنف «خاص جداً» ادعى انه يتكون من خليط من البرغاندى والشمبانيا . وراح يصب كميات وفيرة منها في كأس تشيتشيكوف وصهره اللذين جلس احدهما عن يمينه والآخر عن شماله . وقد لاحظ تشيتشيكوف ان نوزدريف صب لنفسه في كأسه زراً يسيراً من الخليط فعزم بطلنا ان يكون على حذر ، ولهذا كان يفتنم كل فرصة كان فيها نوزدريف يصب كأس صهره ويتحدث معه ، فيقلب كأسه (اي كأس تشيتشيكوف) بما فيها فسى طبقه . ومن ثم احضرت الى المائدة قارورة نبيذ من حبوب غبيرة ادعى رب البيت ان طعمه يقارب طعم القشطة ، لكن - من الغريب ان طعمه في الواقع كان اقرب الى طعم الفودكا المصنوع في البيت . وبالتالي التهم الجمع نوعاً من المشروب غاب عنى الآن اسمه الحقيقي ، الا ان المضيف ذكر اسماً آخر في الفرصة التالية التى اعيد فيها ذكره مرة اخرى . وبعد ان انتهت

* الفودكا القيصرية - خليط من بعض الحوامض العركزة يستعمل في الكيمياء . الناشر .

وجبات الطعام وجربت انواع الخمور ظل الضيفوف جالسين فى اماكنهم - وهو امر سبب الارتباك لتشييتشيكوف نظراً الى انه لم يكن يرد ان يعرض مشروعه الأثير أمام صهر نوزدريف الذى كان غريباً تماماً بالنسبة اليه . فهذا الموضوع يستدعى حديثاً ودياً خاصاً . ومع ذلك فقد لاح ان وجود الصهر لا يثنى بخطر كبير لأنه كان قد تمادى فى السكر وبدأ يغفو على مقعده . وادرك الصهر بنفسه بعد لى أنه ليس فى وضع امين ابدًا ، فنهض وبدأ يطلب الاذن بالرجوع الى البيت بنعمة الناعس الوستمان حتى كاد يتلطب على المثل الروسى القائل «يشد الطوق على الحصان بالكلابة» .

فصاح نوزدريف «لا ، لا ، لا ! لن ادعك تذهب» .
فاجاب الصهر «لكن يجب ان اذهب . لا تحاول ان تمنعنى . انك تزعجنى جداً» .
«كلام فارغ ! سوف نلعب لعبة المصرف» .
«لا ، لا ، لا ، يجب ان تلعبا دونى ايها الصديقان . ان زوجتى تنتظرنى فى البيت . يجب ان اذهب واحدها بكل شىء عن السوق . يجب ان اذهب اذا كنت ساحافظ على رضاها . فلا تحاول ابقائى» .
«زوجتك ؟ لكن هل هناك فى الحقيقة شأن هام بينك وبينها ؟»

«لا ، لا ، ايها الصديق . فالسبب الحقيقى هو انها امراة طيبة امينة تضحى كثيراً فى سببى . ان الدموع تنب الى عينى كلما فكرت فى اخلاصها . فلا تحاول

ابقائى . اننى أقول لك قولة الرجل الشريف - يجب ان اذهب . وعليك ان تتأكد من صفاء نيتى» .

فتدخل تشييتشيكوف يهدوء يقول «ايه ، دعسه يذهب . فما الفائدة فى بقائه ؟»

فقال نوزدريف «أجل ، أجل ، لعنة الله على الذين يفقدون عقولهم» ثم التفت الى صهره وقال «اذهب يا فيتوك» . الى الشيطان بك وبزوجتك وبأحاديث النساء» .

فقال الصهر «لا داعى الى الاهانات توجهها لى بلقلب فيتوك . فانى ادين لها بحياتى ، وهى عزيزة على» ،
أثيرة عندي ، اغدقت على من عطفها الشىء الكثير - عطفاً لا اكاد اذكره حتى تغرورق عيناي بالدموع . وهى ستسألنى عما رايت فى السوق وعلى ان اخبرها بكل شىء ، لأنها غالية جداً ، عزيزة جداً» .

«اذن اذهب اليها بجعبية كذبك . اليك قبعتك» .
«لا يا ايها الصديق الطيب ، لا تذكرها على هذا النحو . انك تسيء لى كثيراً بعملك هذا - فهى غالية جداً ، عزيزة جداً» .

«اذن هيّا اليها ركضاً» .
«نعم ، ها انا ذاهب . فاعترانى لانى لا استطيع البقاء . كان بودى ان اظل معكما ، ولكنى لا استطيع» .
واستمر الصهر يردد معاذيره المرة تلو الاخرى دون

* فيتوك - كلمة روسية يقصد بها الاهانة ، لان الحرف الاول منها يرمز الى كلمة اخرى شائنة . المترجم .

ان يلاحظ انه جلس في العربة وانها اجتازت به الباب
وانه اصبح فسي الطريق العام . ويمكننا أن نفترض
تجاوزاً أن زوجته استطاعت ان تلتقط منه نغماً من
الانباء عن السوق .

وقال نوزدريف وهو واقف في الشباك يرقب العربة
الراحلة «يا له من دنيء ! الا ان حصانه الجانبي لا
يأس به . منذ امد طويل وأنا اريد الحصول عليه .
لكن ذلك مستحيل من هذا الرجل . نعم ، انه فيتوك ،
فيتوك بكل ما في الكلمة من معنى» .

وبهذا عادا الى الصالة حيث وجدا بورفيرى يشعمل
الانوار ، وراى تشيتشيكوف مضيفه يعد رزمة من
الورق .

وراح نوزدريف يضغط على جوانب الرزمة وينهبها
قليلا حتى غدت تفرقع وطارت منها ورقة ، وقال «ما
رايك في ان اكون امين اللعبة بثلاثمائة؟»

فتظاهر تشيتشيكوف بأنه لم يسمعه ، ولكنه قال
بلهجة الذى يتذكر شيئاً كان قد نسيه - «لقد غاب عن
يالى ان لي طلباً اليك» .

«وما هو الطلب؟»

«عدنى اولاً ان تلبيه» .

«ما هو اذن ؟ تكلم» .

«اذن انت تعدنى باعطائه؟»

«بكل تأكيد» .

«أقسم بشرفك؟»

«أقسم بشرفى» .

«اذن هذا هو طلبى - اظن ان لديك عدداً كبيراً من
الاقنان الموتى الذين لم تشطب اسمائهم من لوائح
الاحياء الاخيرة؟»

«اجل لدي ، ولكن لماذا تسأل عنهم؟»

«لأننى اريد منك ان تحولهم على اسمى» .

«وما حاجتك بهم؟»

«لا عليك . فلي مارب فيهم» .

«وما هو ذلك المارب؟»

«أمر يخصنى وحدي . موجز القول انى بحاجة
اليهم» .

«يظهر ان عقلك قد تمخض عن مشروع لطيف جداً .
الى به الآن ! ارنى ما فى جيبك» .

«وكيف اتمخض عن مشروع كالذي تقول ؟ ان تقاهات
كهنه لا تكون مصدر ايعاء للمشاريع العظيمة» .

«اذن لماذا تريد الاقنان؟»

«ما هذا الفضول يا رجل ! اراك لا تكتفى بتلمس
الشيء انما تود ان تحشر أنفك فيه» .

«ما الذى يمنعك من ان تكشف عن مشروعك
اذن؟»

«وما جدوى معرفتك به ؟ انها مجرد زوة تستولى
علي» .

«واذا لم تخبرني برايك لن احو لهم الى اسمك» .
«هذا كل ما فى الأمر . وانت لست على حق فيما تفعل

الآن . فقد وعدتني بشرفك ، وما انت تحاول ان تنقض
الوعد» .

«هذا ما تريد انت . وساطل على رفضي حتى أعرف ما زريك» .

وراح تشيتشيكوف يفكر . «ما الذى سأقوله لهذا الانسان؟» . وبعد فترة قصيرة من الزمن اخذ يقول له بأن هدفه من وراء الحصول على الانفس الميتة هو أن يرفع من مركزه فى المجتمع لانه فى الوقت الحاضر لا يمتلك اراضى واسعة ولذلك فهو يحتاج الى حفنة صغيرة من العبيد لا غير .

ولكن نوزديف - حتى قبل ان يتم كلامه - قاطمه قائلا «انك تكذب ، نعم ، انك تكذب ايها الصديق المحترم» .

فادرك تشيتشيكوف ان دليله كان ضعيفا وحججه كانت واهية . فاستجمع افكاره وازاد بصوت عال يقول لنوزديف «سأطلعك على الحقيقة على ان لا تطلع عليها احداً . كل ما فى الامر هو اننى عازم على الزواج . ومن سوء حظي ان والد خطيبتى ووالدها قوم اخذت منهم الفطرسة ماخذها فهم يشترطون ان يكون العريس مالكا لثلاثمائة نفس على الاقل ، وليس فى حوزتى غير مائة وخمسين ، وهو عدد غير كاف كما ترى» .

«انك تكذب ايضاً» .

«اسمع يا هذا . اننى الآن لم اكدب حتى الى هذا الحد» . وأشار بقسم ضئيل من طرف اصبعه الاصفر . «ومع ذلك فانى اراهن على رأسى بانك كنت تكذب فى كل كلمة قلتها» .

«كفى ! كفى ! هذا غير لائق منك . ولماذا اكدب؟»

«لانى اعرفك ، واعرف انك وغد اصيل . اقول لك هذا بدافع الصداقة . ولو كانت لي سلطة عليك ، لسنقتك على اقرب شجرة» .

واستاء تشيتشيكوف من هذا القول . فقد كان يكره التعبيرات النابية التى تجرح الكرامة ، ولم يكن يسمح لاي امرى - باستثناء اصحاب النفوذ والمراكز العالية - ان يسلكوا معه سلوك الالفة التى تتجاوز الحدود . ولهذا بلغ استياؤه فى تلك اللحظة اشده . وراح نوزديف يكرر كلامه ويقول «اى والله ، كان يجب ان اسنقتك . وانا اقول لك هذا لا رغبة فى الاساءة اليك انما للصرحة التى فطرت عليها ، الصراحة التى يجب ان تكون بين الصديق والصديق» .

فاجاب تشيتشيكوف بجفاف «ان لكل شىء حداً ، واذا كنت تنوى ان تستعمل هذه التعبيرات فمن الافضل لك ان تعود الى ثكنات المعسكر» .

وسادت بينهما فترة من الصمت . تابع تشيتشيكوف بعدها قوله «اذا كنت لا تريد ان تهدينى العبيد فلماذا لا تبيعهم لى؟»

«ابيعهم ؟ انى اعرفك ايها السائل ! انك لن تدفع فيهم شيئاً يستحق الذكر . اليس كذلك؟»

«امر ظريف حقاً ! اصغ لي يا هذا . ما هى قيمتهم عندك . جواهر نفيسة على ما اظن؟»

«هذا ما كنت اقدر . الم اقل لك انى اعرفك؟»

«ايه يا اخى ، هذه التطلعات اليهودية ، كان يتوجب عليك ان تهديهم لى» .

«على العكس مما تظن ، فليس في نيتي أن استغلك ، ولكي أثبت لك ذلك فسوف لا اطلب حتى كوبيكا واحدا مقابلهم . كل ما اطلب هو أن تشتري المهر الذي رأيت وسأعطيك العبيد فوق الصفقة دون مقابل» .

فقال تشيتشيكوف مندهشاً جداً لاقتراح «لكن ما حاجتي الى مهر؟»

«ما حاجتك له ؟ مه . لقد اشتريته بعشرة آلاف روبل واني على استعداد لكي اعطيك إياه بأربعة آلاف فقط» .

«دعني اكرر سؤالى مرة أخرى - اى فائدة يمكن أن اجنيها من المهر ؟ انا لا اقتنى الجيصاد ولا احتفظ بأسطبل لها» .

«يبدو انك لم تفهمنى . دعنى اهوّن الامر عليك . ادفع الآن مقدماً من الثمن ثلاثة آلاف روبل ، ولنؤجل الألف الأخرى الى ما بعد» .

«ولكننى قلت لك لا اريد أن اشترى ذلك المهر ، الله يحفظه» .

«اذن فاشتر المهرة الشقراء» .

«لا ، حتى ولا هذه» .

«اذن اشتر المهرة الشقراء والجواد الرمادى اللذين رايتهما فى الاسطبل بالفي روبل فقط» .

«لا حاجة بي للخيل مطلقاً» .

«ولكنك تستطيع أن تبيعها مرة أخرى . وبإستطاعتك أن تحصل على ثلاثة أضعاف الثمن فى اول سوق تنعقد» .

«اذن بعها بنفسك ما دمت واثقاً هذه الثقة من هذا الربح العظيم» .

«أجل ، سأبيعها فى أسرع وقت ، انما كنت اريدك انت أن تستفيد من هذه الصفقة» .

فشكر تشيتشيكوف معادته شكراً جزيلاً ، ولكنه صمم على رفض الحصان الرمادى والمهرة الشقراء .

ثم قال نوزدريف «اذن فاشتر بعض الكلاب . سأعطيك زوجاً منها ناعمة الاماب منتصبة الأذان ممتلئة الصدر والأرداف لم تقع على مثلها عين انسان من قبل . لها مغالب متجمعة اذا سارت عليها تحسبها لا تكاد تمس الارض» .

«وما فائدة الكلاب لي ، لست صياداً» .

«لكننى اريد ان تكون من هواة تربية الكلاب . لا ، اذا كنت لا تريد الكلاب فى امكانك ان تشتري الآلة الموسيقية . انها آلة فخمة حقاً . اقسام لك بشرفسى اننى اشتريتها عندما كانت جديدة بألف وخمسمائة روبل . خذها بتسعائة» .

«مه ! مه ! وما الذى اعمله بها ؟ لست المانيا حتى احملها على كتفى واتجول بها فى الشوارع لكي أستجدي بها الكوبيكات» .

«ولكن هذه آلة تختلف عن تلك التى يتجول بها الالمان . انها ارغن اصيل . اذهب وافحصها بنفسك . انها مصنوعة من اجود انواع الخشب . هيا معى لتلقى عليها نظرة أخرى» .

وامسك بيد تشيتشيكوف وسجبه الى الغرفة الأخرى

حيث اضطر الأخير - على الرغم من تأكيده لنوزدريف
أنه على علم بجودة الأرغن - إلى الاستماع مرة أخرى
إلى كيفية ذهاب مالبروغ إلى الحرب .

ثم راح نوزدريف يقول «إذا كنت لا تريد أن تعطيني
نقوداً ، فاستمع إلى هذا الاقتراح . سوف أعطيك الآلة
الموسيقية وكل ما لدي من الانفس الميتة وتعطيني
مقابل ذلك عربتك وثلاثمائة روبل أخرى» .

«استمعوا للرجل ! وما الذي يبقى لي للانتقال من
مكان إلى آخر ؟»

«أيه ! سأعطيك عربة أخرى . تعال معي إلى المراب
وسوف أريك التي أعني . إنها لا تحتاج إلا إلى الدهان
لكي تصبح فاخرة جداً» .

«يا للشيطان الهائج غير مكبوح العنان» . قال هذا
تشيستشيكوف لنفسه التي صمم في قراراتها أن يتخلص
من صفقات العربات والآلات الموسيقية وكل أنواع
الكلاب مهما كانت ممتلئة الصدور والأرداف أو متجمعة
المخالب ومنصبة الأذان .

وأعاد نوزدريف يقول «وستأخذ بدلاً منها هذه
العربة والآلة الموسيقية وكل الانفس الميتة» .

فقال تشيستشيكوف «كلا ، لا أريد» .
«ولماذا ؟»

«لأنني لا أريد ، هذا كل ما في الأمر» .

«انني أعرف أنك وغد سافل لا تعرف كيف تسيير
الأمور بين الأصدقاء . ها أني أرى أنك رجل
مزدوج» .

«ماذا تعني هل أنا مجنون ؟ فكر في الأمر بنفسك .
كيف اشتري أشياء لا حاجة لي بها ؟»

«كفى ! كفى ! من فضلك . لقد عرفتك على حقيقتك .
إنك وبش أصيل . ولكن استمع إلي ، هل تلعب
الورق ؟ انني على استعداد للمقامرة بالانفس الميتة
والآلة الموسيقية إذا أحببت» .

«لا ، فاللعب بالورق معناه أن يسلم الإنسان نفسه
للمجهول» كان يقول تشيستشيكوف وأخذ ينظر من طرف
خفى إلى رزمة الورق التي كانت في يد نوزدريف . وقد
خامره شيء من الشك عندما رأى الطريقة التي كان
زميله يقطع الرزمة بها .

وسأله نوزدريف «وماذا تعني بالمجهول ؟ ليس هناك
شيء اسمه المجهول . إذا حالفك الحظ فستربح ما لا
يعله إلا الشيطان . أيه ! يا للحظ ! يا للحظ !
انظر . ها هي وحدها . تلك التسعة الملعونة التي
سُرت بسببها كل شيء في تلك الليلة . لقد أحسست
عندئذ أنها ستخدعني ولكنني قلت لنفسي - هيّا ،
أرني خيانتك . وياخذك الشيطان» .

وبيشما كان نوزدريف يتكلم ويلعب بالورق ، دخل
بورفيري يحمل زجاجة شراب أخرى . ولكن تشيستشيكوف
رفض أن يشرب ويلعب .

فسأله نوزدريف «ولماذا ترفض اللعب ؟»

«لأنني لا أحس بالرغبة فيه . وبالإضافة إلى ذلك فأنا
لا أحب اللعب» .

«ولماذا لا تحبه ؟»

العشاء ، قاد نوزديف تشيتشيكيوف الى غرفة جانبية اعد له فيها الفراش وقال له «هنا ستنام ، ولا رغبة بي في ان آتمنى لك ليلة سعيدة» .

واحسن تشيتشيكيوف ، بعد ان تركه نوزديف ، انه في حالة نفسانية لا يحسد عليها . فاخذ يلوم نفسه بمرارة ، وهو يغلي حنقا ، على مجيئه لرؤية هذا الرجل وصرف وقته الثمين سدى . ولكنه لام نفسه اكثر من ذلك لانه اطلمعه على مشروعه ، فتصرف بذلك تصرف الاطفال والمجانين . فالمشروع بكل تأكيد ، ليس مما يُستَرّ به لامثال نوزديف الشخص التافه الذي قد يخلق الاكاذيب حوله ، ويزيد عليها الحواشي ، وينشر قصصاً لا يعلم الا الله مدى الفضائع التي تترتب عليها . واخذ يقول لنفسه «انه امر سيء حقاً ! ويا لي من غبي !» وقضى بناء على ذلك ليلة مؤرقة مضنية . وقد كان ضغثاً على اِبْأَلَة ان انطلقت عليه اعداد غفيرة من حشرات لاذعة صغيرة تناولته باللذع والقرص حتى لم يكن يستطيع ان يعمل شيئاً الا ان يدك مواضعها ويقول «لياخذك الشيطان أنت» ونوزديف ! واستيقظ في الصباح الباكر ، وكان اول عمل قام به (بعد ان لبس خفه ورداه) ان اجتاز حظيرة البيت الى الاسطبل لكي يامر سيليفان باعداد العربة . وبينما كان راجعاً من مهمته تلك ، تقابل مع نوزديف مرتدياً رداءه وممسكاً بقلبونه بين أسنانه . وحيثاً رب البيت ضيفه كما يفعل الاصدقاء ، وسأله كيف كان نومه .

فهز تشيتشيكيوف كتفيه ، وقال «لاني لا احبه» .
«انك لا تجيد شيئاً من الاشياء على ما اظن» .
«وما العمل اذا كان الله خلقتني هكذا؟»
«انك في الحقيقة فيتوك ، ولا شيء غير ذلك . لقد حسبتك انساناً محترماً من قبل ، ولكنى ارى انك لا تفهم اصول اللياقة ولا تعرف الآداب . ان المرء لا يستطيع ان يمتدحك صديقاً ولا ان يتكلم معك على هذا الاساس لانك عديم الصراحة ، عديم الاخلاص . انك سوباكفيتش حقيقي بانس» .

«لاي سبب تطلق لسانك علي» بالشم والمساب ؟
هل هناك من خطأ اذا ما رفضت لعب الورق ؟ بعنسي الانفس وحدها اذا شئت ان تكون دقيقاً في تصرفك» .
«لياخذك الشيطان الاحمق ! كنت سأعطيك هذه الانفس بلا مقابل ، ولكنى لن اعطيكها الآن اطلاقاً ، ولو اعطيتني ثلاث ممالك بدلاً منها . لم تعد اي رابطة تربطني بك ، ايها النذل القذر ! بورفيري ، اذهب واخبر السائس ان لا يضع لخيول السيد شوقاناً ولا شعيراً ، تبنا فقط» .
لم يكن تشيتشيكيوف يتوقع ان تتطور الامور الى هذا الحد .

واكمل نوزديف يقول «وانت ، اغرب عن وجهي» .
وعلى الرغم من ذلك كله فقد تناولا العشاء معاً - ولكن الخمر ذات الاسماء الرفيعة لم تكن تزيّن المائدة هذه المرة . كان كل ما هنالك زجاجة واحدة من النبيذ العادي جداً يشبه الخل اكثر مما يشبه النبيذ . وبعد

فاجاب تشيتشيكوف برنة عليها مسحة من جفاف «لا بأس به» .

فقال نوزدريف «أما أنا ياخى فاية افكار لعينة مقيبة للغاية ظلت تدور فى رأسى طوال الليل . وفى فمى طعم كرية من شراب البارحة . وكنت احس من اثر ما عملناه فى الليلة الماضية وكان فرقة من الجنود تصعكر على صدرى حتى اننى حملت بأننى اجلد . ايه ! ومن تظن ذلك الذى حملت بأنه يجلدنى ؟ لا اظنك ستعرف . انه الضابط بوتسيلويف وكوفشيتيكوف !»
فقال تشيتشيكوف لنفسه «ليت هذا الجلد كان حقيقة لا حلماً» .

واستمر نوزدريف يقول «وقد شعرت اننى مريض جداً . وما كدت انام حتى جاء شىء . ولسعنى . قد تكون البراغيث هى التى فعلت ذلك . والآن اذهب وارسد ملابسك وساكون عندك حالا . على اولا ان اذهب الى الامور السافل وازجره» .

وذهب تشيتشيكوف الى غرفته ليفسل وجهه ويرتدى ملبسه . وما ان اتم هاتين العمليتين حتى دخل الى غرفة الطعام فوجد على المائدة معدات الشاى وزجاجة روم . كان من الجلي ان مكنسة لم تمس المكان بعد ، فقد ظلت اثار الليلة السابقة من غداء وعشاء ماثلة على شكل قنات منتشرة على الارض وروما تبغ على ملأة المائدة . حتى رب البيت ، عندما دخل ، كان لا يزال يرتدى الرداء البيئى الذى كان يكشف عن صدر أشعتر . وعندما جلس ممسكاً غلبونه فى يده ، يشرب

الشاى من قمع فى اليد الأخرى كان نموذجاً صالحاً للرسامين الذين يحبون رسم غير المتأقنين ويكرهون رسم الرجال الذين ينهبون الى الحلاق ليمسّد لهم شعرهم بالمشط والفرشاة ويضع عليه مختلف الروائح والعلطور .

وبعد فترة من الصمت اخذ نوزدريف يقول «ما رايك الآن ؟ الا تحب ان تلعب معى على تلك النفوس ؟»
«لقد قلت لك اننى لا لعب الورق ابداً . فاذا كانت النفوس للبيع فانى سأشتريها» .

«اننى اربأ بنفسى ان ابيعها . فهذا شىء لا يليق بين الاصدقاء . اما اذا لعبنا عليها لعبة فان وجهه المسألة سيتغير . دعنى اقطع الورق» .

«لقد قلت لك اننى لن اللعب» .

«الا توافق على المبادلة أيضاً ؟»

«كلا» .

«اذن اصنع لي . ما رايك فى ان نلعب الداما ؟ اذا ربحت فالانفس لك . ان هناك كثيراً منها فى اللانحة اريد شطبه . بورفيرى ، احضر رقعة الداما» .
«انك تضيع وقتك . فلن اللعب الداما ايضاً» .

«ولكن لعب الداما يختلف اختلافاً كبيراً عن لعب الورق . فليس فيه مجال لا للحظ ولا للغش . ان كل شىء فيه يعتمد على المهارة . وعلى ان ابلغك منذ الآن اننى لن أستطيع ان اجاريك فى اللعب الا اذا سمحت لي بركة او حركتين اسبقك بهما» .

وزاح تشيتشيكوف يفكر . «وليم لا اللعب معه . لقد

كنت في وقت من الاوقات لاعباً ماهراً في الداما . وليس في هذه اللعبة فرصة للخديعة» .

وأضاف بصوت عال يقول «حسناً ، هيتا بنسا الى الداما» .

فقال نوزديف «وستكون النفوس مقابل مئة روبل ؟»

«هذا كثير ! خمسون روبلا تكفي» .

«لا ، وما نفع الخمسين . ولكنني سأضيف مقابل الروبلات المئة جرو كلب لا بأس به . . او الافضل من ذلك سلسلة ذهبية لساعتك» .

فوافق تشيتشيكوف قائلاً «حسن جداً» .

«اذن بكم حركة ستسمح لي ان اسبقك؟»

«ولماذا ؟ طبعاً لن اسمح بشيء» .

«اسمح لي بحركتين على الاقل» .

«لا ، لن اسمح بشيء . فانا ضعيف فيها» .

فقال نوزديف وهو يحرك قطعة منها «اني اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

فاجاب تشيتشيكوف وهو يحرك قطعة لآخرى «منذ مدة طويلة لم تلمس يدي قطعة داما» .

فكرر نوزديف وهو يحرك قطعة أيضاً «ايه ، اني اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

فحرك تشيتشيكوف بدوره قطعة وقال «اجل ، منذ مدة طويلة لم تلمس يدي قطعة داما» .

فقال نوزديف للمرة الثالثة وهو يحرك القطعة الثالثة . «ايه ، اني اعرفك واعرف لعبك الضعيف» .

وفي الوقت نفسه ، بينما كان يقول ذلك كان كسم تميصه يحرك قطعة اخرى من موضعها .

بينما كان تشيتشيكوف يقول «اجل منذ مدة طويلة لم . . . هه ! ما هذا ؟ ارجع القطعة الى موضعها !»

«اية قطعة ؟»

«هذه» .

وأشار الى القطعة التي هي موضع الجدل ، ولكنه وجد في الوقت نفسه ان هناك قطعة اخرى غيرها قد طلعت داما ، ولا يعلم الا الله ما الذي جاء بالقطعة الجديدة الى موضعها ذلك .

فنهض تشيتشيكوف عن المنضدة وهو يصيح «لا ، لا ، من المستحيل ان يلعب المرء مع رجسلك مثلك .

فالناس لا يحركون ثلاث قطع دفعة واحدة» .

«كيف ، ثلاث قطع ! إنه مجرد خطأ بسيط ، فقد تحركت احدي قطعي بالصدفة . واذا شئت ساعيدها الى

حيث كانت» .

«ومن اين جاءت القطعة الثالثة ؟»

«اية قطعة تعني ؟»

«تلك التي طلعت داما» .

«هل نسيت حركة هذه ؟»

«لا ، لا ، يا صديقي . لقد حسبت كل حركة واستطيع ان اذكرها لك واحدة واحدة . وتلك القطعة قد اضيفت

حديثاً الى الرقعة . هيتا ارجعها الى مكانها» .

«مكانها ؟ وما هو مكانها ؟ - واحمر وجهه احمراراً شديداً - اراك ملغماً كبيراً !»

«لا ، لا ايها الأخ العزيز . انك انت الملقق ، ولكنك ملقق فاشل كما ارى» .

«ما الذي تعتقده في* إذن ؟ اننى اغشسك ؟ اليس كذلك ؟»

«انا لا اعتقد فيك شيئاً . وكل ما اقول هو اننى لن ألعب معك» .

فاشتمعت ثورة نوزدريف وقال «ولكنك لا تستطيع ان تفعل . فاللعبة قد ابتدأت» .

«ومع كل هذا ، فلي الحق ان اترك اللعب ما دمتم لا تلعب لعباً شريفاً» .

«انك تكذب ، وكيف تجرؤ على هذا القول ؟»

«انت الذى يكذب» .

«انا لم اغش . وبناء على ذلك لا تستطيع ان تترك . وعليك ان تكمل اللعبة الى نهايتها» .

فقال تشيتشيكوف ببرود «انك لا تستطيع ان ترغمنى على اللعب» . والتفت الى رقعة الداما ومر بيده عليها وخلط بين قطعها .

فاقترب نوزدريف من تشيتشيكوف وعلى محياها امارات الوعيد بحيث تراجع الاخير خلوتين الى الورا .

وقال نوزدريف «سوف ارغمك على اللعب . ان خلط رقعة الداما لن يجديك شيئاً ، لاننى اذكرك كل حركة من الحركات . سوف نعيد القطع الى مواضعها كما كانت» .

«لا ، لا ، يا صديقى . لقد انتهت اللعبة ، ولن ألعب معك بعد» .

«تقول انك لن تلعب ؟»

«نعم . فانت ترى بنفسك ان امرأ كهذا اصبح مستحيلاً» .

«انت مصمم على هذا ؟ هيا قل مرة ثانية انك ترفض اللعب معي» . وتقدم نوزدريف عند قوله هذا من تشيتشيكوف خطوة الى الامام .

فقال تشيتشيكوف «اجل ، لا اريد» . وفى الوقت نفسه رفع يديه دفاعاً امام وجهه ، لان سير الامور اصبح حامياً . والواقع ان عمله هذا كان له ما يبرره ،

لان نوزدريف هجم عليه رافعاً قبضته . وكان من المحتمل ان يتلقى بطلنا على خده الممتلئ التضفير لكمة لا تنسى لو لم يتجنبها بان هجم على ذراعي نوزدريف

السنى كان يلوح بهما ، وامسك بهما بيمن يديه .

واخذ نوزدريف يصيح بجنون وهو يتهالك على تخليص يديه «بورفيرى ! بافلوشكا !»

وعندما سمع تشيتشيكوف هذا الصياح ترك يدي نوزدريف . وقد افلتما فى الواقع لسببين - اولهما انه لم يحب ان يرى الخدم هذا المنظر الذى لا يشرف

احداً ، وثانيهما ان الامساك بيدي نوزدريف لم تعد فيه جدوى . وما كاد يفعل ، حتى دخل الغرفة بورفيرى

ومعه بافلوشكا - عملاق من الابطاش ليس التعرض له من الحكمة فى شىء .

فقال نوزدريف «هل تريد او لا تريد ان تكمل اللعبة ؟ اعطني الجواب حالا» .

فاجاب تشيتشيكوف وهو ينظر من النافذة «لا ، ليس

انها اللعبة بالمستطاع» . وراى ان العربية جاهزة فسئ
انتظار اشارة ، وسيليفان على اهبة الاستعداد ليتقدم
بها الى سلم البيت . ولكن لم يكن من الغرفة مناص
لان الخادمين العملاقين ماثلان بالباب .

واعاد نوزدريف قوله وقد احمر وجهه كالنار «اذن
انت لا تريد انهاء اللعبة ؟ اليس كذلك ؟»

«كنت اود انهاءها لو لعبت لعباً شريفاً ، اما والحالة
هذه فكلاً» .

«انك لن تستطيع ايها الوغد ! انك تترك اللعب لماً
وجدت نفسك مغلوباً على امرك ، وعرفت ان الحظ قد
تخلّف عنك ! اضرباه يا شباب !» وجه الجملة الاخيرة
الى بورفيرى وبافلوشكا ، وسحب بنفسه قصبه من
خشب الكرز . اما تشيتشيكوف فأصبح لونه كالعلاءة
البيضاء . كان يحاول ان يقول شيئاً ما الا ان شفتيه
كانتا ترتعشان دون ان تصدرا صوتاً .

وصاح نوزدريف للمرة الثانية «هما اضرباه !» واندفع
هاجماً وهو يتصيب عرقاً وقد اجتاحته نوبة عاصفة من
الحماس تليق بالفارس المغوار عندما يهجم على حصن
حصين . وصاح مرة اخرى «اضرباه !» بصوت الضابط
المتهور الذى يبعث الحماس فى جنوده للهجوم على
الهدف المعين بقوله «الى الامام ايها الرفاق !» لما عرف
عنه رؤساؤه من تهور وطيش فصيموا على كف يده عن
العمل اذا ما عاد الى طيشه وتهوره . مهما يكن من
امر ، فان رأس الضابط - وقد اجتاحت حمية المعركة ،
- ياخذ باللف والدوران ، وتلوح امام عينيه صورة

البطل سوفوروف * . فيتقدم الجنود ويصبح بصوت
مسمور «الى الامام ايها الشجعان !» غير حاسب للنتائج
حساباً ، وغير مفكر فيما اذا كان عمله هذا سوف
يخرّب خطة الهجوم العام ، وغير عابى فيما اذا كانت
فوهات ملايين البنادق مصوبة من كوى فى السور فسئ
انتظار الصيد المرقوب ، وغير مقدر ان يذهب هجومه
ادراج الرياح وان تكون فى تلك اللحظة قد صدرت من
فوهة احدى البنادق الرصاصية التى كتب لها فى اللوح
المحفوظ ان تطبق على حنجرته فتسكتها الى الابد . على
اية حال ، فاذا كان نوزدريف يشبه ذلك الضابط
اليانس العنيد الذى رسمناه هاجماً على الحصن الحصين ،
فقد كان الحصن فى قصتنا بعيداً عن ان يكون حصيناً
ولا يمت للحصن الذى سبق وصفه بأية صلة . وواقع
الامر ان الرعب والهلع استوليا على حصننا فهوت روحه
الى حدائه . قبل كل شئ ، ما كاد تشيتشيكوف
(الحصن الذى نتكلم عنه) يمسك بكرسى لكى يدافع
به عن نفسه حتى انتزعه من قبضته أحد العبيد ، ومن
ثم اطبق اجفانه ، وهو يحس بأنه اقرب الى الموت منه
الى الحياة ، ليتلقى ضربة من عصا مضيفه . ولا يعلم
الا الله ما الذى كان سيحدث لكتفيه وخصره وظهره لو
لم يتدخل القدر لانقاذ بمعجزة من المعجزات . فعلى
حين غرة ، ودون ان يتوقع ذلك احد ، سمع صوت رنين

* سوفوروف - قائد روسى عظيم حاز على شهرة كبيرة
فى حرب السنوات السبع . الناشر .

«انك تكذب ! انى اقول لك فى وجهك ! طوال حياتى لم تقع عيناي على العلاك ماكسيموف» .

«سيدى المحترم ، اسمع لى ان اذكرك باننى موظف حكومة . وهذا النمط من الكلام تستطيع ان توجهه لخدمك ، لا لى» .

وعند الكلمة الاخيرة سحب تشيتشيكيوف قبعته ، ودون ان ينتظر جواب نوزديريف ، زلق من وراء ظهر الضابط ، واندفع الى المدخل ، وقفز فى العربة ، وامر سيليفان ان يسوق العربة بسرعة الريح .

الفصل الخامس

ارتعب تشيتشيكيوف بالتاكيد بكل ما فى الكلمة من معنى . فمع ان العربة كانت مندفة فى سيرها لا تلوى على شىء حتى اخفى بيت نوزديريف خلف الروابى والاسيجة الا ان بطلنا ظل يتلفت وراءه بصصيبة وانفعال كما لو كان ينتظر ان يرى خلفه مطاردة عنيفة بين الفينة والاخرى . كان يتنقّس بصعوبة ولما وضع يده على قلبه شعر به يخفق كأنه طائر السلوى عندما يقع فى الشباك . وراح يخاطب نفسه ويقول «أى ضنى اورثنى هذا المخلوق» . بينما تخامر رأسه نزعات عارمة طاغية . وكانت التعابير التى فاه بها فى الواقع ابعد ما يمكن ان تكون عن الكياسة . ولكن ما العمل ؟ لقد كان روسياً وعلاوة على ذلك خرج عن طوره . ولم يكن الامر بعد ذلك كله هزلاً . وخطر بباله : لو لا

اجراس عربة وقرقعة عجلات تقترب من مدخل البيت ، وما ان وقفت حتى سمع صوت لهات الخيول ونخيرها ، وكان هذه الاصوات قد هبطت من السماء . فنظر الكلب دون ارادة من النافذة وراوا رجلاً ذا شوارب يلبس معطفاً عسكرياً وهو نازل من العربة . وبعد انلقى سؤالاً او سؤالين فى القاعة دخل الى غرفة الطعام فى اللحظة التى كان فيها تشيتشيكيوف يكاد يغشى عليه من الهلع ، ويجد نفسه يمر فى ارجح المواقف التى يمر بها انسان فان .

اللقى الرجل المجهول نظرة حائرة على الرجلين - نوزديريف (وهو لا يزال رافعاً عصاه فى يده) وتشيتشيكيوف (الذى كان قد بدأ يستجمع نفسه من الفعل التعيس) وتساءل قائلاً «ارجو كما ان تخبرانى ايكما هو السيد نوزديريف» .

فتقدم نوزديريف الى الضابط وقال له «ارجو ان تخبرنى من تكون» .

«انا رئيس شرطة الريف» .

«وماذا تريد ؟»

«جئت اؤدى مهمة كلفت بها . وهى ان ابلغك عن وضعك تحت الحراسة الى ان تقرر المحكمة مصير قضيتك» .

«هراء ! هراء ! واى قضية هذه ؟»

«انت متهم بانك اعتديت وانت فى حالة السكر وباستعمال قضيب على العلاك ماكسيموف وحدثت فى جسمه اضراراً بليغة» .

رئيس الشرطة ما بقيت لي عينان تنظران ما خلق الله من ضوء النهار ولتلاشي وجودي كفقاعة في غدير ، وما تركت أثراً أو ذرية أو ملكاً أو اسماً شريفاً يرثه أحادي (ويظهر أن بطلنا كان حريصاً جداً على ترك ذرية تخلقه) .

أما سيليفان فقد سرح فكره وهو يسوق العربة ، وأنشأ يقول «أي سيد سافل هذا ! لم أر في حياتي سيدياً مثله ! كم كنت أتمنى لو بصقت في وجهه . أترك الرجل للجوع أفضل من أن تحرم حصانه الطعام الذي يليق به . الحصان بحاجة إلى شوفانه مثلما يحتاج الإنسان إلى طعامه والضرورة تقضي أن تقدم له ذلك دائماً» .

وقد ظهر أن الجياد كانت تتشاطر سيليفان ورايه الخاص في نوزديف . فلم يكن الكميته والمستشار وحدهما يعربان عن استيانهما وحسب ، بل كان الارقط أيضاً يتقمص روح الاشمنزاز . حقاً ، ان الارقط لم يكن يجد في البيت علفاً غير اردا أنواع الشوفان ، ولم يكن يعلفه سيليفان دون أن ينعته بالسافل ، لكن علفه على الاقل كان شوفاناً لا تيناً - كان مادة يستطيع أن يمصفها بشيء من اللذة . وهناك حقيقة أخرى أيضاً ، فقد كانت تسنح له بعض الاحيان فرصة يمد فيها يوزه الطويل الى مذودَي زميليه (خاصة عندما يكون سيليفان غائباً عن الاسطبل) ويتذوق علفهما . ولكن في بيت نوزديف لم يكن هناك غير التين ! وهذا ليس من العدالة في شيء . واحسنت

الخيول الثلاثة باستياء شديد .

ولكن تأملات الساطخين انقطعت فجأة بشكل عنيف لم يكن في الحسبان . لقد أعادهم الى الواقع اصطدامهم اصطداماً شديداً بعربة تجرها ستة خيول ، بينما انهالت على رؤوسهم صرخات سيدات داخل العربة وعاصفة من الشتائم والمسيبات من سائقها . وصاح السائق قائلاً «ما الذي جرى لك ايها المعجون اللعين ! لقد صحت عليك بأعلى صوت ! ابتعد يا غراب الشؤم ، والزم يمينك هل انت سكران ؟» وأدرك سيليفان انه كان السبب لأنه كان عديسماً الاكتراث ، ولكن لأن الروسي لا يقبل الاعتراف بخطائه بحضور الاغراب ، ردّ عليه بكبرياء «لماذا دخلت علينا ؟ هل تركت عينيك خلفك في آخر حانة وقفت فيها ؟» وبذلك بدأ يسحب العربة الى الخلف بغية ان يخلصها من أطواق العربة الاخرى . ولكن ذلك لم يكن بالامكان ، لان العربتين كانتا قد اشتبكتا اشتباكاً لا رجاء فيه . وراح الارقط آنذاك يتشمم باستغراب معارفه الجدد الذين تسمرؤا على جانبه . بينما راحت سيدتان كانتا داخل العربة تتطلعتان الى منظر الاصطدام وعلى وجهيهما سيما الرعب والفرع . كانت احدهما عجوزاً والاخرى فتاة في نحو السادسة عشرة . وسقطت خصلة من شعر الفتاة الذهبي برقة واناقة عن رأسها الصغير وانعدرت على الوجه البيضاوي الجميل . كان وجهها كالبيضة لا في الانسجام وحسب ، بل في لونها الابيض الشفاف الذي تراه ربة البيت حين تمسك بيديها بيضة وضعت

حديثاً وتضعها على عينيها لترى أشعة الشمس وهي تتخلل قشرتها . وكانت المسحة نفسها تطفى على اذنيها اللتين كانتا توهجان تحت نور الشمس . باختصار ، وبما تفرق في عينيها الواسعتين الأسترتين من دموع بدت صورة فاتنة جذابة جداً ، حتى أن بطلنا القى عليها نظرة أكثر من عابرة قبل أن ينتبه الى الجلبة التي كانت قائمة بين الجياد والسائقين . وصاح السائق الغريب «ارجع الى الخلف يا غراب البيئ» فشدد سيليفان الأعنة ، وحذا الآخر حذوه ، فتقهقرت الخيول قليلاً الى الوراء ، ولكنها عادت لتشتبك مرة ثانية . وقد بدا في الواقع أن الأرقط كان مسروراً جداً بأصدقائه الجدد حتى أنه رفض أن يتحرك من مكانه الذي رماه فيه حظ خفي مشكور . والقى بخطمه تحبباً على عنق احد معارفه الجدد ، وبدا كأنه يهمس شيئاً في أذن ذلك الصديق - شيئاً على ما يبدو كان كله سخفاً وهراء ، لأن المهوس في أذنه راح يحرك أذنيه إستخفاً .

وعلى حين غرة تجمع فلاحون من قرية مجاورة للحادث واندمجوا في الورطة القائمة . وبما أن منظرًا كهذا المنظر عند الفلاحين الروس ممتع كصحيفة أخبارية أو كاجتماع في ناد عند الالمان فسرعان ما أصبحت العربتان مركزاً لتجمع جمهور غفير ، وغدت القرية خلواً إلا من النساء والأطفال . وانفصل العمودان المتشابكان آخر الأمر ، وكانت بضع صفعات على آف الأرقط كافية لتجملته يتراجع الى الخلف . وبعد ذلك رتبت فرق الخيول وفصلت بعضها عن بعض . ومع

ذلك كله فقد رفضت الفرقة الغريبة أن تحرك ساقاً من موضعها رفضاً باتاً ، وقد يكون ذلك لمجرد العناد ، أو قد يكون اسفاً على فراق الاصدقاء الجدد . فساطها سائقها ولكنها ظلت واقفة كما لو كانت مسمرة في الأرض . وبعد لاي ، ارتفعت جهود الفلاحين المشتركة الى درجة من الحماس لم يسبق لها مثيل . فبدأوا يصيحون جوقات ، بأوامر كالتالية «اسحب يا اندروشكا رأس الحصان الامامي الى اليمين ، بينما يركب العم متيائي الحصان الاوسط . انفض يا عم متيائي» . وعلى ذلك نهض العم متيائي وهو نحيل طويل احمر اللحية وركب الحصان الاوسط وظهر في وضعه الجديد كأنه برج القرية أو دولاب الناعورة . وساط السائق الجياد مرة أخرى . وثبت أن العم متيائي كان عديم الجدوى . وصاح الفلاحون ثانية «توقف ، توقف» . «اركب يا عم متيائي الحصان الامامي وليركب العم متيائي الحصان الاوسط» . «واسرع العم متيائي ، وهو فلاح ذو كتفين عريضين ولحية سوداء كالفتح ويطن كالسماور الضخم الذي يخمر فيه شاي العسل للتجار المحليين أيام السوق - اسرع بامتطاء الجواد الاوسط ، وكاد الأخير أن يهوى الى الأرض تحت ثقله . وصرخ الفلاحون «سيسيرون الآن سيراً حسناً ! اضربه حامياً ! اضربه حامياً ! اعط ذلك الحصان الاشقر ضربة سوط ، ودعه يتلوى كالانفى*» ومع هذا ، فلم تتقدم الامور بحال

* في الأصل وكما تتلوى الكوراموراء وهي حشرة كالبعوض طويلة الجسم نسيبا كثيرة التلوى . الهترجم .

من الاحوال . عندئذ وقد تبين أن لا فائدة من السوط ،
لجأ القوم الى أسلوب آخر . فامتطى العمان متباي ومنيأى
الاشقر وجلس انزروشكا على ظهر الحصان الامامى ،
وجد القوم فى العمل دون جدوى . بعد هذا كله فقد
السائق الصبر ، فصرف العمى فى سبيلهما لأنه أدرك
قبل فوات الأوان أن الخيول تلهث لهاثاً شديداً وكأنها
قطعت شوطين دون استراحة . فأعطى الخيول برهمة
تستريح فيها . وما تم ذلك حتى تحركت بمسلة
اختيارها . وكان تشيتشيكوف طوال ذلك الوقت يعدق
فى الفتاة المجهولة بانتباه شديد ، حتى أنه جرب مرة
أو مرتين أن يدخل معها فى حديث ، لكن محاولته ذهبت
ادراج الرياح . وعند ذهاب السيدتين كان فى الواقع
كانه فى حلم ساهم البصر فى وجود الفتاة الانيس
وتقاطع وجهها الانيقة وقدما النحيل وهى تختفى عن
انظاره . كان كأنه فى حلم إذ عاد لا يرى امامه سوى
نفسه والطريق والعربة والخيول الثلاثة وسيليفان
والحقول الخالية الخاوية . فى كل أرجاء الحياة - من
أبسط مراتب المجتمع وأقدرها ، الى أعلى المراتب
وأوجهها - يقع الانسان على ظاهرة تختلف اختلافاً كلياً
عن كل ما عهده فى حياته ، وتظهر فيه احساسيس تختلف
اختلافاً كلياً عن كل احساس مر به حتى ذلك الحين .
وفى كل مكان من هذا الوجود ، من خلال خيوط البؤس
التي نسجت منها حياتنا ، قد يشع فجأة خيط لامع
يراق من الفرع والسرور . مثل ذلك مثل شارع قرية
مسكنة بانسة اخنى عليها الدهر بكلكله ، لا تمر به

إلا عربة المزرعة البالية ، تظهر فيه فجأة عربة فخمة
لماعة الدهان انيقة الخيول براقه الزجاج ، يقف الفلاحون
لها فاغرى الافواه ساهمى الابصار وينسون أن يعيدوا
قبعاتهم الى رؤوسهم الا بعد أن يتوارى الموكب عن
انظارهم بزمن طويل . وهكذا ، فقد كان ظهور الفتاة
ذات الشعر الذهبى فى قصتنا على غير انتظار ، كما كان
اختفاؤها على غير انتظار أيضاً . ولو لم يكن صاحب
الشان تشيتشيكوف ، وكان فتى ذا عشرين ربيعاً -
فارساً أو تلميذاً أو أى رجل آخر فى ربيع الحياة -
فاى فكر كان سيدور فى ذهنه وينبثق من نفسه
وينطق فى اعماقه ؟ ولأى مدى من الزمن كان سيقف
ذاهلاً محذقاً فى الآفاق ، ناسياً دواعى رحلته وما
عليه من واجبات واحتمال ما يسببه التباطؤ من
خسران ، ناسياً نفسه ومركزه والعالم وكل ما فيه ؟
اما فى حالتنا هذه فقد كان البطل متوسط العمر ذا
مزاج صلب على قدر من الحرص شديد . اجل ، فقد
أمعن النظر فى الامر امعاناً شديداً ولكن بشكل أكثر
رزانة مما يفعل الشباب . فلم تكن تأملاته بالطائشة
ولا بالرعنا ، وفتح عليه السعوط ونشق منها وأنشأ
يقول لنفسه «كانت آنسة جميلة ، انما الأهم من ذلك ،
هل هى آنسة لطيفة أيضاً ؟ هناك شىء واحد ظاهر من
حسناتها ، إذ يبدو عليها أنها قد تركت المدرسة حديثاً
ولم يكن لها من الوقت ما تصبح به امرأة بالمعنى
السيئ . انها الآن كالطفل . كل شىء فيها ساذج
بسيط . فهى تقول ما تفكر فيه وتضحك اذا أحست

وقد قامت على جانبيها مساحات من أشجار الصنوبر
والبتولا الخضراء . كانت البناية الخشبية نفسها ذات
جدران رمادية دكناء، وسقف هرمي أحمر لأنها كانت من
ذلك النوع من المساكن التي تبنيها روسيا عادة لرجال
الجيش المتوطنين وللالمان المستعمرين . وكانت تبدو
هناك ظاهرة جلية واضحة وهي أن ذوق المهندس كان
يختلف اختلافاً واضحاً عن ذوق صاحب الملك . إذ كان
الأول متحذلقاً في الانسجام ، راعياً فيه . بينما كان
الأخير يطلب راحته فقط . وعلى ذلك فقد أغلق (أى
صاحب الملك) كل النوافذ التي كانت في أحد جانبي
العمارة ، وعمل بدلاً منها كوة صغيرة قصد منها بسلا
شكاً انارة مخزن كان سيكون مُظلماً لولاها . وبالمثل
فقد قشمت جهود المهندس القوية أى جعل قمة الهرم
فوق مركز البناية لأن المالك أزال أحد أعمدها الأربعة
الاساسية . من الجلي ان المتانة كانت موضع الاهتمام
في كل شىء . فالساحة كانت منخاطة بسور خشبي
متين عال جداً ، وكلا الاسطبلين ومراب العربات
والمطابخ كانت تقوم على دعائم تكفل بقاها قرناً طويلة
- وحتى الكواخ الفلاحين الخشبية كانت مدهشة فى
متانتها ، فلم يكن فيها جدار واحد أملس ، وليس عليها
أى رسم محفور او آية زخرفة اخرى . كان كل شىء على
ما يرام . حتى ان بئر المنزل كان بابها من خشب
البلوط الذى تعرف انه يستعمل عادة للسفن
والمطاحن . وباختصار ، فحيثما وقعت عيننا تشبثشيكوف
كانتا تريان كل شىء خلوا من الرئانة مرتباً بمهارة

انها بحاجة الى الضحك . آتسة كهذه يستطيع المرء ان
يصوغها فى قالب الذى يشاء ، قد تغدو اعجوبة او
تغدو تافهة مبتذلة لا قيمة لها . وأرجح الحالة الاخيرة
ان كان لها ام ولوعة بها ورهط من العمات والخالات
ومن لف لفهن - نسوة فى مدى سنة واحدة يملان
نفسها بأفكار النساء ونياهن حتى لا يعود والدهما
يعرفها . وسوف يضمن الى ذلك كله اصول التصنع
وقواعد الكبرياء . ومستبداً برعاة القوانين المتبعة ،
وتجهد فكرها فى كيف تتكلم وكم ولمن ومتى وما
اشبه ذلك . وستجدما فى كل لحظة متيية مبليلة
خشية ان تكثر من الحديث . واخيراً تطور فتصبح
مراوغة حاذقة طوال حياتها وتنتهى الى ما لا يعلمه غير
الشیطان !« وضمت هنيهة ثم استمر يقول «إلا انى مع
هذا كله اود ان اعرف من هى ، ومن ابوها وفيما اذا
كان ملاكاً غنياً ذا مركز مرموق او مجرد وحيه نال ثروة
من خدمة الحكومة . وهل سينمئها عند زواجها مهراً ،
ولنفرض مائتى الف روبل ؟ انها ستكون صيداً ثميناً
فى الواقع . وسيكون فى امكانها عندئذ ان تسعبد حقاً
أى رجل اصيل» . وقد كانت فكرة مائتى الف روبل فى
الحقيقة جذابة جداً ، وبدأت ترقص فى مخيلته ، وشعر
بوخزة من اللوم فى قرارة نفسه لانه لم يسأل السائق
اثناء الجلبة عن المسافرين . ولكن رؤية بيت
سوباكيفيتش الريفى شتتت افكاره واضطرته الى العودة
الى موضوع تفكيره المستديم .
كانت قرية سوباكيفيتش ذات اتساع لا بأس به

وعناية . واذا اقترب من سلم المدخل وقع نظره على وجهين يحدتان من نافذة . كان أحدهما وجه امرأة بعيقة وتقاطع كالخياراة استتالة وضيقاً . أما الآخر فكان وجه رجل ذي تقاطيع عريضة جداً قصيرة جداً كالقرعة المولدافيا (المسماة غورليانكي) التي تصنع منها البالايكا - وهي نوع من الآلات الموسيقية الخفيفة ذات وترين تكون مصدراً للسرور والكبرياء لفتى مراح في العشرين من عمره حين يجلس غامزاً مبتسماً لفتيات بيض الاعناق بيض الصدور وقد تجمعن حوله يتسمن الى رنين صوته الشجي . وما لقي هذه النظرة الفاحصة حتى انسحب الوجهان وظهر على سلم المدخل مأمور يرتدى سترة رمادية بياقة صلبة زرقاء ادخل تشيتشيكوف الى القاعة حيث قابله سيد البيت نفسه وسار به الى داخل البناية .

نظرة خفية على سوباكيفيتش تبين منها بطلنا ان مضيغه يشبه دبةً متوسط الحجم شهباً شديداً . واستكمالاً للمشابهة ، كان معطف سوباكيفيتش الطويل وسراويله المعبعة بلون إهاب الدب بالضبط ، بينما تعمل ساقاه حركة تقاطع اذا ما دلف ماشياً على الارض . وله بالاضافة الى ذلك عادة لا تتغير ابداً وهي ان يدوس على قدم مرافقه . أما وجهه فكانت عليه تلك المسحة من الحمية والحرارة التي تجدهما على البياتاك . اشخاص من هذا القبيل - اشخاص لم

* عملة نحاسية قيمتها خمسة كوبيكات . الناشر .

تخصص الطبيعة قسماً كافياً من فكرها لصياغتهم ، ولم تستعمل في هندسة اشكالهم آلات دقيقة كالمثقب والمبرد وما الى ذلك - ليسوا بالقليل الوجود . اشخاص كهؤلاء تنحتهم الطبيعة نحتاً سريعاً لا صقل فيه . ضربة بالبلطة واذا هناك انف ، وضربة اخرى بالمطرقة واذا هناك شفتان ، وغرزان بالمثقب واذا هناك عينان . واخيراً تصدر هذا الانسان للعالم قائلة دون ان تكمل انجازه : «ليكن !» كان سوباكيفيتش على هذا القدر من الهلولة ، ذا شكل خلط ببعضه خلطاً . على ان المثال السابق ينطبق على نصفه العلوي اكثر مما ينطبق على نصفه السفلي . وكنتيجة طبيعية لهذا التكوين ، كان نادراً ما يدير راسه لينظر الى من يحادثه ، بل كان في الغالب يصوب عينيه الى زاوية الموقد ، او الى الباب مثلاً . صوب تشيتشيكوف نظرة اخرى الى زميله عندما كان الضيف والضيف يجتازان غرفة الطعام ، وقال لنفسه «انه الدب بعينه ولا يمكن ان يكون شيئاً آخر غير الدب» . ولم يكن في الواقع مناص من هذه المقارنة الغريبة . ومن عجيب الصدق ان الاسم الاول لسوباكيفيتش كان ميخائيل سيميونوفيتش * . وقد اخذ تشيتشيكوف الحذر الشديد من عاداته في الدوس على اقدام الآخرين . ولهذا اخذ يحسب موضع قدمه ويترك مضيغه يمشى امامه دائماً . وقد تبين في الواقع ان سوباكيفيتش نفسه

* الروس يسمون الدب المم ميخائيل . المترجم .

كان شاعراً بهذه المثلية ، اذ كان يقول بين الفترة والاخرى «ارجو ان لا اكون آلمتك؟» فيجيبه تشيتشيكوف مع كلمة شكر بانه لم يصبه اذى بعد . وصلا قاعة الاستقبال بعد لاي ، فاشار سوباكيفيتش الى كرسي كبير دعا ضيفه الى الجلوس عليه . واخذ تشيتشيكوف يحدق باهتمام في الجدران والصور . كانت كلها رسوماً لشباب اصحاء ، وهم لجنرالات يونانيين امثال مافروجورداتو (مرتديا بدلة رسمية وسراويل حمراء) وميانولس وكنارس * . وآخرين . وقد رسم كل هؤلاء الابطال بجيروت في الهيكل وغزارة في الشوارب تجعل الناظر اليهم يرتعش خوفاً . وقد حشرت بين هذه الصور - لسبب غير معروف وتنظيم غير معروف - صورتان . اولاهما صورة الامير باجراتيون ** ، وهو طويل نحيف رسمت تحته مجموعة من الاعلام الصغيرة والمدافع ، وحشر كل ذلك ضمن اطار الصورة الضيق . وثانيتهما صورة البطلة اليونانية بوبيلينا التي بدت بساقين ضخمتين جداً - أضخم من اجسام جميع متانقي الصالونات في يومنا هذا . كان جلياً ان رب البيت ذا الصحة والعافية لم

* مافروجورداتو - رجل السياسة اليوناني الذي وضع دستور سنة ١٨٢٢ . اما ميانولس وكنارس فهما قائدان من قادة الثورة اليونانية ضد الاتراك . الناشر .
** الامير باجراتيون - احد الابطال الروس في معركة بورودينو ضد نابليون ، واستشهد في المعركة في عام ١٨١٢ . الناشر .

يكن يحب ان يزين غرفاته إلا برجال في قوته وضخامته . واخيراً ، كان قرب الشباك قفص معلق حذاء بوبيلينا ، الكتف بالكتف ، وكان يطل منه على فترات شعور ابيض الترقيط . كان ككل شيء في الغرفة ، شديد الشبه بسوباكيفيتش . وعندما كان الضيف ورب البيت قد بدأ الحديث مدة دقيقة او دقيقتين دخلت ربة البيت ، وهي سيدة طويلة بقبة مزينة بشرائط بيئية التلوين والصنع . دخلت بترو ورفعت رأساً مستقيماً كعذخ النخيل .

وقال سوباكيفيتش «هذه زوجتي فيردوليا ايفانوفنا» .

فاقترب تشيتشيكوف منها وصافحها . ولما رفعت يدها الى مستوى شفثيه ادرك انها قد شطفتها ساعتئذ بزيت الخيار المخلل .

واضاف سوباكيفيتش «عزيمتي ، اسمحي لي ان اقدم لك بافيل ايفانوفيتش تشيتشيكوف . لقد كان لنا شرف التعرف عليه عند حاكم الولاية وعند مدير البريد» .

وعلى ذلك طلبت فيردوليا ايفانوفنا من ضيفها ان يجلس ، وارفعت هذه الدعوة بانحناءة من النوع الذي تفعله الممثلات اللواتي يلعبن ادوار الملكات . وبالتالي اخذت مجلسها على الصوفا وسحبت عليها شالها المصنوع من صوف المارينو * ومكثت كذلك دون ان

* الماعز الاسباني . المترجم .

تحرك ساكنًا . أما تشيتشيكوف فرفع بصره ورأى للمرة الثانية كنارس بفخذه الغليظين وشاربيه اللذين لا حد لهما ويوبيلينا والشحور الاسود . وخيم الصمت على الجميع خمس دقائق كاملة لم يكن يسمع فيها غير صوت منقار الطير وهو يقرع ارض القفص الخشبية اذ يحاول ان يلتقط حب القمح منها . وفي هذه الآونة تفحص تشيتشيكوف الغرفة للمرة الثالثة ، فرأى ان كل شيء فيها ضخم أخرق في أعلى درجات الضخامة والخرق ، وان كل شيء منسجم مع رب البيت انسجاماً غريباً . كان في زاوية من زوايا الغرفة مثلاً ، مكتب من خشب البنق بارز البطن واقف على اربع أرجل ضخمة - صورة ناطقة عن الدب . وكانت الاخوة والكراسي على القدر نفسه من النشوز والغلظ . كانت كل اداة في الغرفة كأنها تصيح قائلة «أنا ايضا سوباكيفيتش !» او «اننى ن نسخة طبق الاصل عن سوباكيفيتش !»

ولما رأى تشيتشيكوف ان احدًا لم يفكر في البدء بالحديث قال «لقد مر ذكرك ذات يوم حينما كنت أزور رئيس المجلس المحلي . كان ذلك يوم الخميس الماضى . وكانت ليلة بهيجة حقاً» .

فاجاب سوباكيفيتش «نعم . فلم اكن هناك فى تلك المناسبة» .

«كم هو لطيف هذا الرجل !»

فتساءل سوباكيفيتش وهو ينظر الى زاوية الموقد «من ذاك ؟»

«رئيس المجلس المحلي» .

«وهل هذا هو رايك فيه ؟ ان هذا هو مظهره فقط ، اما فى الحقيقة ، فعل الرغم من كونه ماسونياً إلا ان العالم لم يشهد له فى القباء مثيلاً» .

فاجل تشيتشيكوف قليلاً لهذا الانتقاد اللاذع القتلى ، ولكنه تمالك نفسه ثانية واستمر يقول :

«بالطبع لكل رجل نقاط ضعف . إلا ان حاكم الولاية انسان ممتاز» .

«حاكم الولاية ممتاز ؟»

«نعم . ليس هذا رايك فيه ايضاً ؟»

«لا ، انه اكبر محتال على وجه البسيطة» .

«حاكم الولاية ؟ محتال ؟» وغدا تشيتشيكوف فسى حيرة من امره . اذ كيف يمكن ان يعتبر الموظف المذكور فى عداد اللصوص . وامل يقول «لم اكن اتصور ذلك مطلقاً . واسمح لى ان اقول بان سلوكه لا يكاد يحتمل رايك فيه . انه يبدو فى الواقع لطيفاً جداً» . وذكر برهاناً على ذلك المحفظات التى حاكمها حاكم الولاية واطنّب فى الحديث عن لطافة ملامحه .

فقال سوباكيفيتش «ان له وجه اللص . ولو اعطيته سنكيناً وأقلته لحرّ عنقك بكوبيك . والشئ نفسه يذكر عن مساعده . انهما يا جوج وماجوج» .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «يلوح انه على غير وفاق معهما . من الافضل ان انتقل الى الحديث عن رئيس الشرطة ، فقد يكون معه على وئام» . وأضاف بصوت عال بناء على حدسه هذا ، يقول «اما من ناحيتى الخاصة فانى افضل رئيس الشرطة . يا لطبيعته الصريحة»

الفصيحة ! ويا لعنصر البساطة الذى يبدو فى ملامحه !
فأجاب سوباكيفيتش «انه وضيع فى صميمه . يبيعك
ويغشك ويأكل على مائدتك . نعم ، اعرفهم كلهم واعرف
أن كل فرد منهم لص مختلس . والمدينة وكر لسفلة
مشغولين بسلب بعضهم بعضاً . وليس فيهم رجل الا
وهو مستعد لبيع المسيح . لكن ، رويدك قليلا ، هناك
انسان محترم واحد - هو المدعى العام . ومع ذلك ،
فتى هو ، اذا اردنا أن نقول الحقيقة ، لا يفضل
الخنزير إلا قليلا» .

بعد هذا الاسهاب فى التقريظ والكيل فى المديح ،
لم ير تشيتشيكوف فائدة من تكملة قائمة الموظفين ،
لا سيما وقد رأى بأم عينه أن سوباكيفيتش لم يذكر
حتى صديقه بالخير .
وتدخلت فيودوليا ايفانوفنا قائلة لزوجها «لنذهب
الى الغداء يا عزيزى» .
وقال سوباكيفيتش «ارجوك ، تفضل» .

وتقدم الجعب اول الامر الى مائدة وضعت عليها
الفودكا وبعض المشهيات . واحتسى الضيف والمضيف
كاسى الفودكا وتناولوا من اطياب المشهيات المختلفة
التي توضع عادة لفتح الشهية فى المدينة والقرية وفى
جميع انحاء الامبراطورية الروسية الواسعة . ومن ثم
دلفا الى غرفة الطعام تحت قيادة المضيفة التي كانت
تبحر امامهما كأنها اوزة تسبح فى عرض البحيرة . كانت
مائدة الطعام الصغيرة معدة لاربعة اشخاص . وكانت
تجلس فى الكرسي الرابع اثنى فى الثلاثين من عمرها ،

بدون قلنسوة وعلى كتفيها لفاع مبرقش وكان مسن
الصعب التكهن بشخصيتها ومعرفة ما اذا كانت فتاة او
امراة متزوجة او قريبة او خادمة او اى طفيلية اخرى .
ان بعض الناس يعيشون فى هذا الوجود لا كشخصيات
مستقلة قائمة بذاتها بل كالبقع واللطخ على شخصيات
الآخرين . فتجدهم دائما فى الوضع نفسه ، جالسين فى
المحل نفسه ، راقعين رؤوسهم بزواية معينة لا تتغير ،
حتى ليكاد المرء يحسبهم جزءا من الاثاث ، ويتصور
أنهم منذ أن خلقوا لم ينسوا بيتنا شفة ، بينما هم
فى حجرة الوصيفات او فى حجرة المؤونة صنف آخر
تماماً .

والتهم سوباكيفيتش حصته من «التشى» وقال «ان
حساء الكرنب اليوم فاخر يا عزيزتى» ووضع فى طبقه
كمية كبيرة من «النينايا» - ويتكون من معدة الماعز
المحشوة بالثريد والمخ والتوابل ، وأضاف قائلاً «اى
نيانيا هذه ! لن تستطيع الحصول على مثلها فى المدينة
حيث لا يعلم ما يقدم للمرء إلا الشيطان !»
فقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فان مائدة حاكم الولاية
لا بأس بها» .

فغمغم سوباكيفيتش قائلاً «نعم . لكن هل تعلم مم
يصنع طعامه ؟ انك لو علمت لما مسستته» .
«لست بالطبع فى وضع يمكننى من أن أقول كيف
يحضّر ، ولكن شرائح الخنزير والسماك المسلوقة على
الاقل كانت عظيمة» .
«ايه ! لك أن تظن ذلك . إلا اننى اعرف الطريقة

التي تشتري بها هذه الاشياء من السوق . يشتريها
وغد يسمى طبائخاً علمه رجل فرنسي أن يسلم السنتور
ويقدمه على انه ارنب» .

فتدخلت السيدة قائلة «أوف ! ما هذه الفطاعة التي
تقول ؟»

«اجل يا عزيزتي ، هكذا تجري الامور ، وليس الخطا
خطاي ان كانت كذلك . وزيادة على ذلك ، فكل ما
ترميته خادمتنا اكلها ، كل ما تقذفه (وارجو العفو
لذكر ذلك) في سطل الاوساخ ، يستعمله هؤلاء الناس
في صنع الحساء» .

فاعترضت شريكة حياته قائلة «انك على المائدة دائماً
تبدأ بهذا الحديث» .

فقال سوباكيفيتش «بالطبع ، يا روعي ، فلو كنت
أنا الذي صنعت هذا . ولكنني اقول لك بصراحة - إنني
لن آكل هذه القدارة . فمهما وضعت من السكر على
الضفدع فلن أقدر ان امرّ به على شفتي» . ولأن التهم
محاراً لأنني اعرف ما الذي يشبهه المحار . لكن . . .
تناول بعض لحم الخروف ايها الصديق تشيتشيكيوف .
انها كتف الخروف ، وهي تختلف جداً عن اللحم الذي
يطبخ في مطابخ النبلاء - لحم كان يتأرجح في الاسواق
اربعة ايام او يزيد . كل هذه الانواع من الطبائخ هي
من اختراع الاطباء الفرنسيين والالمان . كم كنت أتمنى
لو اشنقهم كلهم جزءا عملهم هذا . فهم لا ينفكسون
بصفون الاغذية والعلاج بالصيام كان ما يناسب
اعضاءهم الالمانية المترهلة يناسب المعدة الروسية .

لا ، لا ، ان هذه الوسائل لا خير فيها . . .» وهنا همز
راسه علامة الاستياء . «واشخاص على هذه الشاكلة
يتكلمون عن المدنية والتقدم . كما لو كان امر كهذا من
المدنية في شيء ! أوف ! وربما كانت صيحة التعجب
الاخيرة التي لفظتها اقوى من ذلك لو لم اكن جالساً الى
المائدة . اما من ناحيتي فلن اذوق شيئاً كهذا ابداً .
فندما اريد ان آكل لحم الخنزير في طعامي يجب ان
يقدّم لي الخنزير كله ، وان كان لحم خروف فالخروف
كله ، او لحم الاوز فالطير كله . طبقان افضل من
الف اذا استطاع المرء ان ياكل منهما قدر ما
يشتهي» .

وراح يضع النظرية موضع التطبيق بان اخذ نصف
كتف الخروف ووضعها في طبقه وراح يلتهمه حتى آخر
قطعة من الغضروف والعظم .

اما تشيتشيكيوف فاخذ ينظر اليه ويقول في نفسه
«قسماً ان للرجل لطاقة جبارة !»

وقال سوباكيفيتش وهو يسمح يديه بالفوطه
«طبعاً ، انني لن ارضى ان تكون حياتي كحياة ذلك
الشخص المدعو بلوشكين الذي يمتلك ثمانمائة نفس
بينما ياكل اسوأ مما ياكل الراعي عندي» .

فتساءل تشيتشيكيوف «ومن بلوشكين هذا ؟»
«انسان بخيل ، بخيل لدرجة لا تستطيع ان
تصورها . حتى المساجين في غياهب السجون يحيون
حياة افضل من حياته . انه يعيش هو وخدمته
يتصورون جوعاً» .

فصاح تشيتشيكيوف باهتمام كبير «حقيقة ؟ هل تمنى
اذن ان الموت 'يفتقده' الكثير من فلاحيه ؟»
«بالتاكيد . فلا ينفكون يموتون كالدباب» .
«وعلى اى بعد يقطن من هنا ؟»
«حوالي خمسة فرستات» .

فقال تشيتشيكيوف متعجباً وهو يحس قلبه ينضق
فرحاً «خمسة فرستات فقط ؟ وهل على المرء عندما يترك
باب بيته ان يتجه الى اليمين او الى الشمال ؟»
فقال سوباكيفيتش «اننى آسف اذ ادلك على بيت
انسان خسيس كهذا الانسان . من الافضل جداً للمرء
ان يذهب الى جهنم من ان يذهب الى بلوشكين» .
فاجاب تشيتشيكيوف «تماماً كذلك . انما السبب
الوحيد الذى سالتك من اجله عنه هو اننى احب ان
اتعرف على اى نوع وعلى كل نوع فى هذه النواحي» .
وتبع كتف الخروف فطائر كل واحدة منها اكبر من
طبق ، وديك رومى محشو ببيض وازر وماليق وحجمه
حجم العجل الصغير . وكل هذا اتخم معدة تشيتشيكيوف
اشد الاتخام حتى لما قام بعد انتهاء الغداء شعر وكان
فى بطنه اربعين رطلا من الطعام . وفى غرفة الاستقبال
ينتظره صحن مربي صغير من الفواكه المجهولة فلا هى
بالاجاص ولا بالوخ ولا باى فاكهة اخرى وكلها لم
يمسسها ضيف ولا رب البيت ، اما ربه فخرجت لتضع
المربي فى صحن صغيرة اخرى . واغتنم تشيتشيكيوف
فرصة غيابه فالتفت الى سوباكيفيتش (وكان هذا
منبطحاً على كرسي ذى متكا ، ولم يعد فى استطاعته

بعد غدائه الثقيل إلا ان يتجشأ ويزفر انفاسه ، وكان
يرسم اشارة الصليب ويضع يده على فمه كلما فصل
ذلك) واسرّ اليه رغبته فى التحدث معه حديثاً خاصاً
قصيراً فى شأن من الشؤون . وفى تلك اللحظة عادت
ربة البيت .

وقالت «اليكما بعض الحلويات الاخرى ، تفضلاً
وتناولوا شيئاً من الفجل المتنوع بالصل» .
فاجاب سوباكيفيتش «فيما بعد ، فيما بعد . لسو
تذهبن الى غرفتك ، اذ اود انا وباقى ايفانوفيتش ان
نخلع معطينا ونغفو قليلاً» .
وابدت السيدة عندئذ استعدادها لارسال فراش
ووسائد من الريش ، ولكن زوجها قال انه يفضل
النوم على كرسي ذى متكا ، وبهذا غادرت الغرفة . وما
كادت تفعل ذلك حتى اخنى سوباكيفيتش راسه
استعداداً للاستماع الى مهمة ضيفه .

وابتدا بطلنا الحديث بأسلوب مفكك ، بادئاً اول
الامر بالاشادة بالامبراطورية الروسية ومدى ضخامتها
قائلاً بان الامبراطورية الرومانية القديمة كانت اقل منها
اتساعاً . بينما كان سوباكيفيتش يجلس مطاطس
الراس وكله اذان صاغية . وبعد ذلك تطرق
تشيتشيكيوف الى القول بان من قوانين الامبراطورية
الروسية (التي لا فخر فيها لأحد) ان الفلاحين الذين
فارقوا الحياة تبقى اسمائهم مسجلة حتى وقت الاحياء
الجديد فى اللوائح الجديدة كما لو كانوا احياء ، وهذا
يضمن اراحة المكاتب الحكومية من هذه التفاهات فهى

تعقد ميكانيكية الدولة التي فيها الكفاية من التعقيد .
وقال تسميتشيوكوف بأن هذا القانون مهما حاولنا أن ننزله
العدالة له ، فانه مجحف بالملاكين فعلاً . لانه يضطرم
الى دفع الضريبة عن الانفس التي لا وجود لها كما
يدفعونها عن الانفس الحية الاخرى . وبناء على ذلك
(وهذا هو بيت القصيد) ، فانه (اي تسميتشيوكوف)
نظراً لاحترام الشخصى الذى يكنه لسوباكيفيتش على
استعداد لأن يخفف عنه العيب المشار اليه . ومن
الواجب علينا أن نذكر أن تسميتشيوكوف فى حديثه هذا
كان يتكلم بمنتهى اللباقة وفى غاية الحذر . فلم يكن
يستعمل كلمة الانفس الميتة بل كان يقول الانفس التي
لا وجود لها .

كان سوباكيفيتش اثناء ذلك حائى الراس الى الامام
منصتاً كل الانصات . إلا أن المرء لا يستطيع ان يلمح
فى وجهه اثرأ لاستجابة او انفعال . كان جسمه
الساكن يبدو خالياً من الروح ، او اذا كانت له روح
فيبدو انه كان يحتفظ بها فى محل آخر لا حيث يجب ان
تكون ، بل كانت مدفونة تحت الجبال او مغلفة فسى
بروج مشيدة لن تحدث حركتها فى الاعماق أى رجلة على
الاديم .

وقال تسميتشيوكوف بصوت لا يخلو من رعشة التهيب
للإجابة المنتظرة «والآن؟»

فقال سوباكيفيتش بكل بساطة ودون أن يبدو فى
صوته أى اثر للدهشة ، وكأنه يتحدث حديثاً عادياً
عن الحنطة ، «إذن أنت تجرى وراء الانفس الميتة؟»

فاجاب تسميتشيوكوف «نعم» ثم قال بصوت أكثر نعومة
«الانفس التي لا وجود لها» .

فقال سوباكيفيتش «انها موجودة ، ولم لا؟»
«أذن ستكون مسروراً طبعاً بالخلص مما قد يكون
لديك منها؟»

«نعم ، فلا مانع لدي أن ابيعها» . ورفع رأسه
قليلاً ، اذ خطر بباله أن الشارى لا بد أن تكون له
مصلحة من ورائها بكل تأكيد .

فقال تسميتشيوكوف فى نفسه «يا للشيطان ! انه
يبيعها كاية بضاعة عادية حتى قيل أن يكون لي مجال
اتكلم فيه كلمة واحدة» وأضاف بصوت عال «وكم
سيكون الثمن ؟ فهذه الاشياء ليست مما يعتد بها» .
فقال سوباكيفيتش «لن اطلب غالياً ، هل يناسبك
مائة روبل للراس؟»

«ماذا ؟ مائة روبل للراس؟» وحلق تسميتشيوكوف
فى مضيفه فاتحاً فمه مستريباً فيما اذا كان صحيحاً ما
سمع او ان لسان سوباكيفيتش البطيء الحركة قد
استعاض سهواً بكلمة بأخرى .

ولكن سوباكيفيتش يادره بالقول «نعم ، هل هذا
كثير؟» ثم اضاف «ما هو سعرك؟»

«سعرى ؟ اظن أننا لا نتفاهم الآن ، اذا لا شك انك
نسيت ماهية البضاعة . اننى ويدي على قلبي اقول بأن
ثمانين كوبيكاً لكل نفس ستكون سعراً مناسباً ،
جداً» .

«ماذا ؟ ثمانون كوبيكاً؟»

في رأي أن عرضاً اعلى من هذا سيكون مستحيلاً» .
«ولكنني لست بائع احذية» .
«لا ، ولكنك نفسك توافق على أن هذه الانفس ليست مخلوقات حية» .

«اظن أنك تنتظر أن تجد مجنوناً مستعداً لبيعك انفساً مسجلة في لوائح الاحياء ، كل نفس بشائين كوبيكا ؟»
«ارجو عفوك . ولكن لماذا تجعل من تسجيلها في لوائح الاحياء ميزة ترفع من سعرها ؟ فالانفس نفسها قد صعدت الى بارئها ولم تخلف وراءها غير اسمائها فقط . ولكي لا اجعل للجدل المزيج مكاناً فاني اُدفع روبلاً ونصف الروبل لا اكثر» .

«يجب أن تجعل من ذكر سعر كهذا . فما دمت تتعامل في هذه البضائع اذكر لي سعراً معقولاً» .

«لا أستطيع يا ميخائيل سيمونوفيتش . صدقتني انني لا أستطيع . وما لا أستطيع المرء أن يفعله فليس هو بفاعله» . واستمر الحديث بينهما الى أن زاد تشيتشيكوف نصف روبل اخرى للراس .

وقال سوباكيفيتش «ولكن لماذا تحرص كسل هذا العرص على نقودك ؟ فلست اطلب في الحقيقة منك شيئاً كثيراً . قد يخدعك سافل غيري بأن يبيعك انفساً قديمة بالية بدل الطيب الاصيل منها ، بينما انا على استعداد لأعطائك احسن ما لدي» . انظر مثلا الى صانع العجلات ميخيف . لم يوجد مثله انسان في تركيب لوالب العربات . ولم يكن عمل يديه كما هو الحال

عندكم في موسكو - اي ما يصلح لساعة فقط ، لا فقد كان يعمل كل شيء بنفسه ، حتى الطلاء» .
وقتح تشيتشيكوف فمه ليذكر بان ميخيف المذكور ، مع كل هذا ، قد فارق الحياة منذ امد طويل ، إلا أن طلاقة لسان سوباكيفيتش كانت شديدة في اندفاعها بحيث لم تكن تسمح بالمقاطعة .

واستمر رب البيت يقول «وانظر أيضاً الى بروبكا ستيبان التجار . انني اراهن براسي أنك لن تجسد عاملاً مثله أينما ففتشت . اي رجل قوى كان ! لو دخل الجندية لا يعلم إلا الله ماذا كان مصيره فيها . كان طوله يزيد على ثلاثة ارشينات» .

وحاول تشيتشيكوف أن يذكره بان بروبكا ميت ولكن لسان سوباكيفيتش كان مندفعاً في تيار من الترثرة لم تكن له من حيلة امامها الا أن يستمع .
«وميلوشكين البناء ! كان يستطيع أن يبني موقداً في اي بيت شئت ! وماكسيم تيلياتنيكوف الحداء ! يصنع احذية ونعم الاحذية مع أنه لا يدوق الخمرة خلافاً لعادة الحدائين . ثم إريسي سوركوبليخين ، أيضاً ! كان احسن المجموعة كلها ، وكان يشتغل في موسكو بتجارته الخاصة حيث كان يدفع خمسمائة روبل ضريبة . اجل فهناك تشيكيلة من العبيد لك ! تشيكيلة تختلف اختلافاً كبيراً عما سيبينه لك بلوشكين !»

وقد ذهل تشيتشيكوف لهذا الطوفان العارم من

• ارفين - ٧١ سنتماً تقريباً • الناشر .

الثروة التي بدت بلا نهاية ، فقاطعه بسرعة يقول «لكن
إسمع لي ، إسمع لي أن اتساءل عما يحدوك الى تعداد
هذه المواهب في جماعة موتى . وما داموا كلهم موتى
فلا معنى لهذا التعداد . والمثل يقول - لا يصلح الجسد
الميت إلا لدعم السياج» .

فأجاب سوباكيفيتش «بالطبع هم ميتون» . وكان
هذه الفكرة لم تخطر بباله إلا تلك اللحظة ، ولكنها
أذكت من تفكيره في ناحية أخرى فقال «لكن قل لسي
الآن فما هي الفائدة حتى الفلاحين الباقين أحياء وكانهم
ذباب لا بشر» .

فقال تشيتشيكوف «أجل ولكن هم أحياء أما الانفس
الميتة فانها خيال لا غير» .

«لكن لا ، لا يمكن أن تكون خيالاً . فلن تجد حيثما
ذهبت عاملاً قديراً مثل ميخيف . وكان عملاقاً وقوته
قوة الحصان في ساعديه . وأين وجدت خيالاً مثله» .
وبهذه الكلمات التفت سوباكيفيتش تعزيراً لكلامه الى
صورة باجراتيون وكولوكتروني ، كما يحدث عادة بين
فريقيين في حمية الجدال حين يلجأ أحدهما الى
الاستشهاد بشخص غريب ليس مجهولاً لديه وحسب ،
بل لا علاقة له بموضوع الجدل اطلاقاً . وتكون النتيجة
أن يتردد الخصم في أن يجيب أو يغلي له المكان .

وقال تشيتشيكوف «ومع ذلك فلن أستطيع أن
اعطيك أكثر من روبلين للراس الواحد» .

«حسنًا ، بما أنني لا أريد منك أن تقول عني أنني
طلبت غالباً ، وبما أنني لا أود أن أقالبك في منتصف

الطريق ، فما أرايك - لأجل الصداقة - أن تدفع خمسة
وسبعين روبلاً ورقاً؟»

فقال تشيتشيكوف في نفسه «يا للسموات ! هل
يعتبرني هذا الرجل غيبياً؟» وأضاف بصوت عال «إن
الامر ليبود لي غريباً كما لو كنت تمثل كوميدياً على
مسرحة . وما من تفسير آخر لهذا . لكنك تبدو رجلاً
عاقلاً وعلى قسط من الثقافة . فالامر بسيط جداً .
والسؤال الآن هو - ما قيمة الانفس الميتة ؟ وهل أقيها
فائدة لأي إنسان؟»

«فيها فائدة لك ، والا لما كنت تشتريها» .

فعض تشيتشيكوف على شفثيه وأسقط في يده أن
يجيب . وجرب أن يقول شيئاً عن العائلة والامور
البيئية التي دعتة الى شراء الانفس الميتة ، ولكن
سوباكيفيتش قاطعه قائلاً «لا رغبة لي في معرفة
شؤونك الخاصة ، ولا أحب أن أحشر نفسي في هذه
الامور . كل ما اعرفه هو أنك بحاجة الى الانفس الميتة
وأنا على استعداد لبيعها . واطن أنك ستندم إن لم
تشرتها» .

فأعاد تشيتشيكوف قوله «سعري روبلان» .

«مه ! مه ! لقد ذكرت هذا السعر من قبل ، وهما
أنت تعود الى ذكره من جديد . هيا قل سعراً لا غيبين
فيه» .

وقال تشيتشيكوف لنفسه «لياخذ الشيطان ! على
أية حال ، سأزيد نصف روبل» . وفعل .

فقال سوباكيفيتش «حقيقة ؟ حسنًا ، كلجتي الأخيرة

هي خمسون روبلا ورقاً . وهذا يعنى مجرد خسارة لي ، لأنك لا تستطيع أن تحصل في العالم كله على انفس احسن مما لدي» .

وقال تشيتشيكوف لنفسه «يا للعجز الجشع !» ثم اضاف بصوت منفعل «اصغ الي» ، فكان الامر مهمم بالفعل . ان أي انسان غيرك سيكون شاكرآ للتخلص من هذه الانفس . ولن يتمسك بها ، ويدفع الضرائب عنها غير غبي» .

«نعم ، لكن عليك ان تذكر (واقول هذا بمحض الصداقة) ان صفقات من هذا القبيل ممنوعة في العادة وان الناس سيقولون عمّن يتعاطى هذه الامور ان له قصداً يدعو الى الارتياب» .

فقال تشيتشيكوف لنفسه «الوعد يريد تخويفي» ثم اضاف بعدم اكترت بالغ «انا لا اشتريها لاربع منها كما تحسب أنت ، بل ارضاء لافكار تعن علي» . روبلان ونصف هو اكثر ما استطيع ان ادفعه» .

وفكر سوباكيفيتش : «انه لا يغير رايه !» وقال : «اعطني على الاقل ثلاثين روبلا ورقاً ، وخذ الجميع» . «لا ، ارى أنك لا تنوى البيع ، وعليّ ان اقرئك السلام» .

فقال سوباكيفيتش متلهفاً «انتظر لحظة ! انتظر لحظة !» وثسبت بيد ضيفه ، وداس في الوقت نفسه على قدمه بشدة جعلت تشيتشيكوف يشهق ويرقص من الألم .

فقال سوباكيفيتش بسرعة «ارجو عفوك ، من الجلي

انني آلمتك ، فارجو ان تجلس مرة اخرى» . وفي هذه اللحظة اجلسه على كرسي بخداقة الدب الذي تدرّب على مختلف الالعاب في السيرك .

«لا ، فاني اضيع وقتي لا غير . يجب ان اذهب» . «اوه ! اجلس لحظة اخرى فقط . لديّ قول يسرك» .

واقترّب من ضيفه وهمس في اذنه كما لو كان يروح له بسرّاً وقال «ما رايك في خمسة وعشرين روبلا؟» فقال تشيتشيكوف متعجباً «لا ، لا ، لا ! لن اعطيك

حتى ربع هذا المبلغ ! لن ازيد كوبيكاً واحداً» .

وظلّ سوباكيفيتش صامتاً برهة من الزمن ، وتشيتشيكوف ايضاً . ودامت هذه الحال مدة دقيقتين كان فيهما انف باجراتيون الاقنى مطلقاً من على الحائط كما لو كان يتتبع المساومة .

وقال سوباكيفيتش فجأة «ما هو آخر سعر لديك؟» «روبلان ونصف» .

«يظهر أنك تقدر النفس البشرية بسعر قطعة اللّفّت المغلية . اعطني على الاقل ثلاث روبلات» .

«لا ، لا استطيع» .

«ارجو عفوك . يظهر أنك رجل صعب المعاملة جداً . مهما يكن من امر ، ومع أن هذا يعنى خسارة فادحة لي ومع أنك لم تظهر روحاً طيبة في هذا الشأن ، الا انني لا استطيع الا ان ارضى صديقي . فمن الافضل ان نتخذ اجراءات البيع لكي نضع الامور في نصابها» .

«طبعاً» .

«اذن يجب علينا لهذا الغرض ان نذهب الى المدينة» .

وانتهى امرهما الى الاتفاق على الذهاب الى المدينة في اليوم التالي لتدبير صفقة البيع . وبالتالي طلب سبب تشيشتيكوف قائمة بالفلاحين ، فوافق سوباكيفيتش عليها فوراً . وذهب في الحقيقة الى مكتبه حيث بدأ يسجل قائمة لا بأسماء الفلاحين وحسب ، بل بمؤهلاتهم أيضاً .

ولما لم يكن لدى تشيشتيكوف ما يعمل فوقف ينظر في تلك الاثناء الى هيكل مضيفه الضخم . ولما حلق في ظهره العريض كظهر الحصان وفي ساقيه الضخمتين كالاعمدة الحديدية التي تقوم على جوانب الطرقات ، لم يتمالك ان هتف في نفسه ، «حقاً لقد جباك الله بالكثير ! مع انه حرمك اللطافة الا انه في اقصى صورة ما شاء ، ركبتك ! واني لأعجب منك إن كنت قد ولدت دبتاً بالوراثة او اكتسبت ذلك من خلال حياتك البالية بما فيها من فلاحه الحبوب والمتاجرة مع الفلاحين ! لكن ، لا اعتقد انك حتى ولو كانت لديك الثقافة المناسبة وكنت مندعياً في المجتمع عشت قسي بطرسبورج لبقيت ذلك الكولاك * الذي هو انت . والفرق الظاهر في الحالين هو انك تستطيع هنا ان تزين مائدتك بكتف خروف ، اما في بطرسبورج فكنت ستأكل الكفتة بالصلصة . والفرق في الحالين أيضاً ان لك هنا عدداً من الفلاحين تحت إمرتك تعاملهم معاملة

* الفلاح الغني . المترجم .

حسنة لأنهم ملكك وطوع بانك ، اما في الحالة الاخرى فسيكون تحت إمرتك صفار الموظفين الذين كنت ستستبد بهم لأنهم ليسوا ملكك . وكنت ستتهب خزينة الدولة أيضاً ، لان الكولاك دائماً نهاب للنقود . واذا علمت الكولاك شيئاً فسينزداد الأمر سوءاً . واذا حاولت ان تزيده شيئاً من العلم او ترفع مقامه رأيتك يضطهد المتبحرين بالعلوم حقاً ، ويصدر أمراً يجعل اوضاعهم اسوأ . تلك هي طبيعة الكولاك !

وقال سوباكيفيتش ملتفتاً «القائمة جاهزة» .

«حقاً ؟ دعنى ارها من فضلك» . والقسى تشيشتيكوف نظرة على الوثيقة ولم يتمالك الا ان يندعش من ترتيبها ودقتها . فقد سجل فيها ، بالاضافة الى اسم الفلاح ، عمره ومهنته ونسبه وملاحظات على هامش الصفحة بشأن سلوكه واخلاقه . لقد كان النظر اليها ممتعاً تسراً النفس .

قال سوباكيفيتش «هل تسمح الآن وتعطينى عربوناً مقدماً ؟»

«نعم . ولكن لماذا تريد ذلك ؟ باستطاعتك تسلّم المبلغ دفعة واحدة حالما تصل الى المدينة» .

«ولكنها العادة دائماً ، كما تعرف» .

«لن استطيع اتباعها الآن لانني لا احمل نقوداً . على اية حال اليك عشرة روبلات» .

«عشرة روبلات فقط ؟ كان عليك على الاقل ان تعطيني خمسين» .

وبدا تشيشتيكوف مرة اخرى ينكر انه يحمل

تقوداً ، ولكن سوباكيفيتش الح عليه بشدة وأكد له ان الامر غير ذلك (اي انه يكذب في انكاره النقود) حتى سحب الضيف خمسة عشر روبلا اخرى واضافها للعشرة الاولى .

وقال «ارجو ان تعطيني وصلا بالنقود» .

«وصلا ؟ ولم اعطيك وصلا ؟»

«ذلك افضل حتى نتحاشى الخطا» .

«حسن جداً ، لكن سلمتى النقود اولاً» .

«النقود ؟ ها هي معي . اكتب الوصل فتصير النقود لك» .

«ارجو عفوك ، ولكن كيف اكتب الوصل قبل ان اراها ؟»

فوضع تشيتشيكيوف الاوراق البالية في يد سوباكيفيتش ، حينئذ اقترب المضيف من المكتبة وازاد الى قائمة الاقنان حاشية يقول فيها انه تسلم لقاء الفلاحين المذكورين في القائمة مبلغ خمسة وعشرين روبلا كمقدمة . وما كتب ذلك حتى اخذ يعد النقود مرة اخرى .

وامسك ورقة منها في الضوء وقال «هذه ورقة قديمة جداً ، وهي مزقة ايضاً . على كل حال ، في الصفقات بين الاصدقاء ، لا يجوز التشدد كثيراً» .

ففكر تشيتشيكيوف في معادته وقال لنفسه «اي كولاك هذا ؟ واي مخلوق وحشى هو ؟»

وتسأل سوباكيفيتش «الا تريد انفساً من النساء ؟» «اشكرك ، لا» .

«اقدر ان اعطيك بعضها بسعر رخيص - ولنقل بيننا كأصدقاء - روبلا للراس ؟»

«لا ، لا حاجة لي بها» .

«اذا كان كذلك فليس لدى ما اقوله . لكل انسان ذوقه الخاص . والمثل يقول «واحد يحب الكاهن وآخر يحب زوجة الكاهن» .

ونفض تشيتشيكيوف مستأذناً بالذهاب وقال «اطلب اليك مرة اخرى ان يظل الامر بيننا» .

«طبعاً ، طبعاً . فما يجرى بين الاصدقاء يظل كما يجب ، ما دامت الصداقة متبادلة . مع السلامة . اشكر لك زيارتك وارجو ان تحضر الى الغداء معنا كلما كان لديك متسع من الوقت . فقد نستطيع ان نقدم لك خدمة اخرى» .

وما إن ركب تشيتشيكيوف العربة حتى اخذ يناجى نفسه قائلاً «ما كنت قد جئت لو عرفت ! ما كنت قد جئت لو عرفت ان هذا الكولاك الوحش سيمتصر منى روبلين ونصف الروبل على النفس الواحدة»

لقد شعر بعدم الارتياح والامتعاض من سلوك سوباكيفيتش . فمع ان الرجل صديق وقد التقيا عند حاكم الولاية وعند رئيس الشرطة الا انه سلك سلوك الغريب ، فاخذ النقود مقابل تفاهات لا قيمة لها .

واذ كانت العربة تترك الحظيرة تلفت تشيتشيكيوف وراءه فلمح سوباكيفيتش لا يزال واقفاً في الشرفة . من الجلي انه وقف يراقب الطريق التى ستسلكها عربة الضيف .

وتتم تشييتشيكوف بين اسناته «يا للوغد العجوز ا
لا يزال واقفا يراقب» . ثم امر سيليقان ان يسير
بالعربة بحيث تختفي عن رؤية صاحب البيت . وحقيقة
الامر انه كان يهدف الى زيارة بلوشكين (الذي كانت
اقتنائه على حد تعبير سوباكيفيتش تموت عادة
كالذباب) ولم يكن يريد من مضيفه ان يعرف مرماه .
وبناء على ذلك ، لم يكده يصل الى طرف القرية
الاقصى حتى حيا اول فلاح قابله ، وكان يحمل على
كتفيه جذع شجرة ضخماً ليسير به الى كوخه كما
تسير النملة بحملها الى عش النمل ، وقال له :
«ايه ! كيف يمكنك ان اصل الى بيت الملاك
بلوشكين دون ان امر من امام المنزل الذي هناك ؟»
فوقف الفلاح مرتبكاً امام السؤال .
وتساءل تشييتشيكوف «الا تعرف ؟»
فاجاب الفلاح «لا ايها السيد» .

«ماذا ؟ الا تعرف بلوشكين البخيل الذي يجيىح
اقتنائه ؟»

فقال الرجل «طبعاً اعرفه» . واضاف الى تعبيره هذا
تعبيراً يديئاً لا يستعمل عادة في مجتمع مهذب . ولنا
ان نقدر ان التعبير كان ظريفاً لان تشييتشيكوف ظل
يضحك في العربة حتى بعد ان اختفى الرجل عن انظاره
بوقت طويل . ولغة الشعب الروسي في الواقع دائماً
عنيفة في تعابيرها . فاذا ما خلع لقب على انسان ، فانه
سيظل ملتصقاً به طوال حياته وينتقل الى خلفه ، وسيظل
يجرجه في الخدمة ، وعند التقاعد ، وفي بطرسبورج ،

وفي آخر العالم . ومهما سيجاول فيما بعد التحايل
واضفاء النبل على لقبه ، وحتى لو جعل الكتبة يرجعونه
لقاء اجر معلوم ، الى سلالة اميرية قديمة ، فلن ينفعه
شيء . فان هذا اللقب سينمق بكل عقيرته كاشفاً
عن نفسه ، ويوضح ببلاء من اين طار الطير . فان
الكلمة المنطوقة النابتة في موقعها كالكلمة المكتوبة لا
يمكن ان تبتز بفاس . وما ارسخ كل ما يخرج من اعماق
روسيا ، حيث لا يوجد المان ولا فنلنديون ، ولا اي
قبيلة اجنبية اخرى ، بل كل شيء اصيل ، حي ، وعقل
روسي ثاقب ، حيث لا تعوزه حكمة ، ولا يقعد عليها ،
كما تقعد الدجاجات على بيضها ، بل ينحتها رأساً لتصير
كالهوية طوال العمر ، وما من حاجة بعد ذلك الى ان
يصف اي اقف لك او شفتين فبضربة واحدة رسمك
من راسك الى قمعك .

ومثلما يوجد عدد لا يحصى من الكنائس والاديرة
بقباها ورؤوسها وصلبانها متناثرة في انحاء روسيا
المقدسة التقية يوجد ايضاً عدد لا يحصى من القبائل
والاجيال والشعوب تتزاحم زاهية الالوان وتنطلق على
وجه البسيطة . وكل شعب ينطوي على ضمان القوة ،
ويستلج بقدرات الروح الخلاقة ، وخاصيته الالامعة
وهبات الرب الأخرى ، يتميز عن كل شعب آخر في
طريقته الخاصة بكلمته التي تعكس ، لدى تعبيره عن
اي موضوع ، جزءاً من خلقه . إن كلمة يقولها بريطاني
تفصح عن بصيرة قلب ومعرفة حكيمة في الحياة .
وعبارة الفرنسي القصيرة الاجل تلمع مثل غنودور خفيف

الدم ، تختضى . والالمانى يتكر بحذافة الكلمة الهزيلة
بذكانها وغير مفهومة لكل انسان ايضاً . ولكن ما من
كلمة طاغية ذرية ، نابغة من القلب ، جياشة زاخرة
بالحياة تضاهي الكلمة التي ينطقها روسي .

الفصل السادس

في زمن بعيد ، في سنن صباي ، في سنن طفولتي
التي مرت خلعاً بلا عودة ، كنت اشعر بالفرح حين
اقبل على مكان غريب لا اعرفه من قبل ، سواء اكان
ذلك قرية صغيرة ، او بلدة بانسة هي مركز قضاء ،
او دسكرة او حاضرة . فقد كان بصري الطفولي
الفضولي يكتشف فيها الكثير من الاشياء الممتعة . فان
كل مبنى ، كل شيء يحمل خاصية تلفت النظر ، كل
شيء كان يجعلني اتوقف وانهر . وسواء اكان ذلك
مبنى حكومياً حجرياً ، ذا معمار معروف ، ونصف واجهته
مغطاة بنوافذ زائفة ، يقف بمفرده وسط بيوت صغيرة
ذات طابق واحد من الروافد الخشبية غير المسجوجة ،
او قبة مدورة منسقة ، مصفحة كلها بصفائح حديدية
بيضاء ، سامقة فوق كنيسة جديدة ناصعة البياض
كالثلج ، او سوقاً ريفية ، او غندوراً ريفياً كان
يتمشى وسط البلدة ، وما من شيء كان يفلت من
انتباهي المرهف الغض ، فقد كنت اخرج انفي من
عربتي السائرة ، واتطلع الى فتحة سترة لم تقع
عليها عيني من قبل ، والى الصناديق الخشبية التي

تحتوي على المسامير او الكبريت الاصفر الذي كنت
المح من بعيد ، والزبيب والصابون ، وكل ذلك كنت
المح خلعاً من باب حانوت خضروات مع علب الملبسات
الموسكوفية الناشفة ، واتطلع الى ضابط مشاة يسير
في ناحية ، والله وحده يعرف من اية ولاية جاء الى
هذه البلدة الريفية المضجرة ، والى تاجر لاح بمعطفه
السيبيري في عربة صغيرة ، فتحملني افكاري وراهم
الى حياتهم البانسة . وما إن يمر بي موظف من موظفي
الاقليم حتى آخذ افكر الى أين ذاهب الآن ، لقضاء
امسية مع رجال من صنفه ، او الى بيته ليجلس عند
مدخل البيت نصف ساعة ، حتى يشتد ظلام المساء ،
ويقعد ليتناول عشاء مبكراً مع امه وزوجته واخت
زوجته وكل العائلة ، وعم سيجري الحديث بينهم ،
عندما تجلب الخادمة بقلادتها من قطع النقود المعدنية او
الخادم بسترته السميكة شمعة على شمعدان قديم ، بعد
الحساء . وحين كنت اقرب من قرية احد ملاكي الاراضي
كنت انظر بحب استطلاع الى برج الناقوس الخشبي
العالي النجيل ، او الى الكنيسة الخشبية القديمة
الريضة المظلمة . من بعيد كان يلوح لي في اغراء ومن
خلال خضرة الاشجار بيت الضيعة بسقفه الاحمر ومداخنه
البضاء ، فكنت انتظر بنفاد صبر حدائقه تنداح
مترجمة على كلا الجانبين . وينهض البيت بكل مظهره
الذي لم يكن رغم تصوري مبتدلاً ابداً ، واحاول ان
احس منه اي مالك ارض هو مالكة ، وهل هو سمين ،
وهل له اولاد ، ام بنات ست لهن ضحك صبوي رنان ،

لحديقة خضروات أو حقل كرنب محاط بسياج واطي*
 محطم في بعض الاماكن . وتلك القلعة الغربية ، الطويلة
 طولاً هائلاً* كانت تبدو مثل مريض مقعد ، وكانت من
 طابق واحد في بعض الاماكن ، ومن طابقين في اماكن
 اخرى . وعلى سطحها القاتم الذي تغل القدم عن حمايته
 في بعض المواضع برز مبنيان أحدهما يقابل الآخر ،
 وكلاهما متداع ايضاً ، انسلخ عنه الطلاء الذي كان
 يغطيه . وكانت جدران البيت قد سقط عنها الملاط في
 بعض الاماكن ، ولاحت التشبيكة التي اضرها كما يبدو ،
 مختلف أنواع سوء الطقس ، والامطار ، والعواصف
 والانتقالات الخريفية . وكان ثمة نافذتان مفتوحتان ، من
 بين كل النوافذ التي احكمت عليها صفقاتها بسبل
 وسمرت بالالواح . وحتى هاتان النافذتان كانتا ، من
 ناحيتهما ، نصف مغلقتين الصق على احدهما مثلث
 من ورق السكر الازرق .

كان البستان القديم الواسع يمتد خلف البيت ، الى
 ما وراء القرية ، حتى يتصل في الحقل بعد ذلك ، وقد
 نما فيه العشب ، وظهر عليه الاهمال ، يضي لوحده
 نضارة على هذه القرية الواسعة ، وكان وحده الشيء
 البهيج حقاً في رحابته الجميلة . وكانت ذرى الاشجار
 المتشابكة الممتدة في حرية تبدو مثل غيوم خضر وقياب
 شعث مهتزة الاوراق على خلفية السماء . وقد برز من
 هذه الخضرة الكثيفة جذع شجرة بتولا ضخماً أبيض ، بلا
 قمة ، وقد حطمت عاصفة أو زوبعة ووقف في الهواء
 مثل عمود مرمرى مدوّج متناسق لمّاع . وكان رأسه

العائل المنتهي به بمثابة تاج يلوح اسود ازاء بياضه
 الناصع ، وكأنه قبة أو طائر اسود . والحشائش
 التي كانت تغطي على اجسام البلسان ورماد الجبل
 وشجر البندق في الاسفل ، ترتقي بعد ذلك على قمة
 سياج الاوتاد وتتسلق اخيراً الى الأعلى ، وتلتف حتى
 منتصف شجرة البتولا المقطوعة الرأس . وبعد ذلك
 تتدلى من هناك الى الاسفل ، وتأخذ بالتشبث بقسم
 اشجار اخرى او تتدلى في الهواء ، وتلتف لولبياتها
 الرقيقة المتشعبة لتصير حلقات يؤرجحها الهواء قليلاً .
 وكانت الكثافة الخضراء المضاء بالشمس تنفج هنا
 وهناك ، ويظهر التجويف بينهما عميقاً مثل شفق قاتم .
 والظل يسريه كله ، لا يكاد يلوح في قرعہ الداكن
 درب ضيق يختفي في مكان ما ، واسيجة محطمة ،
 وتعميشة صيف متداعية ، وجذع صفصافة متفسخة
 واجمة هرمة تخرج كئاف من وراء الصفصافة عساليجها
 اللدنة الكثيفة اوراقها ، وتتشربك وتلتف ، وتذبل
 بسبب حياتها الحماة الفظيعة في هذا المكان ، واخيراً
 غصن غض لشجرة قيقب تمد من جانب اوراقها
 الخضراء ولا أحد يعرف كيف تسرب ضوء الشمس تحت
 واحدة منها وحوّلها إلى شفاة وهماجة تتألق بأعجوبة
 في ذلك الظلام الكثيف . وفي ناحية ، في احد طرفي
 البستان ، كانت بعض اشجار الحور العالية بشكل لا
 يناسب ارتفاع الاشجار الاخرى تحمل على ذراها
 المتعابله او كارب غريبان ضخمة . وكانت لاشجار اخرى
 اغصان مكسورة لم تنفصل بعد فكانت تتدلى الى الاسفل

مع أوراقها اليابسة . وباختصار كان كل شيء بديعاً لا تستطيع الطبيعة أن تبتدعه ولا الفن ، ولا يمكن أن يكون إلا حين يتحدان سوية ، حين تمرر الطبيعة إزميلها في لمسة نهائية على عمل الانسان المتراكم في غير نفع غالباً . وتخفف الكتل الضخمة ، وتقضي على التماثل المحسوس بشكل فظ ، والثغرات البائسة التي يلوح من خلالها المخطط عارياً لا يخفى ، وتمنح الدفء الرائع لكل ما خلق في النقاء الموزون والدقة .

بعد ان انعطفت العربة مرة أو مرتين وجد بطلنا نفسه أمام البيت الذي بدا الآن اشد بؤساً . كان الطعلب الاخضر يغطي خشب الحظيرة والرتاج البالي . وكان على جنبات الحظيرة عدد من المباني المهجورة الخربة التي كانت على الاربع في يوم من الايام مساكن للخدم والمخازن . كانت المظاهر تدل على أن حياة فخمة كانت تحفل في هذا المنزل في سالف الازمان ، أما في الآونة الحاضرة فكانت تبدو عليه مظاهر البؤس والتعاسة . لم يكن ثمة شيء يبهج النظر ، فلا أبواب مفتوحة ولا خدم يطالعون من مكان ما ، ولا امارات تدل على مشاغل البيت . كان الرتاج مفتوحاً لأن عربة محملة كانت تخرج منه . وراى تمشيتشيكوف فجأة شخصاً غريباً كان على ما يبدو يتشاجر مع سائق العربة . ولم يستطع لفترة غير قصيرة ان يعرف هل ان الشخص رجل أم امرأة . كان يرتدى ملابس لا يستطيع المرء ان يعرف منها جنس هذا الشخص . الصوت وحده بدا له قوياً قليلاً بالنسبة لصوت امرأة . «آه ! إنها

امراة» - فكر مع نفسه ، واضاف رأساً «لا ، لا يمكن !» واخيراً قال وقد تمعن أكثر «صوت امرأة بالطبع» . كما انها من جانبها اعمنت النظر فيه . وبدا وكان الضيف ، بالنسبة لها ، ظاهرة عجيبة ، لأنها لم تجبل البصر فيه وحده ، بل في سيليفان ، وفي الخيول من الذيل حتى البوز . ومن المفاتيح التي كانت وراء حزامها ، وشتمها الفلاح بكلمات مقذعة بما فيه الكفاية رجح تمشيتشيكوف ان تكون خازنة المنزل . فتقدم اليها يسألها عن رب البيت .

ولكن قبل ان يتم تمشيتشيكوف سؤاله اجابته قائلة «غير موجود» . واخذت تنظر اليه بحذر شديد ، ثم اكملت كلامها تقول «وماذا تريد منه ؟» «بعض الاعمال» .

«اذن اتبعني» .

وادارت المرأة ظهرها فبدا معطفها البالي مشقوقاً من اسفله ملطخاً بالطين من اسفله واعلاه . فتبعها الى قاعة كبيرة مظلمة باردة كالقبر ومنها الى غرفة ماثلة في الاظلام لا ينيئها الا ما يتسرب من اشعة الضوء من تحت الباب . ولما فتح الباب ودخل المزيد من الضوء ذهل تمشيتشيكوف من الفوضى التي كانت تسود الغرفة . كان يبدو ان ارض الغرفة كانت تفسل ، وان الغرفة نفسها كانت مستودعاً لكل ما يمكن ان يخطر ببال مخلوق . فعمل منضدة وضعت بقايا كرسي مكسور وساعة لا بندول لها ، وكل ذلك مغطى بنسيج العنكبوت . وبالقرب من الحائط كان خوان مليء

بالاواني الفضية القديمة والزجاجية والصيني . وكان هناك منضدة للكتابة مرصعة بالصدف انتزع معظمه وترك موضعه فتحات صفراء قاتمة محشوة بالطين . وفوق المنضدة كانت ززمة من اوراق الكتابة ، وحاملة ختم من الرخام الذي استحال لونه الى الخضرة ، وكتاب بغلاف من جلد احمر الاطراف ، وحنة من اللببون جفت وانكسرت قشرتها واصبحت بحجم حبة اللوزة ورجل كرسي مكسورة ، وقدر فيه خثالة من سائل وذبابات ثلاث (والكل مغطى بقطعة من الورق) ، وكومة من خرق بالية وقطعة من شمع الخطم وريشتان جافتان ملطختان بالحبر ومسواك للاسنان وصفاره يدل على ان صاحبه قد استعمله على الاقل قبل مجيء نابليون الى موسكو .

اما الجدران فقد علق عليها خليط من الصور . كان من بينها صورة طويلة محفورة على الخشب ظهر فيها جنود بقبعات مثلثة الزوايا وهم يصيحون وطبول ضخمة وخيول غارقة وكانت الصورة عديمة الزجاج موضوعة في اطار برونزي على زوايا حلقات برونزية . وقد علق بجانبها صورة زيتية كثيفة بدت فيها بعض الزهور والفواكه ونصف بطيخة ورأس خنزير والبطة الميتة المتدلّية . وقد تدلت من السقف ثرياً بغطاء هرمسي علاه الغبار حتى تكاد تحسب الثريا دودة الحرير تخرج من شرنقتها . واخيراً ، في زاوية من زوايا الغرفة كانت كومة كبيرة من الادوات يبدو وكان لم يكن لها موضع على المنضدة . اما محتويات هذه الكومة فيصعب

التكهن به ، لان اى يد تمتد اليها ستخرج وكأنها لابسة قفازاً لما على الكومة من غبار . ولكن برز من الكومة شياناً برونزا جلياً ، احدهما عصا مجرفة والاخر اخص حذاء اترى . ولم يكن يمر ببال انسان ان هذه الغرفة يدخلها احد لو لا قبة بيتية كانت موضوعة على طرف المنضدة . وبينما كان تشيتشيكوف يجيل البصر في هذه الفوضى الغريبة ، ففتح باب جانبي ودخلت منه الخازنة التي قادته اول الامر الى هذه الغرفة . ولكن تشيتشيكوف رأى الآن ان هذه السيدة كانت رجلاً امراًة ، فليس للنساء لحي ، ولكن الشعر قد نبت على خدى هذه وذقنها بشكل اصبحت فيه كالمحسة التي تستعمل في تنظيف الخيول . فوقف تشيتشيكوف وقفة المتسائل ينتظر ما يمكن ان يقوله الشخص الواقف امامه . ولكن الخازن فعل الشيء نفسه . ولما اندهش تشيتشيكوف من سوء التفاهم تسال بعد لاي يقول .

«هل رب البيت موجود؟»

«نعم» .

«اين هو اذن؟»

«هل انت اعنى يا سيدى ؟ انا رب البيت» .

عندئذ لم يتمالك تشيتشيكوف الا ان يتراجع الى الورا و اخذ يحدق فيه . كان بطلنا رحالة واخا سفر وقد رأى اصنافاً عديدة متنوعة من الرجال لم تتح رؤيتها لا للكاتب ولا للقارى ، ولكن البطل لم تقح عيناه على هذا النوع الغريب الجديد من قبل . لم تكن

تضمه جدران المستودعات من اقمشة كتانية مغزولة وجلود الماعز التي ديفت ولم تلبس والاسماك المجففة وكل نتاج يستطيع ان يدركه العقل . فلو القى شخص نظرة إلى فوائده الشغيل ، حيث اعدت للاحتياط مختلف المصنوعات الخشبية وآنية لم تستخدم قط لتروم انه في سوق الخردوات في موسكو ، حيث كسل يوم الحموات والكنات الحاذقات تتبهن طبخاتهن لشراء ما يحتجن اليه من الادوات المنزلية ، وحيث تنكس اكرام من مختلف الاشباق المسنوجة والمسورة والمفراة كالبراميل والاجانات والطناجر الخشبية باغطيتها ، والجفان الخشبية ، والوانى الخشبية ، والسلال من الخوص ، والسلال الخشبية التي توضع فيها الاشياء المملحة وكل ما تستخدمه روسيا الغنية والفقيرة . فما الذي اوج بلوشكين الى كل هذه الكمية الهائلة من المصنوعات ؟ لا اظنه سيحتاج الى استعمالها حتى لو كانت له ضيعتان من مثل ضيعته . ولكن حتى هذا بدا قليلا عليه . فكان يجب شوارع قريته كسل يوم في غير رضى يبصص تحت الجسور وتحت الراح الارصفة ، ويأخذ كل ما يصادفه ، سواء اكان ذلك عمالا قديما ، او خرقة من سمل امرأة ، ومسمارا حديدا ، او قحف آنية خزفية ، ويحمل كل ذلك إلى بيته ليضمه الى الكومة التي لاحظها تشيتشيكوف في ركن في غرفته . وكان الفلاحون يقولون حين يرونه خارجا للقمص «ها هو الصياد قد خرج ثانية للاصطياد» . وبالفعل لم تكن هناك حاجة لكنس الشارع بعد خروجه .

في وجه الرجل العجوز اية علامة مميزة . كان يعلوه الذبول كوجه اى عجوز متهرى . كانت ذقنه بارزة جدا الى الامام فكان مضطرا اذا ما تكلم ان يسحبها بمندبل مخافة ان يسيل لعابه عليها ، وعيناه الصغيرتان اللتان لم يتطرق اليهما الغباء بعد ، كانتا تبرقان تحت حاجبيه البارزين بريق عيون الفيران عندما تطل براسها من الجحر بأذنين منتصبتين وشاربين حساسين لترى فيما اذا كان هناك قط او صبي يعبث في الجوار ويتشمعن الهواء بارتياح . لا ، ان مظهره المميز كان في ملابسه فقط . فلم تكن هناك من وسيلة لمعرفة نوع القماش الذي صنع منه معطفه لان اطراف المعطف واكمامه كانت متزقة متسخة على صورة تحدى كل وصف ، وبدلا من ان يكون في خلفه شق واحد يقسم ظهره الى قسمين ، كان هناك شقان اضافيان يقسمان مؤخرته الى اربعة اقسام تتدلى من تحتها قصاصة جريدة مزقة . وحول عنقه يلتف شيء قد يكون جوربا او لفافة ساق او لفافة يطن ولكنه ليس ربطه عنق بكل تأكيد . وخالصة القول ، ان تشيتشيكوف لو رآه امام باب الكنيسة لم يتردد في الاحسان عليه بكوبيك (فلكى نصف بطلنا يجب ان تقول انه كان ذا قلب رحيم ولم يكن يتوانى في اعطاء الصدقات للمساكين) ، لكنه فسي حالتنا هذه لم يكن امام مسائل شحاذ ؛ بل كان امام ملاك - ملاك يملك الف نفس بالتعام والكمال يفوق كل جيرانه الملاكين الآخرين بما لديه من حنطة وطحين وما

فاذا ما صادف أن اضاع ضابط عابر سبيل مهمازه ، فان هذا المهماز سيجد طريقه في الحال الى تلك الكومة اياها . وإذا ما نسيت امرأة جردلها وهي تهوم عند البئر ، فإنه سيسئل الجردل منها . وعلى العموم ، إذا ظفر به فلاح ، متلبساً بذلك ، فان بلوشكين لسن يحاججه ، ويتخلى له عن الشيء الذي استولى عليه ، ولكن حين ينضم هذا الشيء الى تلك الكومة في حجرته فإن مسألته قد انتهت . فان بلوشكين سيسقسم بأن هذا الشيء ملكه ، اشتراه في التاريخ الفلاني ، من الشخص الفلاني ، أو تركه له جده . وفي حجرته كان يرفع من الأرض كل ما يجده هناك ، قطعاً شمع ، قصاصة ورق ، ريشة ، ويضعها كلها على مكتبه ، أو على افريز النافذة .

ذلك لأن حيناً من الزمن مرّ كان فيه بلوشكين مديراً حريصاً على أمور ضيعته ! كان متزوجاً وصاحب عائلة ، يقصده أحد جيرانه ليتناول الغداء معه ، ويستمع اليه ، ويتعلم منه إدارة الأمور ، والاقتصاد الحكيم . وكان كل شيء يسير نشيطاً ، ويتم بطريقة موزونة . كانت طواحيته في حركة ، وكانت معامل الاجواخ ، والنجارة ، والغزل ، تعمل . وكانت عيسن صاحب العمل الناقبة في كل مكان تراقب كل شيء . مثل عنكبوت مجتهد كان يجري مشغولاً ولكن بكفاءة في أرجاء شبكته العاملة . وكانت المشاعر القوية جداً لا تنعكس على ملامح وجهه ، ولكن الحصافة كانت تطل من عينيه . وكان كلامه مشبعاً بالخبرة ومعرفة الدنيا .

فكان الجار يرتاح حين يسمعه . وكانت زوجته المحتفية المحبة للكلام معروفة بحسن الضيافة . وكانت ابنتاه ، وكلتاهما شقراء نضرة كوردة ، تخرجان لاستقبال الضيوف . كما كان يخرج إبنة ، وهو خفيف الحركة نشيط ، ويقبل الجميع ، دون أن يلتفت كثيراً إلى أن ذلك يرضي الضيف أو لا يرضيه . وكانت النوافذ مفتوحة في البيت كله . وكانت حجرات الطابق العلوي مسكناً للمعلم الفرنسي الذي كان يعلق وجهه بشكل رائع ، ويجيد الرماية بروعة . فكان دائماً يجلب دجاجة أرض أو وزاً برياً للغداء ، ولكنه في بعض الاحيان لا يأتي بغير بيض العصافير ، حيث يطلب أن يقل له ، لأنه الوحيد الذي كان يأكل ذلك من بين اهل البيت جميعاً . وكانت تسكن معه في نفس الطابق ابنة وطنه ، مربية الابنتين . وكان رب البيت يأتي الى الغداء في سترّة فراك لطيفة الشكل ، وإن كانت مستهلكة بعض الشيء ، غير أن الكوعين كانا سالمين خاليين من أية رقعة . ولكن ربة البيت الطبية وافاهما الأجل ، فانتقل الى رب البيت قسم من المفاتيح ، ومعه مشاغل صغيرة . وصار بلوشكين أكثر قلقاً ، وأكثر ارتياباً وبخلاً ، مثل جميع الأرامل . ولم يكن في امكانه أن يعتمد على ابنته الكبرى الكسندرا ستيبانونفا في كل شيء ، وكان محقاً في ذلك لأن الكسندرا ستيبانونفا هربت بعد وقت قصير مع ملازم أول فسي فوج فرسان غير معروف ، وسرعان ما عقدت قرانها عليه في كنيسة قروية ، وهي تعلم ان اباها لا يجب فصيلة الضباط لاعتقاده القديم

بأن جميع العسكريين مقامرون ومبذرون . أرسل الأب اللعنات ، في أثرها ، ولكنه لم يتعب نفسه في ملاحظتها .

وصار البيت أكثر خواء . وصار البخل يظهر على المالك أكثر من ذي قبل ، ومعها الشيب المصاحب الوفي للبخل ، صار يتلألا في شعره ، وساعد على زيادة بخله . واعفى المعلم الفرنسي من وظيفته ، لأن الابن وصل الى سن الوظيفة ، وطردت الفرنسية أيضاً لأنها لم تكن مبراة من مسألة هروب الكسندرا ستيبانونا . وأرسل الابن إلى المدينة مركز الولاية ليحتل وظيفة في دائرة العدل التي هي حسب رأى أبيه ، خدمة حقيقية ، ولكنه بدلاً من ذلك الحق في وظيفة في فوج ، وكتب إلى أبيه يخبره عن تعيينه ، طالباً النقود لحواله وملابسه . وطبيعي أنه تلقى على ذلك ما يسمى بالتعبير الدارج علقه . وأخيراً ماتت ابنته الأخيرة التي بقيت معه في البيت ، ووجد العجوز نفسه الحارس والحافظ والمالك الوحيد لثرواته . واعطت حياة الوحدة زاداً دسماً للبخل الذي طبع عليه ، حسب ما هو معروف ، جوع الذئب ، وكلما التهم أكثر صار لا يشبع . والمواطف الانسانية التي لم تكن في الاصل عميقة في نفس صاحبنا صارت تضعل كل دقيقة ، فكان يتهاوى في كل يوم شيء في هذه الشخصية المحطمة . وفي مثل هذا الوقت حدث ، وكان ذلك تأكيداً متعمداً لارائه في العسكريين ، أن ابنه خسر فلوسه في القمار ، فبعث إليه من صميم قلبه لعنته الأبوية ، ولم يعد يهتم بأن

يعرف هل أن ابنه في الوجود ام لا . وفي كل عام كانت تسمر نوافذ في بيته ، حتى لم يبق أخيراً غير نافذتين ، احدها ، الصق عليها الورق ، كما يعرف القارى الآن ، وفي كل عام كان المزيد والمزيد من الاقسام المهمة في ضيعته تقلت من بصره ، حتى صار بصره الضئيل لا يرى غير قصاصات الورق والريشات التي كان يجمعها في غرفته ، واخذ يزداد تصلباً مع المشتريين الذين كانوا ياتون اليه لشراء منتجاته . كان المشترون يماكسون ويماكسون الى أن يتخلوا عنه أخيراً قائلين ان هذا شيطان ، وليس انساناً . فكان التبن والحبوب تتعفن والمستودعات والشون تتحول إلى روث تماماً لا يصلح الا لتسميد الكرنسب ، وكان الطحين في الاقبية يتصلب كالحجارة فلا بد ان يكسر . وكان من الفظاعة ان تمس الاجواخ والانسجة القطنية والمواد المنزلية ، فانها ستتحول في الايدي إلى رفات . وكان هو نفسه قد نسي كم كان له من هذا الشيء ، او ذاك . ولم يعد يتذكر إلا موضع قارورة النعيق في الدولاب وقد علم بنفسه على ما تبقى منه ، حتى لا يشرب منه احد بطريقة لصوصية ، اضافة الى موضع الشمع والريشة . وخلال ذلك كان الدخل من المزرعة يجمع كما في السابق . الفلاح ياتي باللمزمة ، وكسل امرأة ريفية تجلب الحصة المعتادة من الجوز ، وكسل امرأة تعمل نساجة تجلب القدر المخصص من منسوجها . وكان كل ذلك يرمى في المستودعات ، ويتفسخ ويمتلىء بالثوب ، والمالك نفسه قد تحول أخيراً الى

ثقب في جسم الانسانية . جاءت الكسندرا ستيانوفنا لرؤية ابيها مرة او مرتين ومعها ابنها الصغير وهي تحاول ان تحصل من ابيها على شيء ما . والظاهر ان حياة التجوال مع زوجها ضايط القربان لم تكن جذابة كما بدت عند الزفاف . وغفر لها بلوشكين ، على كل حال ، بل وسمح لحفيده الصغير بان يلعب بزر كان ملقى على الطاولة ، ولكنه لم يعطها اي شيء ممن التقود . وفي مرة اخرى جاءت الكسندرا ستيانوفنا مع طفلين ، وجلبت لابيها كمكاً ليؤكل مع الشاي ، وروباً جديداً ، لان الروب الذي كان يلبسه بلوشكين كان منجلاً بل ومعيباً . داعب بلوشكين حفيديه كليهما ، واجلس احدهما على ركبته اليمنى والثاني على اليسرى ، وهزهما ، وكأنهما على صهوة حصان . وقبل الكعك والروب ، ولكنه لم يعط لابنته اي شيء البتة . وبذلك عادت الكسندرا ستيانوفنا من حيث اتت .

في الاسفل .

وظل بلوشكين مطبقاً فاه دقائق عديدة بينما كان تشيتشيوكوف مذهولاً من مظهره ومن كل شيء آخر في الغرفة ، فلم يعد قادراً على البدء في الحديث ، بل راح يفكر في الكلمات المناسبة التي يفسر فيها الغاية من زيارته . كان يفكر فيما اذا كان من المناسب ان يقول له انه سمع الكثير عن كرمه ومزاياه فرأى من واجبه ان يقوم بهذه الزيارة لتقديم واجبات الاحترام . لكن حتى تشيتشيوكوف رأى ان في هذا القول من المبالغة ما لا يحتمل . بعد ان التقي نظرة اخرى على رب البيت

ثقب في جسم الانسانية . جاءت الكسندرا ستيانوفنا لرؤية ابيها مرة او مرتين ومعها ابنها الصغير وهي تحاول ان تحصل من ابيها على شيء ما . والظاهر ان حياة التجوال مع زوجها ضايط القربان لم تكن جذابة كما بدت عند الزفاف . وغفر لها بلوشكين ، على كل حال ، بل وسمح لحفيده الصغير بان يلعب بزر كان ملقى على الطاولة ، ولكنه لم يعطها اي شيء ممن التقود . وفي مرة اخرى جاءت الكسندرا ستيانوفنا مع طفلين ، وجلبت لابيها كمكاً ليؤكل مع الشاي ، وروباً جديداً ، لان الروب الذي كان يلبسه بلوشكين كان منجلاً بل ومعيباً . داعب بلوشكين حفيديه كليهما ، واجلس احدهما على ركبته اليمنى والثاني على اليسرى ، وهزهما ، وكأنهما على صهوة حصان . وقبل الكعك والروب ، ولكنه لم يعط لابنته اي شيء البتة . وبذلك عادت الكسندرا ستيانوفنا من حيث اتت .

ذلك هو المالك الذي وقف امام تشيتشيوكوف ! ويجدر القول ان مثل هذه الظاهرة نادرة في روسيا حيث يجب الجميع ان يقدروا انفسهم اكثر من ان ينكمشوا ، ومما يزيد الدهشة انك يمكن ان تصادف بجرارك مالكا ينفق ممتلكاته على ما تشتهي النفس الروسية من مبادل وقصص ومجون ، ويؤجج لهب الحياة على حد التعبير السائر . ان المسافر غير التجرب سيقف في دهشة من امره ، حين يرى منزله ، ويسائل نفسه في حيرة من ذلك الامير بالوراثة الذي وجد نفسه فجأة وسط هؤلاء المالكين الصغار الغامضين . فان بيوته الحجرية

وعلى الغرفة ، وبناء على ذلك بدّل جملته هذه الى جملة اخرى يتحدث فيها عن اقتصاده وحسن ادارته . وبعد ان اعدّ الجملة في عقله قال له انه سمع الكثير عن مواهبه الحازمة في ادارة املاكه وفي تنظيمه لسير الامور فيها ورأى من الواجب عليه ان يتعرفُ عليه وأن يهنئته بنفسه على ذلك . (ولأ حاجة بي الى القول بان تشيتشيوكوف كان يستطيع ان يجد سبباً آخر أوجه من هذا الذي ذكر ، ولكن قريحته في تلك اللحظة لم تلد شيئاً آخر)

فردّ بلوشكين على ذلك من بين شفثيه لخلو فمه من الاسنان بتمتة لم يفهم المقصود منها بالضبط الا ان آخرها كان يترك الحرية للشيطان لكي يأخذ تشيتشيوكوف وتهانيه . على أية حال ، فان قواعد الضيافة الروسية لا تسمح حتى لتعميس بانس ان يخرقها ، ولذلك فان بلوشكين اضاف الى ما سبق دعوة ترحيب يطلب فيها من الضيف ان يجلس . وراح يقول «منذ وقت طويل لم استقبل زائراً ما ، ولكني يجب ان اقول انني لا اشعر بفائدة من زيارتهم . فاذا ما بدأت عادة الزيارات اللئيمة واخذ الناس يترددون على بيت فان ادارة الاملاك ستؤول الى الدمار ويضطر صاحب الملك الى عكف خيوله بالتين وحده . منذ مدة طويلة - طويلة جداً تناولت وجبة طعام مع ان مطبخي في حالة لا يحمد عليها ، لأن المدخنة أصبحت في وضع اذا احميت فيه زيادة عما تحتمل فانها سوف تشتعل كلها دفعة واحدة» .

فقال تشيتشيوكوف في نفسه «يا للوحش ! لقد كنت حسن الحظ فقد تناولت كنف الخروف وطيبات الاكل عند سوباكيفيتش !!»

واستمر بلوشكين يقول «وبالاضافة الى ذلك ، فاني اشعر بالخجل اذ أقول لك ان ليس في بيتي حفنة واحدة من العلف . ولكن كيف يمكنني ان احصل على العلف ؟ فاراضي صغيرة والفلاحون كسالى يكرهون العمل ولا يفكرون الا في الحانة . وستكون نهايتي بناء على ذلك ان اقضي بقية عمري ضارباً في انحاء الارض لا أجد الماوى» .

فقال تشيتشيوكوف «ولكنهم أخبروني انك تمتلك الف عبد او يزيد» .

«ومن قال لك ذلك ؟ ليكن من كان ، ولكن كان عليك ان تقول له انه يكذب . لا شك انه كان مهرجاً يريد ان يضحك منك . الف نفس ! احسب لنفسك الضرائب التي تدفع عنهم وما الذي يتبقى من وراء ذلك ! كانت الحمى الملعونة في السنوات الثلاث الاخيرة تقتل اثنائي بالجملة» .

فتساءل تشيتشيوكوف باهتمام كبير «تقول بالجملة ؟»

فاجاب الرجل «اجل ، بالجملة» .

«اتسمح لي اذن ان اسالك عن الرقم الصحيح ؟»

«ثمانون بالتمام والكمال» .

«حقيقة ؟»

«هذا هو الواقع» .

«هل لي ان اسالك ايضاً ما اذا كان رقمك هذا منذ الاحياء الأخير؟»

«أجل منذ ذلك الاحياء ، لعنة الله عليه ! ومنذ ذلك التاريخ والضرائب تستنزف دمي عن مائة وعشرين نفساً .»

«حقيقية ؟ عن مائة وعشرين نفساً ؟» وبدا تشييتشيكوف في حالة من الدهشة والزهو حتى ظل بعد قوله هذا قاتماً فاه .

«نعم يا سيدي . اننى طاعن في السن» فلا اكدب عليك . فلقد تجاوزت السبعين منذ امد وجيز» .

مهما يكن من امر ، فقد شعر المضيف بالامتعاض للامح الفرحة التي بدت على تشييتشيكوف . ولكن الاخير تدارك الامر بان ارسل تهنئة عميقة واخبره بأنه يشعر بان كل عواطفه معه في مصائبه تلك .

«ولكن العواطف ليست شيئاً يوضع في الجيب يا سيدي . انها لاتسمن ولا تغني من جوع . لي قريب مثلاً وهو تقيب يقض مضجعي باستمرار بأمر كهذه . انه ضابط في الجيش ، لعنة الله عليه ، وليس له عمل طوال يومه الا ان يناديني «أيها العم العزيز» وينكب على يدي مقبلاً ويغمزني بسيل من عواطفه حتى اجدني مجبراً على اغلاق اذني» . وجهه احمر تماماً وولعه بشرب الخمر شديد . اعتقد انه يعزق امواله اثناء خدمته في الجيش وحين جنونه باحدى الممثلات . ولا هم له الآن الا ان يفرقني بعواطفه الفياضة !» فسارع تشييتشيكوف الى القول بان عواطفه تختلف

اختلافاً اساسياً عن عواطف الضابط ، فهو لا يكتفي بكلمات طنانة وحسب ، وانما بالعمل الملموس . وهو مستعد - اثباتاً لما يقول ، وقطعاً للاخذ والرد ، ووضعاً للامر في نصابها - ان يتحمل منذ اللحظة عبء دفع الضرائب عن الاقنان المذكورين الذي وافاها الاجل المتكود فنقلها الى العالم الآخر . ولقد وقع هذا الاقتراح على بلوشكين وقوع الصاعقة ، ففغر فاه محملاً بعينيه . ولكنه تمالك نفسه بعد لاي وتساءل قائلاً ، «هل كان سيدي العزيز ضابطاً في الجيش في يوم من الايام ؟» «لا ، ولكننى كنت في خدمة الحكومة» .

فبدأ بلوشكين يحرك شفتيه كما لو كان يعض شيئاً ، ثم قال «ايه ! في خدمة الحكومة ؟ وهل تعنى ان تنفذ الاقتراح الذي قلت ؟ اى هل انت على استعداد لتحمل الخسارة التي تترتب عليه ؟» «نعم ، اذا كنت اعلم اني بذلك سأدخل السرور الى قلبك» .

وصاح بلوشكين بسرور : «آه يا سيدي العزيز ، يا ولي نعمتي ! اى سلوى وضعتها في قلب شيخ عجوز !» ولم ينتبه الى سقوط قطعة سعوط من انفه وكان السعوط يشبه حثالة القهوة ، وان معطفه قد انفرج من المقمنة عن ثياب داخلية لا تسر النظر . «اى سلوى وضعتها في قلب شيخ عجوز ! والله على ما اقول شهيد !» ومضت هنيهة لم يكن يستطيع ان يقول فيها شيئاً . ولكن لم تكد تمر دقيقة واحدة حتى اختفت فجأة من ملامحه الخشبية تلك المشاعر الفياضة -

اختفت بالفجأة التي تجلّت بها . وعاد الى وجهه تعبير
الضئى ، حتى انه مسح وجهه بمندبيله ثم لف المندبيل
على شكل كرة وأخذ يروح به ويغدو على شفته العليا .
ثم قال «ارجو ان لا ازعجك اذ اطلب منك ان تعيد
الاقتراح مرة اخرى . هل تعنى انك على استعداد لدفع
الضريبة المستحقة على هذه الانفس ، وان تقوم بدفع
النقود لى او للخزينة ؟»

«اجل ، هذا هو ما سامعل . سنكتب عقد بيع كما
لو كانت هذه النفوس ما تزال حية وقمت ببيعها لي» .
فانغمس بلوشكين في أفكاره وراح يحرك شفثيه
حركة المضغ ، وقال «اذن هكذا . عقد بيع . ولكن عملا
كهذا سيجرّ نفقات ومصروفات معينة والمحامون لا
ضمير لهم ! وهم في الواقع شرهون جشعون ، كانوا
يطلبون من قبل نصف روبل وكيساً من الطحين اما الآن
فحمولة عربية من الطعام اضافة الى النقود ، يا لهم من حب
الفضة . من الغريب ان احداً من الكهنة لم يلتفت الى
ظلم هذا النظام . موعظة على الاقل ، اذ لا يمكن الوقوف
ضد كلمة الرب مهما يكن من شيء» .

ففكر تشيتشيكوف مع نفسه «أظنك ستقف ضدها» .
عندئذ بيّن له تشيتشيكوف انه نظرا للاحترام الشديد
الذى يكنه للمضيف سيقوم بتحمل نفقات البيع
بنفسه .

وهذا ما ادى ببلوشكين ان يعتبره غيبيا لا ضمير له
يدعى انه كان في خدمة الحكومة لكنه في الحقيقة كان
ضابطا في الجيش يجرى وراء الممثلات ، وبناء على ذلك

لم يعد هناك داع لاختفاء سروره بل راح يصبّ دعوات
الرحمة على تشيتشيكوف وعلى ابنايه (ولم يكن قصد
سال تشيتشيكوف فيسا اذا كان متزوجا وله ابناء) .
ومن ثم اسرع الى النافذة وقرع على لوح زجاجها وهو
ينادى «بروشكا !» وسمع صوت اقدام تركض في القاعة
وهي تخطب الارض خبطا ودخل شخص الى الغرفة . وكان
الداخل بروشكا - رفتى في الثالثة عشرة من العمر غاطس
في حذاء واسع الابعاد يكاد يبتلع ساقه حتى الركبة
اذا ما دلف ماشياً فيه . وسبب دخوله في هذا الحذاء
هو ان بلوشكين كان قد خصّص حذاء واحداً لجميع
الخدم . كان هذا الحذاء العالمي راسيا دائما فسي
القاعة ، فاذا ما استدعي خادم الى المنزل كان عليه ان
يتهادى في طين الساحة حافي القدمين ويتنعله ، حتى
اذا قام بمهمته التي طلب اليها ، خلعه ووضعها فسي
موضعه المعروف وخرج الى الساحة على طبيعته الحافية
السابقة . ولو اتبع لانسان في يوم خريفى ان يلقي
نظرة على الساحة ورأى خدم بلوشكين وهم يسيرون
فيها لعرف انهم يقومون برقصات ترحلية رائعة لا يكاد
يجاريهم فيها الراقصون المحترفون .

وقال بلوشكين لتشيتشيكوف وهو يشير الى بروشكا
«انظر الى وجه هذا الغلام ! ان افيه الكفاية من الغباء .
انما ضع شيئاً من الاشياء على ناحية فستجده قد سرقه
في لمح البصر . ايه ايها الشاب ، ماذا تريد ؟»
وصمت لحظة او لحظتين ولكن بروشكا لم يحس
جواباً .

واستمر الرجل العجوز يقول «هيا ! هيا جهنم السمور ، ثم اعط ما فرا مفتاح غرفة المخزن ، اليك هو ، وقل لها ان تحضر شيئاً من الكعك الذي جلبته الكساندرا ستيبانوفنا مع الشاي . ما بك ايها المجنون ، انتظر لحظة اخرى . هل يدغدغ الشيطان قديمك حتى تريد ان تفترق هارباً ؟ استمع الى ما ساقوله اليك . قل لما فرا ان اطراف الكعك قد اصابها بعض التلف ، وعليها ان تنزع القسم التالف بقشره بالسكين ، وقل لها ان لا ترمي القشر بل تضعه للدجاج . ويجب ان تفهم انك لن تدخل الغرفة والا ضربتك ضرباً لا تنساه . جرب ان تدخلها ، وسترى ما الذي سيحدث لك . سوف اراقبك من هذه النافذة . واضاف موجهاً كلامه الى تشيتشيكوف «ان السر لا يستطيع ان يامن الى هذه الاشكال» .

وما كاد الحذاء وبروشكا يغادران الغرفة حتى اخذ بلوشكين يحدق في ضيفه تحديق المستريب . كان كرم تشيتشيكوف غريباً يدعو للتساؤل . واخذ يقول لنفسه «ومن يكون الرجل بعد ذلك كله ، لعله لص من اللصوص . يمنيك بالامال الجسام لكي تنعم عليه بقدر من الشاي» . وانتهى بعد مناجاته هذه لنفسه بان قال لتشيتشيكوف «انه يفضل ان تجرى عملية بيع النفس حالا ، فلا يجب ان يعق الانسان كثيراً بالآخرين ، ولا يدرى من يعيش اليوم ان كان غدا سيوموت . فوافق تشيتشيكوف على هذا الراى بملء رغبته ، انما طلب اولاً تزويده بلائحة الاسماء . وهذا ما اعاد

الطمانينة الى قلب بلوشكين عن نية ضيفه فاخرج مفتاحه واقترب من خزان وفتح بابيه واخذ يفتش بين ما فيه من كؤوس واكواب ثم قال :

«لا اظن اننى ساجدها الآن ، لكن كانت لدى زجاجة مشروب فاخرة . ربما شربها الخنم ، فهم لصوص اصيولون . لا ، ربما كانت هذا !»

فرغ تشيتشيكوف بصره ورأى بلوشكين يسحب دورقاً مغطى بالغبار .

واستمر الشيخ العجوز يقول «كانت زوجتى المرحومة هي التي صنعت المشروب . لكن هذه الغازنة السافلية رمت قسماً منه ، حتى دون ان ترجع غطاء الدورق الى موضعه . فدخل فيه بسبب ذلك بعض البق والحشرات الكريهة الاخرى . ولكني نظفته ، وارجوك ان تتناول منه كأساً» .

كانت فكرة الشرب من اناء كهذا اكبر من ان يقبلها تشيتشيكوف فاعتذر بحجة انه صائم عن تناول الغذاء . فقال بلوشكين «اذن فانت الآن صائم عن الغذاء ؟ هكذا يتكشف للانسان ان في العالم رجالاً محترمين . ان الشخص المحترم لا ياكل شيئاً اطلاقاً ويقول دائماً بأنه سبق وأكل . واسلوبه يختلف اختلافاً واضحاً عن اساليب الاندال الذين مهمما اطعمتهم لا يكتفون . والضابط مثلاً ، لا يزال يرجوني ان اطعمه ، يقول «يا عمي ، اعطني شيئاً آكله» وتسميته لي عمي لا تختلف عن تسميتي له جدى . وكما هو الواقع ، لا يكون نسي بيته لقمة من شيء فيزور البيوت الاخرى . ولكن كنت

تسألني عن لائحة الانفس التافية ، كان لدى لائحة رائعة اعدهتها للاعضاء القادم» .

ومن ثم وضع بلوشكين نظارته على عينيه وراح ينبش الاوراق في الخزان والغبار يتطاير اثناء جمع الاوراق مع بعضها حتى ان ضيفه انفجر عاطساً . وانتزع آخر الامر ورقة كتب عليها اسماء الفلاحين الموتى بخط صغير محشور فوق بعضه حشراً كأنه غمامة من بعوض ؛ فقد كان فيها مائة وعشرون اسماً . فهمم تشيتشيكوف فرحاً لرؤية هذه المجموعة . ثم درس الورقة في جيبه قائلاً ان اتمام الصفقة يستوجب الذهاب الى المدينة .

فقال بلوشكين «الى المدينة ؟ ولماذا ؟ وكيف استطيع ان اترك المنزل ما دام خدمني ما بين لص ووغد ؟ انهم يسرقون كل يوم شيئاً ، ولن يمضى طويل وقت حتى لا اجد مطلقاً اضعه على كتفي» .
«فهل لك اذن معارف في المدينة ؟»

«معارف ؟ لا . فكل الذين اعرفهم اما تركوني او ماتوا . لكن ، انتظر لحظة . اني اعرف رئيس المجلس المحلي . حتى في شيخوختي جاء مرة او مرتين يزورني . فقد كنت وياها زميلين في المدرسة وكنا نتسلق الجدران معاً . اجل ، ياها اعرف . هل اكتب له كتاباً ؟»

«بلا ريب» .

«نعم ، ياها اعرف معرفة جيدة ، فقد كنا اصدقاء في المدرسة» .

واشرق من ملامح بلوشكين الخشبية شعاع من الدفء - شعاع ان لم يكن يعبر عن شعور فهو على الاقل صورة شاحبة لذلك الشعور . ظاهرة كهذه يمكن ان يراها المرء في لحظة خاطفة عندما يرى الفريق يبرز على صفحة ماء النهر فجأة ، وتصدر من حناجر الجماهير المصطفة على الشاطئين صيحة الامل راجية ان تمتد يدا الفريق للتان اجهدهما الاعياء وتلتقطان الحبل الذي رموا به اليه - تلتقطانه قبل ان يعود السكون الازلي المرعب الى سطح المادة الجارية . ولكن الامل يحيى لحظة خاطفة واليدان تختفيان . ويصمت كل شيء . وبعد ذلك يصير السطح الهادي ارهب واكثر إقفاراً . مثل هذا لاح في وجه بلوشكين ، فبعد ان اشرقت على وجهه بوادر الاحساس هنيئة اختفت سريعاً وعاد الى وضاعته وتبلده اكثر من ذي قبل .

واخذ يقول «لقد كان على المنضدة ورقة نظيفة للكتابة ، ولكن اين راحت ؟ لست ادري . كل هذا من الخدم ، فيا لهم من اوغاد !»

وبهذا اخذ يبيت تحت المنضدة ويصيح «مافرا ، مافرا !» ولبت النداء بعد برهة امرأة تحمل بين يديها طبقاً من الحلوى التي سبق ذكرها . وبدا عندئذ الحوار التالي :

«ما الذي عملته بورقة الكتابة التي كانت هنا ، ايتها السارقة ؟»

«اقسم انني لم ار الورق هنا الا القطعة التي كنت تغطي الدورق بها» .

«ان وجهك ينطق بانك انت التي اخذتها» .
«ولماذا اخذها ؟ انها ليست بذات فائدة لي . فانا
لا اعرف القراءة ولا الكتابة» .
«إنك لتكذابين ! لقد اخذتها الى القندلفت ليعبث
بها» .

«اذا اراد القندلفت ورقاً ففي امكانه الحصول عليه
بنفسه . ولكن ورقتك لم تقع عليها عيناي ولا عينسا
القندلفت» .

«ان الله يهمل ولا يهمل ، ولسوف يشويك الشياطين
يوم الحساب على سفافيد من حديد . هذا هو مصيرك» .
«ولكن لماذا يشوونني وانا لم المس ورقتك ؟ قد
اتهم بنقيصة نسائية اخرى اكثر مما اتهم بالسرقة» .
«ان الشياطين سيشوونك بلا ريب ، وسيقولون لك
«يا عجوز السوء ، لماذا كنت تسرقين سيديك ؟
ويزيدون النار اواراً» .

«ولكنني مع ذلك ساظل أقول لهم «حرام ما
تصنعون ، فانا لم اسرق في حياتي شيئاً» ولكن .. ها
هي هناك على المنضدة ! لقد كنت تتهمني ظلماً
وعدواناً !» والواقع ان الورقة كانت ملقاة امام عيني
بلوشكين . فاخذ يوضغ شفثيه في هدوء ، ثم قال :
«ولماذا تفتعلين هذه الضجة ؟ اذا قال لك المرء كلمة
واحدة اجبته بعشر . اذهبي واحضري شمعة اختم بها
كتاباً . واحترسي ان تحضري الشمعة المصنوعة من
الشحم ، واحضري عليه ثقاب» .
ولما انصرفت ما فرا جلس بلوشكين واخذ ريشة

وراج يقلب الورقة على وجهيها المرة تلو الاخرى كما
لو كان يفكر في ان يقطع منها جزءاً . وراى آخر الامر
ان من المستحيل ان يفعل ذلك ، فغمس الريشة فسي
الزبيج المكون من الحبر والذباب الذي تحتويها
المحيرة ، واخذ يكتب بحروف ظاهرة جداً كأنها الرموز
الموسيقية ، بينما كان بين الآونة والاخرى ينظر الى
سرعة يده لئلا تندفع فتأخذ الكثير من الورقة» ،
ويحذف من سطر الى سطر زحفاً فعزل النادم على ترك
بعض الفراغ في الصفحة .

ولكن الى هذا الدرك من التفاهة والحقارة والوضاعة
يمكن ان ينحط الانسان ويتغير بهذا القدر ! وهل لذلك
شبه بما يجري في الحقيقة ؟ نعم ، إنه كذلك ، كل
شيء يمكن ان يحصل للانسان . إن شاباً ملتهباً من
شباب اليوم سيتراجع رعباً لو ان أحداً عرض له
صورته ، وهو في شيخوته . خذوا معكم اذن ، حين
تنتقلون من اعوام الصبا الناعمة ، الى الرجولة
المتقسية الصارمة ، خذوا في رحلتكم هذه كل المشاعر
الانسانية ، ولا تتركوها في عرض الطريق ، فانكم لن
تسترجعوها بعد هذا ! فان الشيخوخة الرهيبة المرعبة
التي تهددكم في المستقبل لن تعيد لكم شيئاً اخذته ا
والقبر ارق قلباً منها ! فهم يكتبون عليه «هنا يرقد
انسان!» ولكن لا شيء يمكن ان يقرأ في الملامح الباردة
الخالية من العاطفة لشيخوخة غير انسانية .
ولما انتهى منها طواها ، وسأل قائلاً «هل تعرف أحداً
بحاجة الى عبيد آبقين ؟»

فشوق تشيتشيكوف باهتمام كبير وقال «ماذا ؟
عندك عيد آبقون أيضا ؟»

«بلا شك» . وقد ذهب صهرى وقدم الشكرى خندهم
الى الدوائر المختصة ، ولكنه يقول بان ملاحظتهم
اصبحت فاترة . على اية حال فهو رجل عسكرى ايضا
ولا يصلح الا لركوب الخيل ، ولا نفع منه في تقديم
قضية الى محكمة .

«وكم عبداً هارباً لديك ؟»

«قراية السبعين» .

«صحيح ؟» .

«نعم بكل اسف . لا تمر سنة واحدة دون ان يفر
عدد منهم . وهم مع ذلك جشعون كسالى ، لا عمل لهم
الا الاكل وتكاد تنفجر بطونهم منه ، بينما انا نفسى
لا اكاد اجد شيئاً يقيم الأود . ساقبل اى سعر تعرضه
على لقاءهم . اخبر اصداقك ومعارفك عنهم فاذا ما
وجدت بعضهم فستلتقى تعويضاً حسناً ، لان ثمن العبد
الحى فى لائحة الاحصاء فى هذه الايام يبلغ خمسمائة
روبل» .

فقال تشيتشيكوف فى نفسه «ربما كان ذلك ، ولكنى
لن ادع شخصاً يدس فى هذا الثمن اصبعه» وقال
لبلوشكين بان اصداقاً ومعارف من هذا النوع لا وجود
لهم ، والمصاريف القانونية التى تتطلبها هذه العملية
سوف تجمله يبيع مطفه قبل ان يتخلص من المحامين .
واضاف تشيتشيكوف يقول «ومع ذلك ، وبما أنك
فى حاجة شديدة الى النقود ، وبما اننى شديد الاهتمام

بصلحتك ، فانى اشعر بدافع يدعوني الى ان ادفع
لك ثمناً رمزياً تافهاً لا يستحق الذكر» .

فراحت يدا بلوشكين ترتعشان كقطرة الزئبق ، وقال
موافقاً «وكم سيكون ؟»

«خمسة وعشرون كوبيكا لكل نفس» .

«ماذا ؟ وهل ستدفعها فوراً ؟»

«نعم ، فوراً» .

«ومع ذلك ، ارجوك ان تنظر الى فقرى الذى انا
فيه وتجعلها اربعين» .

«سيدى المحترم لو كان فى استطاعتى ان ادفع لك
لا اربعين كوبيكا بل خمسمائة روبل لفعلت ، ولدفعت
هذه القيمة بكل سرور . فلقد عرفت انك شيخ عجوز
محترم يعانى الكثير بسبب قلبه الطيب» .

فرجع بلوشكين رأسه وحركه ببطء من جهة الى
أخرى وقال «اى والله ، هذا هو الصحيح ، هذا هو
الصحيح . وكل ما عملت فى حياتى كان صادراً عن رقة
القلب» .

«ها انت ترى كيف عرفت طبيعتك حالا ! فيجب ان
يكون واضحاً لديك الآن لماذا لا اقدر ان ادفع لك
خمسمائة روبل للراس الهارب . ولا بد انك قد ادركت
الآن اننى لست على قدر كبير من الغنى . ومع ذلك كله
فانا على استعداد لزيادة خمسة كوبيكات ، بحيث
يكلّفنى كل عبد آبقى فى آخر الأمر ثلاثين كوبيكا» .
«كما تشاء ، يا سيدى . لكن مطهلاً قليلاً وزد كوبيكين
آخرين» .

«تفضل . قلت كم عبداً لديك ؟ سبعون ؟»

«لا ، ثمانية وسبعون» .

«ثمانية وسبعون ، كل واحد سيكلف ثلاثين كوبيكاً ، فيصبح المجموع» - ووقف بطلنا لحظة قصيرة فقط لأنه كان قوياً في الرياضيات ، ثم قال «فيصبح المجموع أربعة وعشرين روبلاً وستة وتسعين كوبيكاً» .

ثم طلب من بلوشكين أن يكتب له وصلاً وسلمه النقود . فتسلّمها بلوشكين بكلتا يديه ، وحملها إلى خزان قريب بحذر شديد جداً كما لو كان يحمل بيسن يديه سائلاً يخشى كل لحظة أن يترشّش في وجهه ، ووصل إلى الخزان ونظر حوله مرة أخرى ، وحشاً النقود في أحد الأكياس الخاصة بذلك ، حيث قدر لها بسلاً شك ان تظل مدفونة هناك إلى ان تأتي الساعة التي يقوم بها الأب كارب والأب بوليكارب (الكاهنان المولكان بالقرية) بعملية دفنه وسط نشوة السرور الكبرى التي تجتاح ابنته وصهره (وربما «ابن أخيه» الضابط أيضاً) . وبعد أن قام بلوشكين بمهمة إخفاء النقود ، رجع وجلس على كرسي ذي مسند مرة أخرى وبدأ في حيرة من أمره لا يجد موضوعاً جديداً للحديث . وراى

* ومع ذلك فقد أخطأ تشيتشيكوف الحساب . فالمبلغ الحقيقي هو ثلاثة وعشرون روبلاً وأربعون كوبيكاً . وعسل هذا يكون تشيتشيكوف قد غشّ نفسه بروبيل وستة وخمسين كوبيكاً . المترجم .

تشيتشيكوف يتحرك حركة بسيطة في موضعه ، ومع أنها كانت لمجرد اخراج مندبل من جيبه إلا أنه قال «هل تنوى الذهاب ؟» وكان سؤاله هذا كافياً لتذكير تشيتشيكوف بأن لم يعد هناك مبرر للتباطؤ .

فاخذ قبعته وقال «نعم ، عليّ ان اذهب» .

«والشأنى ؟»

«شكراً ، سأتناول شيئاً منه في زيارتي القادمة» .
«ماذا ؟ مع اننى قد طلبت اعداد السماور ؟ انما نفسي لا اهتم كثيراً بالشأنى ، واعتقد أنه مشروب غال . وزيادة على ذلك فان سعر السكر قد ارتفع هذه الايام ارتفاعاً فاحشاً» . ثم نادى بصوت عال «بروشكا ، لا حاجة بنا الى السماور ، ارجع السكر الى مارفا وقل لها ان ترجعه الى موضعه مرة أخرى . لكن ، لا . هات السكر هنا وسأعيدته بنفسى الى موضعه» . ثم وجّه الخطاب الى تشيتشيكوف يقول «وداعاً يا سيدي العزيز ، ولينباركك الرب» . اعطى الكتاب الى رئيس المجلس المحلي ، ودعه يقرأه . فهو صديق قديم ، عرفنا بعضنا منذ أيام المدرسة» .

وبهذا القول ، سارت هذه الظاهرة الغريبة ، سار هذا الشيخ العجوز الذابل لمراقفة ضيفه الى رتاج الساحة ، وبعد أن انصرف الضيف أمر باقفال الرتاج ودار دورة حول البناية ليتأكد من أن الحرس العديدين في مراكزهم الموجودين في كل زاوية يضربون بالعصي البراميل الفارغة بدلاً من قطع الحديد واطل برأسه في المطبخ (ودخله متظاهراً بالاشراف على طعام الخدم

ليكون كافياً ولكنه بهذه الحجة عمل لنفسه عشاء خفيفاً من حساء الكرنب والثريد) وراح يشتم الخدم بلسانه البذيء شتما قاسياً لسرقاتهم وسوء سلوكهم ، ثم عاد الى غرفته . وجلس في وحدانيته يفكر في كرم ضيفه الذي لاحد له ، وكيف يمكن أن يجزيه على ذلك وقال في فكره «سوف اهديه ساعة فضية جيدة الصنع ، وليست كالساعات الاخرى المصنوعة من المعادن الرخيصة . ومع ان فيها بعض العطب الا انه يستطيع اصلاحها بسهولة . والشباب بحاجة دائماً الى ساعات يبرزونها لخطيباتهم» . وبعد تفكير اعمق مما سبق قال لنفسه «لا ، سوف اترك له الساعة في وصيتي كذكرى» .

اما بطلنا فقد كان اثناء ذلك يدرج على الطريق بمعنويات عالية . كانت غنيمته من الانفس الميتة ومن العبيد الابقيين كهدية مرسله من السماء وكلها بالمجموع لا تزيد عن مائتي نفس الا قليلا . وحتى قبل ان يصل الى قرية بلوشكين كان يتوقع ان يكون موفقاً في مهمته ، ولكن لم يكن يتوقع التوفيق الذي حصل عليه في الواقع . وما إن تقدمت العربية قليلا في سيرها حتى اخذ يصفر ، ثم وضع يده على فمه على شكل بوق وانطلق يغني أغنية تسترعي الانتباه ، حتى ان سيليفان بعد ان استمع اليها برهة من الزمن طاطا رأسه وقال «يا آلهي ! سيدي يجيد الغناء» .

وفي الوقت الذي وصل فيه الركب الى المدينة كان الظلام قد ارخى سدوله وتغيرت طبيعة المناظر التي

كانت تمر امام العين . كان العاجز المخطط قد فقد لونه المحدد ؛ شاربا الجندي الذي في الحراسة لاحاً وكانها على جبينه واعلى بكثير من عينيه ، اما انفه فبدا وكأنه غير موجود البتة . وكانت القرعة والنظات توحي بان العربية كانت تسير على درب مرصوف . مصابيح الشوارع لم توقد بعد ، ونوافذ البيوت وحدها كانت تنار هنا وهناك بينما كانت الأزقة والشوارع الخلفية مسرحاً لمشاهد واحاديث لا تختلف عما يجري في مثل هذا الوقت ، في كل المدن التي يوجد فيها العديد من الجنود ، والحوذية ، والشغيلة ، والاصناف المعينة من المخلوقات على شكل سيدات في لفافات حمراء ، واحذية بلا جوارب ، يمرقن كالخفافيش في مفارق الطرق . لم يلحظهم تشيستشيكوف ، بل ولم يلحظ مثل هذه الكثرة من الموظفين ذوي العصوات الذين كانوا ، على الارجح ، ينتزهون وراء المدينة ، وهم الآن قسي طريقهم الى بيوتهم . ومن حين الى آخر كان يصل الى سمعه هتافات بأصوات نسائية ، كما يبدو : «هذا السكير ، يكذب ، وأنا لم اسمع له قط ان يرتكب مثل هذه الغلظة!» او «لا تضربني ، يا جلف ، تعال الى القسم بشرف ، وهناك سأعرف كيف اثبت لك!» وباختصار إنها نفس الكلمات التي تسمط شاباً حالماً في العشرين من العمر عائداً من مسرح ، يتخيل شارعاً في اسبانيا ، ليلاً ، وامرأة رائعة ذات خصلات تحمل قيثارها . وما اكثر ما يتخيل هذا الشاب ، وهو محلق في السماوات ، عائداً من زيارة لشيللر ، واذا بمثل

هذه الكلمات المنحوسة تصدر فوق رأسه ، فيجد نفسه وقد عاد الى أرض الواقع ، وحتى الى ساحة مدينته ، بل وقريباً من حانة ، والحياة تسرى امامه من جديد في ثيابها الاعتيادية .

بدأت العربة تتراقص على بلاط الطريق الحجري ، ثم انعطفت بعد لآى ودخلت ساحة النزول ، حيث كان بتروشكا في الاستقبال . وقد ساعد سيده على النزول من العربة وهو يضم طرفي معطفه باحدى يديه (فقد كان يكره ان يرى طرفي المعطف متباعدين) . وهرول خادم النزول وهو يحمل في يده مصباحاً ويضع على كتفه فوطه . ومن المستحيل ان نقول فيما اذا كان بتروشكا مسروراً بعودة سيده ، او غير مسرور لكنه على أية حال تبادل غمزة عين مع سيليفان واشرق مؤقتاً مظهره الكئيب المألوف .

وقال خادم النزول وهو يضيء السلم «اذن كنت في سفر بعيد يا سيدي» .

«نعم ، وهل حدث شيء في هذه الآونة؟»

فاجاب الخادم منحنياً «لا شيء يا سيدي ، انما وصل الليلة السابقة ضابط ملازم ونزل في الغرفة رقم ستة عشرة» .

«ملازم؟»

«نعم . جاء من ريزان ، بعربة ذات ثلاثة خيول لونها كميث» .

وقال تشيتشيكوف لخادم النزول :

«حسناً ، تصرف كذلك في المستقبل» . وعندما

دخل تشيتشيكوف الى الغرفة وضع يديه على انفه وسأل تابعه لماذا لم يفتح النوافذ قط . اجابه بتروشكا «ولكنني فتحتها بالفعل» . ومع ذلك فقد كانت هذه كذبة ، كما كان تشيتشيكوف يقدر ، الا انه لم يفتح باب الجدل لان تعبه كان شديداً . وبعد ان طلب عشاء خفيفاً من لحم الخنزير الرضيع واكله ، نضا ثيابه ، واندس في الفراش وغرق في نوم عميق لا يتمتع به الا المحظوظون الذين لا يلقفهم الباسور ولا البرغيث ولا عمل الفكر الشديد .

الفصل السابع

سعيد ذلك المسافر الذي يرى ، بعد سفر طويل مضجر ببرودته ووحولته وحمته ، ومدراء محطات تبديل الخيول الناعسين وجبلجة اجراسه ، وتصليحات عربته ، وتبادل الشتائم ، والحوذية ، والحدادين وأوغاد الطريق على مختلف أنواعهم ، يرى أخيراً السطح الذي يعرفه ، والاضواء المقبلة عليه ، وتظهر امامه الحجرات المألوفة له ، والصيحة الفرحة للراكضين الى لقائه ، وضجيج وتراكض الاولاد ، والكلمات الغافتة المهدنة التي تتخللها القبلات الحارة القادرة على محو كل ما هو منفص من ذاكرته . سعيد رب العائلة الذي له مثل هذا المأوى ، ولكن الويل للأعزب !

سعيد ذلك الكاتب الذي يتعرف ، دون الالتزام بالشخصيات المضجرة المنفرة التي يصنعنا واقعها

المؤسي ، على شخصيات تعكس كرامة الانسان الرفيعة ويختار من الدوامة العظيمة للشخصيات المتتابعة امامه كل يوم بعض الاستثناءات ، دون أن يخل ، ولو مرة واحدة ، بالنسق السامي لقيثارته ، ولا ينزل من عليائه إلى اخوانه في القلم البائسين التافهين ، وينغمس ، دون أن يمس الأرض ، في صورة المثقاة المرتفعة عنها كثيراً . إن قدره الرائع هذا محسود حسداً مضاعفاً : فهو بينهم كأنما بين أهله ، بينما مجده يطوف في الآفاق عالي الصدى . فقد غشى عينيه الانسانيتين ببخور نشوان ، وتالقت بهما باعجاز ، مغطياً على ما هو محزن في الحياة مظهرأ بهما الانسان الرابع . كل المجددين يلاحقونه ويندفعون وراء عربته المنتصرة . ويعتونه بالشاعر العالمي الكبير ، المحلق عالياً فوق جميع عباقره العالم الآخرين ، تحليق النسر فوق جميع الطيور المحلقة الأخرى . إن مجرد ذكر اسمه ييبث الرعدة في القلوب المشبوبة الفتية ، ويدرد دموع الاستجابة من كل العيون . . . انه منقطع النظير في قوته . إنه آله ! إلا أن ثمة قدراً مختلفاً ، ومصيراً آخر للكاتب الذي تجرأ على أن يكشف كل ما يظهر في كل لحظة أمام الأبصار ، ولا تراه العيون الابالية ، كسل الطفق المريع المنهل للصفائر التي تحيط بحياتنا ، كل عمق الشخصيات الباردة المهشمة التي نراها كل يوم ، والتي يحفل بها طريقنا الدنيوي ، المرير المضجر في اغلب الاحيان ، الكاتب الذي اقدم بما لإزميله الذي لا يهادن من قوة صلبه على ان يظهر هذه الشخصيات

بارزة ساطعة امام انظار الشعب كله . إنه محروم من كسب اطراءات الناس ورؤية دموع الامتنان ، والبهجة الشاملة تم نفوسهم التي اثرت فيها . ولن تندفع نحوه فتاة في السادسة عشرة دؤارة الرأس ، بطوليسة الحماس ، ولن يغيب في السحر الحلو للاصوات التي حركها ، كما لن يتخلص أخيراً ، من محاكمة معاصريه ، محاكمة معاصريه النفاقية الغالية من التعاطف ، والتي تدفع مخلوقاته المدللة من قبله بالتفاهة والوضاعة ، وتفرد له ركناً محتقراً في صف الكتاب الذين يهينون الانسانية ، وتخلع عليها صفات الأبطال التي صورها ، وتنزع منه القلب والروح ولهب الموهبة الالهية . لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن الزجاج الذي ترى من خلاله الشمس عجيب بمقدار ما هو عجيب الزجاج الذي ترى من خلاله حركات حشرات مجهرية ؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن تصوير الحياة الوضيعة وتحويله الى لؤلؤة ابداع يحتاج الى عمق الشعور ودخيلة النفس ؛ لأن محكمة معاصريه لا تعترف بأن الضحك البهيج الرفيع جدير بأن يقف على صعيد واحد مع العاطفة الشعاعية الرفيعة ، وأن هناك هوة شاسعة بين هذا الضحك والضحك التهريجي الرخيص ! إن محكمة معاصريه لا تعترف بذلك ، وتحوّل كل شيء الى تقريع وهزء بالكاتب غير المعترف به . وسيبقي وحده على قارعة الطريق بلا مشاركة ، ولا استجابة ، ولا تعاطف ، كالصعلوك المتشرد . إن مهنته لشاقة ، ووحده لمريرة . ولزمن طويل آخر كتبت على "سلطة عجيبة أن أسير

بدأ بيد مع ايطالي الغربيين ، وان استعرض الحياة
المنفعة بكل جسامتها ، ان استعرضها خلال الضحك
المرئي للعالم ، والدموع غير المنظورة وغير المرئية
لهذا العالم . وما يزال بعيداً ذلك الزمن الذي سترتفع
فيه زوبعة الإلهام العريضة بدق آخر من رأس محاط
بالألق والرعب المقدس ويشعر الناس بالهدير الجليل
للكلمات الأخرى ، وهم في رعدة الارتباك .

فالى السفر ! الى السفر ! وسحقاً للغضون التي حفرت
جياهاها ، وللظل الجهم المرتمي على الوجه ! ولنغمز في
الحياة ، فجأة ودفعة واحدة بكل قرعتها المكتومة ورنين
اجراسها ولتر ما سيفعله تشيتشيوكوف .

لما استيقظ تشيتشيوكوف تمطى فاستيقن انه نام
نوماً هينياً . واضطجع على ظهره لحظة او لحظتين ومن
ثم صفق بيديه فجأة اذ تذكر انه اصبح الآن مالكا
لحوالي اربعمائة نس . وقفز حالا من الفراش ولم يذهب
الى المرأة ليرى نفسه فيها ، اى انه خرق القاعدة التي
لم يكن في غير هذا اليوم يمد اليها يد العبت . فقد
كان دائماً شديد الاهتمام بقسمات وجهه ، وخاصة
بالذقن التي كان يزيد اهتمامه بها اذا ما كان في جمع
من الاصحاب ؛ واكثر من ذلك اذا ما دخل عليه شخص
وهو مشغول بحلقاتها . كانت الجملة التي يستعملها في
هذه المناسبة هي ان يقول «انظر» ما اشد استدارة
ذقني !» أما في الحالة الراهنة ، على اية حال ، فلم ينظر
الى ذقنه ولا الى أية قسمة أخرى ، انما انتعل نعليه
المطرز بالزهور والمصنوع من الجلد المراكشي

(والفضل في ذلك لحب الروس حياة الراحة وقضاء معظم
الوقت في الملابس البيتية فقد اصبحت مدينة تورجوك
تقوم بصناعة ضخمة من هذه النعال) ، وارتدى قميصاً
قصيراً لا غير على نمط الاسكتلنديين ونسي كبر سنه
وكبريائه وقفز قفزتين ماسكا ظهره بكعبه . ولم يبدأ
بعمله الا بعد ان أجرى كل ذلك . ومن ثم غرس
نفسه امام صندوق المراسلات وفرك يديه ببعضهما
البعض دلالة على الرضى العميق ، كما يفصل القاضي
الريفي الذي لا شائبة تشوب سمعته حينما يؤجل
جلسة المحكمة اذ يحل موعد الغداء . ومن ثم انتزع من
الصندوق رزمة من الورق . وقرر ان لا يودع أوراقه
هذه الى محام بغية الاسراع في الامور والتوفير في
النفقات وراح بنفسه يرتب وينسخ كل المعلومات
الضرورية في صفحات كهذه . ولما كانت لديه الخبرة
الكافية في هذا الشأن فقد اخذ يكتب التاريخ بحروف
كبيرة ، ثم اسمه ورتبته بحروف اصغر . وفي الساعة
الثانية كان كل شيء ناجراً . وما إن نظر الى الاسماء التي
تدل على فلاحين غابرين كانوا قد حرثوا واشتغلوا
اشغالاً حرفية متنوعة وخذعوا اسيادهم وجلبوا وحملوا
وسكروا (مع ان بعضهم قد يكون سلك سلوكاً حسناً)
حتى طفى عليه احساس غريب لا تفسير له . وبدأ
لعينيه ان كل قائمة من قوائم الاسماء هذه ذات طابع
خاص بها . حتى الفلاحون فيها كأفراد ، كانوا يبدوون
وكانهم اتسموا بصفات خاصة بهم . فان مدام
كوروبوتشكا مثلاً ، كانت تعلق باسماء معظم اقنانها

القاباً واضافات اخرى . وكانت قائمة بلوشكين تتميز بالدقة في الايضاح بحيث ان بعض الاثنان لا يستدل عليها الا بالاسم الاول واللقب وتقطعين وراهما . وكانت قائمة سوباكيفيتشس مدهشة في اتساعها ودقة تفاصيلها ، بحيث لم تترك ميزة خاصة لى فلاح دون ان تذكرها : كان تقول عن الفلاح الفقيده انه كان «رائعاً في فن التخسيس» او «رزين وشديد الانتباه الى عمله» . وفي قائمة سوباكيفيتشس ايضاً سجلت ملاحظات عن والد الميت ووالدته وكيف كان سلوكهما . فن واحد فقط يدعى فيودوتوف سجل بالقراب منه ما يلبي «الاب مجهول ، الأم الغادم كايبتوليتا . الاخلاق والامانة جيدتان» . هذه التفاصيل القت على الوثيقة روحاً من الجيدة تشعير بان الفلاحين المذكورين كانوا احياء الى الامس فقط . واذا تفحص تشيتشيوكوف القائمة طفت على روحه موجة ناعمة من الحنان فتتهده وقال :

«ايه ايها الاصديقا ! اى جمع منكم هنا ! وكيف قضيتم حياتكم يا اخواني ، وكيف غادرتم هذا العالم ؟ واذا كان يتكلم وقعت عيناه على اسم معين - هو بيتر ساقيليف غير المحترم للطست ، الذى كان في يوم من الايام ملكاً لمدام كوروبوتسكا . فلم يتمالك ان يصيح متعجباً :

«اى سلسلة من الالقاب هذا ! انها تحتل سطرأ كاملاً ! بيتر ساقيليف ، اني لأعجب منك ان كنت حرقياً او فلاحاً عادياً . واني لأعجب ايضاً كيف لقيت حتفك . في حانة ام عندما ذهبت لتنام في قارعة

الطريق فداستك قافلة من عربات الشحن . واني لأرى ايضاً اسم برويكا ستيبان ، نجار ، وقور جداً . يجب ان يكون هذا هو البطل الذى يتعنى الحرس ان يخدم فيه . اني لأراه جيداً وهو يجوب في ضلأ منطقته كلها وحذاؤه فوق كتفيه يعيش طوال يومه على ما يساوى بضعة كوبيكات من الخبز والسكك المجفف ، ثم يعود الى بيته حاملاً في محفظته قطعة من فئة المائة روبل ، اما قطعة الالف روبل فيخيظها في سراويله او يخبئها في حذائه ! على اى شكل وصلت اليك نهايتك يا برويكا ستيبان ؟ اكنت سعياً وراء الرزق تعلقو سقالة عند قبة كنيسة القرية فجربت ان تتسلق على القبة فزلت قدمك عن لوح الخشب فوقعت تهوى الى الارض ، ولم يشهد هذه الكارثة غير العم ميخاي - ذلك العم الطيب الذى حك قفاه وتمتم قائلاً «آه يا فانيا ، لقد كنت ماهراً جداً !» وثم ربط نفسه بحبل وانتقل الى المحل الذى وقعت فيه حالا ؟ . . . ماكسيم تليانتيكوف ، اسكاف . احقاً انت اسكاف ؟ يقول المشل «سكير كاسكاف» . اني لأعرف على اية شاكلة كنت ايها الصديق . واذا شئت انباتك بقصتك كلها . لقد التحقت بسيد الماني اطعمك واطعم ربك على مائدة واحدة ، وضربك بالسوط وسجنتك كلما اتيت خطا ، وتكلم عنك لزوجته واصدقائه بأقوال لا تحسد عليها . واخيراً ، لما انتهت مدة التعاقد بينك وبينه قلت لنفسك «أنتى سانشى» نفسى بنفسى منذ الآن ، ولن

اجمع كوبيكا من هنا وكوبيكا من هناك كما يفعل
الالمانى ، ولكننى ساغتنى بسرعة» .

ومن ثم استأجرت دكانا بأجرة مرتفعة ، واستحضرت
بضاعة كثيرة وشرعت فى العمل - تشتري الجلد
المتعفن الذى تصنع منه زوج احذية ببيع مضاعف .
ولكن زوج الاحذية تفلح فى اسبوعين ، وجر على
رأسك سيلا عارما من اللعنات . وكانت نتيجة ذلك
ان خلا محلكت من الزبائن تدريجيا ، فانطلقت تتجول
فى الطرقات صائحا «ان الدنيا لبائسة حقا ! لا يستطيع
الروسي ان يعيش والالمانى ينافس» . حسنا ،
حسنا . . . اليزابيتا فوروبى ! لكن هذا اسم امرأة !
كيف تسنى لها ان تكون فى القائمة ؟ لا بد ان يكون
النذل سوباكيفيتش قد حشرها خلسة دون علمي . كان
تشيتشيكوف على حق . كانت امرأة بالفعل ولا احد
يعرف كيف جاءت الى هنا . ولكن اسمها قد كتب
ببراعة ، بحيث كان الممكن من بعيد ان تعتبر رجلا .
ومع ذلك فان تشيتشيكوف لم ينظر الى ذلك بعين
الاحترام . فمشطب اسمها .

واستمر يقول «جريجورى روج» ولن تجي» . عجباً !
ما اغرب اسمه ! اى نوع من الرجال كنت ؟ هل كنت
حسلاً فاستطعت ان تعدد عربية ذات مظلة بفرقة من
ثلاثة خيول ، ثم تركت بلدك ومسكنك المتواضع الى
الابد ورحت تشتغل فى نقل بضائع التجار ؟ هل كنت
سائرا على الدرب حين اسلمت روحك الى بارئها ، او
كنت قبل ذلك قد وقعت فى حب زوجة احد الجنود وكانت

فتاة سمينة محمرة الوجه وقتلوك نتيجة ذلك ؟ وهل
استهوت عربتك احد قطاع الطرق لما رأى فرقتهما من
الخيول المخشوشنة الممتلئة الاكفال ؟ ام كنت مضطجعا
على فراشك المتواضع تفكر فى امور الدنيا وتوسعها
تفكيراً حتى رأيت ان من الواجب عليك طوعاً او كرهاً
ان تلجأ الى العانة تخيط فيها خيط عشواء ؟ ايه يا
فلاحنا الروسي ! انك لن ترحب بالموت الطبيعى
أبدأ !

ثم التفت الى الورقة التى سجلت فيها اقدان بلوشكين
الفارين ، واخذ يقول «وانتم يا اصدقائي ! انكم لا
تزالون احياء ، ولكن اية فائدة ترجى منكم ؟ انكم عملياً
ميتون . واني لاعجب اين القت بكم عصا الترحال ؟ هل
كنتم عند بلوشكين تتألمون من شظف العيش فأترتم
الفرار او ان طبيعة اهوانكم قادتكم الى تفضيل التجوال
فى البرارى والقفار وسلب من يعترضكم من
المسافرين ؟ وهل انتم الساعة فى السجن او تحرون
ارض اسياذ آخرين ؟ ايرمي كرايكاين ، نيكيتسا
فولوكيتا ، وانظرون فولوكيتا (ابن السابق) اذا حكمنا
عليكم بالقابكم فسوف تكونون ذوى اصل جوال .
بوبوف خادم فى البيت . من المحتمل ان تكون رجلاً
منقفاً ايها الطيب بوبوف ، فتروح تسرق بادب ولباقة
تتميز عن ذلك النوع الوحشي من السرقة الذى
يصحبه حزم الحلاقين . اني لاتصورك بام عيني ورئيس
شرطة الريف يتعداك لانك لا تحمل جواز سفر فتلقى
كل ما فى جعبتك دفعة واحدة . ويسالك الرئيس من

ورافعا قبضته عليه «أيها السافل ! أيها السافل !
 قيديه بالحديد وخذوه الى السجن» فتجيب «بكل سرور»
 وتخرج عليه السموط من جيبك وتقدم منها للجنديين
 اللذين يصفدانك ، وتروح تسألهما عن الوقت الذي
 سترُحاً فيه من الجيش وفي اي الحروب اشتركا . وتظل
 في السجن حتى ينظر في قضيتك . عندئذ يصدر القضاء
 امره بنقلك من تساريفكو كسابسك الى سجن كيمت
 وكيت . ثم يصدر قضاء آخر اوامر اخرى بنقلك الى
 (فيسيجونسك) او الى محل غيره . وتروح منتقلا من
 سجن الى سجن ، وتقول كل مرة اذ ترى السجن الجديد
 «كان السجن السابق انظف من هذا بكثير ، وكان
 باستطاعة المرء هناك ان يلعب «البابكي» * وان يمد
 رجله وان يرى جمعا من الناس» .

وبعد صمت قليل استمر يقول «أباكوم فيروف ، ما
 شأنك ايها الأخ ؟ اين تلهو الآن وبأى عزم تلهو ؟ هل
 ذهبت الى شواطئ الفولجا فاطبقت عليك حياة الحرية
 فانضمت الى المراكبية ؟»

وهنا امسك تشيتشيكوف فجأة عن الكلام واستغرق
 في تأملاته الصامتة . ما الذي كان يدور في فكره
 آنذاك ؟ هل كان يفكر فيما جرى لأباكوم فيروف أم كان
 يفكر كما يفكر كل روسي اذا ما انصرف ذهنه الى حياة
 التحرر والانعتاق ؟ وبالفعل أين فيروف الآن ؟ انه
 يتنظر مرحا صغابسا في رصيف الجسوب ، يماكس

* لعبة الكماط . المترجم .

سيدك ؟ وقد يضيف الى سؤاله هذا كلمة قاسية
 اخرى . فتقول عارما «الملك الفلاني او الفلاني» ويستمر
 الرئيس سائلا «وماذا تعمل هنا ؟» فيكون جوابك السهل
 السياب ان تقول «لقد اخذت اذنا بالذهاب لاجمع
 ضريبتى» «اذن أين جواز سفرك ؟» - «عند المواطن
 بيمينوف» . - «بيمينوف ؟ لنستدع بيمينوف الى هنا !
 اذن أنت بيمينوف نفسه ؟» «نعم ، أنا بيمينوف
 نفسه» . - «هل اعطاك جواز سفره ؟» - «لا ، لم
 يعطني جواز سفره» . فيصبح الرئيس عاليا «ما هذا ؟
 ما هذا ؟ انك تكذب» . فيكون جوابك المستكلم «لا ، لا
 اكذب ، لم استطلع الليلة الماضية ان اعيد اليه جوازه
 لأننى رجعت الى البيت متأخرا ، وعلى ذلك فقد سلمته
 الى انتيب بروخوروف ، قارع الاجراس ليحفظه له ، -
 «قارع الاجراس ؟ حقا ! هل هو الذى اعطاك جوازا ؟»
 «لا ، لم يعطني أى جواز» وهنا يضيف الرئيس مسبة
 اخرى ، ويقول «ماذا ؟ كيف تجرؤ على الاستمرار في
 الكذب ؟ اين جوازك الشخصى ؟» فتجيب بغضب «لقد
 كان لي جواز ويظهر انه سقط منى في الطريق عندما
 كنت آتيا» ويضيف الرئيس كلاما وقحا ويقول «وما
 قضية معطف الجندي ؟ من أين حصلت عليه ؟ وما
 قولك في خزنة الراهب والنقود النحاسية ؟» فتجيب
 مستكلميا «لا علم لي بهذه الاشياء ، ولم ارتكب في حياتي
 جريمة سرقة ابدأ» - «اذن كيف تفسر وجود المعطف
 عندك ؟» - «لا اعرف ! فمن المحتمل ان يكون قد
 وضعه انسان هناك» . فيصبح الرئيس هازا رأسه

الفرو وانطلق شطر مكاتب البلدية بغية اتمام تسجيل النفوس . ولم يكن اسرعه في الذهاب خوفاً من تأخره ، فهذا امر لا يكثر اليه قتيلاً (لأن رئيس المجلس المحلي صديق حميم ، وباستطاعته كأي موظف كبير آخر ان ينجز الامر بسرعة شديدة او ان يطيل فيه كما يشاء ، كما كان يفعل زيوس الذي جعله هوميروس قادراً على تقصير الليل والنهار أو تطويلهما اذا اصبح من الضروري ان يضع حداً لقتال ابطاله المحبوبين او ان يترك لهم المتسع من الوقت لاكمال المعركة) ، لكنه كان يحسن بان عليه ان ينجز الامر بأسرع ما في الامكان نظراً لأن الامر كان شاقاً مقلقاً من بدايته الى نهايته . وبالإضافة الى ذلك ، لم يستطع ان يتخلص من فكرة يحملها وهي أن نفوسه شيء غير مادي . بناء على ذلك كان يفضل في هذه الظروف ان يزيح هذا العبء عن كاهله دون أي تأخير . وليس معطفه القرفي اللون المخطط كجدل الدب وخرج . ولم يكد يخطو الى الشارع مستغرقاً في التفكير حتى اصطدم بسيد يرتدي معطفاً وقبعة من الفرو لها عذبتان فوق الأذنين . عندئذ صاح الرجل صيحة تعجب . واذا به مانيلوف . طوت الصديقتين ضمة عنيفة وظلاً ملتحمين على هذا الشكل خمس دقائق كاملة . وقد كانت القبلات التي تبادلها في الواقع شديدة جداً حتى انهما ظلّتا يشكران من ألم اسنانهما مدة كبيرة من ذلك اليوم . وبالإضافة الى ذلك ، فقد كان سرور مانيلوف في الأوج حتى لم يعد يظهر من وجهه غير الاثاق والشفقتين ،

التجار . إن جماعة المراكبية كلها ترحم والزهور والاشرطة على رؤوسها تودي معشوقاتا وزوجاتها الطويلات المشقوقات ، يتحلين بالقلائد من قطع النقود والاشرطة ؛ رقصات واغان ، الساحة كلها تمسور بالحياة ، والحمالون في غضون ذلك ، ووسط الصيحات والشتائم والعجلة ، يغرزون خطاطيفهم في حمولة تسعة يودات ويحملونها فوق ظهورهم ، ويدلقون الحصى والقمح بصخب في بطون المراكب العميقة ، او يكومون اكياس الشعير والذرة ، حتى ان اكوام الاكياس تثرى بعيداً في ارجاء الساحة ، مصفوفة في هرم مثل قنابل المدافع ، وترساة الحبوب كلها تبدو هائلة حتى تنقل الى بطون المراكب على نهر سورا ، ويتحرك الاسطول الهائل من المراكب مع اناسه المرجين ! عندئذ سيكون امامكم عمل كبير ، يا مراكبية ! ومثلما كنتم ترحون وتصخبون مجتمعين ، ستشمرون للعمل والعرق ساحبين المراكب على إيقاع اغنية واحدة لا نهاية لها كروسيما نفسها .

ثم نظر الى ساعته وتنهذ وقال «ايه ! لقد بلغت الساعة الآن الثانية عشرة . لماذا نسيت نفسي هكذا ؟ لا يزال عليّ الكثير من العمل وانا منزو هنا مطلقاً لتفكيرى العنان ! أي غبي انا !»

قال ذلك ونهض فابدل زييه الاسكتلندي (الذي يتكوّن من قميص واحد فقط) بزيّ ذي طابع اوروبي . ثم شد الصدر على معدته الممتلئة ورش على نفسه ماء الكولونيا وزمّ اوراقه تحت ذراعه واخذ قبعته ذات

واختفت عيناه اختفاء تاماً . وقضى بعد ذلك ربـع ساعة وهو ممسك بيد تشيتشيوكوف يفرحها بشدة . وأخيراً ، أخذ يبوح لصديقه ، بأفخر التعابير الممكنة وأروعها ، بأنه كان في طريقه الى معانقة بافيـل ايفانوفيتش . وتبع ذلك اطراء من النوع الذي يليق أن تغاظ به سيـدة عندما يدعوها زميل لتشاركه فسي الرقص . وفتح تشيتشيوكوف فمه للاجابة - لكنه شعر (حتى هو) بأنه ضائع لا يدري كيف يجب على ما قيل ، الى ان انقذه مانيلوف بأن اخرج من تحت معطفه رزمة من الورق مربوطة بشريط احمر .

وتساءل تشيتشيوكوف «وما تلك؟»
«قائمة نفوس» .

«ايه !» وفتح تشيتشيوكوف الوثائق ومرّر نظره عليها ، ولم يستطع الا ان يندهش لتلك الاناقـة الرائعة التي كتبت بها .

وقال «ان الخط رائع جداً . ولا حاجة في الواقع الى نسخها . ولها هامش على الاطراف ! من عمل هذا الهامش الرائع؟»

فقال مانيلوف «لا تسألني» .

«هل عملته أنت؟»

«لا ، زوجتي» .

«يا الهي ! يا الهي ! لم اكن اتصور ان ازعجها الى هذا الحد» .

«لا شيء يمكن ان يكون ازعاجاً اذا كان من اجل بافيل ايفانوفيتش» .

فانحني تشيتشيوكوف شكراناً . وبالتالي ، لما علم مانيلوف أنه كان في طريقه الى دوائر البلدية لانجاز عملية النقل ابدى استعداده لمرافقته . فاشيتشيك الاثنان ذراعاً بذراع وانطلقا . وكان مانيلوف اثناء سيرهما اذا ما قابلا تترءا طفيفا من الارض - حتى اقل ترسج او اختلاف في المستوى - يسند تشيتشيوكوف بقرة تكاد ترفعه من قدميه ، ويرفق جميل صنعه هذا بابتسامة مضمونها انه لو لا مساعدته لكان وقوع بافيل ايفانوفيتش او انزلاقه امرأ حتمياً . ومع ذلك فقد بدا هذا السلوك يعرج تشيتشيوكوف إما لأنه لم يجسد الكلمات المناسبة لاعترافه بالجميل او لأنه وجد هذا التصرف امرأ متعباً . ولهذا احس بالراحة اذا اطل على ساحة مكاتب البلدية - حيث تقوم بناية مؤلفه من ثلاثة طوابق بيضاء كالطباشير ، قد ترمز بذلك الى طهر النفوس التي تقيم فيها . ولم يكن في الساحة اية بناية اخرى تضاهيها حجماً ، لأن المباني الاخرى كانت تتكون فقط من مظلة للحارس وماوى لسائق او سائقين ولوحة طويلة للاعلانات تزيناها النشرات المألوفة والبيانات وتنبجات اخرى بالطباشير والفحم . ولم يكن ثمة من شيء آخر في هذه الساحة المعزولة او الجميلة ، كما توصف عندنا . ومن نوافذ الطابقين الثاني والثالث كانت تطل بين الفينة والاخرى رؤوس كهنة تيميس * . النزيهة - تطل بسرعة وتنسحب بالسرعة

* تيميس (او طاميس) الهة العدل والقسطاس . المهرمج .

نفسها ، وقد يكون سبب ذلك أن موظفاً كبيراً دخل
الغرفة آنذاك . وكان الصديقان في هذه الآونة يصعدان
السلم ، لا بل يكادان يطيران ، لأن تشيستشيكوف كان
يسرع الخطى لكي يتخلص من ذراع مانيلوف التي
تسنده أبداً ، ومانيلوف يتدفع الى الامام حتى يقسي
صاحبه أي زلّة قد تزلّتها قدماه وعلى هذا ، ما كادا
يصلان اول دهليز حتى كادت تنقطع منهما الانفاس .
ويمكن ان نذكر - عابرين - ان لا الدهليز ولا الغرف
ابدت من النظافة والنقاء ما ابداه ظاهسر العمارة ، لأن
سجاييا كهذه لا تسترعي الاهتمام في الداخل وكلّ ما
كان متسخاً ظل على ما كان عليه ، ولم يكن يتخذ مظهر
الاحترام . كان كما لو ان تيميس تستقبل زائريها
باهمال وهي ترتدى رداء البيت . وكان بودّ المؤلف ان
يصف المكاتب المختلفة التي مر بها بطلنا لو لم يكن
يخشى (أي المؤلف) الملاحظات القانونية . وحتى اذا
صادف وان وجدها في الملح واحشم مظهر ، بارضيات
ومناشد مصقولة ، فقد كان يحاول ان يمر بها بأسرع
ما يمكن ، غاضباً ومخفصاً بصره الى الأرض بوداعة ،
ولهذا السبب لا يعرف كلياً كيف اتخذت هذا المظهر
اللامع الزاهر . إن ابطالنا راوا العديد من الاوراق
مكتوبة وبيضاء ، والرؤوس المخبئة على المناشد ،
والاقفية العريضة ، وستر الفراك ، والجاكتات من النمط
الاقليمي ، وحتى جاكته بسيطة رمادية فاتحة كانت
العين تلتقطها بوضوح شديد ، وقد مالت الرأس الى
جانب ، وكادت تمس الورق ، وهي تستنسخ بنشاط

وطريقة تلفت النظر محضراً عن اراض منزوعة الملكية
او جرد ضيعة استولى عليها ملاك وديع ليقضي فيها بقية
حياته بهدوء ، وبينما تكون القضية معروضة فسي
المحاكم ، يكون هو قد خلف الاولاد والاحفاد اثناء
المحاكمة . ومن حين لآخر كانت تسمع عبارات مقتضبة
منقطعة يطلقها صوت اجس «لو تتكرم ، وتعطيني
الاضياره رقم ٣٦٨ ، يا فيدوسي فيدوسيفيتش» -
«دائماً انت تحشر غطاء قارورة حبر الدائرة في مكان
ما !» واحياناً يصدر صوت اكثر مهابة ، هو ، بدون
ريب ، صوت احد الرؤساء ، قائلاً «بلهجة أمره هالك .
استنسخ . وإلا جعلتك تخلع جزمتك وابقيتك هنا
سنة أيام بلا طعام» . كان صريف الريش عالياً ، وكان
عدة عربات محملة بالاغصان المقطوعة تمر في غابة
تراكتت على ارضها اوراق الشجر اليابسة بعمق ذراع .
واقترب تشيستشيكوف ومانيلوف من اول مكتب
صادفه ورأى موظفين شابيين كانا يجلسان خلفه ،
وطلبا اليهما ان يتلطفا فيدلاً ، اين تتم عملية نقل
الاقنان .

فالتقتا اليهما الشابان الموظفان وقالوا «ما هو نوع
العمل الذي تريد ، بالضبط ؟»
«اريد ان اقدم طلباً» .
«بخصوص الشراء ؟»

«لكني اريد ان اعرف قبل كل شيء المكتب المختص
بنقل الاقنان . هل هو هنا او في محل آخر ؟»
«يجب ان تخبرنا أولاً عن الشيء الذي اشتريته ،

وعن سرعه ، وعندئذ يسرنا ان نعطيك ما تبغى من معلومات .

وأدرك تشيتشيوكوف ان ما دفع الموظفين الى ذلك كان مجرد الفضول كما يحصل دائما مع صغار الموظفين الذين يريدون ان يظهروا بشخصية أكبر أهمية وأكثر وقعا مما هم عليه .

فقال «اسمعا يا سيدى» . اننى اعرف ان نقل الاقناتن مهما اختلفت قيمتها تجرى فى مكتب واحد . وبناء على ذلك اطلب اليكما ان تدلاني على ذلك المكتب . واذا لم تعرفا عملكما فاني ساسال غيركما بكل سهولة طبعا» . ولم يجب الموظفان على هذا بأكثر من اشارة الى احدى زوايا الغرفة حيث كان رجل عجوز مشغولا فى تصنيف بعض الاوراق ، فانسلب تشيتشيوكوف ومانيلوف من بين المكاتب اليه . وازداد العجوز عندئذ انشغالا .

فسأله تشيتشيوكوف منحنيا «هل تتفضل فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الاقناتن؟»
فرفع العجوز عينيه وقال بخشونة «لا ليس هذا مكتب شؤون الاقناتن» .

«أين هو إذن؟»

«فى دائرة الاقناتن» .

«وأين تكون دائرة الاقناتن هذه؟»

«فى عهدة ايفان أنطونوفيتش» .

«وأين ايفان أنطونوفيتش؟»

فأشار الرجل العجوز الى زاوية من زوايا القاعة ، واليها وجهه مانيلوف وتشيتشيوكوف الخلى . واذ تقدما

الى ايفان أنطونوفيتش التفت الى الورا . ثم نظر اليهما متسائلا ثم عاود الكتابة بحمة متجددة .

وسأله تشيتشيوكوف منحنيا «هل تسمح فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختص بشؤون الاقناتن؟» بدا وكان ايفان أنطونوفيتش لم يسمع شيئا ولهذا دفن رأسه كلية بين اوراقه ولم يجر جوابا . وقد اتضح لهما من مظهره فوراً انه كان على الاقل فى سن الواسار وليس من اؤلئك الثرثارين الفارغين الطائشين . ومع ان سرعه كان اسود كثيرا الا انه قد تخطى الاربعين منذ امد بعيد . كان كل وجهه منحرفا باتجاه انفه ، الى ما يشبه عادة بالجرة .

وكرر تشيتشيوكوف كلامه قائلا «هل تسمح فتخبرني اذا كان هذا هو المكتب المختص بالاقناتن؟»

فقال ايفان أنطونوفيتش «هذا هو» . واحنى رأسه الذى يشبه الجرة مرة اخرى ، وعاود الكتابة .

«اذن أريد ان اجرى معاملة ، فقد اشترت من ملاكين مختلفين فى هذه المقاطعة عدداً من الفلاحين وأريد ان انقلهم الى اسمى . هذه لائحة المشتريات ولا تحتاج الا الى التسجيل» .

«هل البائعون ممكن هنا؟»

«بعضهم ممي ، ومعنى توكيل من الباقين» .

«وهل لديك نص الطلب؟»

«نعم ، انما أريد ان اسرع فى اجراء المعاملة ، لأمر ضرورى» . لم يهل يسكن انجازها كلها خلال هذا اليوم؟
«اليوم ؟ لا يا عزيزى ! قبل اجراء ذلك يجب ان تقدم

لي ما يثبت أن لا اعتراضات على هذه المعاملة» .
«اذن ، عليّ أن أخبرك أن إيفان جريجوريفيتش
صديق حميم لي ، فأرجو السرعة» .

فقال إيفان أنطونوفيتش دون حماس «من المحتمل ،
ولكن إيفان جريجوريفيتش ليس وحده مسؤولاً ، فهناك
آخرون أيضاً» .

«نعم ، ولكن الآخرين لن يشعروا بالظلم . لقد
كنت تقسي في الخدمة وأعرف كيف تسيير الأمور» .

فأجاب إيفان أنطونوفيتش بلهجة أكثر لطفاً «من
الأفضل أن تنهب وتقابل إيفان جريجوريفيتش . دعه
يعطى أمراً لمن يهمه الأمر فباستطاعتنا أن ننجز
المهمة» .

عندئذ سحب تشيتشيكوف من جيبه ورقة نقدية
والقاهها أمام إيفان أنطونوفيتش ، فرغ الأخير كتاباً
بسرعة ووضعه فوقها . وحاول تشيتشيكوف أن يريها
له مرة ثانية ولكن إيفان أنطونوفيتش هز رأسه دلالة
على أن هذا غير ضروري .

وأضاف قائلاً «سيوصلك أحد الموظفين إلى غرفة
إيفان جريجوريفيتش» .

عندئذ تقدم منهم أحد الكادحين في خلع تيميس -
متعصب ، قدم لها تضحيات من صميم الفؤاد جعلت
معطفه ينشقّ عند كوعيه وتنتشر بطانته - وأوصل
صديقنا (كما أوصل فرجيل دانتى ذات مرة) إلى ديوان
الحضرة الربانية . في هذا المكان المقدس انتصب
بضعة كراسي من ذوات المتكأ ومنضدة عليها كتابان

سميكان ومراة كبيرة . وأخيراً كان الرئيس يجلس إلى
المنضدة كالشمس في وحدانيتها ، على ما تدل عليه
الظواهر . وما وصل فرجيلنا الجديد إلى باب الغرفة حتى
بدا كان الرعب استحوذ عليه ، فقفّل راجعاً دون أن
يجرؤ على ادخال قدمه داخل الباب ، وبعمله هذا عرض
ظهوراً لامعاً كالصير علقته به ريشة طير في إحدى
نواحيه . وحالما دخل الصديقان إلى الحضرة الربانية
أدركا أن الرئيس لم يكن وحيداً بل كان يجلس إلى
جواره سوباكيفيتش الذي اختبأ هيكله حتى تلك
الساعة وراء المرأة المعترضة . أما دخولهما فقد أثار
عاصفة من صيحات مختلفة وتسبب في اندفاع كرسيين
من كراسي الحكومة إلى الورا ، بينما كان سوباكيفيتش
ذو الوردان المعببة يقف بارزاً خلف المرأة . وتناول
الرئيس تشيتشيكوف بالعناق ، ودوت الحضرة العلوية
برهة من الزمن برنين القبلات وأخذاً يتبادلان الاسئلة
عن صحة بعضهما البعض . وقد تبين أن الاثنین كانا
يعانيان من تلك المسمة من الالم التي تصيب الانسان
في أسفل الخصر والتي تسببها حياة الخمول . وقد تبين
أيضاً أن الحديث بين الرئيس وسوباكيفيتش كان
حول بيع النفوس إذ تقدم الآن يهنئ تشيتشيكوف على
ذلك - وهو أمر كان محرجاً لبطلنا أحراباً شديداً لأن
اثنين من البائعين مانيلوف وسوباكيفيتش ، ساوم كل
واحد منهما في منتهى الكتمان ، كانا يقفان الآن أمام
بعضهما وجهاً لوجه . ومهما يكن من أمر ، فقد شكر

تشييتشيكوف الرئيس شكرياً جميلاً ثم التفت الى
سوباكيفيتش وسأله عن صحته .

فاجاب سوباكيفيتش «الحمد لله ، لست اشكو من
شيء» . وقد اصاب كيد الحقيقة بقوله هذا ، لان قطعة
من الحديد قد تصاب بالبرد والعتاس قبل ان يصاب
هذا الانسان الجلف .

وتدمل الرئيس قائلا «كان لك دائماً صحة جيدة ،
ليس كذلك ؟ ووالدك المرحوم كان في قوتك ايضاً» .
فاجاب سوباكيفيتش «نعم ، حتى انه كان يخرج
لصيد الدببة وحيداً» .

فاستأنف الحاكم يقول «اطن انك تقهر الدب ان
خضت معه نزالاً؟»

فقال سوباكيفيتش «اوه ، لا ، فقد كان والدي اقوى
منى - وهنا تنهد ثم اكمل يقول - لكن هذه الايام خلو
من امثاله من الرجال . حتى حياة كهياتي ، ما قيمتها؟»
فصاح الرئيس «اذن انت غير راض عنها؟»

فاستأنف سوباكيفيتش هازئاً رأسه يقول «لا ،
فالراحة بعيدة عنى . ولك ان تحكم بنفسك على ذلك يا

ايفان جريجوريفتش . انا الآن في الخمسين من عمري ،
ولم اصب في حياتي بمرض قط حتى ولا بدمل او بثره

عرضيين . وهذه علامة غير محمودة ، اذ يجب ان ادفع
الحساب على ذلك ان عاجلاً او آجلاً» وطغت عليه

مسحة من الكتابة .

اما الرئيس وتشيتشيكوف فقد راحا يقولان فسي

نفسيهما «استمعوا لهذا المخلوق ! من اى شيء يشكو
في حياته !»

ثم صاح تشيتشيكوف قائلاً «ان لك معي كتاباً يا
ايفان جريجوريفيتش» . واخرج من جيبه رسالة
بلوشكين .

وتساءل الرئيس صائحاً وهو يفض ختم الرسالة
«من ؟ ايه انها من بلوشكين ! انه لا يزال حياً ! اى
عالم غريب هذا ، لقد كان انساناً لطيفاً ، موسراً
والآن . . .»

فاكمل سوباكيفيتش قائلا «الآن هو انسان خسيس ،
بخيل يجعب اقاتانه حتى الموت» .

فقال الرئيس «اسمعوا لي لحظة» وقرأ الكتاب . ولما
اكمله راح يقول «نعم ، انا على استعداد تام لكي اكون
وكيل بلوشكين . متى تريد ان تسجل عقد البيع يا
سيدي تشيتشيكوف ؟ الآن او فيما بعد؟»

فاجاب تشيتشيكوف «الآن اذا سمحت . واني لأرجوك
في الواقع انجاز المعاملة اليوم اذا كان ذلك فسي
الامكان ، لاني ساترك المدينة غداً . وقد احضرت معي
نماذج العقود ونص الطلب» .

«حسن جداً ، الاّ اننا مع هذا لن نترك تغادرنا
بهذه السرعة . ستكمل العقود اليوم ، انما يجب عليك ان
تمدّد اقامتك عندنا . ساصدر الاوامر الضرورية
الآن» .

قال ذلك وفتح باب المكتب العام حيث ظهر الكتبة

كانهم اسراب النحل حول قرص من عسل (اذا صح لي ان اشبه اعمال الحكومة بهذه المادة) .

وسأل الرئيس «هل ايفان انطونوفيتش هنا؟»
فاجاب صوت من الداخل «نعم» .

«اذن ارسله إلي» .

وعلى ذلك ظهر في المر ايفان انطونوفيتش ذو الوجه الجرس ، وانحنى .

فقال الرئيس «خذ هذه العقود يا ايفان انطونوفيتش ، وليكن لديك علم بان . . .» فقاطعه سوباكيفيتش يقول «ارجوكم ان تذكروا اولاً ان الشهود يجب ان يكونوا حاضرين ، لا اقل من شاهدين عن كل فريق . ولترسل اولاً الى المدعي العام الذى ليس لديه ما يعمل الا القليل ، حتى هذا القليل يقوم به رئيس كتبته زولوتوخا وهو اكبر مرتش في العالم . ومفتش دائرة الصحة ايضاً رجل خال من الاعمال ، ومن المحتمل ان يكون في البيت ان لم يكن قد ذهب الى حفلة للعب الورق . وهناك كثير من الرجال الذين يتقلون الارض عيماً ومنهم تروخاتشيفسكي وباغوشكين» .

فقال الرئيس موافقاً «تماماً كذلك ، تماماً كذلك» وسرعان ما ارسل كاتباً يستدعي الاشخاص المذكورين . وطلب تشيتشيكوف قائلاً «يسرني لو ارسلت في طلب ممثل مفوض عن ملاكة لي معها معاملة ، وهو ابن الاب كيريل وهو موظف في مكاتبكم» .

فاجاب الرئيس «سندعوه بكل تأكيد ، سنعمل كل شيء حسب رغبتك . انما امنعك ان تقدم اى منحة

لموظفينا . هذا طلب خاص اطلبه منك . فليس ممن اسدقاني من يدفع درهماً واحداً» .

وبهذا اعطى ايفان انطونوفيتش التعليمات الضرورية . ومع ان هذه التعليمات لم تكد تحوز تأييد هذا الموظف ، الا ان الوثائق اثرت في الرئيس كثيراً على ما يظهر وزاد ذلك لما رأى المجموع الكلي يقارب المائة الف روبل . فحدق في عيني تشيتشيكوف لحظة او لحظتين وعلى وجهه امارات الرضى العميق ، ثم قال «احسنت يا بافيل ايفانوفيتش ! انها صفقة رائعة حقاً!» فاجاب تشيتشيكوف «انها كذلك» .

«عمل عظيم ، اجل ، عمل عظيم!»

«اننى ادرك في الحقيقة ان لم يكن في قدرتي ان اعمل عملاً احسن منه . ان اهداف المرء من حياته لا تصبح واضحة المعالم والحدود حتى يشيد هيكل حياته تلك على اسس متينة بدلا من اوهام الشباب العابرة» .

وانطلق تشيتشيكوف من هذه البداية يلقي التهم الضافية على الشباب الحديث وليبير اليتيم . الا ان نوعاً من فقدان الثقة كان يكمن وراء كلماته . كان يبدو وكان نفسه تقول له «يا سيدى الغاضل ، انك تتكلم هراء محضاً ولا شيء غير الهراء» . حتى انه لم يجرؤ على النظر الى مانيلوف وسوباكيفيتش . فكانه غير متأكد مما سيراه في ملامحهما . وما كان عليه فسي الحقيقة ان يخشى شيئاً . فوجه سوباكيفيتش لسم تتحرك فيه عضلة واحدة ، اما مانيلوف فكان تحت تأثير فصاحة تشيتشيكوف بحيث لم يكن يستطيع ان يفعل

شينا الا ان يهز براسه مطاطنا بين اللحظة والاخرى
تايداً له - مَثَلَه في ذلك مَثَلُ عشاق الموسيقى وهم
يستمعون الى مغنية يصحب صوتها كمان وينافسه ،
حين تصدر نغماً فيه من الحدة ما يفوق طاقة طائر
السمان المغربي .

وسال سوباكيفيتش تشيتشيكوف «ولكن لماذا لا
تخبر ايفان جريجوريفيتش عما اشترت بالضبط ؟
ولماذا يا ايفان جريجوريفيتش لم تسال تشيتشيكوف
بالضبط مم تتكون مشترياته ؟ اى جمع عظيم من
الاقنان ، بالتأكيد . انا نفسي قد بعته صانع العجلات
ميخيف» .

فصاح الرئيس «ماذا ؟ بعته ميخيف ؟ اني اعرفه
جيداً . انه رجل رائع ، وقد عمل لي في فترة من
الفترة دروزكي * . لكن . . . لكن . . . اجل ، الم
تخبرني مؤخراً انه مات ؟»

فردد سوباكيفيتش وهو يضحك «ميخيف مات ؟ ايه ،
لا يا عزيزي . كان ذلك اخوه . اما ميخيف نفسه فهو
حي . جداً حتى ان صحته احسن مما كانت عليه . ومنذ
عدة ايام صنع عربة لا يمكن صنعها حتى في موسكو .
على اية حال ، جديسر بان يتفرغ للعمل عند القيصر
وحده» .

فقال الرئيس «انه صانع ماهر حقاً . الا ان الذى
استغرب منه هو كيف استطعت التخلي عنه» .

* نوع منخفض من العربات ذو اربعة عجلات . المترجم .

«هل تظن ان ميخيف هو القن الوحيد الذى تخلت
عنه ؟ لقد تخلت أيضاً عن بروبكا ستيبان النجار ،
وميلوشكين البناء وتلياتنيكوف الحذاء . نعم لقد بع
كل هؤلاء» .

ولما ساله الرئيس ليم فعل ذلك مع ان هؤلاء القوم
كلهم من العمال الماهرين الذين لا غنى عنهم ، اجاب
سوباكيفيتش بان ذلك كان مجرد نزوة طغت عليه
جعلته يفعل ما فعل ، وهكذا فان اصل هذا التصرف كله
هو نكرة من نكرات الجنون . ثم رفع راسه فعل النادم
على هذا العمل التهورى ، وقال .

«مع ان الشيب وخط راسي الا اننى لم اتعلم الحكمة
بعده» .

ثم تسال الرئيس «ولكن كيف حدث يا بافيل
ايفانوفيتش ان تشتري الاقنان دون الارض ؟ هل
تنوى ان تنقلهم الى مكان آخر ؟»

«نعم» .

«حسن جداً . اذن هذه مسألة اخرى . الى اية جهة ؟
الى مقاطعة خارسون» .

«حقاً ؟ ان هذه المنطقة كلها اراض رائعة» واخذ
يسهب في وصف مراعي خارسون .

ثم سأل يقول «وهل لك ارض كبيرة هناك ؟»

«نعم ، تكفي للاقنان الذين اشترت ،»

«وهل هناك نهر أو بحيرة في تلك الولاية ؟»

«كلاهما» .

وبعد هذه الاجابة القى تشيتشيكوف نظرة لا ارادية

على سوباكفيتش . ومع ان وجه هذا الانسان كان جامداً كعادته ابدأ ، الا ان تسميتشيكوف قرأ في وجهه انه يقول «ايها الكذاب ! تقول ان لك نهرا وبحيرة ، وارصاً ايضاً» .

كان الشهود في تلك الاثناء يتوافدون الواحد بعد الآخر . فوصل المدعي العام ، الذي يغمز ابدأ ، ومفتش دائرة الصحة ، وتروخاتنيسكي وباغوشكين وآخرون - وكلّ منهم على حدّ تعبير سوباكفيتش من الذين يتقلون على الارض عيباً . ومهما يكن من امر فقد كان تسميتشيكوف يجهل بعضهم جهلاً تاماً لا سيما وقد كانت المعاملة تستدعي ادخال وكلاء ، واشخاص آخرين لإكمال العدد المقرر ، وهذا ما فعلوه بادخال الموظفين الثانويين . وتلبية للدعوة لم يصل ابن الاب كيريل وحسب بل وصل الاب كيريل نفسه . وازضاف كل واحد من هؤلاء الشهود الى امضائه سلسلة من المميزات والمؤهلات . اضافها احدهم باحرف مطبعية وآخر بالاحرف الدارجة وآخر بخط مقلوب رأساً على عقب لم يعهد مثله من قبل في الابدوية الروسية . وكان صاحبنا ايفان انطونوفيتش اثناء ذلك يستعمل ما يليق من عبارات المخاطبة . وبعد ان امضيت العقود وحفظت وسجلت دعي تسميتشيكوف الى دفع مبلغ تافه جداً ، وهو النسبة المئوية التي تتقاضاها الحكومة واجرة اعلان الصفقة في الحريدة الرسمية . وكان السبب في ذلك ان الرئيس قد أمر ان تؤخذ نصف الرسوم فقط من المشتري الحالي ، وسجل النصف الآخر بشكل من

الاشكال في حساب انسان آخر من طالبي تسجيل الاقنان .

وبعد ان اكمل كل شيء ، قال ايفان جريجوريفيتش «والآن لم يبق علينا الا الحلو» .

فاجاب تسميتشيكوف «وانا على استعداد لهذا ايضاً ، وما عليكم الا ان تعينوا الساعة . وساكون ضنيناً حقاً ان لم ادع اغلبية زجاجات السمانيا تتطاير في الهواء لقاء رفقتمكم الطيبة» .

«ولكننا لن نتركك تغرم شيئاً ، مهما كان ذلك الشيء . فعلينا احضار السمانيا لانك ضيفنا ، وعلينا نحن ان نكرمك - انه واجبنا ، انه الفرض الواجب علينا . اصغوا الي ايها السادة - هيّا بنا الى بيت رئيس الشرطة ، فهو الساحر الذي ما عليه الا ان يغمز بانع السمك او تاجر الخمر اثناء سيره ، ولن نتمتع بطيب الاكل في بيته وحسب ، بل سنلعب الوست ايضاً» .

ولم يثر هذا الاقتراح اي اعتراض ، لان ذكر السمك فتح شهية الحضور . وبناء على ذلك ، ما كادوا يسمعون به حتى حدث هجوم على القلائس والقبعات . واذ كانت الزمرة تمر من قاعة المكاتب العامة همس ايفان انطونوفيتش في اذن تسميتشيكوف بانحناء لطيفة من وجهه الشبيه بالجرة قائلا «لقد دفعت مئة الف روبل للاقنان ، ولكنك لم تدفع لي مقابل تعبي الا شيئاً زهيداً جداً» .

فاجابه تسميتشيكوف بهمسة مماثلة «نعم ، ولكن ايّ

نوع من الاقناتن تظنهم ؟ انهم طائفة ضعفاء لا نفع فيهم ،
ولا يساؤون حتى نصف هذه القيمة» .

وفهم ايفان أنطونوفيتش من هذا ان الرجل ذو
شخصية قوية - رجل لا ينتظر منه ان يدفع أكثر مما
فعل .

وهمس سوباكيفيتش في اذن تشيشميكوف «وبأي
ثمن اشتريت انفسا من بلوشكين ؟»

فتمتم تشيشميكوف قائلاً «ولماذا اضفت المرأة
فوروبى الى قائمتك ؟»

«فوروبى ؟ من فوروبى هذه ؟»

«المرأة اليزابيت فوروبى - اليزابيت وليس
اليزابيتا» .

«لم اضف اسماً كهذا» . وانضم سوباكيفيتش الى
الضيوف الآخرين .

ووصلت الزمرة أخيراً الى بيت رئيس الشرطة .
واثبت الاخير أنه رجل ساحر حقاً ، اذ لم يكده علم

بحقيقة الامر حتى دعا شرطياً شاباً نشيطاً وهمس في
اذنه بشيء ما ، ثم اضاف بصوت عال يقول «لقد

فهمت ، اليس كذلك ؟» ثم رتب الامر بحيث جلس
الضيوف في غرفة جانبية يلعبون الورست ، بينما راحت

مائدة الطعام تزخر بسمك الحفش والكافيار والسالمون
والزجر والجبن واللسان المدخن والبطسرخ الطازج

والمعلّب - كلها قد احضرت من السوق المحلية واهضت
اليها اصناف من بيت المضيف نفسه من اطباق مطبخة

فطيرة محشوة بالفشاريف ، ووجبات سمكة سلمون

ضخمة ، وفطيرة أخرى محشوة بالفطر وضمائر . كان
رئيس الشرطة المحترم في الحقيقة ، في مركزه ذلك

كانه اب لأهل المدينة او ولي نعمتهم ، فكان يسير
بين المواطنين كما يسير المرء بين اهله وذويهم

ويحدّق في الاسواق والحوانيت كان هذه مستودعات
خاصة له . وقد كان يقوم بواجباته على ما يرام حتى

يتعذر علينا ان نقول فيما اذا كان هو الذي يصلح
لمنصبه ذلك او ان منصبه هو الذي يصلح له . وقد

استطاع ان يسوّى اموره تسوية مرضية بحيث لم
يفقد مرة حب مواطنيه مع ان دخله قد اربى على ضعفي

دخل سابقه . وقد احبه التجار على الاخص حبا جماً ،
لانه لم يتعال عن ان يكون لهم كما يكون الاب لاطفاله

ولم يتكبر ان ياكل الطعام على موائدهم . وكانت له
في الحقيقة خلافات في الراى معهم - وخلافات خطيرة في

هذا الخصوص . لكنه كان دائماً يمدّها بان يخبط
المستاء منهم على كتفه ويشرب معه قحداً من الشاي

ويعدّه بزيارة في بيته ولعب الشطرنج معه . وكان
يسال عن شؤون التاجر الخاصة واذا علم ان له ابناً

مریضاً وصف له العلاج اللازم . بالاختصار ، كان يتمتع
بسمة طيبة جداً . وحين يستقل عربته ، ليتفقد

الامور ، لا يفوته في الوقت ذاته ان يلقي جملة لهذا
او لذلك «طيب ، يا ميخيتش ! لا بد ان نتم دورة

لعبتنا في وقت ما» . فيرد هذا خالماً قبعته : «صحيح ،
يا الكسي ايفانوفيتش ، لا بد» . - «طيب ، يا أخ ايفان

بارامونيتش ، زرني واتق نظرة على حصاني المبتاق .

انا واثق انه سيسبق حصانك ، ولا تنس ايضا ان تعد
 حصانك للسباق . لنجرب . . فيستدر ذلك من هذا
 التاجر المفتون بالخيسول العداة ابتسامه مخصوصة ،
 ويقول برحابة صدر ، كما يقال ، ممسداً لحيته
 «لنجرب ، يا الكسي ايفانوفيتش !» وحتى الباعة في
 الحوانيت الذين كانوا يقفون عادة في مثل هذا الوقت
 وقبعاتهم بأيديهم فقد كانوا جميعاً يتبادلون النظرات
 فيما بينهم بارتياح ، ولسان حالهم يقول «الكسي
 ايفانوفيتش رجل معتبر !» وباختصار استطاع ان يحظى
 بشعبية تامة ، وكان رأى التجار ان الكسي ايفانوفيتش
 «صلى رغم حبه للرشوة ، لن يشي بك ابداً» .

وما ان رأى رب البيت ان المائدة مهيأة حتى اقترح
 على ضيوفه ان يؤجلوا لعبة الوست الى ما بعد الغداء ،
 ودعوا كلهم الى غرفة الطعام حيث كانت منذ زمن غير
 قليل تنبعت منها الى غياشيمهم رائحة شهية وحيث كان
 سوباكيفيتش بالذات يوجه نظاره الى سمكة حفش
 ضخمة موضوعة على الخوان . وبعد ان تناول كل فرد
 منهم كأساً من الفودكا الزيتية اللون - فودكا ذات لون
 لا يرى الا في ذلك النوع من احجار سيبيريا الذي
 تصنع منه الاختام - انكب القوم على الاشواك
 والسكاكين ، وبعملهم هذا تجلت ميزاتهم واذواقهم
 المختلفة . فقد استنكف سوباكيفيتش مثلاً عن الزهيد
 التافه من الطعام وتوجه الى سمكة الحفش الكبيرة .
 وبينما كان زملاؤه الضيوف ياكلون خفيف الطعام
 ويشربون ويتحدثون تمكن من ان يلتهم معظم

السمكة . حتى ان رب البيت لما تذكر هذا المخلوقة
 وتوجه اليها وهو يحمل الشوكة في يده قائلا «ما رايمك
 ايها السادة في انتاج الطبيعة العجيب هذا ؟» تبين له
 ان انتاج الطبيعة العجيب لم يبق منه الا ما يزيد قليلاً
 عن الذنب . هذا بينما كان سوباكيفيتش - واقل ما
 يدل عليه مظهره انه لم ياكلها - كان معنياً بغرز
 شوخته في سمكة اخرى اقل من سابقتها حجماً ، كانت
 ملقاة في طبق قريب . وبعد ان هجر السمك لم ياكل
 ولم يشرب شيئاً آخر بل جلس على كرسيه ذى المتكأ
 متجهماً رامشاً .

وما كان رب البيت بالبخيل بالخمر ، لأن الانتخاب
 التي شربت كانت لا تحصى . جُرع اولها (كما قد
 يتصور القارىء) نخب مالك خارسون الجديد ، وثانيهما
 نخب توفيقه في فلاحيه وتقلهم بسلام ، وثالثهما نخب
 جمال زوجته المقبلة - تحية جعلت شفطي بلطنا ترقان
 ابتساماً . واخيراً وجه اليه الجمع دعوة حارة اجماعية
 بان يمدد اقامته في المدينة اسبوعين آخرين على الاقل
 وان يسمح في الوقت نفسه بالتفتيش عن زوجة له .
 - لا ، يا بافيل ايفانوفيتش ! لك ان تقول ما تشاء ،
 ولكن هذا بمثابة تبريد الجو . تصل الى العتبة ، ثم تعود
 من حيث اتيت ! يجب ان تمضي بعض الوقت معنا !
 وسنزوجك ، اليس كذلك ، يا ايفان غريغوريفتش ،
 زوجته ؟

فوافق الرئيس قائلا «تماماً كذلك . اننا مصممون
 على زواجك حتى لو قاتلنانا بالباع والذراع . لقد اوقمك

الحظ بيننا ولن تندم على ذلك ، واننا في الامر لجادون» .

فقال تشيتشييكوف باسماً «لكن لماذا اقاتلكم بالباع والذراع ؟ ان الزواج لا يأتي عرضاً . لو كانت لسي خطيبة فقط . . .»

«اذن ستكون لك خطيبة . لم لا ؟ اننا سنعمل حسب رغبتك» .

فوافق تشيتشييكوف قائلا «حسن جداً» .

فصاحت الجماعة «لله درك ! لله درك ! يعيش بافيل ايفانوفيتش . مرحى ! مرحى ! وبهذا ادنى كل واحد منهم كأسه الى كأسه ، وكان قرع الكؤوس ، واخذ هو يتلقى التحيات ، يتلقاها مرارا عديدة على التوالي . وكان مرح الجماعة في الواقع يزداد بمرور الوقت ، حتى ان الرئيس (وهو رجل شديد اللطف حين تسيطر عليه كأسه) عانق ضيف الساعة بالكلمات العاطفية التالية «يا اعز انسان ! يا اغلى صديق لى ! لا ، بل راح يرقص حول الكرسي الذى جلس عليه الضيف ويفرقع باصابعه ويفني مقاطع من اغنية شعبية . وتبع الشيمانيا نبيذ هنفارى زاد في حيوية الجماعة والتهاب عواطفهم . عندئذ كان كل منهم قد نسي لعبة الوست واستسلم للصياح والجدل . ولقد بحثوا كل المواضيع التى تقبل البحث بما في ذلك الشؤون السياسية والحربية . وقد ابدى الضيوف بهذا الخصوص آراء ، ركيكة تافهة لو سمعوها من ابنائهم في غير هذا الوقت لصفعوهم عليها صفعاً شديداً . وحلوا

العديد من القضايا المعقدة . وقد احس تشيتشييكوف كالبقية بمرح ليس له به عهد من قبل ، فتوهم انه صاحب خارسون بحق ، وراح يتكلم عن اصلاحات زراعية مختلفة وعن النظام الثلاثي لاستغلال الارض ، وعن الغبطة والسعادة في التلاف روحين متشابهين . وراح يروى شعراً لسوباكيفيتش الذى كان يرمى وهو يستمع لان به رغبة شديدة للنوم . واخيراً ، ادرك ضيف الساعة ان الامور قد وصلت حدّها فطلب ايصاله الى مقره ، وهيئت عربة المدعى العام من نوع دروزكي لهذا الغرض . وكان سائق العربة لحسن الحظ رجلاً خبيراً في عمله ، اذ استطاع ان يمسك الاعنة بيد واحدة وان يستند الى الخلف ويمسك تشيتشييكوف باليد الاخرى امساکة تقيه من الخوف . واستمر بطلنا يثرثر حول فتاة ذات شعر اشقر وشفتين ورديتين وغماسة على خدّها الايمن وعن راس ماله وقراه فسي خارسون الى ان دخل المنزل . وليس ذلك فقط ، بل اصدر اوامر عاليه الى سيليفان ان يذهب ويجمع الفلاحين الذين سينقلهم ويعدّ لائحة كاملة مفصلة عنهم . واستمع له سيليفان برهة وهو صامت ، ثم ترك الغرفة وذهب الى بتروشكا يطلب منه ان يساعد السيد في خلع ملابسه . وكما حصل ، فلم تكذ تنزع نعلا تشيتشييكوف حتى اكمل بقية المهمة بنفسه دون

* الطريقة التى يزرع بها ثلثا الارض ويترك الثلث بوراً . التاشر .

مساعدة ، وتدرج على السرير (الذى صرف صريفاً مزعجاً عندئذ) وغرق في نوم عميق يليق من جميع الوجوه بملاك خارسون . بينما اخذ بتروشكا معطف السيد وسراويله العنابية الى المر حيث نشرهما على سرج حصان وراح يحسبهما بالفرجون ويملا الممر كله غباراً . واذ كان يهيم بارجاعهما الى غرفة سيده ، نظر عبر الرواق فرأى سيليفان راجعاً من الاسطبل . فتبادلت بينهما النظرات وتوصل الاثنان الى تفاهم غريزي - تفاهم على ان السيد نائم نوماً عميقاً وان من واجب المرء الآن ان يلتفت الى متعته الخاصة . وبناء على ذلك ، ارجع بتروشكا المعطف والسراويل الى موضعيهما ونزل السلم ثم غادر النزول برقعة سيليفان . ولم تدر بينهما كلمة واحدة عن هدف مهمتهما بل على العكس راحا يتحدثنان عن امور خارجية . الا ان مسيرهما لم يتعد بهما كثيراً ، بل قادهما الى الناحية الاخرى من الشارع ثم الى بناية تقابل الفندق مباشرة ، واجتازا باباً زجاجياً ثم دخلا غرفة فيها بعض الزبائن الجالسين الى موائد خشبية صغيرة ملتحين وغير ملتحين ، بعضهم في معاطف فرائية والبعض الآخر في قمصان لا غير ، وآخرون في معاطف من النسيج الخشن . اما ماذا عمل سيليفان وبتروشكا بعد ذلك فهذا ما لا يعلمه الا الله . على اية حال فقد خرجا بعد ساعة من الزمن وهما صامتان صمتاً عميقاً وكل منهما يتأبط ذراع الآخر ويتشبث به تشبثاً غريباً ، وكل منهما على استعداد دائم لمساعدة اخيه عند موردهما

بزاوية مظلمة . وصرفا ربع الساعة التالية في محاولة صعود سلم النزول ، وهما لا يزالان مشتكين معا ولم يتركا بعضهما لحظة واحدة . واخيراً تمكنتا من الصعود وسارا في طريقهما . ووقف بتروشكا يفكر برهة امام فراشه الصغير الحثير . كانت المشكلة امامه هي كيف يمكن ان يضطجع عليه . واخيراً ، اضطجع على وجهه ورجلاه ترفلان على الارض . ثم اضطجع سيليفان على الفراش نفسه ايضاً وراسه على خصر بتروشكا وهو غافل كل الغفلة عن نومه هنا لا يجوز اطلاقاً بل يجب ان ينام في مكان الخدم او في الاسطبل قرب الخيول . ولم تكده تضي لحظة واحدة حتى غرق الاثنان في النوم وراحا يصدران شخيراً اجشاً اجاب عليه سيدهما من الباب المجاور بشخير انفي ذى صفير . ولم يمض في الواقع وقت طويل حتى هذا حدوهما المريح كل من في النزول . وبدا الفندق وكأنه غارق في بحر الراحة العميقة . الا ان نوراً كان لا يزال منبعثاً من غرفة الملازم الذى وصل حديثاً من ريزان . كان جليلاً انه مفتون بالاحذية لانه اشترى اربعة أزواج وهو يحاول الآن شراء الخامس . وقد اقترب مرات عديدة من الفراش قاصداً ان يخلع الحذاء ويأوى الى مضجعه ، ولكنه فشل في كل مرة من هذه المرات لأن الحذاء كان مغريباً جداً بحيث لم يجد امامه بداً من ان يرفع اولاً احدى قدميه ثم الاخرى ليتأمل في حواشي الحذاء الاثنية .

سرعان ما أصبحت مشتريات تشيتشيوكوف حديث المدينة ، واختلفت الآراء فيما إذا كان من الصواب شراء الاقنآن من بلد ونقلهم الى بلد آخر . وفي الحقيقة كان اهتمام بعض المواطنين في الامر اهتماماً بالغ الشدة . وكان آخرون يقولون «بالطبع ، لا اعتراض لأحد على ذلك . فان الاراضي في الولايات الجنوبية جيدة وخصبة ، ولكن كيف سيدبر فلاحو تشيتشيوكوف امورهم بدون ماء ؟ وفي تلك المنطقة لا يوجد أي نهر» . - «لا يهم كثيراً ، اذا لا يوجد ماء ، لا بأس ، يا ستيبان دميتريفيتش ، ولكن توطئتهم مسألة مشكوك فيها . انت تعرف الفلاح ، اذا استوطن أرضاً جديدة ، وتوجب عليه أن يحرقها ويزرعها علاوة على ذلك ، بينما هو لا يملك بيتاً ، ولا ملحقاته ، هرابه مؤكد مثل اثنين واثنين تساوي أربعة . سيهرب دون أن تجد له اثرآ» . - «لا ، يا الكسي ايفانوفيتش ، وأرجو المعذرة ، انا لا اتفق معك . انت تقول فلاحو تشيتشيوكوف سيهربون . الروسي يتلام مع كل شيء ، ويتعود على كل مناخ ، ارسله الى كامتشاتكا ، وإعطه قفازين دافئين ، وستراه يضرب كفيه ، ويسسك الغاس ، ويخرج ليقطع الأشجار ، ويصنع منها كوخاً جديداً له» . - «ولكنك ، يا ايفان غرغوريفيتش فانتك شيء مهم . انت لم تسأل أي فلاحين هم فلاحو تشيتشيوكوف . ونسيت ان المالك لن يبيع شخصاً

معتبراً . انا مستعد ان اقطع رأسي اذا لم يكونوا فلاحو تشيتشيوكوف لصوصاً او سكيرين الى آخر درجة ، او تنابلة تماماً ، او شقاة مشاكسين» . - «بالضبط ، بالضبط . انا متفق معك ، صحيح لا أحد يبيع ناساً معتبرين ، وفلاحو تشيتشيوكوف هولاء سكيرون ، ولكن يجب الانتباه الى ان ذلك هو ما يسمى بالمعنوية . هنا تلعب المعنوية دورها . إن هؤلاء عاطلون الآن لا ينفعون لشيء ، ولكن حالما يستوطنون أرضاً جديدة حتى يمكن أن يصيروا رعايا ممتازين . وهناك أمثلة غير قليلة على ذلك في عالمنا الراهن ، وفي التاريخ أيضاً» . - «مستحيل ، مستحيل ، - قال مدير المعامل الحكومية - صدقوني ، هذا لا يحصل أبداً . لأنه سيكون لفلاحو تشيتشيوكوف الآن عدوان قويان . العدو الأول هو القرب من ولايات اوكرانيا ، حيث بيع الخمرة ، كما تعرفون ، بلا قيود . انا أؤكد لكم انهم خلال اسبوعين سيحبسون جرادل من الفودكا ، ويصيرون سكارى طينة . والعدو الآخر هو التعود على حياة التصمك التي لا بد ان تلحق بالفلاحين عند الانتقال . ويجب ان يكونوا دائماً تحت مراقبة تشيتشيوكوف ، وان يسلمهم بيد من حديد ، ويعاقبهم على كل هفوة ، ولا يعتمد في ذلك على شخص آخر ، بل ان يلخمهم ويصغفهم على القفا بيديه هو وكما يجب» . - «ولماذا يكلف تشيتشيوكوف نفسه ، ويصغفهم على القفا . يمكنه ان يحصل على مدير اعمال» . - «أي نعم ، وكيل اعمال . كلهم نصابون !» - «نصابون ، لأن الأسبياد لا

ينشغلون بأعمالهم». أيده كثيرون قائلين : «صحيح ، يجب أن يعرف السيد ، ولو قليلاً عن ادارة أعماله ، ويقدر أن يميّز بين الناس . وعند ذلك سيكون له دائماً وكيل أعمال جيد» . ولكن مدير الاعمال قال - بأقل من خمسة آلاف لا يمكن ايجاد مدير أعمال جيد . ولكن الرئيس قال - يمكن ايجاده وحتى بثلاثة آلاف . ولكن مدير الاعمال قال : «أين تجده ؟ تحت أنفك ؟» ولكن الرئيس قال : «لا ، ليس تحت أنفي ، ولكنه في هذا القضاء ولا ابعد منه . وبالذات بيتر بيتروفيتش سامويلوف ، فهو مدير الأعمال اللازم للفلاحسي تشيتشيوكوف !» وتفهم الكثيرون وضع تشيتشيوكوف بشكل جيد ، كما ارجعتهم للغاية صعوبة اعادة اسكان هذا العدد الغفير من الفلاحين ، فأخذوا يبدون مغاوفهم الشديدة من أن يحصل كل شيء ، وحتى العصيان ، بين اناس مشاغبين ، كفلاحي تشيتشيوكوف . وبهذا الصدد لاحظ مدير الشرطة أن لا خوف مسن العصيان ، وأن سلطة مأمور مركز ما وجدت إلا لقمع هذا العصيان ، وأن مأمور هذا المركز ، وإن كان نفسه لا يخرج ، إلا أن سيرسل بدلاً منه قبعته الرسمية ، وهذه القبعة وحدها ستطارد الفلاحين الى حيث يقيمون . وعرض الكثيرون آراءهم بخصوص كيفية استئصال روح التمرد التي استولت على فلاحي تشيتشيوكوف . وكانت الآراء من مختلف الاصناف ، ومن بينها كانت تفوح القسوة العسكرية والصرامة الزائدة تقريباً ، وبالمقابل ، كانت هناك آراء تنم عن روح التساهل . وذكر مدير البريد

أن واجياً رهبانياً سيواجه تشيتشيوكوف ، وأن فسي امكانه أن يكون بين فلاحيه بمثابة الأب لتطبيق حتى التعليم الاحسانى وذكر ببناء كبير مدرسة للتعليم المتبادل في مدينة لانكاستر .

هكذا تكلموا في المدينة حتى أنهم راحوا ينصحون المشتري باستصحاب الحرس الكافي لكي يؤمّن وصول القافلة الى مقرها بسلام . ومع ان تشيتشيوكوف شكر للناصحين نصيحتهم وقال بأنه سيكون مسروراً للجوء الى هذه الحيلة اذا اقتضى الامر ، الا أنه أعلن أيضاً بأن ليس هناك من حاجة ماسة للحراسة لأن الفلاحين الذين ابتاعهم قوم مسالمون كل المسالمة ، وبما أنهم موافقون في الاصل على فكرة النقل فمما لا ريب فيه أنهم سيسلسون القياد .

ومن النتائج الحميدة التي انبثقت عن هذه الدعاية لمشروعه أن أصبح يعدّ في عيون الناس من اصحاب الملايين لا اكثر من ذلك ولا اقلّ . وبناء على ذلك ، فاذا كان سكان المدينة قد احبوا بطلنا لأول وهلة (كما مرّ بنا في الفصل الاول) ، فقد احبوه الآن اكثر من أي وقت مضى . وقد كانوا في حقيقة الامر معشراً يتميرون تميزاً فريداً بالهدوء والطيبة وسلاسة المزاج وكانت احاديثهم على هذا الشكل البسيط الوديع «عزيزي الفاضل ، ايليا ايليتش» ، «اسمع ، يا أخ ، انتيباتور زخارافيتش !» ، «لقدت يا عزيزي ايفان غرغوريفيتش» . وكانوا يضيفون دائماً لمدير البريد المدعو ايفان اندرييفيتش «شبريخين ذي ديتش ، يا

ايفان أندرييتش ؟» (أى «أ تتكلم بالالمانية ؟») و باختصار كانوا في جو عائلي ممتاز . وكان الكثيرون منهم ليسوا بلا ثقافة تماما . ف رئيس المجلس المحلي مثلا ، كان يحفظ عن ظهر قلب قصيدة «لودميلا» للشاعر جوكوفسكي التي كانت آنذاك في أول ذبوعها فإذا ما تلاها ووصل الى المقطع الذي يقول فيه «بان النوم خيم على غابة الصنوبر ، والوادي في هدوء» وكلمة «انصتوا» التي تلي ذلك ، فإنه يضع في القائه من الايقاع التأثيرى ما يجعل المرء يتصور ان النوم والهدوء قد خيما على الغابة والوادي حقا . ويبلغ التأثير ذروته في الحقيقة بالطريقة التي يسيل فيها اجفانه في تلك اللحظات . أما مدير البريد فقد كان اتجاهه اتجاهاً فلسفياً فكان يواظب على قراءة كتب من امثال «خواطر الليالسي» للكاتب يوتخ ، و«اسرار الطبيعة» لايكارتسهاوزن ، وكان يستشهد من الاخير بمقاطع عديدة لا يفهم سامعوه منها شيئاً . وفيما عدا ذلك كان ذكياً فصيحاً مفرغاً بتعميق الكلام وزخرفته ، فيستعمل لهذا الغرض تعابير كالتالية - «يا سيدى العزيز» ، «الله اعلم» ، «هل عرفت» ، «هل فهمت ؟» ، «هل تتصور ؟» ، «نسيباً» ، «مثلاً» ، «وبالاضافة الى ذلك» ، «الخب ، الخ» - تعابير يستطيع ان يملأ منها ايكياساً . ويستطيع ان يزخرف كلامه أيضاً بطريقة اخرى ، وهي ان يسبل احد اجفانه فتصبح عينه بين الغمض والغمض - حيلة كانت تضيى على تعليقاته الساخرة اثرأ لاذعاً . ولم يكن زملاؤه اقل منه الماماً .

كان احدهم مثلا ، لا ينفك يقرأ مؤلفات كرامزين التاريخية ، وآخر لا ينقطع عن تصفح «جريدة موسكو» ، وثالث لم يفتح كتاباً ابداً . والبعض الآخر كان مما يدعى «البعوضة» اي ذلك الذي اذا اردت ان تنهضه فلا بد ان تنغزه بشيء ما . والبعض الآخر كان تنبلاً ، قضى عمره كله مستلقياً على جنبه ، كما يقول المثل ، بل ومن العيب ان تجرب وتنهضه من مكانه . فانه لن يبارح مكانه في كل الاحوال . أما من حيث المظهر فهم ، كما هو معروف ، اناس يعتمد عليهم ، ولن تجد اي مسلول بينهم . ومع أنهم في حياتهم الداخلية ينادون من قبل نساءهم باللقاب مثل «أبو كرش» و«برميل» و«فار» و«عزيزي» الا أنهم كانوا في الواقع على قسط كبير من حسن النية وطيبة القلب ذوى كرم حاتمي يفتحون قلوبهم لكل من شاطرهم الخبز والملح او قضى معهم ليلة في لعبة الورق ، وخصوصاً لتشيتشيكوف الذي يعرف اسرار الفتنه بدقة واحكام . لهذه الخصائص الطيبة التي كان يتحلى بها أهل المدينة اصبح تشيتشيكوف موضع الاعجاب والتقدير ، بحيث عاد من الصعب عليه ان يترك البلد الذي اينما حل فيه طنت في اذنيه جملة واحدة لا تتغير وهي «ابق معنا اسبوعاً آخر يا بافيل ايفانوفيتش» . باختصار ، اصبح يحس بأنه محاط بالقلوب وليس له من الحرية ما يستطيع ان يفعل بها ما يشاء . ولكن الوقع المدهش حقا (وهو امر لا يخلو من الغرابة) هو ذلك الذي تركه تشيتشيكوف في قلوب السيدات . ولكي نستطيع ان

حيمتين جداً كانت تربطهما أخوة متينة منذ أمد بعيد ،
 اختلفتا مرة من المرات وانقطع بينهما جبل الوداد لأن
 احدهما لم ترد الزيارة للآخرى ! ومع أن الأزواج
 والأقارب تدخلوا بين المتنازعتين لأصلاح ذات البين ،
 إلا أنهم أدركوا آخر الأمر أن كل شيء في هذا العالم
 يمكن أن يقتفر إلا أهال الزيارة . وهكذا بقيت كلتا
 السيدتين تبادلان الحفا على حد تعبير المجتمع
 المحلي . وكانت بين الحين والحين تظهر مشاهد حول
 الأفضلية والسبقية بين النساء - مشاهد من ذلك النوع
 الذي أثار في قلوب الأزواج مشاعر الفروسية
 والمغامرات حول الجنس اللطيف وحمايته . إلا أن
 مبارزة لم تحدث بينهم قط ، وذلك لأن كل الأزواج
 كانوا موظفين في خدمة الحكومة . إلا أن الخصم كان
 يوقع بخصمه اذى شديداً كلما سنحت له الفرصة ،
 وهو أمر قد يكون أكثر اضراراً بالخصم من المبارزة .
 أما فيما يختص بالأخلاق فقد كانت نساء «ن» محافظات
 جداً ، وكانت فضيلتهن تجعلهن يمتيزون عموماً إذا ما
 سمعن عن حادثة من حوادث الرذيلة . لا ، حتى أنهن على
 مجرد اللين كن يسجنن سوطاً خالياً من الرحمة . أما من
 الناحية الأخرى ، فإذا مر ذكر من يسمّى عادة
 «بالشخص الغائب» في جلسة كن فيها ، فإنه يمر بشكل
 لا يسترعى الانتباه وفي غاية الكتمان ، حتى الزوج الذي
 يسسه هذا الكلام يبدو وكأنه على أهبة الاستعداد ،
 فيما لو رأى «الشخص الغائب» أو سمع عنه ، أن يقول
 بلفظ وتعقل «وما شأن هؤلاء القوم بين الصديق

أشرح هذه الظاهرة شرحاً وافياً عليّ أن أقول الكثير عن
 السيدات أنفسهن وإن أصف علاقاتهن الاجتماعية
 وميزاتهن الروحانية وصفاً جلياً في أوضاع الألوان .
 ولكن أمراً كهذا سيكون شاقاً عسيراً عليّ لسببين -
 أولهما هو احترامي العميق لجميع نساء الموظفين
 المدنيين ، وثانيهما . . . أجل . . . أن الأمر نفسه صعب
 حقاً . على أية حال فإن نساء مدينة «ن» كن . . . لكن
 لا ، لا أستطيع . . . إن قلبي ليغذلني ، أن نساء
 مدينة «ن» يمتيزن . . . لكن لا لا فائدة ، أن الريشة
 تأتي أن تتحرك على الورقة وكأنها أثقلت بالعدد . وما
 دام الأمر كذلك ، فساكتفي بكلمة أو كلمتين عابرتين
 عن مزاياهن الطاغية وسماتهن البارزة ، وكلمة أو
 كلمتين عن المظهر والمنظر ثم كلمة أو كلمتين عن
 سطحيات الأمور . كانت نساء «ن» يعتنين أكثر ما
 يعتنين بالوسامة . ويمكن اعتبارهن من هذه الناحية
 نموذجاً لنساء المدن الأخرى . أي أنهن كن يعشن على
 أصول اللياقة ويتبعن قواعد الزينة ويتابعن الطراز
 الحديث باهتمام كبير . وهن فيما يختص بهذا الشأن
 يبتزرن سيدات موسكو وبطرسبورج من حيث أن
 لهن ذوقاً رفيعاً في الملابس ولا يركبن في العربات إلا
 إذا كانت على أحدث طراز وإذا ما خرجن يصطحبن معهن
 الحارس الذي يرتدى البذلة المقصبة . وهن يقدرسن
 بطاقات الزيارة - حتى لو كتبت لسبب من الأسباب على
 ورقة الآس الديناري أو الاثنتين الاسباتي . كانت هذه
 الأمور في موضع كبير من القداسة ، حتى أن صديقتين

والصديق؟» وبالإضافة الى ذلك ، يجب ان أقول بأن نساء مدينة «ن» يشبهن عالم النساء في مدينة بطرسبورج من حيث اغراقهن في استعمال التعابير الانيقة وحرصهن على اختيار الكلمات الرقيقة . فلم تكن سيده منهن تقول «مخظت» أو «عرقت» أو «بصقت» . لا ، أبداً بل كانت تقول مثلاً «زحت العبه عن انفي باستعمال المنديل» أو ما شابه ذلك . وكان من المحظور أيضاً ان تقول «هذه الكاس أو هذا الطبق ذو رائحة كريهة» . حتى الاشارة الى كلمة كهذه كانت لا تليق بتاتا . ولكن التعبير المناسب في هذه الحالة هو ان تقول «ان هذه الكاس أو هذا الطبق لا يبدو طيباً» - أو اي تعبير آخر من هذا القبيل . وهن من أجل تهذيب اللغة الروسية تهذبن كاملاً ، حذفن نصف كلماتها ، فكان عليهن والحالة هذه ان يلجأن الى اللغة الفرنسية ، لأن الكلمات نفسها اذا قيلت باللغة الفرنسية كانت شيئاً آخر مختلفاً اختلافاً كلياً ، ويستطيع المرء ان يستعمل كلمات اكثر فظاظة من تلك التي كانت موضع اعتراض في الاصل . واذا شئنا ان نحصر انفسنا في نطاق الملاحظات السطحية عن نساء مدينة «ن» ، فقيام قلنا الكفاية . ولا حاجة بنا الى القول بأن التعمق اكثر من ذلك سيكشف عن خفايا كثيرة أخرى . لكن التعق في قلوب السيدات غير سليم العواقب . فلنلزم السطحيات اذن ولنكمل الحديث . كان السيدات ما قبل ذلك لا يعرن تشيتشيكوف اهتماماً خاصاً مع انهن يعترفن له بحسن السلوك ولطف المعشر . اما الآن وقد

سرت الشائعات القائله بأنه صاحب ملايين فقد اخذت تبرز له صفات أخرى . ولم تكن تسيطر على كل السيدات مصلحة ذاتية من وراء ذلك ، انما الواقع ان السبب هو لقب «صاحب الملايين» لا مميزات الشخص الذي يحمل اللقب فلترين هذه الكلمة اثر بلا حدود في نفوس العالم كله : المحترمين منهم والاندال ومن هم ليسوا بأولئك ولا بهؤلاء . وصاحب الملايين يعانى دائماً من رزية الوضاعة في كل مكان - الوضاعة الخاصة لوجه الله ، الغالية من المصلحة . فكثير من الناس يعلمون جيداً انهم لن يستفيدوا منه قطميراً ، ولكنهم مع ذلك يلاحقونه بابتساماتهم ورفع قبعاتهم ويسعون جدهم لحضور الولائم التي يعرفون انه ذاهب اليها بغية التشرف بالمثول في حضرة صاحب الملايين . لا يمكن القول ان هذا النوع من الوضاعة استولى على سيدات مدينة «ن» بطبيعة الحال . ومع ذلك فانهن يتهايمن في صالات الاستقبال بأن تشيتشيكوف إن لم يكن آية في الجمال فهو على الاقل كما يجب ان يكون الرجل . ومن الاسوأ لو كان اكثر سمعة او اكثر نحافة . وفي هذه المناسبة كانت تصدر تعليقات جارحة عن الأزواج النحاف وتشبيهات تصفههم بأنهم يشبهون مسواك الاسنان اكثر مما يشبهون الرجال - وتشبيهات نسوية مماثلة أخرى . واخذت السيدات يبدن اهتماماً خاصاً بملابسهن وزينتتهن . فانطلقت جماهيرهن الى السوق حتى اصبحت مكتظة بهن مزدحمة ، واصطلت عرباتهن فيها في صفوف طويلة جداً كأنها في موكب

تدعو تشيشتشيكوف الى الانطلاق معها في البراري وترك المدينة الى الابد نظراً لكابوس الضوضاء والجو الخائق الذي لا يكاد المرء يستطيع فيه التقاط انفاسه . وفي نهاية الرسالة تكشف الكاتبة عن ياس عميق بالشعر التالي :

قمرية الوادي ستنبش اعظمي
وهديها النواح يهتف قائلها

من قبرها يوماً وسوف تراها
عني لقد ماتت لفرط وحدتها وأسائها

اجل ، ان البيت الاخير مكسور ، ولكن لا اهمية لذلك اطلاقاً ، فالرباعيات التي نظم الشعر على اساسها هي آخر طراز من نظم الشعر في تلك الآونة . وكانت الرسالة خلواً من التوقيع والتاريخ ، ولكن الحققت بها حاشية تقول بان قلب تشيشتشيكوف سوف يدله على شخصية كاتبة الرسالة ، وانها بالاضافة الى ذلك سوف تحضر الحفلة الراقصة التي سيقومها حاكم الولاية في منزله في الليلة القادمة .

كان اهتمام تشيشتشيكوف بهذه الرسالة كبيراً جداً . فقد كان فيها في الحقيقة كثير من الغموض والغرابة مما جعله يعيد قراءتها مرة ثانية وثالثة ويقول اخيراً «كم كنت اتمنى لو اعرّف من ارسلها» . خلاصة القول انه اخذ ينظر الى القضية نظرة جادة ، وراح يفكر فيها اكثر من ساعة . وبعد لاي من الشرود ، تمتم بضع كلمات

حافل . اما التجار فكانت لهم الفرحة الكبرى عندما راوا ان البضائع النفيسة الغالية التي تكسدت لديهم منذ امد طويل دون ان تجد شاربياً يشتريها ، تصبح نجاة موضع الطلب وتنفذ في لسح البصر . وحدث مرة ان ذهبت سيدة الى الصلاة بثوب منفوش يكاد يملأ قاعة الكنيسة بحيث اضطر ضابط الشرطة ان يطلب من عامة الناس التراجع الى المدخل مخافة ان يتلوث ثوب السيدة . حتى ان تشيشتشيكوف نفسه لم يستطع بينه وبين نفسه الا ان يدرك الاهتمام العظيم الذي اثار . وقد رجع مرة الى المنزل فوجد رسالة معنونة باسمه . ولم يجد سبيلاً لمعرفة المصدر الذي جاءت منه او معرفة الشخص الذي اوصلها ، لان خادم المنزل قال له بان حامل الرسالة رفض ان يذكر شيئاً . كانت الرسالة تبتدى راساً بالكلمات التالية «يجب ان اكتب اليك» ثم تستمر فتقول بان هناك رباطاً روحياً وثيقاً يربط ما بين نفسيين متماثلتين . ولتاكيد هذه الحقيقة وضعت بعدها نقطاً كثيرة جداً تملأ عدداً من السطور يكاد يقارب نصف سطور الرسالة . وتلا ذلك بعض التأملات الفكرية الصادقة جداً بحيث لا اجد بداً من ان اضعها للقارئ بنصها . قالت كاتبة الرسالة «واني لاتسأل ، ما هي حياتنا ؟ انها ليست غير وهمية من الثبور . واتسأل ايضاً ما هو العالم ؟ انه ليس الا جهمرة من البشر لا يفكرون» . ومن ثم تقول بانها خذت دمة غالية على ذكرى امها العزيزة التي توفيت قبل خمسة وعشرين عاماً ، ومن ثم فان الكاتبة (وهذا ما فرضناه في البدء)

عن أسلوب الرسالة البراق ثم طواها ووضعها فسي صندوق المراسلات ومعها تذكرة للمسرح وبطاقة دعوة الى حفلة زواج كانت تقيم في هذا الموضع من هذا الصندوق منذ سبعة اعوام . وبعد هنيئة من الزمن وصلت دعوة الى حفلة حاكم الولاية للراقصة التي مر ذكرها . ويمكن ان نذكر على مجرى الكلام ان حفلات من هذا القبيل هي ظاهرة عامة في مدن الاقاليم ، بحيث يوجد حاكم الولاية لا بد ان تكون حفلات تبعث في قلوب النبلاء مشاعر الحب والاحترام .

ومنذ تلك اللحظة طرح تشيتشيكوف جانباً كل فكر آخر ، وجعل همه الاستعداد للمناسبة المقبلة . اما هذه المناسبة المثيرة فقد جعلت تشيتشيكوف في الحقيقة يكرس للعناية بهندامه وقتاً لم يكرسه انسان منذ بدء الخليقة . اضاع ساعة كاملة في تأمل وجهه في المرأة عندما وقف امامها يدرس ملامحه المختلفة فسي الانفعالات المختلفة بدأ اول الامر باسباغ امارات العظمة والاهمية ، على ملامحه ثم اسبغ عليها امارات التواضع والوقور المختلط بمسحة من التهمك ، ثم امارات الوقار الخالص الذي لا يخالطه شيء . وبالتالي ، اخذ يقوم بسلسلة من الانحناءات تتلامح مع نوع الملامح الظاهرة على وجهه ، ويتمم بكلمات يقصد منها ان تشابه التعابير الفرنسية في وقعها في السمع (مع ان تشيتشيكوف لم يكن يعرف كلمة واحدة من تلك اللغة) . واخيراً ، قام باجراء سلسلة اخرى مما يمكن ان نسميه «علامات الاستغراب» كضم الحاجبين وزم

الشفقتين وتحريك اللسان حركات مختلفة شتى . وخلاصة القول ، انه عمل كل ما يحتمل ان يعمله انسان عندما يكون وحيداً وعندما يتأكد من انه وسيم الهيئة ومن ان احداً لا يتلصص عليه من ثقب من الثقوب . وفي النهاية ربت بيده على ذقنه تربيتاً خفيفاً وقال «هكذا تكون الوجه» . وعلى هذا المستوى من المعنويات العالية ظل أثناء ارتدائه ملبسه استعداداً للحفلة . فكان وهو يعدل حاملة السراويل ويربط ربطة العنق يحرك قدميه حركة لا نستطيع ان نقول عنها بثقة إنها الرقص ، ولكن يمكن ان نسميها حركة الاستعداد للرقص . ولم تكن لهذا العمل نتائج وخيمة جداً ، فكل ما حدث هو ان ضرب باب خزنة الثياب ضربة جعلتها توشك على الانقلاب وزلقت فرشاة من على المنضدة وانخبطت على الارض .

وكان لدخوله صالة الرقص فيما بعد ، اثر لا يبرزه اثر آخر . وهرع كل الحضور الى ملاقاته ، وبعضهم يحمل اوراق اللعب في يده ، حتى ان احد الرجال قطع حديثه عند نقطة هامة جداً - عند النقطة التي كان يقول فيها ان «دائرة الاراضي المحلية اجابة على هذا . . .» فقد طرح المتكلم جواب دائرة الاراضي جانباً ورمى كل تفكير آخر في الهواء وهرول الى تحية بطلنا . «بافيل ايغانوفيتش ! آه ، يا رب ، بافيل ايغانوفيتش ! يا بافيل ايغانوفيتش الكريم ، بافيل ايغانوفيتش المبجل ! يا روحي ، يا بافيل ايغانوفيتش . ما انت هنا ، يا بافيل ايغانوفيتش ! ها هو ، عزيزنا

الواقف بالباب - والذي ربما لم تمر على شفتيه ابتسامة قط ، فهو لا يتقن غير ضرب الجماهير وتوزيع اللكمات - حتى هذا العارس يصدر قهقهة فاترة ، قهقهة اشبه بالشهيق الذي يصدر من الرجل عندما يوشك ان يعطس بعد ان يكون قد استنشق كمية غير قليلة من السعوط . واخذ تشيشيكوف يوزع الابتسامات والانحناءات وهو راض عن نفسه تمام الرضى . فاحنى راسه مرة الى اليمين ومرة الى الشمال انحناءً جانبية كان مختصاً بها ولم تخب يوماً في فتنة من يراها . اما النساء فقد تجمعن حوله اسراباً مشرقة تعبق بالعطور من كل لون - الورد والخزامى وبنفسج الربيع . كانت الروائح العطرية كثيفة جداً حول تشيشيكوف حتى انه بين الآونة والاخرى كان يرفع رأسه بغية استنشاق الهواء . اما ملابس السيدات فكانت تعرض خليطاً مختلفاً جداً من الانواع والاذواق : الموسليين والدمقس والشيفون من الالوان الباهتة العصرية التي لا يسكن حتى ان تجد لها صفة تمنعها بها (الى هذا الحد وصل الذوق الرهيف) . وكانت المعقّص والاشرطة وباقات الزهور ترفرف على الفساتين هنا وهناك في ازمى فوضى ، رغم ان الذهن المنظم اشغل كثيراً في خلق هذه الفوضى . وكان غطاء الرأس الخفيف لا يسنده غير الاذنين ، وبدا وكأنه يقول «آه ، ساطير ، ويؤسفني فقط ان لا ارفع معي هذه الحسناء» . وكانت الخصور مشدودة بشدات قوية ، فتلوح للعيون في ابهى شكل . (يجب التنويه بأن سيدات بلدة «ن» كلهن

بافل ايفانوفيتش ! اسمح لي ان احضنك ، يا بافيل ايفانوفيتش . هاتوه هنا ، لا قبله لا قبل عزيزي بافيل ايفانوفيتش قبلة حارة» . وانهالت كلمات الترحيب على تشيشيكوف من كل حدب وصوب واحس بأنه غارق في بحر من العناق . فلم يكده ينتزع نفسه من ذراعي رئيس المجلس المحلي حتى وجد نفسه محتضناً بقوة بين ذراعي رئيس الشرطة الذي سلكه بدوره الى مفتش دائرة الصحة وهذا بدوره سلمه الى مدير الجبابة وهذا ايضا عهد به الى مهندس المدينة . حتى حاكم الولاية الذي كان واقفاً في تلك الآونة بين جمع من النساء ، يحمل في احدى يديه علبة من الحلوى وفي الاخرى كلباً صغيراً ، رمى من يديه في تلك اللحظة علبة الحلوى والكلب الصغير (وقد صدر من الكلب تاوه لهذا العمل) واشترك في معانقة الضيف مع بقية الجمع . وفي الحقيقة ، لم يكن يبدو وجه واحد لم ترسم عليه نشوة السرور ، او على الاقل انعكاس نشوة السرور الظاهرة على وجوه الآخرين . هذه النشوة نراها ايضاً في وجوه صغار الموظفين عندما يأتي اليهم المدير الجديد ويفرغ من تفتيشه الدقيق ويبدأون ينتشلون انفسهم من وهدة الرعب التي لفتهم اول الامر ، ويرون ان ما يوجب الشناء والمديح قد وجد وان باستطاعته الآن ان يلقي عليهم كلمات الدعاية ويمنحهم ابتسامة الرضى . عندئذ يستجيب كل موظف من هؤلاء بابتسامة لها قوة مضاعفة ، وقد يكون البعض منهم لم يسمع من المدير الجديد كلماته بشكل واضح ، حتى العارس البعيد

عموماً بدينامات قليلة ، ولكنهن كن يشددن انفسهن بعنف كبير ، ويتخطرن بعدوية كثيرة ، حتى يتعذر على المرء ان يظن ان يداتهن .) كان كل شيء فيهن مدروساً ومحسوباً بديارية فائقة ؛ كانت الرقصاب والاكثاف مكشوفة الى الحد الضروري لا اكثر ولا اقل ، وكل واحدة قد عرّت ممتلكاتها ، بالقدر الذي كانت تشعر ، حسب اعتقادها ، بأنه قادر على الفتك بالرجل . اما البقية فقد اخفتها كلها بذوق غير اعتيادي : رباط خفيف من الاشرطة ، او لفاع اخف من القشدة المخلّاة المعروفة باسم «قبلة» ، كان يطوق العنق بشكل اثري ، وقطع هدايبية صغيرة من نسيج الباتيسته النجيل معلومة باسم «المحتشمات» تطلع من تحت الكتفين ، من تحت الفساتين . وكانت هذه «المحتشمات» تغطي من الامام ومن الخلف ما لم يعد بقدره ان يهلك الرجل ، بينما كانت توحى بان ما تغطيه هو بالذات الهلاك بعينه . ولم تكن القفازات الطويلة ملبوسة حتى الرदन ، بل كانت تترك الاجزاء المثيرة في الذراعين الى الاعلى من الكوع عارية عن نية مقصودة ، وهذه الاجزاء لدى بعض السيدات على قدر من الامتلاء يُحسد عليه حتى ان قفازات جلد الجدى قد تفتقت على بعض الاذرع . وباختصار كان كل شيء ينطق بصوت عال : هذه العاصمة ، هذه باريس ، وليست ولاية من ولايات الاقاليم ! إلا انه في بعض الاماكن كانت تظهر فجأة قلنسوة لم تر الارض مثلها شكلاً ، او ريشة كثيرة الشبه بريش الطاووس ، وذلك على الضد من كل

موضة ، وحسب ذوق لا يستها لا اكثر . ولكن ذلك لا يد منه ، لانه طبيعة سكان الاقاليم ، ولا بد ان تظهر بشكل من الاشكال . ولما وقف امامهن تشيتشيكوف اخذ يسأل نفسه قائلاً «أى هؤلاء الفاتنات هي كاتبة الرسالة ؟» ورفع راسه للمرة الثانية وشتم الهواء ولكنه جوبه على مقربة من انفه بمجموعة طيبة من الاكواع وازرار الاكمام واطراف الاشرطة والشالات المعطرة والفساتين . رقصة الغالوب المرححة في اوج احتدامها . الجميع نهضوا ، وانطلقوا يرقصون : زوجة مدير البريد ، ومامور المركز ، وسيدة تضع ريشة زرقاء ، وأخرى بريشة بيضاء ، والامير الجورجسي تشيبيناغيليدزيف وموظف من بطرسبورج ، وآخر من موسكو ، والفرنسي كوكو ، وبيرخوفسكي .

وقال تشيتشيكوف ، وهو يتراجع الى الخلف :
 - ياه ! إدارة الولاية كلها منطلقة في عملها !
 وعندما عادت السيدات الى مقاعدهن ، اخذ يحاول للمرة الثانية ان يعرف (من التعابير والنظرات) ايهن هي الشاعرة المجهولة . ومع ان التعابير والنظرات في هذه الحالة كانت مضللة غير كاملة الوضوح . في كل مكان ثمة ما يشي بمكنون الصدور ، بشيء مراوغ لا يمسك . وحدث تشيتشيكوف نفسه : «أوه ، مراوغ جداً . النساء موضوع . . . - واكتفى بهز ذراعه لإكمال الجملة - شيء واضح تماماً . حاول فقط ان تصف او تنقل ما يرف على وجوههن ، كل تلك الايماضات

والتلميحات ، وتستجد نفسك عاجزاً عن التعبير عنها
بالكلمات . عيونهن وحدهما دولة لا حدود لها ، إذا
دخلها شخص ضاع وغرق ، ولن تستطيع أن تلتقطه
بشخص . حسناً ، حاول مثلاً ، ان تصف بريق العيون
وحده ، البليل ، المخمل ، السكري . والله يعلم أي
شيء هو أيضاً ! قاس ، ناعم ، وحتى داكن للغاية .
أو كما يقول آخرون ، في رخاء أو بلا رخاء أسوأ من
الرخاء - فهو يعصر قلبك ، ويلعب بروحك كلها ،
وكانه قوس كمان . أكيد ، لا يمكنك ان تجد الكلمات .
النصف الزيني من الجنس البشري ، وهذا كل ما تستطيع
ان تقوله . »

أرجو العذرة ! يبدو ان كلمة سوقية افلتت من
فم بطلنا . ولكن ما العمل ؟ هذا حال الكاتب فسي
روسيا ! بالمناسبة إذا وقعت كلمة سوقية في كتاب ،
فليس الذنب على الكاتب ، بل على القراء ، وقرأ ،
مجتمعنا الراقي قبل غيرهم ، لانك لن تسمع منهم كلمة
لائقة واحدة بالروسية ، بينما هم كما اعتقد ،
يعرفونك بالكلمات الفرنسية والالمانية والانجليزية
بحيث تضجر ، وهم ينطقون بها محافظين على كل طرائق
النطق المتاحة : يخنون ويلتفون اذا تكلموا
بالفرنسية ، ويفردون بالانجليزية كما يفرد الطير ، بل
ويقلبون سحناتهم كما يفعل الطير لدى تغريده ، بل
ويضحكون من الذين لا يجرأون على محاكاة سحنة
الطير . ولكنهم لا يستطيعون ان يفردوا بأي شيء ،
روسي ، إلا اذا استثنينا بناء بيت ريفي لهم على الذوق

الروسي . هؤلاء قراء المجتمع الراقي ، ومن خلفهم كل
الذين يعتبرون انفسهم من الفئة الراقية . ومع ذلك فما
اطول باعهم في التزمت ! انهم يصرون على ان يكتب
كل شيء بلغة ملتزمة للغاية منقاة رقيقة ، وباختصار
العبارة يريدون ان تنزل اللغة الروسية بنفسها من
السماء مصاغة كما تنبئ الصياغة ، وتحط على
السننهم ، بحيث لا يكون لهم الا ان يديروا افواههم ،
ويطلقونها . وطبيعي ان النصف اللطيف من الجنس
البشري يصعب فهمه ، ولكن يجب الاعتراف بان قراءنا
المحترمين اكثر صعوبة على الفهم أحياناً .

وخلال ذلك كان تشيتشيكوف في حيرة تامة من
التأكد من صاحبة الرسالة . حاول ان يدقق النظر ،
ورأى من الجانب النسائي أيضاً ما يعبر في آن واحد
عن الأمل والآلام العذبة لقلب إنسان فان مسكين ،
حتى انه قال أخيراً «مستحيل ان احزر ابدأ» . الا ان
عقبة كهذه لم تكن تنقص من معنوياته العالية . وتبادل
مع احدهن كلمات المباشرة الخفيفة بكل سهولة
وقبول ، ثم اقترب من أخرى بخطوات متباعدة كذلك
التي يقوم بها الغندور الطاعن في السن الذي يتسكع
قرب السيدات . وكان اذا ما دار - بغير قليل من
الخفة والرشاقة - الى اليمين او الى الشمال ترك احدي
ساقيه تجرّ قليلاً وراء الأخرى ، كالفاصلة في الحروف
او كالأذيل الصغير . كانت هذه الحيلة موضع اعجاب
السيدات . موجز القول ، انهن بدان يرين فيه لا موضع
للطف والجاذبية وحسب ، بل اخذن يلحنن في وجهه

نوعاً من الهيئة العسكرية كذلك التي تبدو في وجهه مارس اله الحرب - وهو شيء ، كما تعرف ، لا يخيب ابداً في ارضاء عيون النساء . وقد اخذ بعضهم يتنازعن عليه ، ولما رأيته يقضى معظم وقته قرب الباب سارع بعضهم في احتلال اقرب الكراسي اليه . وفي الواقع ، كاد يشبب صدام بين سيدتين سبقت احدهما الاخرى اليه وكاد يحدث مشهد مؤسف جداً ، مشهد كان سيعتبر مثلاً منجماً على الوقاحة وصفاقة الوجه في نظر اللواتي كنّ يتمنين لو قمن انفسهن بالعمل نفسه .

وكان تشيتشيكوف غارقاً في الحديث مع مطارداته الحسنوات ، او نستطيع ان نقول بان المطاردات الحسنوات كنّ قد اوقمن تشيتشيكوف في جبالهن وامسكن به بان اخذن يلقين عليه عدداً لا نهاية له من الاحاجي العميقة التي جعلت قطرات العرق تتصبب عن جبينه في محاولته حلها ، بحيث نسي ان يؤدي فروض التحية وواجبات الاحترام الواجبة عليه قبل كل شيء لربة البيت . ولم يتذكر هذه الواجبات في الواقع الا عندما سمع زوجة حاكم الولاية التي كانت واقفة امامه منذ بضع دقائق تبديه بالكلام . وقالت بصوت خافت لا يخلو من الخبث «ها نحن قد رأيناك اخيراً يا بافيل ايفانوفيتش» . اما ما تلا ذلك من كلامها فلا استطيع ان اقله الى القارىء بالنص ، لانه من نوع الخطاب الذي يدور بين الفرسان والسيدات في الطبقة الراقية والذي نجده مكتوباً في القصص الشهيرة التي كتبها كتاب هم ابرع مني في وصف حياة الطبقات

الراقية واكثر اطلاعاً عليها . قالت زوجة الحاكم بانها تأمل او ان لها وطيد الامل ، بان يكون قد بقي فسي حنايا قلب تشيتشيكوف زاوية - حتى ولو كانت زاوية صغيرة جداً - لاولئك الذين قد جار عليهم بالهجر والنسيان ، او ما هو بهذا المعنى . فالتفت اليها تشيتشيكوف لكي يرد عليها بجواب كان من المنتظر ان لا يقل بحال من الاحوال عن اجوبة الابطال الروائيين من امثال زفونسكي ولينسكي وليدين وهريمين فسي ظروف مماثلة ، ولكنه ما ان رفع عينيه حتى اطبقهما وكان صاعقة هوت على ام راسه .

لم تكن ربة البيت وحدها التي تقف امامه انصبا كانت تمسك بفتاة . الشعر الذهبي ، والقسمات الانيقة الرقيقة ، والوجه البيضوي الساحر - الوجه الذي يجدر به ان يكون النموذج الصالح لمريم العذراء - والجمال الذي يندر ان يمر المرء بشله في روسيا ، حيث كل شيء ، مهما يكن ، يتخذ ، كما يبدو ، ابعاداً كبيرة سواء اكان ذلك جبلاً ، او غابة او سهباً ، او وجعاً او شفة او قدماً ، ذلك الجمال الذي يكون كل جزء فيه من قمة الراس الى اخص القدم في ذروة الاتقان ، هذا الجمال كله كان ما رآه في العربة اثناء الاصطدام عندما كان هارباً من نوزديف حين اصطدمت عربتها بشكل غريب سواء اكان ذلك حماقة من السائقين او الخيول ، وتشربكت عدة الخيول وتبرع العم مينيائي والعم مينيائي بفكها . وقد ارتفعت حرارة عواطفه الى درجة اصبح معها لا يستطيع ان يلفظ حرفاً

واحداً ، وراح يتمتم بكلمات لا يفهم معناها غير
الشیطان ، كلمات لا تصدر قطعاً عن شفقتي بطل من
ابطال القصص العظيمة .

وقالت ربة البيت «أظن أنك لم تقابل ابنتي قبل
الآن . فهي حديثة عهد في التخرج من المدرسة» .
فاجاب بأنه كان سعيداً ان قابلها من قبل في ظروف
لم تكن متوقعة ، وعندما حاول ان يضيف الى هذا
الكلام شيئاً آخر خانه لسانه وأطبق عليه . فقالت
زوجة حاكم الولاية كلمة او كلمتين أخريين وسارت
بابنتها لتحدث الضيوف الأخرين . ووقف
تشتيتشيكوف مسرعاً في مكانه ، كالرجل الذي يخرج
من بيته مرحباً طروباً فيذكر فجأة انه نسي في البيت
امراً خطيراً . واذا يقف في منتصف الطريق ليتذكر ما
هو الامر الخطير تختفي من وجهه بشائر المرح وكان
غشاوة تغطي عينيه فلا يعود يرى امامه شيئاً . وجاهد
ان يتذكر ما نسيه . ربما المنديل ؟ ولكن المنديل في
جيبه ، او ربما النقود ؟ النقود أيضاً في الجيب ، كل
شيء في مكانه كما يبدو ، ولكن روحاً غير مرئية
تهمس في اذنه انه نسي شيئاً . وما هو واقف ينظر
بذهول وغبش الى الجمهور المتحرك امامه ، والربات
المنطلقة ، وإلى قبعات الفوج المار العسكرية وبنادقه ،
والى لافتة ، دون ان يستطيع رؤية أي شيء بشكل
جيد . وعلى هذا النمط أصبح تشتيتشيكوف غائباً عن
كل ما حوله . بيد ان السنة السيدات العذبة ما
فتنت تصب في مسامعه من اسئلتها وغمزاتها ما لا عداد

له - اسئلة وغمزات توحىها الرغبة في الاستيلاء على
قلبه . «هل لنا نحن المتطفلات ان نجرؤ على السؤال
عما تفكر فيه ؟» . «هل لك ان تتكرم وتخبرنا عن
الآفاق التي يجول فيها خيالك الآن ؟» «هل لنا ان نسال
عن اسم السعيدة العظيمة التي جعلتك تسبح في هذا
الخيال اللطيف ؟» ولكنه كان يستقبل هذه الاسئلة
بأذن صماء ، وكأنها صبيحة في واد . وقد وصلت جلافته
في الواقع ذروتها عندما سحب نفسه من بينهن وسار
يبحث عن المكان الذي استقرت فيه زوجة حاكم الولاية
وابنتها . ولكن السيدات لم يكن ليتركنه بهذه
السهولة . فاخذت كل واحدة منهن تبذل قصارى جهدها
وتجهد بنات افكارها للابقاء عليه . ويجب ان نلاحظ
ان لبعض النساء - وانا اقول لبعض النساء ، وهذا
يعني ليس لكلهن - موطن ضعف صغيراً ، وهو انهن لو
لاحظن فيهن شيئاً مميزاً في حسنهن ، أي جبهة ، او
نمراً او يدين ، يتصورن ان الجزء الأحسن في وجوههن
هو اول من يلفت نظر الجميع فيهن ، ويأخذ هؤلاء
يتحدثون فجأة في صوت واحد : «انظروا ، انظروا اي
أف اغريقي رائع لها !» او «أي جبين متناسق فاتن !»
ومن لها كتفان يديعتان تكون متأكدة مسبقاً بان الشباب
جميعاً سيكونون معجبين كلياً ، وكلما مرّت بهم
سيكررون «آه ، ما ابداع كتفيها !» ولن يلقوا نظرة الى
وجهها ، وشعرها ، وانفها وجبينها ، واذا نظروا فكانهم
ينظرون الى شيء لا يخصها . بهذا الشكل تفكر بعض
النساء . وكل امرأة قطعت على نفسها عهداً بان تكون

افتن ما يمكن في الرقص ، وتظهر كل الق ما تعتبره
تفوقاً فيها . فزوجة مدير البريد أمالت رأسها الى جانب ،
حين كانت ترقص الفالس ، حتى لاح في حركتها هذه
شيء لا يمت الى الأرض بصلته . لم تصطبغر سيدة
مهذبة جداً لم تات لغرض الرقص مطلقاً بسبب ، ما
وصفته « اينكوموديته » * على شكل مسمار في قدمها
اليمنى جعلها تضطر الى لبس جزمة مسطحة ، وقامت ،
رغم ذلك ، ببعض الدورات في جزمها المسطحة ، حتى
لا تفرق زوجة مدير البريد بالوهم اكثر من اللازم .

ولكن ذلك كله راح هباءً لأن تشميتشيكوف لم
يعرفه* اذا صاغية واخذ يقف . على اصابع قدميه -
حتى حين ابتدا الرقص - ويجول بعينيه في القاعة
ليعرف مقرّ الفتاة الساحرة ذات الشعر الذهبي وينظر
من فوق رؤوس جيرانه واكتافهم حتى رآها آخر الامر
جالسة بجوار امها التي كانت تضع على رأسها عمامة
شرقية بريشة . وبدا عليه عندئذ انه قد صمّم ان
يجتاح هدفه اجتياحاً كما تفعل العاصفة العاتية ، فقد
اندفع الى الامام اندفاعاً شديدة بتصميم اليانسن حتى
ان كوعه ضرب مدير العجاة ضربة جعلته يترنح* على
قدميه وكان سينكفي* على الأرض لا محالة لولا صفاء
الضيوف الذي دعمه من المؤخرة . اما مدير البريد فقد
سارع وأخل له الطريق ، لكنه التفت اليه محدقاً فيه
بنظرة تهكم واندھاش . لكن ذلك كله لم يكن يسترعي

* بالفرنسية تلفظاً ، وتعنى هنا واعتلال . المترجم .

انتباه تشميتشيكوف ، فلم تكن ترى عيناه غير ذات
الجمال الاشقر . كانت في تلك اللحظة تلبس في يديها
قفازاً طويلاً ، ومما لا ريب فيه انها كانت تنهياً لغرض
حلبة الرقص حيث كان قد اصبح فيها اربعة أزواج
يسجون خطوات المازوركا . وكان بين الراقصين
بالذات ضابط باللباس العسكري* منهك روحاً وجسداً
ويدين ورجلين ليقوم باداء خطوات لا عهد لانسان بها
من قبل حتى في الاحلام . مهما يكن من امر ، فقد اجتاز
تشميتشيكوف الراقصين وكاد ان يدوس على كعوبهم
حتى اقترب من المكان الذي جلست فيه السيدة
وابنتها . لكنه اقترب منهما بكثير من التحسّب خالياً
كل الخلو* من سالف التبختر والرح . لا ، بل كان
يضطرب حين كان يسير ، وكل حركة من حركاته تشير
الى عظيم ارتباكها .

ومن الصعب علينا ان نقول فيما اذا كان الشعور
الذي تار في قلب بطلنا هو الحب* . فمن الامور المختلفة
عليها هو ان يكون الرجال اصحاب هذه البنية - اى
ليسوا بالسمان ولا بالنحاف - قادرين على الاحساس
بشيء من هذا القبول . ومع ذلك فان شعوراً غريباً جداً
قد طغى عليه لم يستطع له تفسيراً . فقد لاح له ان
قاعة الرقص بما فيها من لفظ وضجيج قد اصبحت
شيئاً بعيداً جداً ، وان الفرقة الموسيقية قد انسحبت
الى ما وراء احدى التلال وان المنظر كله أصبح مبهماً
كالصورة التي رسمها الفنان بغير اعتناء . ومن خلال
هذا المنظر المبهم يتألق شيء واحد فقط هو وجه

الغادة الفاتنة : وجهها البيضى المدور ، وقوامها
 الاهيف الرهيف التى تتميز به الفتيات خلال الاشهر
 الاولى من تخرجهن من المدرسة وثوبها الابيض البسيط
 تقريباً المحبوك بخفة وبداعة على اطرافها الهيفاء الفتية
 فى كل مواضعها ، حتى برزت بخطوطها النقية . ولا ادرى
 كيف صور له خاطره بان قوامها الغالى شديد الشبه
 بدمية من العاج تبدو برأفة بيضاء شفافاة وسط الزحام
 المبهم البليد .

نرى هنا ظاهرة ليست قليلة الوجود . الظاهرة التى
 يصبح فيها تشبثشيكوفات هذا العالم شعراء ولو الى
 حين ، ولكن كلمة «شاعر» ستكون مبالغة كبيرة . على
 أية حال ، فقد شعر تشبثشيكوفنا لفترة قصيرة من
 الزمن انه اصبح شاباً مرّة اخرى ، هذا اذا لم يكن
 ضابطاً فى الجيش . وما إن رأى كرسياً فارغاً بجوار الام
 وابنتها حتى سارع الى احتلاله . ومع ان الحديث ابتدا
 فاتراً بليداً ، الا ان الاحوال تحسنت بالتدريج واخذ
 يستعيد الثقة بالنفس شيئاً فشيئاً . عند هذه النقطة
 اجد نفسي متردداً فى ان اتشعب فى موضوع الحديث
 لاقول بان الرجال ذوى المقام الكبير والمناصب العالية
 عندما يتحدثون الى النساء لا يكون لهم وزن ولا قيمة .
 بينما الضباط الصغار - اى من كانت رتبته اصغر من
 رتبة رئيس على الاقل - فهم دائماً اكثر نجاحاً . اما كيف
 يستطيعون ذلك ، فالله وحده اعلم . فاذا نطقوا بهنة
 فارغة تجد الفتاة التى تجلس بجوارهم تهتمّ ضحكاً .
 اما اذا دخل وجيه فى الحديث مع سيده و قال لها مثلا

بان الامبراطورية الروسية واسعة الاجراء ، او قال لها
 مجاملة تدلّ على قسط كبير من الذكاء (مهما فاحت هذه
 المجاملة بروائح الكتب) ، فانها تقع موقعاً بارداً جداً .
 حتى النكتة اذا قالها فانه يضحك هو نفسه عليها اكثر
 مما تضحك السيدة المستمعة اليه . وقد حشرت هذا
 التعليق فى حديثي هنا لكي افسر للقارىء السبب
 الذى من اجله - عندما بدا بطلنا الحديث اخذت الفتاة
 تنتاب . لكنه على أية حال ، كان اعمى العينين عن هذه
 الحقيقة فانطلق يقص عليها مغامرات شتى وقعت له
 فى بقاع مختلفة من العالم وبالتحديد فى ولاية
 سيمبرسك فى بيت سوفرون ايفانوفيتش بيسبشني ،
 بحضور ابنته اديلايدا سوفرونوفنا ، واخوات زوجها
 الثلاث ماريا غفريلوفا ، والكسندرا غفريلوفا ،
 واديلغيدا غفريلوفا ، وفى ولاية ريزان فى بيت فيدور
 فيدوروفيتش بيريكرويف ، وفى ولاية بينزا فى بيت
 فقول فاسيليفيتش بوبيدونوسنى ، وفى بيت اخيه
 بيتر فاسيليفيتش بحضور أخت زوجته كاترينا
 ميخائيلوفنا وابنتي عم عمها روزا فيدوروفنا واميليا
 فيدوروفنا ، وفى ولاية فياتسك فى بيت بيتر
 فارسونوفيتش بحضور أخت زوجة ابنه بيلاغيا فيدوروفنا
 وابنة اخيه صوفيا روستيسلافنا وابنتى زوجة ابيها
 صوفيا الكسندروفنا وماكلاتورا الكسندروفنا .

ابنة حاكم الولاية بكم فستانها وجعلت طرف اللفاح يلامس وجهها . اما السيدة التي كانت تجلس خلفهم فقد رمتهم بنفحة من البنفسج وبتعليق لاذع قتال . ومع هذا ، فاما ان يكون قد صم عن سماع التعليق او تظاهر بأنه لم يسمعه . ولم يكن هذا منه من الحكمة في شيء ، لأن افعال آراء السيدات لا يليق ابدأ . وقد شاء له القدر ان يتعلم هذا الحقيقة ، ولكن بعد ان سبق السيف العذل .

موجز القول ، ان الاستياء بدأ يعلو وجوهاً عديدة . فمهما كان تشيتشيكوف على المقام في المجتمع ، ومهما كان يملك من الملايين المقنطرة وكانت ملامحه تدل على العظمة التي لا حد لها والروح العسكرية المتوثبة ، الا ان هناك اموراً لا تستطيع ان تغتفرها سيدة مهما كان الرجل الذي صدرت عنه هذه الامور . وهناك حالات نجد فيها المرأة ، وعلى رغم كل ما في طبيعتها من ضعف وعجز بالقياس الى الرجل ، تصير فجأة اشد قسوة ليس من الرجل فقط ، بل ومن كل شيء في الدنيا . والاستخفاف الذي ابداه تشيتشيكوف ، وهو استخفاف غير مقصود تقريباً ، اعاد بين النساء حتى الوفاق الذي كان من قبل على حافة الانهيار ، حين بدأ التنافس على المقعد الى جانبه . فقد وجدن لمزات لاذعة في كلماته الجافة الاعتيادية التي القاها عرضاً . ونحن نعرف عادة ان الحضور في حفلات حكام الولايات الراقصة يؤلفون اشعاراً ينتقدون الراقصين فيها ، اما في حالتنا هذه فقد نسبت الاشعار كلها الى تشيتشيكوف . خلاصة

القول ، ان الامتعاض اخذ يعم ويزداد حتى اصبح من المفهوم ضمنياً ان السيدات قد اصدرن مرسوم الاعداء بحق الاثنتين ، بطلنا والفتاة الصغيرة البسكية .

ولكن مفاجأة العن من هذه كانت في انتظار بطلنا . فبينما كانت الفتاة تتناوب وتشيتشيكوف يقص عليها احدي مغامراته السالفة ، حتى ذكر اسم الفيلسوف اليوناني ديوجين اثناء الحديث ، اذ بباب غرفة مجاورة يفتح ويظهر منه نوزديف . ولا يعلم احد فيما اذا كان قد جاء من المقصف او خرج من غرفة جانبية كان يدور فيها لعب القمار ، وهل خرج بمحض ارادته او قذف به اللاعبون مطروداً . لكنه على أية حال ، عندما دخل قاعة الرقص كان في نفسية عالية جداً ، وكان يتأبط ذراع المدعي العام ، ويظهر انه كان يجزه منذ امد بعيد لأن المسكين كان يتلفت من ناحية الى اخرى كما لو كان يفتش عن وسيلة تنقذه من هذه الرحلة البغيضة . وما لا شك فيه انه كان في وضع لا يطاق لأنه ما كاد يحتسي نوزديف كاسين من الشاي مع شيء من الروم ، حتى بدأ يكذب عليه دون شفقة او رحمة . وما رآه تشيتشيكوف عن بعد حتى عزم على التضحية بنفسه . اى انه عزم على ترك وضعه الحالي الذي يحسد عليه وينسل على جناح السرعة ، لأنه أدرك ان لقاءه مع القادم الجديد امر لا تحمد عقباه . ولسوء حظه ان حاكم الولاية آنذاك امسك به طالباً منه ان يكون حكماً بينه (اى بين حاكم الولاية) وبين سيدتين . كان

جواباً ، وإنما راح مندفعاً في هذره ، يقول «ايه يا سيدي العظيم ! لن ادعك هذه المرة تغلت من بين يدي . لا ، الا اذا علمت ما هو معنى شراء النفوس الميتة هذا . استمع اليّ . يجب عليك أن تخجل من نفسك . نعم ، اقول هذا لأنني من أوفى الاصدقاء اليك» . ثم التفت الى حاكم الولاية وقال «هل تعلم يا صاحب السعادة أنني وهذا الرجل لم تكن تفترق ابداً . ولو جئت تسألني يوماً وقلت «استحلفك بشرفك يا نوزديف ان تخبرني ايهما تحب» اكثر اباك ام تشيتشيكوف» قلت لك «تشيتشيكوف والله !» ثم قال «هيا ! هيا ! ايها الصديق الحميم ! دعني اطبع على خديك قبلة او قبلتين . انت تسمح لي طبعاً ان اقبله يا صاحب السعادة . اليس كذلك ؟ لا ، لا تقاومني يا عزيزي تشيتشيكوف دعني على الاقل اطبع قبلة واحدة على خدك الابيض» . ودفعه تشيتشيكوف عنه اثناء محاولاته لطبع القبلات عنوة على خده حتى كاد يقع نوزديف بطوله على الارض . وازوى بعد ذلك كل فرد الى ناحية واصم اذنيه عن سماع زيادة في الهراء . ولكن الكلمات التي وردت عن ابتياع الانفس الميتة كانت قد رتت في ارجاء القاعة باعلى صوت كانست تصحبها فهقه مدوية اثار انتباه من هم في اقصى اطراف القاعة ، الواقفين منهم والجالسين . كانت الفكرة غريبة جداً طريفة جداً بحيث وقف الجمع وليس على وجوههم غير امارات الدهشة المتجمدة الخرساء . بيد ان بعض السيدات (وهذا ما لاحظته تشيتشيكوف) اخذن

موضوع الخلاف هو هل ان حب المرأة يدوم او لا يدوم . وفي اللحظة نفسها انقض نوزديف على بطلنا بحملته العنيفة . فابتسم ابتسامة جعلت خديه النضرين الاحمرين حمرة الورد يرتعشان ، واخذ يصيح قائلاً «ايه يا ملاك خارسون العظيم ! هل مر عليك عهد طويل وانت تتاجر بالانفس التي انتقلت الى رحمة الله ؟» ثم التفت الى حاكم الولاية وقال «اظن ان سعادتك لا تعرف ان هذا الرجل يتعاطى شراء الانفس الميتة» . ثم الى تشيتشيكوف «اسمع يا تشيتشيكوف . اني اقولها لك بروح الصداقة المخلصة ، ان كل الموجودين هنا يحبونك - حتى سعادة حاكم الولاية . ولكن الامر لو كان بيدي لشنقتك ! اي والله ، اني لافعل» . وبلغت خيبة تشيتشيكوف اوجها .

واستمر نوزديف يقول «وهل تصدقني يا صاحب السعادة ؟ ان هذا الانسان قد طلب مني ان ابيعه ما لدي من الانفس الميتة . وقد كاد الضحك يقتلني ويا للعجب ! ما اكاد اصل الى هذا البلد حتى اسمع انه اشترى انفساً بثلاثة ملايين روبل لكي ينقلها ! طبعاً لكي ينقلها ! لقد ساومني على انفس الميتة ! اسمع يا تشيتشيكوف . انك خنزير ! نعم والله انك خنزير صرف ! اليس كذلك يا صاحب السعادة ؟ اليس كذلك يا صديقي المدعي العام ؟»

ولكن الدهشة التي اعترت حاكم الولاية والمدعي العام وتشيتشيكوف كانت اكبر من ان تجعل احدهم ينطق ببنت شفة . اما نوزديف النشوان فلم يكن ينتظر منهم

يتبادلن ابتسامات ساخرة وعمزات خبيثة ذات معان ،
مما زاد في بلبلته . كان كل انسان بالطبع يعرف ان
نوزديرف كذاب اشر ، ولن يدهش أحداً اذا انفجر
انفجارته السخيفة الرعناء . ولكن الرجل الفاني يصعب ،
في الحقيقة ، حتى ان تفهم من أي شيء مخلوق . إذ مهما
يكن الخير الذي يطلقه ، ولكن لكونه خيراً لا غير ، لا
بد ان ينقله الى فانٍ آخر ، على الأقل ليقول «انظر أي
كذبة اطلقوا !» فيميل هذا الفاني الآخر أذنه اليه
بارتياح على الأقل ليقول فيما بعد «نعم ، هذه كذبة
رخيصة تماماً لا تستحق أي اهتمام !» وفي اثر ذلك ،
وبنفس الساعة يتوجه ليجث عن فانٍ ثالث ، ليحدثه
بها ، وليهتف معه بعد ذلك بسخط نبيل : «أية كذبة
رخيصة هذه !» وهكذا وبالتأكيد ستجوب الكذبة المدينة
كلها . وستتحدث بها جميع الفانين ، مهما تكن كثرتهم ،
حتى يشبعوا منها لا محالة ، وبعد ذلك سيترفون بأنها
لا تستحق أي اهتمام ، ولا تساوي التحدث
عنها .

وبطبيعة الحال بلغ الحق من بطلنا أشده ، فمهما
كانت الكلمات التي تصدر من لسان المجنون سخيفة ،
فهي كافية لكي تزرع بذور الشك في عقول العاقلين .
فاحس بطلنا احساس الرجل الذي ينتعل حذاء مدهوناً
دهاناً فاحراً حين يجد نفسه فجأة يغوص في اقدر
الاحوال . وقد حاول أن يطرح الامر جانباً وأن يبسط
من نفسه وأن يستمتع مرة أخرى . لا ، بل حاول ان
يشترك في لعبة الوست . ولكن ذلك كله كان عبثاً .

فقد ظلت اموره معوجة ليس الى تعديلها من سبيل .
وقد اخطا في اللعب مرتين ، وأصبح رئيس المجلس
المحلّي في حيرة شديدة من امر صديقه بافيسل
ايفانوفيتش اللاعب الحاذق الماهر من قبل ، كيف يرتكب
خطأ جسيماً ويرمي الملك البستوني الذي كان يعتمد
عليه اعتماداً عظيماً ، او حسب تعبيره نفسه «كاعتماده
على إله» . وطبيعي ان مدير البريد والرئيس وحتّى
رئيس الشرطة راحوا ، كما جرت العادة ، يتندرون مع
بطلنا ويسألونه : هل هو عاشق ، ويقولون إنهم
يعرفون ان قلبه مصاب ، ويعرفون التي أصابت قلبه
بسهمها ، الا ان كل ذلك لم يسئل عنه ، مهما ضحك ،
وردّ مزاحهم بمزاح . وحتى عند تناول طعام العشاء كان
كل شيء على غير ما يرام ، على الرغم من ان القوم الذين
جلسوا معه الى المائدة كانوا من لطف المعشر على قسط
كبير ، وعلى الرغم من ان نوزديرف كان قد اُبعد لأن
السيدات قد وجدن سلوكه الفاضح لا يحتمل لا سيما
وقد جلس آخر الامر على الارض وأخذ ينتش ملابس
الراقصين والراقصات . كان العشاء بهيجاً جداً ، وجميع
الوجوه التي مرقت امام الشمعدانات الثلاثة الرؤوس ،
والزهور ، والحلويات والزجاجات متألقة بارتياح غاية
في الطلاقة . جميع الضباط والسيدات وسرترات
الفراك وكل شيء صار مهذباً الى حد الفتيان . كان
الرجال يشبون من مقاعدهم ويهرعون لياخذوا الاطباق
من الخادم ، ويقدمونها للسيدات بخفة غير اعتيادية .
قدّم ضابط برتبة عقيد لاحدى السيدات صحن الصلصة

على طرف سيفه المسلول . وكان الرجال ، كبار السن ، الذين كان تشيتشيكوف يجلس بينهم يتجادلون بصوت عالية ، مبتلعين كل كلمة ركيئة مع قطعة من السمك أو لحم البقر مبلّسة بالخردل بشكل لا يرحم ، ويتجادلون في مواضيع كان دائماً يشارك فيها ولكنه كان يبدو كرجل تمب هده سفر طويل ، ولا يدخل شيء في عقله ، ويعجز عن الاهتمام بأي شيء ، حتى وجد نفسه في وضع حرج جداً ، ولهذا وضع حداً له بأن ترك غرفة الطعام حتى قبل نهاية العشاء وعاد الى الفندق قبل مواعده المعتاد بوقت طويل .

وفي غرفته الصغيرة ذات الباب المغلقة يستار يفصلها عن الغرفة المجاورة ، وذات الزوايا التي تطل منها الجملان السوداء بين الحين والآخر ، جلس على كرسي متخلخل مضطرب مثل أفكاره المتخلخلة المضطربة . كان قلبه ينبض بالكآبة المؤلمة وكان يحتاجه احساس من الغم والكبر ، ويشعر بفراغ خائف يكاد يطبق على انفاسه .

وأخذ يناجي نفسه قائلاً «سحقاً لمن اخترع الحفلات الراقصة ! فأي انسان يمكن أن يشعر فيها بالبهجة الخالصة ؟ العوز والفاقة ماتلان في كل بقعة من هذه الولاية ، والناس يقيمون الحفلات الراقصة ! وهؤلاء النسوة السخيفات اللواتي يرتدين بأذخ الملابس ! ان كل واحدة منهن لا تحمل أقل من الف روبل على كتفها ، الف روبل جاءت من عرق الفلاح المثقل عبءه بالضرائب ، او ما هو العن من ذلك ، على حساب

ضمير الجار . نعم ، فالكل يعرف لماذا تنتشر الرشوة ، ولماذا تلتوى نفوس الرجال : ليحصل الواحد منهم لزوجته على لفاع أو اقشمة من مختلف الانواع لها اسماً لا يمكن أن تضبطها . فلام كل هذا ؟ وما القصد من ورائه ؟ لكي لا تقول «صديقه» زوجته أن زوجة مدير البريد تلبس احسن من ثوبها - ولذلك اضطر الرجل المسكين أن يدفع الف روبل ثمناً لثوب جديد ! ان الصرخة التي تدوى في هذه البلاد هي «السرور والحفلات الراقصة ، السرور والحفلات الراقصة !» والحفلات الراقصة ما هي الا جنون محض ! انها لا تتفق والروح الروسية او الاصاله الروسية ، ولا يعلم الا الشيطان سبب وجودها في هذه البلاد . فالكهل الناشج ذو المظهر الصلب والحلّة الرسمية السوداء ما يكاد يخطو الى الحلبة حتى يأخذ بهز قديمه ، ورجل آخر قد يكون منغمساً في الحديث مع زميل له حول شأن من شؤون الاعمال الخطيرة ما يكاد يخوضها حتى تجده يذهب تارة الى اليمين وتارة الى اليسار كالعنزة الخرقاء ! انه التقليد الاعمى ، ولا شيء غير التقليد الاعمى ! فاذا كان الفرنسي وهو في الاربعين مثله وهو في الخامسة عشرة ، اصبحنا نتصور أننا يجب أن نكون مثله . لا ، ان الحفلات الراقصة تترك دائماً في النفس شعوراً بارتكاب الخليئة ، ولهذا لا يجب الانسان حتى أن يفكر فيها . انها تترك عقل المرء فارغاً كلياً ، تماماً كما يفعل المتحدث الى ابن هذه الحياة . فابن الحياة كثير الثرثرة ، واذا تحدث فهو يطرُق كل موضوع يخطر

على البال ، ويتكلم بأسلوب ناعم وجمل فصيحة اختارها من الكتب دون أن يعرف حقيقة معناها ، بينما اذا تحدث الى رجل تاجر مثلاً يلمّ بموضوع واحد المأمأ صحيحاً نتيجة تجربته ومراسه فانك ستخرج منه بفائدة عظيمة تزيد عن تلك التي تخرج بها من ألف من الثرثارين . وما هي الفائدة التي يجنيها المرء من الحفلات الراقصة ؟ ولو حاول كاتب ما أن يصفها على حقيقتها ، فمسا لا شكّ فيه أنها ستبدو سخيفة غير ذات معنى ، كالواقع الذي تقوم عليه في هذه الحياة . وهل هي من الاخلاق في شيء ؟ الشيطان وحده يعلم . وليس على المرء الا أن يعلق الكتاب باصفاً» .

بمثل هذه الافكار الساخطة كانت تعليقات تشيتشيكوف على الحفلات عموماً . وقد كان سخطه ، على أية حال ، ينبع من مصدر آخر . فلم تكن ضغينته الرئيسية ضد الحفلات عامة كما كانت ضد تلك الحفلة الخاصة بالذات التي افتضح فيها امره وعرف الناس أنه يلعب لعبة غامضة غريبة . وبطبيعة الحال ، عندما أعاد النظر في هذه الحادثة المؤسفة على ضوء العقل السليم وجد أنها لن تضر شيئاً ، فبضع كلمات نابية لا قيمة لها ما دام الهدف الرئيسي قد تمّ بلوغه . ولكن الانسان مخلوق غريب . إذ أخذ الالم ينهش قلبه تشيتشيكوف لهذا الاعراض الذي قوبل به من طائفة لا يكتفون لها أي احترام ، طائفة ادان هو نفسه غرورها وضحالة تفكيرها . وعندما أعاد النظر في الامر مرة أخرى واوسعه تفكيراً زاد سخطه إذ وجد أن

السبب في هذه الكارثة يقع عليه جزئياً . ولكن ليطيّن القارىء بالا ، فلم يكن سخطه هذا على نفسه . لأن الكل منا يمكن فيه هذا النقص البسيط ، الذي يتلخص في ان يستغنى نفسه من ارتكاب الاخطاء وأن يبذل قصارى جهده دائماً في التفتيش على مخلوق ينحى عليه باللائمة ويلقي عليه التبعة وقد يكون هذا المخلوق خادماً او موظفاً صغيراً او زوجة ، واخيراً على كرسي صادف أن طار في اللحظة غير المناسبة حتى ارتطم بالباب بعنف فانخلع عنه ذراعه وظهره وليعرف الى أي حد يصل الغيظ . وبالمثل ، فقد فتش تشيتشيكوف على ضحية يلقي عليها تبعة ما اساءه . وكان كبش الفداء في حالتنا هذه نوزديف . فقد صب عليه جام غضبه وشرع يضربه من كل حذب وصوب دون شفقة او رحمة كما يفعل النقيب او حتى الجنرال عندما يشتم عمدة القرية او الحوذي متجاوزاً أصول الشتم الكلاسيكية المتعارف عليها ، ليضيف اليها قسطاً كبيراً جداً من بنات افكاره . خلاصة القول ، ان نوزديف قد وضع على المشرحة ودرس حسبه ونسبه ، فكان على اسوأ ما يكون انسان .

ولكن بينما كان تشيتشيكوف جالساً في كرسيه غير البطين تضحيه الافكار والأرق ، ويكيل بالصاع والذراع لنوزديف ولكل اهله ، وشمعة الودك تشحب امامه ، لأن فتيلها قد تفتى بقبعة سخام سوداء مهدداً بين لحظة وأخرى بالانطفاء ، واللبليل الأعمى القاتم يطل عليه من النافذة ، وهو يتنهد للذوبان من الفجر

المقرب ، وفي البعيد تصابحت دبكة منفردة ، وفي مكان ما من البلدة الهاجعة تماماً ربما سار رجل يخفق في معطفه الخشن ، بانس من طبقة أو رتبة مجهولة لا يعرف (وا أسفاه!) غير الطريق التي دكتسه كثيراً أقدم الصعاليك الروس - وفي هذه الآونة ، كان يدور في طرف المدينة الآخر حدث قدر له أن يزيد في كبر بطلنا واحراج مركزه . ففي أزقة المدينة وشوارعها كانت تفرق عربة من الصعب أن نعطي لها اسماً ، فهي من نوع خاص قائم بذاته تشبه أكثر ما تشبه بطيخة كبيرة تكمشت قشرتها ، تحملها أربعة عجلات . وخدا هذه البطيخة ، أقصد بابيها الذين كانا يحملان آثار طلاء أصفر ، كانا ينقلقان بشكل سيء جداً بسبب سوء حالة المقابض والاقفال التي كانت مشدودة بجبال في بعض الأماكن والبطيخة نفسها كانت مملوءة بالنضد من القطن على شكل اكياسي التبغ ، والمساند والمخدات الاعتيادية ، ومحشوة باكياسي الخبز ومختلف أشكال الكمك المصنوع من العجين المسلووق وفتائر الدجاج والمحشوة بالحنطة السوداء. تطل حتى الى فوق . ومرقى العربة الخلفي يحتله شخص ينتصب الى الخدم ويرتدي سترة من نسيج يدوي زاهي اللون ، وجهه غير حليق وخطه الشيب ، وباختصار شخص يعرف عندنا باسم «الصغير» . ايقط الضجيج والزعيق اللذان ترسلهما الكلايب الحديدية والبراغي الصدئة شرطياً في الطرف الآخر من البلدة ، فرقع مطرده ، وصاح بكل ما لديه من قوة ، وهو بين النوم واليقظة «من القادم؟» ولكنه

حين لم ير أحداً قادماً ، ولم يسمع إلا دربكة بعيدة ، اصطاد على ياقته حيواناً مفترساً ، وتقدم من الفانوس ، وأعدمه بأن قصعه تحت اظفره . وبعد ذلك ترك المطرد وغفا من جديد وفق ميثاق فروسيته . وكانت الخيول تقع ، بين الحين والآخر ، على قوانينها الامامية ، لأن حوافرها لم تكن ذات حدوات ، بالإضافة الى انها كانت قليلة المعرفة بجادة البلدة المرصوفة الهادئة . سار هذا الشيء العجيب من شارع الى آخر حتى انطفأ أخيراً الى زقاق مظلم ماراً بكنيسة القديس نيقولاى الصغيرة وتوقف . عند باب بيت تسكن فيه زوجة كاهن هذه الكنيسة وقفزت منه فتاة ترتدي سترة قصيرة ، وتضع على رأسها شالاً . واخذت تفرق الباب قرعاً شديداً يحسده عليها أى رجل (فيما بعد سحب الصغير ذو السترة الزاهية اللون من رجليه ، لانه كان يغط في نوم اهل الكهف) برهة غير قليلة من الزمن حتى اثارت كلاب الهى نباحاً . وانفتح الباب أخيراً ليبدخ في هذا الشيء العجيب السمج الى فناء البيت الضيق المزحوم بالاخشاب ، وخنن الدجاج ، ومختلف الاقفاص الصغيرة . عندئذ نزلت من العربة السيدة الملاكة واذا بها مدام كوروبوتشكا ! كان سبب قدومها المفاجئ هو انشغال بالها على نزوة تشتيشيكوف فظلت بعد تركه ايتهاها ثلاث ليال متتالية لا يغمض لها جفن . وبناء على ذلك ، وعلى الرغم من أن خيولها غير ذات حذاء ، انطلقت الى المدينة لتسأل قبل كل شيء عن سعر النفس الميتة الدارج في تلك الآونة ، ولتعرف فيما اذا لم تكن قد

باعثها - لا سمح الله - بثلت الثمن الحقيقي مثلا .
وسيعرف القارى نتائج رحلتها من حديث دار بيسن
سيدتين ، نحفظ له به فى الفصل القادم .

الفصل التاسع

فى صبيحة اليوم التالى ، قبل موعد تبادل الزيارات
المعتاد ، برزت سيدة بمعطف صوفى ثمين ، من رتاج
بيت خشبى ، يرتقالى اللون ذى مخزن علوى صغير
وصف من الاعمدة الزرقاء . وبرز معها تابع بمعطف طويل
متعدد الحواشى ذو قبعة لماعة مزينة بالاشرطة الذهبية .
وبسرعة وكبرياء صعدت السيدة السلم الذى انزل اليها
من عربة كانت واقفة امام المدخل . وما تم ذلك حتى
اقفل التابع خلفها الباب ورفع السلم الى موضعه
وامسك بالنطاق الجلدى الموجود فى مؤخرة العربة
وصاح بالسائق «هيا انطلق» . وسبب هذا كله ، هو
نتف من الاخبار كانت هذه السيدة تتحرق شوقا للافضاء
بها الى صديقة لها . واخذت تنظر بين الفينة والاخرى
من نافذة العربة فترى والحق بالغ منها أشده انها
لم تتجاوز منتصف الطريق بعد . بدا لها ان واجهات
البيوت كانت أطول مما هى عليه فى العادة ، وعلى
الاخص واجهة المستشفى الحجرى الابيض ذى صفوف
النوافذ الضيقة فقد لاح انها لا تكاد تنتهى . وصرخت
السيدة بعد لآى تقول «أف لهذه البناية اللعينة ! انها
عديمة النهاية قطعاً !» ثم رفعت من صوتها تحت السائق

قائلة «اسرع يا اندروشكا . فىم هذا التباطؤ الشديد فى
مطلع النهار ؟» وتم البلوغ الى الهدف اخيراً ، ووقفت
عربة امام بيت خشبى من طابق واحد ، ذى لون رمادى
غامق ونقوش بيضاء محفورة على الشبابيك ، وقام امام
الاخيرة سياج خشبى طويل وحديقة ضيقة فيها بضع
شجيرات نحلية بدت بحلة بيضاء ناشزة اكتستها من
غبار الطريق . وكان فى نوافذ البناية ايضاً بعض
الانصص ذات الزهور وبغايا فى قفص ترقص على ارضه
تارة وتتلق بمنقارها فى الحلقة المدلاة من سقفه
تارة اخرى . وكان امام الباب ايضاً كلبان اليقان نائمان
تحت اشعة الشمس . فى هذا البيت كانت تسكن صديقة
السيدة الحيمة . والمؤلف يجد صعوبة فائقة فى ان
يسمى كلتا السيدتين ، بشكل لا يسبب غضب الناس
عليه مرة اخرى ، كما حدث من قبل ان اطلاق لقب
عالمى مختلق عليهما شىء خطر . فان اى لقب تختلقه لا
بد ان يكون له وجود حقيقى فى ركن من اركان دولتنا ،
بسبب سعتها . وسيغضب حامل هذا اللقب حتماً غضباً
يهون دونه الموت . وسيقول ان المؤلف جاء الى بلده
سراً وعن نية مقصودة ليعرف من هو ، واى معطف
يلبس ، ومن هى اغرافينا ايفانوفنا التى يزورها
باستمرار ، واى الاطعمة يحب . واذا سماها برتبتها ،
فالعاذ بالله ، الامر اخطر . فان جميع الرتب والفئات
عندنا الآن فى منتهى الحساسية ، بحيث يتصورون ان
كل ما يضمه كتاب مطبوع يسبهم شخصياً . مثل هذا
الموقف شائع ، كما يبدو . يكفيك ان تقول ان فسى

البلدة الفلانية يوجد شخص أحق ، حتى يقولوا : هذا يعني . فتفاجأ بأن يصرخ عليك شخص محترك الحياة «أنا أيضاً شخص ، إذاً أنا أحق أيضاً» وباختصار يفتن الى حقيقة الامر . ولهذا السبب ، وحذراً من كسل الملابس سنسمى السيدة التي وصلت اليها الضيفة كما كان أهل مدينة «ن» يسمونها بالاجماع تقريباً : أى السيدة اللطيفة من كل النواحي . وقد اكتسبت هذه التسمية بطريقة شرعية ، لأنها بالفعل لم تكن تضمن بشيء لتبدي اللطف فى أرقى درجاته ، ولو كانت تتسرب ، من خلال اللطف ، خفة نشطة من النوع الانثوى ! فقد كان يطل ، وان لم يكن دائماً ، طرف ديبوس لاذع . والله يساعد المرأة التى ينغرز فى قلبها هذا الديبوس ، اذا بادرت فوقفت امامها بشيء ما ، وعلى نحواً . ولكن كل ذلك كان مغلفاً ، بارهف آداب السلوك المتاحة لبلدة اقليلية . كانت كل حركة تقوم بها تتم عن ذوق ، بل وكانت تهوى الشعر ، وأحياناً كانت تجيد حتى التطلع برأسها حاملة - وكان الجميع متفقين على أنها بالضبط سيدة لطيفة من كل النواحي . أما السيدة الأخرى ، أى الزائرة ، فلم يكن فى خلقها هذا التعدد فى النواحي ، ولهذا سنسميها : امرأة لطيفة فقط . ايقظ قدوم الزائرة كلبين ، صغيرين كانا نائمين فى الشمس وهما أديل الأشعث الذى كان يتشربك بشعره دائماً ، وبوبورى النحيل القوائم . وأندفع كلاهما نابحاً ، وقد دور ذيله ، الى الرواق حيث كانت الزائرة تخلع عنها عباءة السفر ، وتطلع فى

نستان على الموضة فى نقشه ولونه ، وذبول طويلة تخرج من رقبتها . وامتلأت الحجرة كلها بعطر الياسمين . وحالما علمت الصديقة اللطيفة من كل النواحي المذكورة بقدوم الزائرة هزلت تركض الى القاعة واشتبكت السيدتان فى العناق والتقبيل . وزعقتنا كما تزعم طالبتان تلتقيان بعد تخرجهما من مؤسسة تربوية بوقت قصير ، قبل أن تلحق أم احدهما أن تبلغ ابنتها بأن أبا صديقتها أفقر واقل مرتبة من ابيا . كانت القبلة تصدر صداحة ، لان الكلبين عادة ينبهان من جديد ، وضرباً بالمنديل جزءاً على ذلك . وانسحبتا الصديقتان بعد ذلك الى غرفة الاستقبال الزرقاء بالطبع فيها أريكة ومنضدة وردية بيضوية ، بل وحاجز له ظليلية من البلاط . وجرى وراهما أديل الأشعث يولول ، وبوبورى الطويل ذو القوائم النحيلة . قالت ربة البيت وهى تجلس ضيفتها فى ركن الأريكة «هنا ، تعالى هنا ، فى هذا الركن» وحشرت وراء ظهرها مخدة طرز عليها بالصوف فارساً ، بالشكل الذى يرسم فيه الفرسان دائماً على الطنافس : الالف بارز كالدرج ، والشفتان مربعتان . وقالت الصديقة اللطيفة من كل النواحي «كم أنا مسرورة لرؤيتك ! عندما سمعت صوت عربة قادمة عجبت ممن قد يزورنى فى هذا الوقت المبكر . وقالت لى برأشا أن الزائرة يجب أن تكون زوجة وكيل حاكم الولاية ، فهمت أن ابلغهم بأن يقولوا لها اننى غير موجودة فى البيت لكى أتخلص ممن ازعاجها» .

وكان بود الضيفة ان تقوم بمهمتها بالافضاء بما لديها
من اخبار ، الا ان صيحة استغراب مفاجئة من ربة البيت
حولت مجرى الحديث مؤقتا الى ناحية اخرى .
صاحت وهى تنظر الى رداء الاخرى «ما اللف هذا
القماش !»

فاجابت الزائرة «اجل انه لطيف ، ولكن براسكوفيا
فيدروفنا تظن ان من الافضل لو ان المربعات اصغر ،
والرصعات زرقاء سماوية ، لا بنية . وقد بعثوا لاختها
قطعة من هذا القماش ساحرة جداً ، يستحيل وصفها
بكلمات . تصوّرّى : خطوط نعيّلة جداً لا يستطيع ان
يتمثلها الا الخيال البشرى . والخلفية سماوية اللون ،
وبين خط وخط رصعات وحلزونات ، رصعات
وحلزونات . . . باختصار ، من غير مثيل ! ويمكن القول
بلا تردد : لم يشهد العالم لها مثيل» .

«يا عزيزتى ، هذه زركشة» .

«لا ، ليست زركشة» .

«آه ، زركشة !»

ويجب ان نذكر ان السيدة اللطيفة من كل النواحي
كانت مادية بعض الشيء ، ميالة الى الرفض والشك ،
وكانت ترفض اشياء كثيرة جداً فى الحياة .

وعند ذلك اوضحت السيدة اللطيفة فقط ان هذه
ليست زركشة اطلاقاً ، وهتفت :

«ولكن ، اهنتك : بطلت كشكشات الفساتين من
الموضة» .

«كيف بطلت ؟»

«جلت محلها الفسطنونات» .

«اوى ، الفسطنونات ليست جميلة» .

«نعم ، الفسطنونات ، كلها فسطنونات ، والشاحات
كلها من الفسطنونات . وعلى الاكام فسطنونات ،
والكتافيات من فسطنونات . وفى الاسفل فسطنونات .
وفى كل موضع فسطنونات» .

«غير لطيف ، يا صوفيا ايفانوفنا ، اذا كان كل شىء
فسطنونات» .

«اللطيفة ، آنا غريغوريفنا ، الى آخر حد . تخاط
بدرزتين . فتحات اكام عريضة ومن فوق . . . ولكن
لا باس ، سترين وتنهلين ، وعند ذلك ستقولين
انه . . . طيب ، تنهلين . تصوّرّى . حالات الصدر
صارت اطول ، تلتقى فى المقدمة على شكل بروز ،
والنتوء الامامى تجاوز كل حدود . والتنورة تدور كلها
حول الجسم ، كما كان ذلك فى قبة التنورات القديمة ،
يل ويضعون بعض القطن فى الخلف ، يجعلوك «بيسل-
فام» * كاملة» .

«اوه ، ذلك فوق كل حد» - قالت السيدة اللطيفة
من كل النواحي ، وادت براسها حركة احساس
بالكرامة .

ردت السيدة اللطيفة فقط «بالضبط ، فوق كل حد» .
«على كل حال ، لن تجدينى احاكى هذه الموضة . ولك
ان تقولى ما تشائين» .

* الحسناء . كلمة فرنسية كتبت فى الاصل بالحروف
الروسية . المترجم .

«وهل تعرفين ما الذى دفعنى الى المجيء هنا؟» -
قالت الزائرة واخذت تلهث انفاسها بسرعة شديدة
وظهران مزيداً من الكلمات كانت تحوم فوق شفقتها كما
تحوم الصقور استعداداً للانقضاض على الفريسة . ولا
يطاوع انساناً قلبه على مقاطعتها وهى فى حالتها هذه
الا الذى يخلو قلبه من الشعور الانسانى بوصفه
«صديقاً حميماً» . وكانت ربة البيت صديقة من هذا النوع
تماماً ، فبادرت حالاً تقول :

«انى لأعجب كيف يستطيع المرء ان يمتدح هذا الرجل
او يعجب به . وفى رأى انه سافل وضعيع فى اذنى
درجات السفالة والوضاعة . ولو رايته لقلت له هذا
الكلام فى وجهه» .

«نعم ، لكن استمعى لما ساقوله لك» .
«أجل ، انى اعرف ان بعض الناس يرون فيه الجمال
والسحر ولهذا يسمونه ساحراً . اما انا فانى ارى انه
ليس من هذا فى شىء . ألم ترى شكل انفه الغريب؟»
«دعيني ، دعيني فقط ان احدثك ، يا روى ، يا آنا
غريغوريفنا ، اسمحى لى ان احدثك . انها حكاية ،
فاهمة ، حكاية فاضحة ، «سكونابل استوار» - قالت
الضييفة وفى سخنتها ما يشبه القنوط ، وصوتها ضارح
تماماً . ولا ضمير فى ان نذكر ان فى حديث كلتا
السيداتين . الكثير من الكلمات الاجنبية ، والعبارات
الفرنسية الطويلة جداً احياناً . ولكن مهما كان تقدير
المؤلف للمنافع المنقذة التى تقدم اللغة الفرنسية
لروسيا ، ومهما كان تقديره لعادة مجتمعنا الراقسى

«انا ايضاً . . . الحقيقة ، الى اى حد تصل الموضة
احياناً . . . اعجوبة لا مثيل لها ! طلبت من اختى ميلانيا
ان ترسل لى تفصيلاً لمجرد المزاح . وقد بدأت ميلانيا
فى خياطته» .

«اذن ، عندكم تفصيلاً؟» - صاحت السيدة اللطيفة
من كل النواحي ، وصوتها لا يخلو من انفعال» .
«بالطبع ، وارسلتها اختى لى» .
«يا روى ، اعطيتها لى بحق كل مقدس» .
«اه ، وعدت بها براسكوفيا فيدروفنا . الا اذا كان
بعدها» .

«ومن سيلبسها بعد براسكوفيا فيدروفنا ؟ سيكون
هذا مستغرباً جداً . من ناحيتك ، اذا كنت ستفضلين
الغريبات على اقاربك» .

«ولكنها هى ايضاً من قريباتى» .
«قريباتك من بعيد طبعاً ، من جهة الزوج . لا ،
ياصوفيا ايفانوفنا ، هذا لا استطيع حتى ان اسمعه
منك . يعنى تريدن ان تنزلى بى هذه الاهانة . . .
الظاهر اننى اضجرتك ، الظاهر انك تريدن ان تقطعى
اية علاقة بى» .

ولم تعرف صوفيا ايفانوفنا المسكينة ماذا تفعل .
وشعرت بين اية تارين شديدتين وضعت نفسها . هذه
نتيجة فلتان اللسان ا وكانت مستعدة ان توخر لسانها
الاحق بالابر عقاباً على ذلك .
وخلال ذلك قالت السيدة اللطيفة من جميع النواحي :
«طيب ، كيف حال فاتنك ذاك؟»

الحميدة في التعبير عن نفسه بهذه اللغة طيلة ساعات اليوم ، مدفوعاً ، طبعاً ، بشعور الحب العميق لوطنه ، فإنه رغم كل ذلك لا يستطيع أن يحمل نفسه على أن يدخل عبارة بأية لغة أجنبية كانت الى قصيدته الروسية هذه . فلنتابع القول اذن ، باللغة الروسية .
«ما هي هذه الحكاية؟»

«انك لا تستطيعين ان تصوري حالتى النفسىة افقد زارتنى زوجة الاب كيريل هذا الصباح - انت تعرفينها ، اليس كذلك ؟ وهل تعلمين حقيقة زائرنا الظريف ومن تبيّن ان يكون ؟»

«معقول انك تريدن ان تقولى : ان كان يغازل زوجة الكاهن كيريل ؟»

«اوه ، لا يا عزيزتى ! لو كان هذا كل ما فى الامر لما كان شيئاً . اسمعى ما قالته لى زوجة الاب كيريل . قالت ان سيدة ملاكة اسمها مدام كوروبوتشكا وصلت الليلة السابقة الى بيت الكاهن . وصلت شاحبة اللون وهى ترتعش هلعاً وراحت تحدثها عن اشياء يقف لها شعر الانسان رعباً ! حوادث لا يستطيع المرء تصديقها بغير جهد جهيد ، وكانها من نسج الخيال ! ففى هداة الليل وبعد ان اوى الناس الى مضاجعهم ، سمعت دوى قرع مخيف على الباب ، وصوت انسان يصرخ قائلاً : «افتحوا الباب والا كسرناه» تصورى ! وكيف بعد هذا يستطيع المرء ان يقول عنه انه جذاب ؟»

«وما هو شأن مدام كوروبوتشكا فى الموضوع ؟ هل هى فى مقتبل العمر ام على قدر من الجمال ؟»

«اوه ، لا يا عزيزتى ! انها عجوز بلغت من العمر عتياً» .

«يا للغرابة ! اذن هذه هى خطيبته ؟ ان اللعنة تحقق على اذواق السيدات اللواتى وقعن فى حبته» .

«اجل ، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحد ، اثنتين ؟ لقد دخل على هذه العجوز وهو مدجج بالسلاح من قمة رأسه الى اخصص قدمه ، وقال لها يعينى الانفس التى ماتت لديك اخيراً ، وكان جواب مدام كوروبوتشكا بالطبع معقولاً جداً . فقد قالت له «كيف ابيعك هذه الانفس وقد فارقت الحياة ؟» ولكنه اجاب «لا ، لا انها ليست مبيته ، هذا ما اقول لك . فانا الذى يعرف حقائق الامور . واقسم لك انها ما تزال حية» .

خلاصة القول كان مشهداً غريباً جداً ، وتراكنى اهل القرية وتعالى صراخ الاطفال وصياح الرجال ، ولم يفهم احد حتى الآن سبب ذلك كله . وما سمعت بنفسى هذا الكلام حتى كاد يغمى عليّ من الهلع ، ورحت ارتجف ارتجاجاً لا تستطيعين تصوره . حتى ان وصيفتى ماشكا قالت لي «انظرى الى وجهك فى المرآة يا سيدتى العزيزة ، لترى كم هو شاحب» . فاجبتها «لا وقت لى ذلك اذ يجب ان اذهب الى صديقتى آنا غريغوريفنا واحمل اليها هذه الاخبار» . ولم اضع لحظة واحدة فى طلب العربية ، غير اننى عندما جلست فيها وسألنى السائق عن الجهة التى اتجه اليها لم استطع النطق بكلمة واحدة ، ووقفت احدثق فيه ذاهلة ولا ريب انه ظن بى

مساً من جنون . ايه يا آنا غريغوريفنا لو تعلمين مبلغ اضطرابي !»

فعلقت ربة البيت تقول «اية قصة عجيبة هذا ! وماذا يعنى الرجل بالانفس الميتة ؟ ان هذه الكلمات تتمدى ادراكي . ومن الغريب ان الحديث عن الانفس الميتة اخذ يدور بين الناس للمرة الثانية . كان زوجي يقول لي بان نوزديف يكذب ولكن يجب ان يكون فى كذبه شىء من الحقيقة» .

«تصورى حالتى اذن عندما سمعت هذا كله وقد قالت كوروبوتسكا لزوجة الكاهن انها اصبحت ضائعة لا ترى ماذا تفعل ، لان الرجل رمى لها خمسة عشر روبلا واجبرها ان توقع ورقة ما . تأملى المرأة الضعيفة التى لا حول لها ولا قوة والتى لا تعرف شيئاً من شؤون الاعمال ، يرغمها هذا الانسان على بيع نفوسها الميتة ! تصورى مشاعري عندما اسمع ان قصصاً كهذه لا تزال تحدث فى هذه الايام ! تصورى . .»

«لا بد ان يكون هناك شىء اكثر من النفوس الميتة التى تبدو للعيان» .

فوافقت الاخرى قائلة «لا بد ان يكون كذلك» . ولكن ملاحظة صديقتهما هذه وقعت فى نفسها موقع الدهشة والاستغراب واثارت فيها حبّ الفضول . فارادت ان تعرف ما الذى يمكن ان تدل عليه كلمة «اكثر» . ولذلك راحت تقول «وما الذى تظنينه وراء هذا كله ؟»

«لا ، اخبرينى اولاً ماذا تظنين انى» .

«ماذا اظن ؟ انى حائرة لا ادري من الامر شيئاً» .

«اذن اخبرينى بماذا تفكرين» .

واضطرت الزائرة ان تعترف بانها مشتتة الفكر لا تستطيع ان تعمل فكرها باتزان ، بل انها تخشى على نفسها مساً من الجنون ، ولذلك فهم بحاجة الى العطف والنصيحة .

فقات ربة البيت «اذن ، اليك ما اعتقده بشأن النفوس الميتة» - فرفعت الضيفة اذنيها حالاً ، (او بالاحرى ارتفعت الاذنان بنفسهما) واجرت بعض التعديل على وضعها بحيث كادت تصبح جلستها نموذجية ، وعلى الرغم من انها ذات وزن لا يستهان به الا انها اتخذت مظهر الريشة الطائرة فى مهبط الرياح .

تماماً مثل سيد روسى متحمس للصيد والقنص ، اذ يقترب من غابة يتوقع ان يقفز منها بين لحظة وأخرى ارنب بري انهكته الكلاب المطاردة ، فيتحول كله مع حصانه وسوطه الطويل المرفوع الى لحظة جامدة ، الى بارود ، على وشك ان تقرب النار منه . ففرز عينيه فى الهواء المضرب ، وهو يوشك ان يلحق قنصه ، ويشويه قبل ان يذبحه ، وغير خائف ان يثور ضده السهب الثلجى الشاسع كله ، وينثر نجومه الفضية على شفقيه ، وشاربيه ، وعينييه ، وحاجبيه ، وفى قبعته الفرائية .

وابتدأت ربة البيت بالقول «النفوس الميتة . . .» فتساءلت الضيفة بانفعال شديد : «هى ماذا ؟ هى ماذا ؟»

«هى ، هى . . .»

«تكلّمى ، أخبرينى بحق السماوات» .

«هى بدعة تخفى وراءها أمراً آخر . فغاية الرجل الحقيقية هى - هى أن يهرب بابتنة حاكم الولاية» .

كان هذا الاستنتاج غريباً غير منظر أبداً على الزائرة اللطيفة فعدت عند سماعه قطعة من الدهشة الاصيلة الشاحبة المتجمدة . وصرخت وهى تضرب يداً بيد - «يا الهى ! ليس فى طاقتى أن أتصور هذا !»

«هذه هى الحقيقة . وقد عرفتها فى الساعة التى فتحت فيها فمك بهذا الحديث» .

«أذن كفى البنات تعليماً فى المدارس . ها هى ابنة حاكم الولاية قد تعلمت ، فانظرى النتيجة !»

«أى والله ! وقد قيل لى انها تتلفظ بكلمات اجبل من أن ارددها على مسامعك» .

«إن قلب البرء ليعتصر أسى عندما يرى التدهور الخلقى الذى وصلنا اليه فى هذا الزمان» .

«وعلى الرغم من أن بعض الرجال اضاعوا عقولهم فى هواها فهى تافهة فى كل صفاتها لا تستحق الذكر ، وازيدك علماً أن طباعها لا تحتفل» .

«آه ، يا حياتى ، يا أنا غريغوريفنا ، انها تمثال ، وجهها خال من أى تعبير» .

«أى نعم ، متصنعة ، ومتصنعة جداً ، يا ربى ، كم هى متصنعة ! لا اعرف من علمها ذلك ، ولكنى لم ار اية امرأة لها مثل مباحاتها» .

«انها تمثال ، يا ووحى ، وشاحبة كالموت» .

«أوه ، لا اعتقد ، يا صوفيا ايفانوفنا . تحمّر وجهها بشدة» .

«كيف هذا منك ، يا أنا غريغوريفنا . انها مبيضة كالطيشورة ، تماماً كالطيشورة» .

«ذات مرة جلست قربي ، يا عزيزتى . الحمرة بسمك الاصبع ، وتتساقط من وجهها قطعاً كما يتساقط ملاط الجدران . امها علمتها ، فهى نفسها غنجة ، ولكن ابتنها ستفوق عليها» .

«طيب ، تفضلى . اختلفى انت ما تشائين من يمين ، ولكننى مستعدة فى هذه اللحظة أن أحرم من اولادى وزوجى وكل ضيقتى ، اذا كان لها ولو قطرة ، وحتى ذرة ، وحتى ظل من حمرة» .

«ما هذا الذى تقولينه ، يا صوفيا ايفانوفنا !» -

قالت السيدة اللطيفة من كل النواحي ، وضربت كفاً بكف . فقالت السيدة اللطيفة «آه» ، انت تدهشينى حقاً ، يا أنا غريغوريفنا» - وضربت كفاً بكف أيضاً .

ولكن أرجو الا يستغرب القارى من أن السيدتين كلتيهما لم تتفقا فيما بينهما على ما رآته كلتاها فى وقت واحد تقريباً . ففي العالم ، بالفعل ، اشياء كثيرة لها هذه الخاصية ، وهى اذا نظرت اليها سيدة لاحت بيضاء تماماً ، واذا نظرت اليها سيدة اخرى لاحت حمراء ، حمراء كالفراولة .

تابعت السيدة اللطيفة تقول :

«طيب ، اليك دليلاً آخر على انها شاحبة الوجه . اننا ا تذكر ، وكأنا حدث ذلك الآن ، اننى كنت جالسة قرب

ماتيلوف ، فاقول له «انظر ، كم هي شاحبة !» صحيح يجب ان يكون الانسان ابله مثل رجالنا حتى يعجب بها . اما ظريفنا . . . اه ، كم يبدو لي مرفقاً ! لا يمكن ان تصورى ، يا آنا غريغوريفنا ، الى اى درجة يبدو لي مرفقاً» .

«نعم ، ومع ذلك فهناك سيدات ابدن له بعض الاهتمام» .

«آنا ، يا آنا غريغوريفنا ؟ لن يمكن ابدأ ان تقول ذلك عني . لن ، ولن ! . . .»

«ولكنني لا اعنيك ، وكانما لم يكن احد غيرك» .

«لا ، ولن ! يا آنا غريغوريفنا ! اسمحى لى ان

انبهك الى اننى اعرف نفسي جيداً . الا اذا كان ذلك

يخص بعض السيدات اللواتى يمثلن دور المحسنات» .

والآن ، اعزىنى ، يا صوفيا ايفانوفنا ! واسمعى

لي ان اقول لك لم تحصل معى مثل هذه الفضائح . مع

الاخريات ممكن ، ولكن ليس معى . هذا ما ارجو ان

اقوله لك» .

«ولماذا ازعجت بهذا الشكل ؟ فقد كانت هناك

سيدات اخريات ، بل وكانت هناك من تدافعن لياخذن

مقاعد قرب الباب ، ليجلسن اقرب اليه» .

وبعد هذه الكلمات التى تفوهت بها السيدة اللطيفة ،

كان لا بد ان تعقبها عاصفة ، ولكن من الغرابة الشديدة

ان كلتا السيدتين هدأت فجأة ، ولم يعقب ذلك شىء .

تذكرت السيدة اللطيفة من كل النواحي ان تفصيله

الفتستان الجديد ليس فى حوزتها ، والسيدة اللطيفة

فقط فطنت الى انها لم تتعرف بعد على اية تفاصيل عن هذا الاكتشاف الذى جعلته صاحبة مخلصه ، ولهذا حلّ السلام بينهما بسرعة . وعلى العموم لا يجوز القول ان آيا من السيدتين كانت فى طبيعتهما تميل الى ايداء الناس ، وخلقهما ، بشكل عام ، خال من اى خبث ، بل مجرد ان رغبة صغيرة قد تولدت اثناء حديثهما لا شعورياً ومن تلقاء نفسها فى ان تلسع احدهما الاخرى . لمجرد ان آيا واحدة منهما تجد قليلا من المتعة حين تقول للاخرى كلمة جديدة لاذعة ، وكان تقول «هاك ، خذى ، تسلمى ، كلي !» ذلك لان رغبات من مختلف الاشكال تظهر فى قلوب الرجال والنساء على حد سواء .

«لكن اكثر ما يعيرنى هو كيف يمكن لرجل مثل

تشيستشيكوف الطارىء على الولاية ان يتورط فى عمل

كهذا العمل . لا شك ان له شركاء فى الجريمة» - قالت

السيدة اللطيفة فقط .

«هذا لا شك فيه ، واستطيع ان اقول ان نوزدريف

هو احد هؤلاء الشركاء» .

«اكيد ؟»

«لا مراء فى ذلك . فقد عرفت عنه مرة انه جرب ان

يبيع اباه ! او على الاقل فقد قامر عليه فى اللعب» .

«حقاً ما تقولين ؟ لقد اثرت كوامن استغرابي . لم

اكن اتصور ان نوزدريف دوراً فى هذه القضية» .

«اما انا فقد كنت دائماً اتنبأ بهذا» .

«ولك ان تصورى . صحيح ما اكثر الاشياء التى

تحصل في هذا الدنيا ! ولكن هل كان من الممكن التنزيه ، عند ذلك ، أنت تذكرين ، وتشميتشيكونف قد وصل الى بلدتنا لتوه ، بان يحدث مثل هذه الضجة الغربية في مجتمعنا ؟ أم ، يا آنا غريغوريفنا ، ليتك تعرفين كم ارتعبت ! لو لا مودتنا وصدقتنا . . . لكنت . . . لكنت حقاً على حافة الهلاك . . . والى أين المهرب ؟ ماشكا تراني شاحبة كالموت وتقول لي «مولاتي العزيزة ، أنت شاحبة كالموت» . - فاقول «لم أعد اهتم بذلك الآن» تلك كانت الحال . وما أن دخل نوزدريف ، أوه ، حتى لا ادري ماذا اقول .

كانت السيدة اللطيفة تود كثيراً أن تطلع على المزيد من التفاصيل عن الاختطاف ، في أي ساعة حصل ، وما الى ذلك . ولكني ما اكثر ما تود . اعلنت السيدة اللطيفة من كل النواحي صراحة بأنها لا تعرف شيئاً . ولم تكن تجيد الكذب . شيء آخر أن تفترض ، ولكن حتى الافتراض ، في مثل هذه الحال ، يجب أن يبني على اقتناع داخلي . ولو كانت تشعر باقتناع داخلي فانها ستقدر أن تدافع عن نفسها ، وعندنا ليجرب أي محام كبير مشهور بموهبته في قهر آراء الآخرين أن يتبارى في هذه القضية ، فسيعرف ما هو الاقتناع الداخلي . وما اقتنعت به كلتا السيدتين أخيراً ، بشكل كلي ، في أن ما كانت تفترضانه سابقاً لم يكن الا مجرد افتراض ، لم يكن شيئاً غير اعتيادي . ونحن ومن على شاكلتنا ، من الناس الاذكياء ، كما نسمى أنفسنا ، نتصرف بهذه الصورة تقريباً ، تعتبر جدالاتنا العلمية

دليل اثبات . في البداية يعالجه العالم معالجة كرجل منزلف ، يبدأ بتهييب واعتدال يبدأ بسؤال في غاية الوداعة : اليس من هناك ؟ ألم يأخذ هذا القطر اسمه من منطقة معينة ؟ أو الا تعود هذه الوثيقة الى عهد آخر أقدم ؟ أم هل نحن متأكدون من أنهم يعنون بهذا الشعب شعباً آخر مختلفاً ؟ وسرعان ما يستشهد هؤلاء وغيرهم من الكتاب القدامى ، وما أن يرى أي تلميح أو مجرد ما يراه تلميحاً حتى يمتلئ صهوة جواده ، ويتشجع ويتناظر مع الكتاب القدامى ببساطة ، ويطرح عليهم الاسئلة ، بل ويجيب هو نفسه عنها ناسياً كلياً انه بدأ بافتراض متهييب . فقد صار يتصور الآن انه يراه ذلك ، وان ذلك واضح ، وينتهي النقاش بهذه الكلمات «هذا حصل بالشكل التالي ، والشعب الفلاني يجب أن يعنى الشعب الفلاني ، ومن وجهة النظر هذه يجب أن ينظر الى الموضوع» وبعد ذلك يعلن على الملأ من على المنبر . وتذيع الحقيقة المكتشفة حديثاً في العالم ، جامعة حولها المحققين والاتباع .

كانت السيدتان ما تزالان تتجادلان بحدة وصياح ، عندما دخل الغرفة عليهما المدعى العام - بحواجب كثرة وعينين رامشتين وقسمات لا حراك فيها . فسارعتا فور المسارعة لأطلاعه على ما لديهما من أبناء ، بالإضافة الى تفاصيل وافية عن شراء الانفس الميتة وعن مشروع هروبه مع ابنة حاكم الولاية واربكتاه كلياً ، بحيث انه لم يستطع أن يفهم شيئاً ، مهما اطال وقفته في مكانه لا بريم ، رامشاً بعينه اليسرى ، ضارباً لحيته بمنديله

ليزيح عنها ذرات التبغ . وبعد هذا انطلقنا الى المدينة لتنوير اهلها . وكانت بحاجة الى ما يزيد قليلا عن نصف ساعة لتنفيذ هذه المهمة على الوجه الاكمل .

كانت البلدة في هيجان شديد ، وكل شيء فسى فوران . ويا ليت أحداً استطاع ان يفهم شيئاً ما . السيدات لم يكن قادرات الا على احداث البلبلة بين الجميع ، ولا سيما بين الموظفين الذين ظلوا ذاهلين مصعوقين لبعض الوقت . فعندما مَثَلُ كل فرد من طائفة الموظفين كمثل تلميذ المدرسة ، وقد اغتتم الفرصة رفاق له آخرون استيقظوا قبله ، فدرؤوا في عينيه قبضة من السعوط وهو ما يزال نائماً . وعندما استنشق السعوط متمللاً بكل قوة انسان نائم ، استيقظ ، وثب من سريره ، وحرق كالابله ، مبجلتاً عينيه في كل الجهات ، ولا يستطيع ان يفهم أين هو . وماذا حصل له ، ثم يميز بعد ذلك الجدران المضاء بشعاع الشمس المائل ، وضحك زملائه ، المختبئين في الزوايا ، والصبح الطالع المطل من النافذة ، بالغابة المستيقظة الصدمة بالالوف من اصوات الطيور ، والجدول المشفّ المتألق بتعرجاته هنا وهناك بين القصب النجيل ، المرقط كلية بجسَاد الاولاد العراة الداعين الى السباحة ، وبعد ذلك ، أخيراً ، يشعر بأن في أنفه سعوطاً . تلك بالضبط . كانت حالة اهالى البلدة وموظفيها في الوهلة الاولى . كان كل واحد منهم يتوقف مبجلتاً عينيه كالخروف . كانت الانفس الميتة ، وابنة حاكم الولاية وتشيتشيكيوف يختلطون ويتشر بكون فسى

رؤوسهم بغرابة غير اعتيادية . وفيما بعد فقط ، بعد الصعقة الاولى ، صاروا وكانهم يميزون بينهم ، ويفصلون بعضهم عن بعض ، واخذوا يطالبون بايضاح ، ويفضون ، وهم يرون الامر يعزّز على كل إيضاح . ما هذا اللغز ، في الحقيقة ؟ ما لغز هذه النفوس الميتة ؟ لا يوجد اى منطق فى النفوس الميتة ، تباع وتشرى . واى احمق سيشتريها ؟ وبأى نقود ممسوحة سيشتريها ؟ ولأى غرض وفى اى عمل يمكن ان يحشر هذه النفوس الميتة ؟ وما علاقة ابنة حاكم الولاية فى هذه القضية ؟ فاذا كان يريد ان يأخذها ، فما حاجته لشراء النفوس الميتة ؟ واذا كان يريد شراء النفوس الميتة فما حاجته لاخذ ابنة حاكم الولاية ؟ هل يريد ان يهدى لها هذه النفوس الميتة ؟ وما هذه السخافة التى تسرى فسى البلدة ؟ واى ادارة هذه ، اذا كنت ما ان تلحق ان تدير رأسك ، حتى تجد شائعة قد شاعت . ويا ليت لو كان لها معنى . . . ولكنها شاعت ، ومعنى ذلك كان هناك موجب ؟ . . . فما هو الموجب فى النفوس الميتة ؟ لا يمكن ان يكون لها موجب . يعنى مجرد سخافات ، سفاسف ، ترثرات حمقى ! والله أعلم اى شيء آخر ! وباختصار كلام فى كلام . واخذت المدينة كلها تتحدث عن النفوس الميتة وابنة حاكم الولاية ، عن تشيتشيكيوف والنفوس الميتة ، وعن ابنة حاكم الولاية وتشيتشيكيوف . وطلع كل شيء الى الخارج . والبلدة التى كانت تبدو هاجعة هاجت كالزوبعة . وخرج من مهاجمهم كل التناابلة والكسالى الذين ظلوا عدة سنين منطرحين فى اريدتهم

الحنزلية ، ملقین اللوم على الاسكاف الذى صنع لهم
جزمات ضيقة لا يستطيعون السير فيها ، او على
الخياط ، او على جودهم السكير . كل الذين قطعوا منذ
زمان كل صحبة ، ولم يكونوا يعرفون غير صحبة المالك
سرحان ، اذا صح التعبير ، والمالك ثامن ، (وهما اسمان
معروفان مشتقان من الفعلين «سرح» و«نام» الواسع
الانتشار عندنا في روسيا ، مثلما تعنى عبارة «قام
بزيارة السيد شافى والسيد شاخر» الغاط في نومة
اهل الكهف على جنبه او على قفاه وفي كل الاوضاع
الاخري المصحوبة بالشخير ونخير الانسف واللوازم
الاخري) كل الذين لم يكن في الامكان اغراؤهم بالخروج
من البيت حتى في دعوتهم الى مادية حساء سمك الحفش
النفيس الذى يكلف مائتى روبل ، مع شرائح من هذا
السمك الدسم الضخم وكل انواع الفطائر التى تذوب في
القم . وباختصار ظهر ان البلدة كثيرة السكان ،
كبيرة ، وماهولة بكل انواع الوافدين . ظهر شخص
يدعى سييسوى* بفنوتيفيتش و آخر باسم مكدونالد
كارلوفيتش ، وهما شخصان لم يسمع بهما احد من
قبل ، وصار يتردد على غرف الضيوف رجل طويل جداً ،
ذو ذراع مصابة ، اطول حتى من اى شخص رآته
العين . وظهرت في الشوارع مركبات مغلقة وعربات
وحجلات من شتى الانواع . واختلط العابل بالنابل .
ان شائعات كهذه ربما ما كانت ستثير اى اهتمام ، اذا
كانت قد وقعت في وقت آخر وفي ظروف اخرى ، ولكن
بلدة «ن» ، لم تكن قد تلقت اية اخبار ، منذ زمن بعيد ،

بل ولم يحصل فيها ، خلال ثلاثة اشهر ، ما يسمنه في
العواصم «كوميراجيه» * . وذلك ، كما هو معروف ،
بمناسبة وصول اغذية في الوقت المناسب ، بالنسبة
للبلدة . وظهر في خضم تفسيرات البلدة اريان مختلفان
تماماً . وانقسمت المسائل الموضوعية على بساط البحث
الى قسمين - مسألة الانفس الميتة ، ومسألة ابنة
الحاكم ، وتشكل تبعاً لذلك فريقان - فريق الرجال
وفريق النساء . اما فريق الرجال ، وهو اقل الفريقين
احساساً بلا جدال ، فقد حصر اهتمامه فى الانفس
البيثة . بينما شغل فريق النساء نفسه فقط في القضية
المزعومة عن خطف ابنة الحاكم . ويمكن ان نذكر هنا
(لصالح النساء) ان فريقهن كان ابرع خطة واشد حيلة
من الفريق المنافس ، وقد يكون سبب ذلك انها يكن
الدائم في ادارة البيوت وتدير امورها . ولهذا سرعان
ما اتخذت القضية عند السيدات شكلا محددآ واضحآ ،
وتبلورت بجلاء ، لا يدحض ، وتبدت لا يشوبها من الريب
شائبة . وقال بعضهم ان تشيشيكوف كان غارقاً فى
حبّ الفتاة منذ امد طويل وان الاثنين كانا يلتقيان في
ضوء القمر ، وان حاكم الولاية كان على وشك القبول
(لا سيما وقد رأى ان تشيشيكوف غنى كيهودى) لولا
عقبة اكتشفها في الطريق وهى ان تشيشيكوف كان
قد هجر زوجة له (اما كيف توصلت السيدات
المحترمات الى ان يعرفن انه كان متزوجآ ، فهذا لا

* من الكلمة الفرنسية "Le commérage" اى الاقاييسل .

يزال غامضاً حتى الآن) وأن السيدة المهجورة السالفة الذكر - وقد اضناها زوجها الغائن حباً - أرسلت كتاباً مؤثراً جداً لحاكم الولاية ، ولما رأى تشيتشيكوف أن الأب والام سوف لا يمنحانه القبول صمم على اختطاف البنت . وفي حلقات أخرى كانت القصة تروى على شكل آخر . فقد أكد قسم منهن أن تشيتشيكوف لا زوجة له ، لكنه كرجل حنكة ودهاء رأى أن يطلب يد الفتاة بأن يوقع أمها في حباله أولاً ويوتق بينه وبينها عرى لا تنفصم ثم يتقدم بعد ذلك بطلبه المنشود . ولكن الام ، مخافة أن تقترب الخطيئة نسي دينها واحساساً منها بوخز ضميرها ردت على تشيتشيكوف برفض صريح . وبعد ذلك كله فكّر تشيتشيكوف بالخطف المزعوم . وقد اضيفت ، طبعاً ، حواشى مختلفة من البراهين والايضاحات تتناسب مع مدى ما وصلت اليه القصة في ارجاء المدينة . ان المجتمعات الواطئة في روسيا مفرمة جداً في الحديث عن الفضائح التي كانت تحصل في المجتمعات الراقية . ولهذا أخذت الاحاديث تجري عن ذلك في مساكن حقيرة لم يقع بصر أهلها على تشيتشيكوف ، ولم يعرفوه ، وحصلت اضافات وايضاحات اكثر . واخيراً ، وصل الخبر بما عليه من تعديلات الى اذن زوجة حاكم الولاية نفسها . وبطبيعة الحال بلغ استيائها أشده لدى سماعها هذه القصص ، ولها الحق ان تفعل بوصفها أما لعائلة وأول سيدة في المدينة وربّة بيت لم يتطرق اليها الشك يوماً من الايام حول هذه الاشياء . وكان على

ابنتها الصغيرة المسكينه ، نتيجة ذلك ، أن تتحمل - على براءتها - أقسى تقريع سمعته فتاة في السادسة عشرة .

وانهرت سيول كبيرة من الاسئلة والاستجابات والتوبيخات ، والتهديدات ، والتعنيفات ، والاستمالات ، حتى أن الفتاة انفجرت تبكي ، وراحت تنتحب ولم تستطع أن تفهم أى كلمة ؛ بينما تلقى البواب امراً بأن لا يسمح لتشيتشيكوف مطلقاً بدخول البيت .

وبعد أن انهى فريق السيدات مهمته مع زوجة حاكم الولاية ، انهال على فريق الرجال بغية اقناعهم بوجهة نظرهن وكسبهم الى ناحيتهن ، مؤكدات ان النفوس الميتة ما هي الا اختراع لتحويل الانظار حتى تنجح مهمة الهروب بالفتاة . وقد تحول في الواقع اكثر من رجل وانضم الى فريق النساء ، على الرغم من ان هؤلاء المنشقين قد تعرضوا لشتائم من رفاقهم السابقين مثل (ابنتها العجوز الشمطاء) و(ابنتها الانثى) والقباب اخرى مسينة للرجال .

وبالاضافة الى ذلك ، فهما حاول الرجال ان يسألوا انفسهم وأن يتقدموا الطليعة الى الميدان فانهم لا يستطيعون ان يضاهاوا النساء في التنظيم وترتيب الصفوف . وقد كان كل امر عند الفريق الاول عتيقاً مشوشاً غير منسجج لا معنى له او في غير موضعه وعلى أسوأ ما يرام . ولم يكن يملاً رؤوسهم غير الخلافات والتفاهات والبلبله والفوضى في التفكير . خلاصة القول ، تجلّت عندهم كل خصائص الرجال عامة

المحتمل أن يكون تشيشتشيكوف مندوباً للحاكم العام لا أكثر ولا أقل ، أرسله ليقوم بتحقيقات سرية ؟ وبناء على ذلك ، أسرى (أى مدير الدائرة الطبية) بظنّه هذا إلى رئيس المجلس المحلى الذى كان عازماً أول الامر أن يقول «هراء» ، إلا أنه شحّب فجأة حينما فكر فى نفسه يقول «وكيف فيما لو كانت النفوس التى اشتراها تشيشتشيكوف ميتة حقاً ؟» - تفكير مرعب ، لا سيما وقد سمح بتسجيل البيع وقام بنفسه بدور الوكيل عن بلوشكين ! ما الذى سيحدث إذا وصلت هذه الاخيار إلى اذن الحاكم العام ؟ وذكر هذا لبعض اصدقائه الذين انقلبوا بدورهم صفر الوجوه ، لأن الرعب أسرع انتشاراً من الطاعون واشد منه فتكاً . وفجأة اكتشف الجميع فى انفسهم ذنوباً لا وجود لها . وكانت كلمة «نفوس ميتة» تحمل اليهم اصداء غامضة ، حتى أخذوا يتصورون أنها تنطوى على ايماءات إلى جثتين دفننا على عجل نتيجة حادثتين وقعت فى وقت ليس بالبعيد . الحادثة الاولى وقعت لبعض التجار من سولفيتشيفودسك وفتدوا إلى البلدة للاشتراك فى سوقها ، وبعد أن باعوا بضائعهم اقاموا مادبة صغيرة لاصدقائهم تجسار اوستيسيسولسك ، مادبة اقاموها على أساس روسى بتحسينات المانية - شراب اللوز ، البونش ، البلمزم وغيرها . وانتهت المادبة بعراك ، كما هى العادة . اتخسوا السولفيتشيفودسكيون فى زملائهم اوستيسيسولسكيين إلى حد الموت ، ولكن دون أن ينجوا هم من كدمات فى الضلوع والصدر دلت على

من خشونة وغلظة عاجزة عن تدبير البيت أو المبادرة إلى الاستنتاج ، طبيعة تظل دائماً وأبداً كسولاً عديمة النفاة مليئة بالشك والتهميب الدائم . فقد أعلن فريق الرجال مثلاً بان القصة هراء كلها وأن هرب ابنه حاكم الولاية هو أقرب ما يكون إلى تأليف رجل آثم من رجال الجيش ، وأن السيدات يكذبن عندما يتهمن تشيشتشيكوف بهذا العمل ، وأن النساء مثل كيس النقود يحتفظن بأى شيء تضعه فيه ، وأن الموضوع الذى يستحق الاهتمام فى الحقيقة هو النفوس الميتة - الشيء الذى لا يعلم معناه إلا الشيطان . إلا أن هناك شيئاً ما غير مالوف فسى طبيعة الامور . سبب واحد جعل فريق الرجال يتأكد من أن النفوس الميتة هى شيء غير مالوف فى طبيعة الامور - وهو انه كان قد تعيّن حديثاً حاكم عام . . . حدث آثار القلق العظيم ، طبعاً ، فى نفوس الموظفين المدنيين جميعهم لما يترتب على ذلك من تنقلات واحكام تائيبية ، كما يترتب عليه من ولائم رسمية يتفضل الحاكم العام عادة بتشريف موظفيه بالحضور إليها . وكان يدور فى تفكير هؤلاء المواطنين ما يلى «يا للهول ! انه لو علم بالوقائع التى تدور الاحاديث الآن عنها فى المدينة فسيعقيم الدنيا ويقعدها وينزل على رؤوسنا البلوى التى لا نستطيع بعدها سماع نهاية هذه الاحاديث» . وعلى الاخص ، مدير الدائرة الطبية ، فقد شحّب لونه اذ تصور أن الحاكم الجديد قد يظن أن «النفوس الميتة» تدل على مرضى فى المستشفيات المحلية قتلتهم الحمى لقلّة العناية بهم . ليس ممن

على تصرفهم الكيفي ، اذا كانوا قد ساهموا ، فعلاً بالقتل . ولكن القضية كانت غامضة ، وقد وجد الشرطي في الطريق ، وسترته الرسمية أسوأ من خرقه . أما وجهه فقد تغير جداً ، بحيث لا يعرف به . وتنقلت القضية بين المحاكم ، ووصلت أخيراً الى المحكمة العليا ، حيث قد اجعت الاراء في بادي الامر على ما معناه : لما كان غير ثابت بالضبط من الذي اشترك من الفلاحين فسي القتل ، والفلاحون كثيرون ، ودروبياجكين قد فارق الحياة الآن ، ولن ينتفع ، حتى ولو حكمت للمحكمة لصالحه - بينما الفلاحون ما يزالون احياء ، ومعنى ذلك ان قرار المحكمة لصالحهم سيكون ذات اهمية كبيرة بالنسبة لهم ، فقد تقرر تبعاً لذلك : ان المختار دروبياجكين نفسه هو المسؤول ، بفرضه مضايقات مجحفة بحق فلاح «ام القمل» و«المشاكس» ، وقد توفي اثر نوبة صرع ، وهو في طريق العودة على زلاجة . وبدت القضية ، وكأنها قد سُدَّتْ ، ولكن الموظفين ، لسبب مجهول ، أخذوا يتساءلون عما اذا كانت للنفوس الميتة الآن علاقة في تلك القضية . ولزيادة متاعب الموظفين أيضاً ، حدث في تلك الآونة بالذات ان وقع في يد الحاكم المحلي وثيقتان في غاية الاهمية . كانت اولهما تشير الى ان هناك في تلك الولاية ، حسب الدلائل والتقارير ، مزيّف للنقود يستتر تحت أسماء مختلفة ، ولهذا يجب البحث عنه بكل جدّ ونشاط . أما الوثيقة الاخرى فكانت كتاباً من حاكم ولاية مجاورة بشأن شرير ائيم نشر الرعب في تلك الولاية ، وفسى

الحجوم الهائلة لقبضات الذين أسلموا الروح . بل ان أحد المنتصرين تهشم «عرينه» على حد تعبير المقاتلين ، أي ان انفه قد سحق ، حتى لم يبق منه على وجه الا ما يزيد عرضه عن نصف اصبع . واعترف التجار في المحكمة بذنبهم ، موضحين انهم اساءوا التصرف قليلا . وسرت شائعات بانهم عرضوا اربعة آلاف روبل على كل رأس مذنب . والقضية كلها ، بشكل عام غامضة جداً . وقد ظهر من كشوف التحقيقات الرسمية ان تجار اوستيسيسولسك قد توفوا بسبب غازات الفحم ، ولهذا دفنوا باعتبارهم محروقين . أما الحادثة الثانية التي حصلت قبل مدة قصيرة ، فكانت كالآتي : وجهت الى فلاحى الحكومة من قرية «ام القمل» بالتعاون مع نفس الفلاحين من قرىتي «الخنزير المخصى» و«المشاكس» تهمة استئصال شافة شرطة الريف مثثلة بالمختار دروبياجكين الذي اكثر التردد على قرىتهم بشكل زائد ، وهو امر كان أسوأ من التحمى الخبيثة في بعض الأحيان . والسبب في هذه الزيارات ، هو ان الشرطي الضعيف القلب ازاء الجنس الآخر كان يغازل نساء القرية وقتياتها . لا شيء مقطوع بصحته ، ولو ان الفلاحين في افاداتهم ذكروا بوضوح ان هذا الشرطي كان فاجراً كهر ، وانهم حذروه مرات عديدة ، بل وطردوه ذات مرة عارياً من بيت تسلل اليه . وبالطبع كان الشرطي مستحقاً للعقاب على نزوات قلبه الضعيف ، ولكن لا يجوز في نفس الوقت التسامح مع فلاحى «ام القمل» و«المشاكس»

لهجة الكتاب ما يوحي بالتحذير بأنه اذا ظهر في مقابلة مدينة «ن» أى شخص مشتبته به لا يستطيع ابراز وثيقة أو جواز سفر ، فيجب القاء القبض عليه حالاً ، وقد لفت هاتان الوثيقتان الرعب والفزع في قلب كل انسان ، لانهما اثارتا كل الاحتمالات والتقديرات السابقة . وبالطبع لم يكن في الامكان الافتراض بان ذلك اشارة الى تشييتشيكوف على نحو ما ؛ وعندما استعرض كل منهم الوضع حسب وجهة نظره تذكر ان لا احد يعرف من هو تشييتشيكوف ، بينما كان كلام تشييتشيكوف عن نفسه وتعابيره الغامضة ، اجل . تعابيره الغامضة تدل على انه قاسى كثيراً في سبيل الحقيقة عندما كان في خدمة الحكومة ، وان له اعداء يطلبون حياته . وكانت استعادة هذا الكلام غذاء لتفكير الموظفين . فربما كانت حياته حقيقة في خطر ؟ وربما كان هناك حقيقة من يبحث عنه ؟ وربما كان قد قام حقيقة بعمل ما ؟ أمّا في واقع الامر ، من هو ؟ لم يكن يبدو عليه انه مزيف نقود ، بله لص ، لأن مظهره الخارجى كان في اعلى درجات الاحترام . لكن من هو ؟ واخذ هؤلاء السادة الموظفون يطرحون على انفسهم هذا السؤال الذى كان يجب ان يوجهوه في البداية ، أى في الفصل الاول من قصيدتنا هذه . واخيراً ، صمم الموظفون على اجراء تحقيق مع اولئك الذين اشترى منهم النفوس حتى يتسنى لهم الاطلاع على الاقل على ماهية المشتريات وما ورائها وفيما اذا كان قد اوضح لاحدهم - عرضاً - عن مآربه الحقيقية او اطلع احدهم على هويته . وكان اول من

قصده في هذا الشأن - طبعاً - كوروبوتشكا . الا ان المعلومات التى اخذوها من هذا المصدر كانت ضئيلة جداً . كانت مجرد رواية عن انه اشترى منها بعض النفوس بخمسة عشر روبلا ، ووعدها بان يشتري منها كمية من الريش وبضائع اخرى في المستقبل لانه متمهد الشحوم للحكومة ، وهذا امر يدل الى حد ما على ان الرجل سافل خاصة وان هناك شخصاً آخر مماثلاً اشترى كمية من الريش الا انه غش كل من عاملوه ، وغش زوجة الاب بالذات بمبلغ اكثر من مائة روبل . وما قالته فيما بعد كان تكراراً تقريباً لما قالته وكانت نتيجة التحقيق النهائية مع السيدة ان اقتنع الموظفون بانها عجزت غيبية ثرارة . اما مانيلوف فقد اجاب بانه يستطيع ان يتكلم عن تشييتشيكوف كما يتكلم عن نفسه وانه مستعد للتضحية بكل ثروته في سبيل ان يحوز على عشر المواهب التى يحوزها بافيتش ايفانوفيتش . واخيراً ، قطب حاجبيه بحدة والقى خطاباً يمدح فيه تشييتشيكوف بأحسن التعابير الخلافة داعماً اقواله بمشاعر شتى من الصداقة والمواطف بوجه عام . وكان خطابه في الحقيقة كافياً للدلالة على الاحاسيس العاطفية الجياشة في قلب المتكلم ولكنه لم يثر السبيل امام سانلييه فسئ الموضوع الذى يتفنون . اما سوباكيفيتش فقد اجاب بانه يعتبر تشييتشيكوف انساناً ممتازاً وان النفوس التى باعها له كانت حية بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولكنه لا يستطيع ان يعيب عما قد يحدث لها في المستقبل ،

وان اى كارثة قد تحل بالنفوس اثناء نقلهم سوف لا تكون غلطته لان الله سبحانه وتعالى هو رب الجميع وفى يده مقادير الامور ، وان الحيات والموارض المميتة الاخرى كثيرة جداً فى هذا العالم ، وهناك امثلة على قرى هلكت برمتها بالابوئة والامراض . وبعد هذا كله ، وجد الموظفون انفسهم مضطرين الى اتباع طريقة اخرى ، ومع انها لا تستساغ الا انها تستخدم غالباً - الا وهى ارسال خدم بكل هدوء كى يتصلوا بخدم الشخص الذى يطلبون المعلومات عنه ، وان يعرفوا منهم (اى من الخدم) بعض التفاصيل عن حياة سيدهم السابقة وماضيه . ولم يستطيعوا الحصول حتى من هذا المصدر الا على النزر اليسير لان بتروشكا تكرم على سائليه فقط برائحة غرفته ، واقتصرت اجوبه سبيلفان على ان سيده كان فى خدمة الدولة ، واشتغل ايضاً فى الجمارك . لهذه الطبقة من الناس عادة غريبة للغاية . اذا سالت احدهم سؤالا مباشراً عن شىء ما ، لم يتذكر شيئاً ، ولا يلم كل شىء فى ذهنه ، بل يكفى بالرد انه لا يعرف ، واذا سالته عن شىء آخر اخذ ينسج ، ويتحدث بتفاصيل لا تريد ان تعرفها . باختصار ، كان المجموع الكلى للمعلومات التى حصل عليها الموظفون هو جهل هوية تشيتشيكوف . لكنه يجب ان يكون انساناً ما . وعلى ذلك فقد تقرر ان يعقد اجتماع للبحث النهائى فيما يجب عمله ، وفيمن يمكن ان يكون تشيتشيكوف ، وفيما اذا كان شخصاً يخشى جانبه ويجب اعتقاله لانه انسان لا يستحق الاحترام ،

او فيما اذا كان شخصاً يستطيع ان يرهبهم ويعتقلهم لانهم هم انفسهم الذين لا يستحقون الاحترام . وقرّ الراى على عقد الاجتماع فى بيت رئيس الشرطة الذى يعرف عنه القراء انه اب وراع للمدينة .

الفصل العاشر

وما ان اجتمع الموظفون فى البيت الذى سبقت الاشارة اليه ، حتى راى كل واحد منهم ان الآخرين قد اصابهم الهزال فاصبحوا ارقّ عوداً من جراء هذه المتاعب المثيرة . اجل ، فان تعيين الحاكم العام الجديد ، والاشاعات المندلعة ، ووصول الوثيقتين الخطيرتين السالفتين - كل هذه الامور تركت آثاراً جلية على ملامح كل فرد من الحضور . واصبحت بعض المعاطف كبيرة على لابسها ، وذوت بعض البننى مثل بنية رئيس المجلس المحلى ومدير الادارة الطبية والمدعى العام . حتى ان شخصاً باسم سيمون ايفانوفيتش (ولم يكن يدعى باسم عائلته ابدأ لسبب ما ، انما كان يلبس فى الاصبح خاتماً اعتاد ان يبهر به ابصار صديقاته السيدات) صغر حجمه حتى كاد يسقط خاتمه من اصبعه . لكن كان هناك عدد من الافراد الوقحين - كما يحدث دائماً فى شذائد كهذه - استطاعوا ان يحتفظوا بكامل قواهم الجسدية والعقلية ، وان كانت الاخيرة لا تزيد حجماً عن الذرة البسيطة . وكان مدير

البريد احد هؤلاء . كان معتدل المزاج ، وفي مناسبة كهذه كان يقول «لقد عرفناكم ايها الحكماء الكبار ، وقد رأينا منكم ثلاثة او اربعة ياتون ويذهبون ، بينما نحن نجلس على هذه المقاعد منذ ثلاثين عاما» . وكان موظفون آخرون يردون على ذلك عادة «وضحك جيد . شيرينغ زي ديتش يا ايفان اندريتش . انت مسؤول عن البريد تتلقى وترسل الطرود . الا اذا تحاييل فتخلق المكتب قبل الموعد بساعة ، او تأخذ رسماً اكثر على استلام رسالة من تاجر جاء متأخراً عن الموعد المقرر ، او ترسل طرداً ممنوعاً - وبالطبع ، كل انسان هنا سيكون قديساً . ولكن قد يتردد عليك كل يوم شيطان لا يفنا يدس في يدك شيئاً ، وانت لا تريد ان تأخذه ، ولكنه يدسه لك . بالطبع لست مثقلاً بالاعياء ، فانت والد ابن واحد . ولكن هناك ، يا اخ ، هذا وذاك من الناس ، يمن الله عليهم كل سنة باين او ابنة . ونغمته تختلف عن نغمتك» . بهذا الشكل كان يتكلم الموظفون . ولكن ليس من شان المؤلف ان يحكم فيما اذا يجب ان يقف الانسان ضد اغراءات الشيطان ام لا . الا ان الميزة الطاغية في هذا الاجتماع كانت غياب ما يعرف عادة «بالذوق» . ونحن الروس ، بوجه عام ، لا نظهر بالمظهر اللائق في الاجتماعات الجادة ابتداء من اجتماعات الفلاحين في القرى الى مختلف انواع اللجان العلمية وغيرها لاننا مالم نجد قائداً ذا سلطة معنوية يسيطر بها على الباقين فان الامور دائماً تنقلب الى فوضى . لماذا يجب ان يكون ذلك كذلك ؟ لا يستطيع امرؤ ان يجيب . على اية حال ،

نجاحاتنا تتجلى في الاجتماعات التي يكون موضوعها الولايم والحفلات - اي الاجتماعات التي تعقد في النوادي والمطاعم ذات الادارة الالمانية . ولكننا مستعدون ، على ما اظن ، لكل شيء ، في كل لحظة . ومثل هبة الريح ننشر فجة الجمعيات الخيرية والتشجيعية ، وما نشأ من الجمعيات . وقد تكون الغاية نبيلة ، ولكن لن تثمر شيئاً أبداً . ولعل مرجع ذلك اننا نشعر بالرضى عن انفسنا فجة ، ومنذ البداية ، ونعتبر كل شيء قد انجز . فمثلا ننشي جمعية خيرية للفقراء ، ونتبرع بمبالغ كبيرة ، ونقوم على الفور تكريماً لهذه المكرمة بمادبة غداء لجميع الموظفين الكبار في المدينة ، ننسق فيها ، بالطبع ، نصف مجموع المبالغ التي تبرعنا بها . ونصرف النصف الآخر على استئجار مقر فاخر للجنة الجمعية ، فيه تدفئة وحراس ، وبعد ذلك لا يقسى للفقراء من كل المبالغ غير خمسة روبلات ونصف ، وحتى هذا المبلغ لا يتفق جميع اعضاء اللجنة على وجوه انفاقه ، ويأخذ كل عضو بتزكية احد اقاربه . مهما يكن من امر ، فان اجتماعنا الحالي لسـم يكن من هذا النوع ، انما هو اجتماع دعت اليه الضرورة لبحث الكارثة التي تهدد كل موظف من الحاضرين . وبالتالي عليهم ان يكونوا اكثر تلاحماً ووثاماً ولكن ما حدث كان العكس . وبالإضافة الى التباين العظيم في الآراء ووجهات النظر التي طرحت آنذاك ، فقد كانت تظهر على جميع المتكلمين موجة طاغية من التردد والحيرة جعلتهم يؤكدون أموراً في لحظة معينة ثم يعددون الى نقضها في اللحظة التي

تليها . الا ان امراً واحداً على الاقل لاح انهم اتفقوا عليه ، وهو ان مظهر تشيتشيكيوف وحديثه كانا على درجة من الاحترام لا يمكن ان يكون معها مزيفاً او لصاً متسترأ . اقول ، لاح انهم كلهم متفقون على هذه النقطة من البحث حتى ظهرت صيحة فجائية من مدير البريد الذى كان جالساً منذ مدة مضت مستغرقاً فى التفكير .

صاح يقول «استطيع ان اخبركم من صو تشيتشيكيوف ا»

فاجاب الجميع فى هياج شديد «من اذن ؟»

«انه ليس غير الكابتين كوبيكين»

«ومن يكون هذا الكابتين كوبيكين ؟»

فنشق نشقة من السعوط (فعل ذلك وغطاه العلبة مفتوح نصف فتحة مخافة ان يتدخل غريب فيدخل اصابعه المتسخة فيها) وراح يقص القصة التالية .

قصة الكابتين كوبيكين

«بعد انتهاء حملة نابليون عام ١٨١٢ ، ارسل انسان جريح الى بيته ، اسمه الكابتين كوبيكين . وكان هذا الشاب عنيداً جريئاً يتدفق حيوية ويضفى حيويته هذه على كل شىء امامه سواء كان فى العمل ام كان فى السجن . وبما انه فقَدَ ساقه وذراعه فى معركة

كراسنى او معركة لايبزيغ (لا يهم ايهما) ، ولم يكن فى تلك الايام تمويزات للجنود الجرحى ولم يعد قادراً على العمل بيده اليسرى فقط ، لذلك انطلق ليرى اياه فى امر تدبير قوته . ولم يكن فى قدرة الاب ان يعيل ابنه لسوء الحظ ، واطلع الابن على ذلك . فصمم الكابتين على الذهاب الى بطرسبرج وطلب المساعدة منها نظراً الى انه خاطر بحياته فى سبيل وطنه واهرق الكثير من دمه فى الدفاع عن بلاده . ولكم ان تتصوروه فى عربة الشحن التى اقلته وهو يطل على العاصمة - العاصمة التى لا يشبه لها فى مدن العالم ! وانبسطت امام عينيه صور الحياة كلها ، صور كأنها الف ليلة وليلة قام بتكوين اجزائها نيفسكى بروسبكت وشارع جوروخافايا والبروج الملتفة التى لا حصر لها والجسور التى لا تستند الى شىء - نينوى اخرى كانت فى الواقع ميسولة امام عينيه . وتنقل يبغى استنجار بالستانر والسجاد العجمى وفاخر الاثاث ، وراى ان استنجارها يعنى استهلاك القسم الاكبر من ماله . حقاً ان المرء اذا سار فى شوارع بطرسبرج فانه يخيل اليه انه يشم الروبلات بالآلاف ، ولكن جيب صديقنا كوبيكين كان خالياً الا من بضع قطع نحاسية وقليل من الفضية لا تكفى لشراء ضيعة على اية حال . واخيراً ، تمكن من ايجاد ماوى له فيما يشبه الحانة حيث تكون حصة النازل فيه طاساً من حساء الكرنب وقشرة من خبز ، مقابل روبل واحد فى اليوم . ولما شعر بأنه لا

يستطيع أن يقيم طويلا على حصة كهذه ، استئثار الناس فيما يفعل . فقالوا له «ماذا تفعل ؟ الحكومة ليست هنا ، انها فى باريس ، ولم ترجع الجيوش من الحرب بعد . لكن هناك لجنة مؤقتة ومن الافضل ان تذهب اليها وترى ما يمكن ان تفعل لك» . فقال «حسنا ، سأذهب الى اللجنة وأقول لها اننى اهرقت دمي وضحيته بحياتى فى سبيل وطنى» . واستيقظ مبكراً صباح ذات يوم وحلق لحيته بيده اليسرى (لان تكاليف الحلاقة غير ذات بال) وانطلق يساقه الخشبية ليقابل رئيس اللجنة . ولكنه سال اولاً عن محل سكنى الرئيس فقيل له ان بيته فى «كورنيش القصر» . ولم يكن البيت كوخ فلاح طبعاً ، انما كان يعج بالشبابيك المتألقة والمرايا الضخمة والتماثيل والخدم ومقابض الابواب النحاسية ! انه فى الواقع من ذلك النوع من المحلات التى لا تدخلونها الا بعد ان تشتروا قطعة رخيصة من الصابون وتغسلوا انفسكم بها ساعتين كاملتين . وقام على المدخل أيضاً بواب ضخم يهراوة فى يده وياقة مطرزة على عنقه كانه كلب سمين افطس الانف اتخم اكله . مهما يكن من امر فقد تمكن صديقنا كوبيكين من الوصول بنفسه وبرجله الخشبية الى صالة الاستقبال . وانزوى فى احدى الزوايا خشية ان يصدم كوعه الصينى المذهب ، وجلس ينتظر وهو مقتبط جداً لوصوله قبل ان يغادر الرئيس فراشه وقبل ان يقدم الخدم له الطشت الفضى اللصاع لغسيل وجهه . ومع كل ذلك فقد

انتظر اربع ساعات حتى جاء خادم الصباح يقول «سيكون الرئيس هنا حالاً» . كانت الغرفة عندئذ تعج بالناس وكانها خلية النحل . وما غادر الرئيس غرفة الافطار ودخل الى صالة الاستقبال حتى حمل معه . . . ايه ! . . اية عظمة واية مخفخة ، انها ابته العاصمة كلها ! واخذ ينتقل بين الحضور من شخص الى آخر وهو يقول «ماذا تريد ؟ ماذا تريد ؟ ماذا تستطيع ان افعل لك ؟ ما شأنك ؟» واخيراً وقف امام كوبيكين ، فقال كوبيكين له «انى اهرقت دمي وفقدت ساقاً وذراعاً فى سبيل بلادي ، ولا قدرة لي الآن على العمل . فهل لي ان اجرؤ اذن واطلب القليل من المساعدة اذا كانت القوانين تسمح بها ؟ او منحة او معاشاً تقاعدياً او اى شئ من هذا القبيل ؟» عندئذ نظر الحاكم فرأى ان احدى ساقيه كانت حقاً خشبية وان الكم الايمن المعلق فى معطفه كان فارغاً . فقال له «حسن جداً ، أرجع لى مرة ثانية فى غضون بضعة ايام» . فشرع كوبيكين بسرور لدى سماعه هذا الكلام ، وقال فى نفسه «الآن قمت بمهمتى» ولكم ان تصوروا كيف راح يعرج على الرصيف ، وكيف عرج على حانة فى الطريق واحتمى كاساً من الفودكا ، وكيف طلب ضلع خروف وعصير البرتقال واشياء اخرى للغداء ، ثم كيف طلب زجاجة من الخمر وكيف ذهب الى المسرح فى المساء . باختصار ، اعطى نفسه حقها على خير ما يرام . وبالتالي ، رأى فى الشارع فتاة انجليزية كأنها الاوزة فى تيهها ، فاندفع يعبو خلفها برجله الخشبية . ولما رأى انه لن يلحق

بها قال لنفسه «لكن ، لا . لتذهب هي وامثالها الى الشيطان ! سانتظر حتى اتسلم تقاعدى . فقد كفى ما قمت بصرفه حتى الآن» . وذهب بعد يومين او ثلاثة ايام لمقابلة رئيس اللجنة مرة ثانية . وقال له «يسرني ان اعرف ان كنت تستطيع الآن ان تعمل لي شيئاً لقا، دمي الذي امهقت والامراض التي عانيت والجروح التي بها اصبت في خدمة الوطن والعيش» . فقال له الرئيس «يجب ان اخبرك اولاً ان قضيتك لا يمكن البت فيها دون مصادقة من الحكومة العليا . وبغير هذه المصادقة لا نستطيع ان نعمل شيئاً . وانت ترى ان معظم الامور تبقى معلقة حتى رجوع الجيش من الحرب . كل ما يمكنني ان انصحك به هو ان تنتظر عودة القيصر وان تتجمل بالصبر اثناء ذلك . وتأكد انهم عندئذ لن يفضوا الطرف عنك» . على اية حال فهذا ما لم يكن يريده كوبيكين ، فقد كان ينتظر ان يتسلم منحة مقدارها الف روبل في التو والساعة . وبدلاً من «اشرب وامرح» كانت النتيجة «انتظر فالوقت لم يحن بعد» . وهكذا ، فمع ان راسه كان مليئاً بابطاق الحساء، وشرائح اللحم والفيتيات الانجليزيات ، الا انه هبط السلام الآن مطاطي الاذنين خافض الذنب ومنظره في الواقع كمنظر الكلب الذي كب عليه الطباخ سطل ماء ، فترون ايها السادة ان حياة بطرسبرج قد غيرته تغييراً ليس بالقليل منذ ان ذاق طعمها لأول مرة . فلا يعرف غير الشيطان كيف سيعيش بعد الآن . وازدادت الامور في وجهه تعقيداً اذ تصور انه لن يتمتع بشيء حلو بعد

الساعة . ويجب ان تتذكروا دائماً ان للرجل في عنفوان شبابه شهية الذنب . واذا مر صاحبنا بطعم رأى خادماً فرنسياً بوجه مستدير وقميص هولاندى ومعطف ابيض كالثلج يحضر طبقاً فاحراً جداً من الطعام يكاد ياكل نفسه ، واذا مر امام حانوت للفواكه رأى الطيبات ماثلة للمجانين من الناس تطلب منهم ان يشترروها بئنة روبل للحنة الواحدة . تأملوا معي اذن حالته ا ويمكننا ان نقول انه رأى سمك (السالمون) والبطيخ في ناحية والمبلغ المؤمل الذي سيدفعه للحنة مقابلها في ناحية اخرى . وفكر في نفسه قائلاً «دع اللجنة تفعل بي ما تشاء ، ولنسوف اذهب اليها واقيم ضجعة كبرى ، وساخبر كل موظف فيها ان لي الحق بان افعل ما اريد» . ووجدت وقاحة هذا الرجل الجراء في العودة الى اللجنة بالفعل . وقال له الرئيس «ماذا تريد ؟ ما الذي جاء بك للمرة الاخرى ؟ فقد اعطيتك التعليمات التي يجب ان تتبعها» . فاجاب يقول «اجل معي التعليمات ولكني لن اتبعها . اني اريد شيئاً من الطعام» . فقال الرئيس «بعض الحلسم ، ايها الكابتين . ان الشيء الحقيقي الذي تريده (اذا سمحت لي بذكره) هو بعض الصبر . ستقبض مكافاة مناسبة ، فلا يليق ان يتترك في عوز من ضحى في خدمة الوطن» . ولكم ان تتصوروا ان هذه الكلمات دخلت من احدى اذني كوبيكين وخرجت من الاذن الاخرى .

ما الذي يجب عمله مع شخص مثل كوبيكين ؟ ورأى الرئيس ان اتخاذ اجراءات حازمة اصبح امراً حتمياً .

قد جرب ان يصحح خطاه ذلك بقوله ان علم الميكانيكا في انجلترا قد وصل الى درجة تصنع فيها السيقان الخشبية بحيث يتمكن لابسها اذا ما ضغط على لولب ان يخفيه عن الانظار .

ولكن الجميع كانوا في شك من ان تشيتشيوكوف كان الكاتبين كوبيكين بالفعل ، واعتقدوا ان مدير البريد قد سرح به الخيال . وهم بالمناسبة لم يقصروا ، من جانبهم ، ومضوا ابعد متأثرين في فطانة مدير البريد . وقد بحثت نظريات مختلفة اخرى ، منها ان تشيتشيوكوف هو نابليون وان الانجليزى منذ قديم الزمان يحسد روسيا على كونها بلداً كبيرة شاسعة ، بل وطبعت عدة صور كاريكاتورية يصور فيها الروسى يتحدث مع انجليزى كان يمسك خلفه كلباً من مقدوه ، وهم يعنون به نابليون ، والانجليزى يقول «حذار ، اذا لم يعجبني شيء ما ، فساطلق عليك الكلب !»

ولعلمهم الآن قد اطلقوه من جزيرة هيلانه . وهو الآن يتسلسل الى روسيا ، وقد يكون تشيتشيوكوف في حقيقة امره ليس شخصاً بهذا الاسم . وبالطبع لم يصدق الموظفون بذلك ، بل جعلهم ذلك يفكرون في الامر ، على اية حال ، وفي خضم تفكيرهم هذا ، اقتنع كل واحد منهم بان تشيتشيوكوف ، اذا ادار وجهه جانباً ، فسيشبه تماماً صورة نابليون . بل ان مدير الشرطة الذى كان في الجيش اثناء حملة نابليون عام ١٨١٢ ، وراى نابليون شخصياً لم يكن فى وسعه الا ان يقر ان نابليون ليس اطول قامه من تشيتشيوكوف فى كل

وقال له «حسناً جداً ، اذا كنت ترفض القناعة بما اعطيت وترفض ان تبقى هادئاً فى انتظار البت فى قضيتك ، فصل اذن ان اجد لك ماوى . ايها الشرطى خذ هذا الرجل الى مكان سكنه» . فتقدم شرطى كان واقفاً بالباب طوله ثلاثة اذرع وعلى كتفه بندقيه - شرطى لديه المؤهلات لكى يحرس مصرفاً هالياً كبيراً ، ووضع صديقنا فى عربة الشرطة . ففكر كوبيكين فى نفسه وقال «على الاقل سوف لا ادفع هنا اجرة الركوب . وفى هذا بعض السلوى» . وبعد ان سارت بهما العربة قليلا قال لنفسه مرة اخرى «لقد قالوا لي فى اللبنة ان اذهب واقتش عن وسائل اخرى امتح بها نفسى ، وما انا افعل» . مهما يكن من امر ، فلا احد يعلم الآن ماذا حدث لكوبيكين ولا الى اين قاده المصير . لقد غرق على حد قول الشاعر فى بحر النسيان ، واندفنت اعماله فى اعماقه . لكن اسمحو لى ايها السادة ان الم شعث القصة . فقد ظهر بعد شهرين من هذه الحادثة عصابة من قطاع الطرق فى غابات ريازان . ولم يكن رئيس هذه العصابة غير - «فقاطعه رئيس الشرطة قائلاً «لكن اسمح لى ، لقد قلت ان الكاتبين كوبيكين فقد ذراعاه وساقه ، بينما تشيتشيوكوف . . .»

لم يكن هناك داع لزيادة فى القول ، اذ ضرب مدير البريد جبهته براحة يده ، ودعا نفسه مجنوناً امام الجميع ، ولم يكن فى مقدوره ان يفهم كيف لم يخطر هذا الامر فى ذهنه منذ بداية القصة ، واعترف بصحة المثل القائل «الروسى ذكى بعد قوات الأوان» . مع انه

في الجزيرة يوماً ما ليمارس السلطة الكبرى على العالم .
وسجن النبي جزاءً على نبوته ، ولكنه قد ترك تأثيره ،
على كل حال ، واثار التجار كليا . وظلوا زمن طويل ،
حتى اثناء عقد الصفقات المربحة ، وتوجههم الى الحانات
لتنشيتها بالشماى يتحدثون عن المسيح الدجال . ووجد
الكثيرون من الموظفين ونبلاء القوم انفسهم يفكرون في
ذلك أيضاً ، واصيبوا بعدوى الصوفية التي كانت
رائجة ، كما هو معروف ، وعلى الموضة . وراوا نسي
الحروف التي يتألف منها اسم نابليون معنى خاصاً
يعادل رقم ٦٦٦ أى اسم ايليس الذي تنبأ به سفر
الرؤيا . ولهذا فلا عجب اذا وجد الموظفون انفسهم
منقادين الى التفكير في هذه النقطة ، الا أنهم سرعان ما
صحوا ، وقد فطنوا الى أن خيالهم تعادى اكثر من
اللازم ، وأن الأمر ليس كذلك تماماً .

وصمم الموظفون أن يسألوا نوزديف ، كآخر ملاذ
يلوذون به ، اذ لم يكن هو أول من ذكر الانفس الميتة
وحسب ، بل كان يبدو انه على علاقات متينة مع
تشيستشيكوف . ومعنى ذلك انه يعرف بلا شك شيئاً من
ملايسات حياته ، فلنحاول مرة أخرى ما سيقولسه
نوزديف .

غرباء هؤلاء السادة الموظفون ، ومن ورائهم جميع
المراتب الاخرى . فقد كانوا يعرفون جيداً أن نوزديف
كذاب ، ولا يمكن التصديق بكلمة واحدة ، مهما تكن
نافهة من اقواله ، ومع ذلك فقد لجأوا اليه بالذات .
وما أغرب مخلوق في الدنيا من انسان لا يؤمن بالرب ،

الاحوال ، وان نابليون في هيئة جسمه لا يمكن أن يقال
ايضاً انه سمين جداً ، ولكنه ليس النحيف بشكّل
ملحوظ . ولربما يصف كل هذا بأنه غير مستحب ،
والمؤلف ايضاً مستعد ، لارضائهم ، بأن ينعث كل هذا
بهذه الصفة ، ولكن من سوء الحظ أن كل ذلك حصل
كما يُروى ، والأعجب من ذلك أن البلدة لم تكن نسي
الانحاء القصية من البلاد ، بل على العكس ، لم تكن
بعيدة عن كلتا العاصمتين ، وعلى أية حال يجب أن يذكر
أن حوادث هذه القصة قد وقعت بعد أن طرد الفرنسيون
من روسيا بسنوات غير غديدة . وفي ذلك الوقت انقلب
كل مالكي الاراضي عندنا ، والموظفين ، والتجار ،
والباعة في المخازن ، وكل المتعلمين ، بل وحتى الاميون
الى سياسيين عتاة لمدة ثماني سنوات على الأقل .
وصارت جريدة «وقائع موسكو» وجريدة «ابن الوطن»
تقرآن بحماس غير قليل وتداولتهما الأيدي حتى كانتا
تصلان الى القارى الأخير مزمناً لا تصلح لأى استعمال .
وبدلاً من الأسئلة المعتادة «بكم بعث كيل الشوفان ،
يا عم» او «كيف استفدت من الثلج الذي سقط بالبحر»
صاروا يقولون «ماذا تكتب الصحف ، ألم يطلقوا سراح
نابليون من الجزيرة مرة أخرى ؟ وكان التجار أشد
الناس خوفاً من ذلك ، لأنهم كانوا يؤمنون كليا بتنبؤ
نبي كان قد أمضى ثلاث سنوات في السجن . وقد وصل
هذا النبي من مكان غير معلوم ينتعل حذاء من ليف
ويلبس فروة تفوح برائحة سمك فاسد قوية ، وذكر
أن نابليون هو المسيح الدجال وسوف يهرب من سجنه

والكنه يؤمن بان افنه اذا حكه ، فسيموت لا محالة .
ويتغافل عن رانعة شاعر واضحة كالنهار ، مبنية كلها
على الانسجام وحكمة البساطة الرفيعة ، ولكنه يتهاوت
على ما يكتبه طائش يشوش ويلقق ويحطم ويفسد
الطبيعة فيعجبه هذا العمل ، ويظل يصيح «انه معرفة
حقيقية لأسرار القلب !» وطوال حياته لا يحملهم محل
الجد ، ويؤول أخيراً الى اللجوء الى امرأة من العوام
تعالج بالتمتعات والبصقات ، او في أحسن الاحوال
يبتكر هو نفسه مستخلصاً من قاذورات يتصور لسبب
لا يعلمه الا الله ، انه يشفي مرضه . طبيعى من
الممكن أن نعدر السادة الموظفين بقدر ما بسبب
وضعهم الصعب بالفعل . فالناس تقول الغريق يتشبث
بالقشة الصغيرة ، وهو في الوقت ذاته لا يفكر في ان
الذباة وحدها يمكن ان تركب قشة ، بينما وزنه اتقل
بما لا يقاس ، ولكنه في تلك اللحظة لا يستطيع ان
يتصور ذلك ، فيتشبث بالقشة . وبهذا الشكل تشبث
سادتنا بتوزدريف . وبناء على ذلك ارسل رئيس
الشرطة مذكرة بيد مأمور خاص فهرع هذا في نفس
اللحظة بجزمته الطويلة العنق ، وخدها متوردان ، ممسكاً
بحسامه متجبهاً الى مسكن نوزدريف . كان نوزدريف في
ذلك الوقت منهمكاً في عمل هام جداً ، هو من الاهمية في
درجة جعلته يلزم غرفته اربعة ايام متتالية ، وكان
يتناول طعامه من الناظفة ولا يقابل زائراً ابداً . والعمل
المشار اليه كان يتكون من وضع علامات سرية على
عدد كبير جداً من أوراق اللعب بحيث يتمكن من الاعتماد

عليها اكثر مما يعتمد على صديق حميم . وبقي من العمل
ما يستغرق اسبوعين على الأقل ، وكان على بورفيرى
طوال هذا الوقت كله ان ينظف سره جرو كلب حراسة
ضخم بفرشاة خاصة ، ويقسله ثلاث مرات في اليوم
بالصابون . ولم يكن يجب بطبيعة الحال ان تغزى
عزلكه ، وبدأ اول ما بدأ بارسال المأمور الى
الشیطان . لكنه حالما علم من الرسالة المرسلة اليه
ان هناك ضيفاً عند مدير الشرطة حديث العهد باللعب ،
راى ان زيارة كهذه لن تكون عديمة الجدوى . فلانست
عريكته . وفتح باب غرفته ورمى على كتفيه اول رداء
وقح بين يديه وشرع في الرواح . وكانت افادات
نوزدريف وشهاداته وافتراضاته متعارضة مع افتراضات
السادة الموظفين حتى اوقعت الاضطراب حتى فسى
تخميناتهم الأخيرة . لقد كان بالتأكيد رجلاً لا وجود
للمشكوك عنده ابداً . فقد كان له من التصميم والثقة
بقدر ما لافتراضاتهم من خلخلة والتهيب . وقد اجاب
على كل سؤال ساله اياه الموظفون بشبات وحزم . وقال
بان تشيتشيكوف قد اشترى حقيقة انفساً مية بمبلغ
عدة آلاف من الروبلات . وفى الواقع أنه (اى
نوزدريف) باعه بعضها ، وما زال يرى ان ليس هناك
ما يمنعه من ان يفعل . وبالتالي اجاب بالايجاب على
سؤال بشأن ما اذا كان تشيتشيكوف جاسوساً ام لا ،
واضاف يقول بان تشيتشيكوف كان يُعرف منذ ايام
المدرسة التى قضاها معه «بالمخبر» ، وقد دق رفاقه
عنقه مراراً لهذا السبب . حتى اضطر لوضع مانتين

رفض بادي' ذى بدء اجراء مراسيم القران حتى هدده
تشييتشيكوف بأنه سيفضح الحقيقة التالية ، وهي انه
(أى الكاهن) كان قد زوج ميخائيل (وهو بائع حبوب فى
المندينة) من قريته . وجزم أيضاً بأن تشييتشيكوف
كان قد هيا عربة لنقل العروسين وعدداً من خيول
المواصلات فى مراكز تبديل الخيول على الطريق . لا ،
فالرواية التى رواها نوزدريف وصلت حداً من التفصيل
راح يذكر فيه اسماء بعض الحوذية ! وبالتالي سببر
الموظفون غوره فى ما اذا كان من الممكن أن يكون
تشييتشيكوف هو نابليون ، ولكنهم ما لبثوا أن ندموا
على خطوتهم هذه ، لأن نوزدريف راح يهذر هذراً طائشاً
لا عهد لهم بمثله من قبل . واخيراً ترك معظم المستمعين
الغرفة ولم يبق غير رئيس الشرطة (أملاً أن يجمع
المزيد من المعلومات) . حتى هو اضطر آخر الامر الى
تكذيب المتكلم بايماة تقول «الشیطان وحده يعلم ما
الذى يقوله هذا الانسان !» وعرف الموظفون أن المرء
لا يمكن أن يجنى من الشوك العنب . وبقي الموظفون فى
وضع أسوأ من ذى قبل ، وكانت النتيجة أنهم لم
يستطيعوا أن يعرفوا قط حقيقة تشييتشيكوف .
وأصبحت واضحة طبيعة انسان . انه حكيم ذكى ومدبر
فى كل الاشياء التى تخص الآخرين ، ما عداه . يسدى
النصائح الرشيدة العازمة فى ظروف الحياة الصعبة !
يصيح الجمهور «راس داهية ! أى طبع صلب له !»
ولكن ما أن يقع هو فى مصاعب حياتية حتى يتلاشى
هذا الطبع ، ويرتبك هذا الرجل الصلب ، ويتبين فيه

واربعين علقه على صدغه ، أى أنه كان يريد أن يقول
أربعين ، ولكن مائتين جاءت على لسانه من تلقاء
نفسها . وأجاب الشاهد بالإيجاب على سؤال فيما اذا
كان تشييتشيكوف مزيفاً للنقود أم لا ، واستشهد
بقصة تدل على مهارة تشييتشيكوف المتناهية فى هذا
الضمار ، وهي ان السلطات علمت ذات يوم ان فى
بيت تشييتشيكوف مليونى ورقة مزيفة من ذوات الروبل
وبناء على ذلك ختمت ابواب البيت بالشمع وحاطته
من كل ناحية بالحرس المسلح . فما كان ممن
تشييتشيكوف الا ان ذهب فى ظلمة الليل وغير الاختام
الشمعية بأخرى جديدة ورتب اموره بحيث لما 'فتش
البيت ووجد ان النقود المزيفة كانت نقوداً صحيحة
اصيلة ! وبالإضافة الى ذلك ، لما سئل عما اذا كان
تشييتشيكوف قد اعدّ خطة للهرب بابنة الحاكم ، وعما
اذا كان صحيحاً أنه (أى نوزدريف) شرع فى مساعدته
وأغوائه على هذا العمل ، اجاب الشاهد بأنه لو لم
يشرع فى ذلك لما كان فى الامكان تنفيذ المشروع .
وعند هذه النقطة نهض الشاهد اذ أدرك أنه قد كذب
كذبة يمكن أن تسبب له الكثير من المتاعب . ولكنه لم
يكن يستطيع مقاومة لسانه - فالتفاصيل التى كانت
تتأرجح على طرف هذا اللسان كانت خلاصة جذاً حتى إنه
راح يذكر اسم القرية التى كانت تقع فيها الكنيسة التى
اتفق الاثنان على عقد القران فيها واسم الكاهن الذى
سيجرى العقد ومقدار الاجر الذى سيدفع له (خمسة
وسبعين روبلا) . وجزم أيضاً بما يلى - ان الكاهن

جبان بانس ، تافه ، طفل هزيل أو مجرد مانع ، كما ينعته نوردريف .

كل هذه الاقوال والآراء والشائعات اثرت ، لسبب مجهول ، في المدعى العام ، أكثر من غيره . وكان تأثيرها فيه من القوة ، بحيث أنه ، حين وصل الى بيته ، اخذ يفكر ، ويفكر ، حتى مات بلا سبب ولا علة ، على حد التعبير الشائع . لا أحد يعرف هل اصيب بالفالج أو بشلل آخر . إلا أنه ما ان قعد ، حتى انكفا من الكرسي على وجهه . وصاحوا وصفقوا يداً بيد على حكم العادة «آه ، يا رب !» وارسلوا في طلب الطبيب ليحجم له ، ولكنهم اكتشفوا ان المدعى العام ما هو الا جثة بلا روح . وعند ذلك فقط عرفوا ، بحسرة ، ان المرحوم كانت له روح بالفعل ، ولو انه لم يكن يظهرها قط ، بسبب تواضعه . ومع ذلك فقد كان مجي الموت مرعباً للصغير والكبير على حد سواء . فالرجل الذي كان الى وقت قصير يتحرك ، ويلعب الورق ، ويوقع مختلف الاوراق ، وكان مرموقاً جداً بين الموظفين بحاجبيه الكثيفين ، وعينه الرامشة ، هو الآن مسجى على طاولة ، وعينه اليسرى لم تعد ترمش ، ولكن أحد حاجبيه كان مرفوعاً قليلاً في تساؤل . والله وحده يعلم عم كان المرحوم يتساءل ، ولماذا مات ، ولماذا عاش .

الإ ان ذلك لا يقبله العقل ، على كل حال ! ولا يتفق مع أى شيء ، من المستحيل ان يفرغ الموظفون انفسهم بهذا الشكل ، ويخلقوا هذه السخافة ، ويتبعوا عين الحقيقة بينما حتى الطفل نفسه يعرف ما هي المسألة !

وسيقول ذلك الكثيرون من القراء ، ويؤنبون المؤلف على مجانيته للاحتمال ، أو يصفون الموظفين المساكين بالحمقى ، لأن الانسان كريم في استخدامه للكلمة «احمق» ومستعد لأن يلصقها بجاره عشرين مرة في اليوم . يكفيه ان يكون جانب واحد من جوانب خلقه العشرة احمق ليوصف بالاحمق على حساب الجوانب التسعة الجيدة . ومن السهل على القراء ، وهم ينظرون من ركن عليانهم الهادئ ، حيث الافق مكشوف لهم ، ان يحكموا على كل ما يجرى في الأسفل ، حيث لا يرى الانسان غير الشيء القريب منه . وفي المدونات العالمية لتاريخ البشرية الكثير من القرون الكاملة التي يبدو شطبها ومحوها ممكنين ، لانها غير ضرورية . فهناك الكثير من الضلالات في العالم تبدو الآن لا يمكن ان يقوم بها حتى الطفل . فكم من الطرق المعوجّة المسدودة الضيقة ، المنيعّة المنحرفة بعيداً اختارتها الانسانية في سعيها للوصول الى الحقيقة الازلية ، بينما كان مفتوحاً امامها الطريق المستقيم ، كالطريق المؤدى الى هيكل عظيم مخصص ليكون مقراً للقيصر ! فهو اوسع الطرق كلها ، وافخرها ، منورٌ بالشمس ومضاء طوال الليل بالانوار ، ولكن الناس تجاوزته ، وسارت في الظلام الدامس . وكم من مرة ، حتى بعد ان تزودوا بالرسالة المنزلة من السماء ، زاغوا وانحرفوا سواء السبيل ، ووقعوا من جديد وفي وضع النهار في مغارات نائية مسدودة ، وانزلوا من جديد غشاء العمى على عيون بعضهم البعض ، منجذبين الى

السراب الخادع ، ووصلوا الى حافة الهاوية ، ليسال بعضهم بعضاً فيما بعد : اين المخرج ، اين الطريق ؟ ان الجبل الحالى ، يرى كل شىء الآن بوضوح ، وتدعشه الضلالات ، ويضحك من سخافات سلفه ، ولا يرى ان تلهب النار السماوية تلك المدونة التاريخية ، ليصرخ كل حرف فيها وليشار اليه بالبنان من كل مكان ، يشار اليه ، الى الجبل الحالى ، ولكن الجبل الحالى يضحك ويبدأ بنقطة فى النفس واعتداد فى سلسلة من الضلالات الجديدة ، سيضحك منها الخلف أيضاً فيما بعد .

هذا ، ولم يكن تشيتشيكوف يعلم من الامر شيئاً . فقد اصابته قشعريرة خفيفة والتهاب فى الحلق جعله يلزم غرفته ثلاثة ايام كان فيها يفرغ حلقه باللبين وعصير التين وقد اكل الفاكهة التى استخرج منها العصير ، ووضع على عنقه كمادة من البايونج والكافور . وكوسيلة لقضاء الوقت اخذ يعمل قوائم مفصلة جديدة عن الانفس التى اشتراها . ثم راح يطالع كتاب «الدوقة دولا فالبير» * وينبش فى حقيقته ويقلسب الاوراق والادوات الاخرى التى وجدها فى صندوق المراسلات ، وقد وجد ان كل شىء من هذه الاشياء على ما يرام من الترتيب . ولم يستطع ان يعلل لماذا لم يزره احد من اصدقائه الموظفين للسؤال عن حالة ، لا سيما وقد رأى قبل مدة بسيطة عربات مدير البريد والمدعى العام

* «الدوقة دولا فالبير» - رواية الكاتبة الفرنسية م . جانليس (١٧٤٦-١٨٢٠) . الناشر .

ورئيس المجلس المحل واقفة امام الفتدق . فتعجب ثم ازداد عجباً وهز كتفيه وراح يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً . ولم يلبث ان شعر بالتحسن الملحوظ واحس برغبة فى الخروج الى الهواء الطلق مرة اخرى ، فحلق كمية غير قليلة من الشعر النامى على وجهه وليس بهمة كادت تشق سراويله ورش على نفسه ماء الكولونيا ، ولف نفسه بالبسة دافئة وربط خده وانطلق عبر الشارع . وكان اول ما عزم عليه هو الذهاب الى بيت الحاكم . وراحت تحوّم فى رأسه افكار خاصة بشأن ابنة الحاكم حتى نسي نفسه واخذ يبثسم مداعباً افكاره .

وما ان وصل الى البيت بهمّ بخلع لفاعه حتى حياه البواب بقوله ، «لديّ اوامر تمنعنى من السماح لك بالدخول» .

فبهت تشيتشيكوف وصاح مندعشاً «ماذا ؟ الا تعرفنى ؟ انظر الىّ مرة اخرى لتعرف من انا» . فاجاب البواب «انا اعرفك طبعاً ، وقد رايتك اكثر من مرة قبل الآن . ولكنى امرت بان اسمح لكل انسان بالدخول عدا السيد تشيتشيكوف» .

«حقاً ؟ ولِمَ ذلك ؟»

«هذا ما امرت به وعلنيّ تنفيذه» . قال ذلك ولم يتقدم بالطبع لتناول ما سيخلعه تشيتشيكوف كما كان يفعل فى المرات السابقة وباللطف السابق . وقد اتضح لديه ان تشيتشيكوف (ما دام السادة قد رفضوا قبوله زائراً) لا بد ان يكون سافلاً .

فقال تشيتشيكيوف لنفسه «أنا لا أفهم هذا» وغادر المكان متخذاً طريقه الى رئيس المجلس المحلي ، ولكن الموظف المذكور بدا عليه انفعال شديد عند رؤية تشيتشيكيوف حتى انه لم يستطع ان يلفظ كلمتين متتابعتين ، وانما اخذ يهذر هذراً جعل الضيف ورب البيت في دهشة داهشة . وتعجب تشيتشيكيوف وهو يترك البيت مما يمكن ان تعنيه تمتمات الرئيس الغريبة التي لم يستطع ان يفرّق فيها بين الراس والذنب . وبالتالي زار رئيس الشرطة ونائب الحاكم ومدير البريد بالتتابع . لكنه كان في كل حالة اما ان يرفض قبوله او يجد ان المقابلة غريبة فيها قدر كبير من التحفظ والتهيب وتشتيت الفكر والاحراج ، حتى انه بدا يخشى الجنون على مستقبله . وقد حاول مرة أخرى ان يتكهن بالسبب وكان نصيبه الفشل الشديد . وعلى هذا ، راح يتجول في المدينة على غير هدى دون ان يدرك ما اذا كان الجنون قد اصابه او اصاب الموظفين . واخيراً عاد الى الفندق في حالة يرثى لها من الحيرة والذهول - عاد الى المكان الذي خرج منه عصر اليوم نفسه بمعنويات عالية يحسد عليها . واحسن برغبة تدفعه الى ان يعمل شيئاً فطلب الشاي وهو لا يزال مستغرباً من وضعه الشاذ الغريب ، وكان على وشك ان يصيبه في الكوب عندما فتح الباب ودخل نوزدريف .

وبدا يقول «يقول المثل «ليس كثيراً ان تمشي يوماً كاملاً لتقابل صديقاً» . وقد كنت مارة قرب النزل حينما

رايت نوراً من نافذتك . وقلت لنفسى «ما رأيك فى ان تصعد وتزوره ؟ انه على الأرجح لم يثم بعد ، ها ! ها ! انى ارى شيئاً على مائدتك . حسناً ، اذن سأشرب معك قهلاً لأننى تناولت طعاماً بانساً وبدات احسن» ينقل على معدتي . قل لخادمك ان يعبى لى غليوناً . اين غليونك ؟»

فاجاب تشيتشيكيوف بعجاف «انسا لا ادخن ابداً» .

«صرا ! كائننى لا اعرف اى مدخنة انت ! ما اسم خادمك ؟ فاخرامى ! تعال الى هنا» .

«اسمه بتروشكا وليس فاخرامى» .

«حقاً ؟ لكن كان عندك رجل اسمه فاخرامى . اليس كذلك ؟»

«لا ، ابداً» .

«اذن يجب ان يكون خادم ديريبين هو من افكر فيه . اى انسان محظوظ ديريبين هذا ! له عمة تشاجرت مع ابنها لانه تزوج امة من الاقنان فتركت كل ثروتها له - لديريبين . آه لو كان لى عمة من هذا النوع احتياطاً لطارى المستقبل ! لكن ، قل لى ، لماذا كنت مختبئاً ؟ اظن انك تقوص فى الامور المبهمة وتمغمس فى بطون الكتب» . (اما ما الذى جرى نوزدريف الى هذه الاستنتاجات ، فلا احد يدرى - على الاقل تشيتشيكيوف .) «بالمناسبة ، اريد ان اخبرك عن امر يرضى نعره الدعابة لديك» . (وهذا الاستنتاج عن نكرة الدعابة عند تشيتشيكيوف لا مبرر له فى كلام

نوزديف) «وذلك أن ترى التاجر ليغاتشيف وهو يخسر كومة كبيرة من النقود في اللعب. بشرني كنت ستضحك ! وكان معنا شخص اسمه بيرينديف كان يقول ليت تشيتشيكوف كان هنا ، انه كان سيضحك من اعماق قلبه» . (وفي واقع الامر فان تشيتشيكوف لم يقابل في حياته منذ ان ولد شخصاً باسم بيرينديف .) «مهما يكن من امر ، فعليك أن تعترف يا صديقي بأنك قد أسأت لي يوم أن لعبنا الشطرنج معاً ، لكن ، بما أنني ربحت اللعبة فلن أحمل لك حقدًا . بالمناسبة ، اننى الآن عائد من بيت الرئيس وعليّ أن أخبرك بأن الراى العام في المدينة ثائر عليك ، لأن كل انسان يعتقد بأنك مزيف نقود . وقد استدعيت شخصياً وسئلت عنك . ولكنى دافعت عنك في كل صغيرة وكبيرة وأخبرت الموظفين انى كنت معك في المدرسة وانى عرفت اباك . لقد رددت السائلين في الواقع خاسئين» .

فقال تشيتشيكوف وهو ينهض من مجلسه «تقول انهم يعتقدوننى مزيفاً؟»

فقال نوزديف «نعم . لكن لماذا رحمت تخيف الناس كلهم بأعمالك ؟ ان بعض الناس قد مستهم الجنون من جراء ذلك ويقولون عنك بأنك لص متستر او جاسوس . حتى ان المدعى العام توفى امس من هذه الاخبار وسيدفونوه غداً» . الا تكون هناك ؟ ولكن القوم يكادون يطيطون ذعراً من الحاكم العام الجديد لانهم يظنون انه سوف يخلق لهم المتاعب بشانك .

بالمناسبة ، يقال عنه انه رجل متكبر يدس انفه في كل شيء . فاذا كان ذلك كذلك ، فان عواقب النبلاء لن تكون محمودة ، لا سيما وهم قوم يستحقون التفاوض . اجل ، بشرني ! اذا ما اعتزل الحاكم العام الجديد في مكتبه وامتنع عن حضور الحفلات فستكون العواقب اوحش مما في الحسبان ! بالمناسبة ، ان مشروعك خطر يا تشيتشيكوف» .

فتساءل تشيتشيكوف بقلق ظاهر «اى مشروع تعنى؟»

«ماذا ؟ مشروع خطف ابنة الحاكم . على اية حال فلا اكنحك الحقيقة اذا قلت لك باننى كنت اتوقع شيئاً من هذا القبيل . وما رايتك معها في الحفلة الراقصة حتى قلت لنفسى «آه ، آه ، آه ! لا يمكن ان يكون تشيتشيكوف هنا لغير ما سبب !» اما انا شخصياً فاعتقد ان اختياريك غير موفق ، لاني لا ارى فيها اية ميزة اطلاقاً . بينما هناك ابنة اخت صديق لي اسمه بيكوسوف - فتاة لا غبار عليها ! آية من الجمال في ثياب انسان !»

فتساءل تشيتشيكوف وعيناه تتسعان «اى شيء بالله هذا الذى تتكلم عنه ؟ وكيف يمكننى ان اختطف ابنة حاكم الولاية ؟ اى شيء تعنى بالله؟»

«ماذا ؟ ماذا ؟ اى شخص كتوم ارى ؟ ان كل قصى من المجيء اليك هو ان امد اليك يد المساعدة . اصنع لي . انك اذا ادتنتى ثلاثة آلاف روبل فسأقوم بتكاليف الزواج وابعاد العربة وخبول

المواصلات . يجب أن احصل على هذا المبلغ ولو مت في سبيله» .

كان تشيتشيوكوف طوال الوقت الذى يهذر فيه نوزدريف يفرك عينيه كي يتأكد فيما اذا كان حليماً ما يرى ويسمع . فاتهامه بالتزييف واتهامه بمشروع الاختطاف وموت المدعى العام (وكانه كان بسببه) وقدم الحاكم العام الجديد - كل هذا جعله يشعر بأنه في منتهى البؤس وفي قرارة اليأس .

وقال لنفسه «حيث أن الامور قد وصلت الى هذا الحد فمن الافضل ان لا اتلکا ويجب ان اغادر حالا» . وما تخلص من نوزدريف بأسرع ما يستطيع حتى ارسل في طلب سيليفان وامره ان يستيقظ مع الفجر لتنظيف العربة ولتهيئة كل شيء للسفر في السادسة صباحاً . ومع ان سيليفان اجابه «سمعاً وطاعة يا بافيل اي فانوفيتش» . الا انه تلکا برهة على الباب . ومن ثم امر تشيتشيوكوف بتروشكا ان يخرج له الحقبية المغبرة من تحت السرير ، ثم اخذ يكوّم فيها الجوارب والقمصان والياقات (التنظيف منها والمتسخ) والاحذية واحدى التقاويم وادوات مختلفة اخرى خليطاً بعضها فوق بعض . وقد وضع كل شيء في الحقبية كما تناولته يده ، فقد كان هدفه ان يحول دون ما قد يجد من عوائق عند السفر في الصباح . هذا بينما كان سيليفان المملکى يترك الغرفة ببطء - ببطء شديد جداً - ثم راح ينزل السلم بالبطء نفسه (تاركا في كل خطوة من خطواته آثار قدميه الموحلتين) ووقف اخيراً يحك

راسه . اما ماذا يعنى هذا الحك ؟ وما هذا كله بشكل عام ؟ اهو انزعاج من عدم تمكنه من الالتقاء المقرر ليوم غد بصاحبه في معطفه البائس المحزّم بحزام عريض في حانة ام هو علاقة غرامية مع فتاة في مكانه الجديد ، واضطراره ترك وقتها المسائية عند البوابة في انتظارها ، وإسماکه يدها البيضاء بأدب جم نسي تلك الساعة التي يهبط فيها المساء على البلدة ، وفتى في ثوب احمر يضرب على البلايكا امام جمع من الخدم ، وخليط من السفيلة يتكلمون بأصوات هادئة ؟ ام مجرد أسف على ترك مكان صار عامراً بالنف ، في مطبخ الخدم ، وهو متدنر في فروته قرب الموقد مع صحن حساء بلقّم هشّة ، ليعود من جديد الى التجوال في المطر والوحل ، وكل منغصات الطقس السيئ الاخرى ؟ فلن يستطيع احد ان يجيب ، لأن هذا الحك عند عامة الروس يمكن ان يعنى اى شيء من مائة شيء .

الفصل العادى عشر

بيد ان الامور لم تجرى وفق رغبة تشيتشيوكوف . اولاً ، لانه نام اكثر من عادته - هذه واحدة . وثانياً ، عندما صحا من نومه وسأل عما اذا كانت العربة مهيأة وكل شيء جاهزاً ، قيل له لا هذا ولا ذاك - هذه ثانية . واستعد ونفسه مشتتة غضباً ان يلقي على سيليفان امضٍ تعنيف مر به في حياته ، واخذ ينتظر بفارغ الصبر سماع ما قد يدافع به الغادم عن نفسه . ولا

حاجة بنا الى القول بان سيليفان حالما ظهر بالباب اخذ يقدم المعاذير المعتادة التي يقدمها الخدم عادة عندما يكون السفر المستعجل امراً حتمياً .

قال على مهله «بافيل ايفانوفيتش ، ان الخيول بحاجة الى حدوات» .

فاجابه تشيتشيكوف قائلاً «ايها الغبي ! لماذا لم تقل ذلك من قبل ايها المجنون اللعين ؟ ألم يكن لديك وقت كاف لحذوها؟»

فوافق سيليفان بقوله «بلى ، لقد كان . واحدى المجلات ايضاً تحتاج الى اطار جديد لان وعورة الطريق ابليت الاطار القديم . ثم ، ان صندوق العربة نفسه اصبح يالياً بحيث لا يحتمل سير مرحلتين» .

فضم تشيتشيكوف قبضته واقترب من سيليفان كأنما سيلكمه ، فتهقّر الأخير خوفاً وانزوى كالكلب في ناحية . ووصاح عليه «يا سافل ! هل تنوى ان تهلكني وتحطم اضلاعي في الطريق ايها الابله اللعين ؟ لم يكن لديك اي عمل لثلاث اسابيع خلت ، والآن في آخر لحظة تجيئني وانت تتلعثم وتلعب دور المجنون ! كان عليك ان تعلم ذلك قبل الآن . هل عرفتته ام لم تعرفه ؟ اجبني حالاً» .

فاجاب سيليفان وهو يمدّ راسه «نعم لقد عرفته» .
«اذن ، لماذا لم تخبرني عنه؟»

لم يكن لدى سيليفان جواب حاضر ، فاستمرّ يمدّ راسه وراح يخاطب نفسه بهدوء «يا ويحي ، كيف تصرفرت ! كنت اعرف كل شيء ومع هذا لم اقل» .

واستمر تشيتشيكوف يقول «والآن ، اذهب حالا واحضر حداداً . وقل له ان ينجز كل شيء في ساعتين على اكثر تقدير . هل تسمع ؟ واذا لم تفعل ذلك فاني ساجلدك جلدأ لم تعهده في حياتك من قبل» . وكان الغضب في الواقع قد اخذ من تشيتشيكوف ماخذه .

فاتجّه سيليفان الى الباب كما لو كان ذاهباً لتنفيذ الامور ، لكنه وقف واضاف يقول «وذلك الحصان الارقط يا سيدى ، الا تظن من الانسب ان نبيعه لانه ليس الا نذلاً . فوجوده عائق لا مساعد» .

«ماذا ؟ انتتظرنى ان اذهب الآن الى السوق لبيعه؟»

«اجل يا بافيل ايفانوفيتش ، فهو مظهر خداع فقط لا يصلح لشيء ، لانه بطبيعته حيوان خبيث جداً ، لم ار في حياتي مطلقاً حيواناً خبيثاً مثله» .

«مجنون ! عندما اريد ان ابيعه فسوف ابيعه . اما انت فلا تعب دماغك فيما لا يعينك ، بل اذهب واحضر حداداً وليكن كل شيء جاهزاً في غضون ساعتين ، والا خلعت شعر رأسك وضربتك حتى اخفى سحتك . انصرف ! اسرع !»

فانصرف سيليفان ، وثارث نائرة تشيتشيكوف فرمى على الارض خنجره الذى كان يحتفظ به دائماً كوسيلة لفرض احترامه على من قد يحتاجون الى ذلك . ثم صرف ربع الساعة التالية في مساومة اثنين من الحدادين - وكانا من ذلك النوع السافل من الرجال الذين اذا علموا ان امراً ما مطلوب بسرعة راحوا يطلبون الأجر اضعافاً .

العربة زغيفان ساخنان اشترينا لتوصيا ، وحشر سيليفان شيئاً لنفسه في مقعد الحودي ، وصعد بطلنا الى العربة أخيراً ، فيما كان النادل الذي خرج لتوديعه بمعطفه القطني القصير ملوحاً بقبعته ، وخدم الفندق ومختلف الخدم والحوذية لأسياد آخرين قد تجمعوا ليروا كيف يغادر سيد غير سيدهم ، وفي مختلف الظروف الأخرى التي تصاحب المغادرة ، والعربة المفضلة عادة من قبل العزاب والتي تتوقف طويلاً في البلدة ، والتي لا بد أن القاري قد ضجر منها الآن . وفكر تشيتشيكوف «الحمد لله» وانطلقت العربة تدرج عبر بوابة الفندق وتهتز فوق البلاط الحجري . فكرر تشيتشيكوف بذلك ورسم علامة الصليب . قرع سيليفان بالسوط . جلس بيتروشكا الى جانبه من جهة اليمين وقد تعلق ببعض الوقت على موطن العربة ، وجلس بطلنا في وضع أروح على سجادة جورجية ، ووضع وراء ظهره مخدة جلدية ، وحشر الرغيفيين الساخنين . «ألا ان شعوراً غريباً لم يستطع تحديده استولى عليه وملا عليه صدره عندما راح ينظر الى البيوت والشوارع والهساتين التي قد لا يراها فيما بعد مرة أخرى . وما إن دارت العربة عند أحد المنعطفات حتى وجد انه مضطر الى الوقوف فجأة لأن موكباً كبيراً جداً لجنائز لا نهاية لها كان يسد الشارع . انحنى تشيتشيكوف الى الامام وهو في العربة وسأل بتروشكا عن يدل عليه موكب الجنائز ، فاجابه بأنه يدل على انه المدعى العام . فاحس

وفي الواقع لم يستطع تشيتشيكوف بثورته وهياجه وهو يمنحهما القاب اللصومية والنهب والابتزاز ان يؤثرَ فيهما ، اذ رفضا ان يخفضا من الاسعار التي طلباها - وهذا ما يتفق تمام الاتفاق مع طبيعتهما . وليس ذلك وحسب ، بل صرفاً منذ ان بدأ بالعمل حتى انتهيا منه لا ساعتين فقط بل خمس ساعات ونصف ساعة . وسنحت الفرصة لتشيتشيكوف أثناء ذلك ان يستمتع بتلك المتعة السارة التي يعرفها جميع المسافرين ، الا وهي الجلوس في غرفة خالية خاوية الا من نثار الخيوط ونفايات الاوراق وما اشبه ذلك ، حين يكون الشخص لا هو بالمشافر ولا بالمقيم ، ويرى من النافذة المارين المتعرجين المتحدثين عن امورهم الرخيصة ، والرافعين ابصارهم بفضول احمق لينظروا اليه ، ثم يمضون في حال سبيلهم ، مما يعكر اكثر الحالة النفسية للمسافر المسكين الضجر . وكل ما يحيط به ، وما يراه سواء اكان العائوت المقابل له ، او رأس عجوز تسكن البيت المقابل ، وتقترب من نافذة ذات ستائر قصيرة ، كل ذلك مقرف له . ومع ذلك فهو لا يترك النافذة . ويقف سارحاً تارة ، او موجهاً اهتماماً مثلوماً الى كل شيء يتحرك امامه او لا يتحرك ويقتل من الانزعاج ذباباً تطن في ذلك الوقت وتضرب الزجاج تحت إصبعه . لكن لكل شيء نهاية . وجاءت اللحظة المنتظرة أخيراً ، حين وضعت الامتعة في العربة ووضع اطار جديد للعجل الثالث وانتعلت الخيول بالتمال الجديدة وانصرف العدادان المفترسان بغنيمتهما . ووضع في

بصدمة مؤلمة وسارع برفس خيمة العربة واسدال الستائر على نوافذها وانزوى في ركن من مؤخرتها . أما سيليفان وبتروشكا فقد خلعا قبعتيهما عندما وقفت العربة وجلسا يشاهدان المشيعةين اثناء سيرهم بعد ان تلقيا تعليمات حازمة بان لا يطرحا التحية على اى خادم يعرفانه . ومضى هو ايضا يراقب بتهييب من خلال زجاجة الحاجز الجلىدى على جانب العربة : كان يسير خلف النعش جميع الموظفين حاسرى الرؤوس . ومع ان تشيتشيكوف اوجس خيفة - لفترة من الزمن - من ان يظن اليه بعضهم وهو في العربة ، ولكن لم يلتفت احد اليه ، لان بالهم كان مشغولا بشيء آخر . وفي واقع الامر ، حتى الاحاديث البسيطة التى تدور عادة بين المشيعين في مواكب كهذه لم تكن تدور بينهم . فقد كان تفكير كل واحد منهم منصرفا الى مشكلته الخاصة فقط ، الى خير وصول الحاكم العام الجديد والطريقة التى سينتجها في ادارته ومدى ما سيلحقه من الاذى منها . وتبع هؤلاء المشيعين عدد من العربات كانت تطل من نوافذها وجوه سيدات يرتدين ثياب الحداد . غير ان حركات ايديهن وشفاههن كانت تدل على انهن مستغربات في احاديث حيوية - قد تكون حول الحاكم العام الجديد والحفلات الراقصة التى ينتظر ان يقيمها وزينتهن والاعيبهن الخاصة التى لا تنتهي وفي آخر الموكب مر عدد من العربات الفارغة . وحالما مرت تمكن بطلنا من الاستمرار في طريقه ، فرمى خيمة العربة الى الخلف وراح يناجي نفسه «ايه ايها الصديق

الطيب ، لقد عشت حياتك ، لكنها انتهت الآن ! ستقول الصحف انك مت مأسوفا عليك لا من اهلك وعشيرتك وحسب ، بل من البشرية جمعاء . وانك كنت انسانا محترما وابطا رؤوما وزوجا طاهرا لا تشوبه شائبة ، وانك ذهبت الى قبرك بين دموع ارملتك واطفالك ومعارك . لكن هذه الصحف لو اضطرت لسبب من الاسباب ان تملل قولها هذا لوجدت ان السبب الحقيقى في حاجبيك الغليظين الذين بلغا من الضخامة ما عهد للناس به من قبل . ثم امر سيليفان ان يحث الخطى ، وقال «ومع ذلك فلا ياس من مقابلتى لهذا الموكب لانهم يقولون ان مقابلة الجنادة فال حسن» .

وانعطفت العربة الى بعض الشوارع الضيقة غير المطروقة التى تكون محاطة بأسيجة خشبية والتى تدل عادة على قرب الانتهاء من ضواحي المدن . وانتهى البلاط الحجرى وتلته حصياء الطريق العام وأخذت تظهر على جنبات الطريق صفوف الاجار الدالة على علامات الفرستات والعمال الذين يصلحون ويرمّون ، والقرى ذات اللون الرمادى وفنادق فيها سماورات ، وفلاحات وفلاحون يهرعون من العظائر والشوفان ملء اكمامهم ، ومشاة باحدية متهرئة يلوح على المرء منهم انه قطع ثمانائة فرستا ، ومدن صغيرة باخصاص وضعت فيها براميل ملأى بالطحين المعد للبيع وعرضت فيها احذية وارغفة صغيرة وتوافه اخرى ، وحواجز الطريق ، وجسور شبتت من كثرة الترميم ، وآفاق شاسعة من الحقول ممتدة الى اليمين والى

الشمال ، وفارس وراكب يحمل صندوقاً أخضر مقلداً بالحديد كتب عليه «بطارية ال . . . المدفعية» ، وأخاديد طويلة حرثت حرثاً جديداً كان ينعكس لونها أخضر وأصفر وأسود على وجه الحقول - واختلطت بهذا كله أصوات غناء ذات نفس طويل وذرى شجر الصنوبر سباحة في الضباب ، ونغمات الاجراس البعيدة المدى وسحائب لا نهاية لها من الغرابان السحيم والافق الذي لا حد له . آيه ، روسيا ، روسيا ، من منزلي الجميل في بلد غريب لا أزال أراك ! فيك كل شيء مسكين مشوش لا يليق . ليس فيك ما يبهج العين ولا ما يخيف النفس من روائع الطبيعة . فيك لا يرى المرء المدن ذات العمارات الضخمة المتعددة النوافذ الشامخة شموع الصخور ، ولا الشوارع الباهية ، ولا الاطلال التي تكسوها الاعشاب ، ولا الشلالات تحيط بها الاغصان الدائمة الاخضرار ويصدر منها الهدير الذي لا ينقطع ، ولا الاجرفة الهاوية تبليل العقول بضخامة صخورها ، ولا منظر الكروم والعليق وملايين الورد البرية وتلالاً زرقاء لا يحصى لايامها عدد تكاد تبدو امام السماء اللضية الصافية وكأنها نوع من الخيال . فيك كل شيء متبسط مكشوف . مدتك بارزة فوق السهل الاملس المنبسط وكأنها النقط او العلامات ، ولا شيء كائناً ما كان مما يخلب البصر أو يسحره . لكن اى سر و اى قوة قاهرة تشدني اليك ؟ اى شيء ذلك الذي يردد ويعيد في اذني الاغنية الحزينة التي تحلق على طول حدودك وعرضها ؟ و اى عبء تحمل تلك

الاغنية الي ؟ لماذا تعول في قلبي وتنتحب وتحزن فيه ؟ وما الذي تقوله هذه النغمات التي تعاقب روحي وتضئها بالمرحمة وتحوم حول نافذة ولولاتها ؟ ما الذي تطلبينه مني يا روسيا ؟ ما هو الرباط الخفي الذي يصل ما بيني وبينك ؟ ولماذا تنظرين الي هذه النظرات ؟ ولماذا يصوب لي كل شيء فيك عينين ملؤهما الشوق والحنين ؟ حتى في هذه اللحظة التي اقف فيها وافكر ذاهلاً مستغرقاً متحيراً في مساحاتك الشاسعة وآفاقك الواسعة يلوح لي ان ديمة منذرة محملة بالامطار المتجمعة تخيم فوق رأسي . ما ذلك الذي ينتبأ به اتساعك الذي لا حد له ؟ الا يتنبأ بان ستهض فيك ذات يوم افكار مثلك لا حد لها ؟ الا يتنبأ ايضاً بان سينبعث منك ذات يوم الابطال القدامى اذا ما وجدوا المجال لإبراز مواهبهم مرة أخرى ؟ وكيف يطوينسي جيروت عظمتك وينعكس في كياني بسحر عجيب غريب ، ويومض في عيني وميضاً يتعدى ما تعهده الطبيعة من وميض ؟ نعم ، انك تسفرين في الحقيقة عن مرأى غريب براق سماوي ! يا روسيا ، يا وطني الحبيب ! وصاح تشيتشيكوف في سيليفان يقول «قف ، قف ايها المعجنون !»

وقد مرت اثناء قوله هذا عربة ترويكما - في مهمة حكومية - تفرقع على احد جانبي الطريق ثم اختلفت في عاصفة من غبار . اما الشتائم التي تلقاها سيليفان من تشيتشيكوف لانه لم يتجنب الطريق بخفة ، فلم تكن وحدها التي انصبت عليه ، فقد قدم له حصاة مائلة

من الشتائم شرطي" ريفي" بشايرين كالذراع طولاً كان في العربة الأخرى .

أى شيء غريب جذّاب بل أى شيء خيالي خلّاب ذلك الذى تدلّ عليه كلمة «الطريق العام» ! وكم هي لذيفة لذاتها هذه الطريق العامة ! فاذا كان اليوم يوماً جميلاً (وان كان بارداً) في خريف عذب ، فاضم اليك عباءة سفرك واسحب قلمسوتك على أذنيك واستكنّ براحة في احدى زوايا العربة قبل أن تسري آخر رعشة في أوصالك ، وسيطرد الدفء الناشئ الجديد برد الخريف ورطوبته . وكم هو جميل ذلك النعاس الذى يأتيك متلصصاً ويسبل جفنيك والخيول سائرة في طريقها خبيباً ! وستظل اثناء نعاسك برهة من الزمن تسمع أنفاس الخيول المتتابعة وقرعة العجلات ، ولكنك ستستغرق أخيراً في دور الشخير . واذا ما استيقظت - فماذا ستري ؟ ستجد أنك قد قطعت خمس مراحل وأن القمر مشرق في السماء وأنك قد وصلت الى بلد غريب مليء بالكنايس والبقياب الخشبية والابراج المسودة والبيوت البيضاء نصف الخشبية ! واذا ما وقعت اشعة القمر هنا وهناك فتكاد ترى الجنران والشوارع والارصفة وقد اكتست بالحل - حلل مبقعة بالظلال الفاحمة السوداء ، تبدو الاسطحة الخشبية بالنسبة لها أكثر بريقاً تحت اشعة القمر الشاحبة المنصبة عليها . ولن ترى انساناً في ناحية ، فالكل غارق في النوم . لكن ، لا . ففي احدى التوافذ المنعزلة يتلألأ نور تحته يصلح احد الحرفيين الطيبين حذاءه

او يسحب الخباز قطعة من عجين . ايها الليل ، وايتها القبة السماوية ، كم هو كامل ظلام قبّتك التى لا حد لها - كم هي شامخة وكم هي سحيقة اغوارها الممتدة في سكون لا يدركه من الاحاسيس الا السمع ! وما يزال الليل ينفث انفاسه المهدهدة المنعشة في وجهك حتى تستغرق ثانية في غفوة شاحرة . ويلتفت اليك جارك المسكين مغضباً وقد بدأ يشعر بثقلك عليه ، ومن ثمّ تصحو مرة أخرى ، ولكنك لا ترى امامك الا غير المعابر والحقول . حيثما وقع بصرك تجد الخلاء القفر . ولكن الحروف الدالة على علامات الفرستات تقفز فجأة امام عينيك ! الصباح في انبلاج والرعشة في عودة ، وقد استطعت أن ترى خطّ الافق الذابل يشعّ بالتدرج خطلاً ذهبياً باهتاً . والريح تزداد حدة واتعاشاً ، وانت تلتف بعباءتك التفتاف . لكن كم هو عظيم هذا الاتعاش وكما هو مدهش هذا النوم الذى يطويك مرة أخرى اها هي هزة ! وتعود الى وعيك آخر الامر . الشمس الآن في كبد السماء ، ومن ثمّ تسمع صيحة قائلة «رويداً ، رويداً» وتلتفت فترى عربة شحن زراعية تطلّ من طريق جانبي . ومن تحتك ترى صفحة ممتدة من الماء يحجزها سد منيع ووجه الصفحة يتلألأ تحت اشعة الشمس كأنه لوح من نحاس . وعلى ناحية من المنحدر تنتشر اكواخ الفلاحين ثم بيت السيد ، وفي حدّ الاخير كنيسة القرية وصلبيها الذى يشعّ كالنجم . وتحمل الريح الى اذنيك اصوات ضحكات الفلاحين بينما تشعر في قرارة نفسك بشهية ليس الى

مقاومتها من سبيل . ايتها الطريق العامة الطويلة ، ما اعظمك ! كم مرة في كلاي ويأسي انطلقت ماشياً عبرك فوجدت العزاء والسلى ! وكم مرة اتبعت هديك فحللت عليّ الافكار العجيبة والاحلام الشعاعية والانطباعات الغريبة المدهشة ! كانت تخالج تشيتشيكوف في هذه اللحظة رؤى ليست طبيعية عادية كلها . دعنا نحدق في نفسه ونشاطره ايها . ظلّ باديّ ذى بدء لا يعي شيئاً مطلقاً لأنه مشغول البال جداً يريد ان يستيقن من أنه قد تخلص من المدينة حقاً . ولكنه حالما رأى انها اختفت امام ناظره كلياً بطاحتها ومصانعها ومنشأتها الاخرى ، وليس ذلك وحسب ، بل حتى غاصت ابراج الكنائس الحجرية تحت الافق ، عندئذ بدأ يعي الطريق واختفت من مخيلته مدينة «ن» تمام الاختفاء كأنها شيء لم يعهده منذ الصبي . ثم اصبحت الطريق بدورها شيئاً لا يعهده ايضاً . وراح يغمض عينيه ويرمي برأسه على الوسائد . وليقتنم المؤلف هذه الفرصة ويتكلم بأسهاب عن بطله ، فقد منعه (اي المؤلف) أشياء كثيرة من ان يفعل ذلك - نوزدريف والحفلات والسيدات والمؤامرات المحلية وآلاف التوافه التي تظهر توافه فقط اذا ما وضعت في كتاب ، ولكنها في الحياة الواقعية امور لها اهميتها . دعنا نطرح هذه الاشياء جانباً ونشرع في العمل .

اما فيما اذا كانت الشخصية التي اخترتها لبطلتي سترضي القارى ، فهذا بالطبع شيء مشكوك فيه كل

الشك . على أية حال ، فالسيدات لن يرضين عنه ، لأن الجنس اللطيف يتطلب من البطل الكمال . والعياذ بالله ، اذا حصلت لطفة نفسية او جسدية ا نعم ، فلن يهمّ العمق الذي يسير به المؤلف غور نفسية البطل ، ولن يهمّ ذلك الوضوح الذي يصور به صورته كما لو كانت تنعكس على مرآة ، فلن يعترفن له بفضل فيما فعل . والواقع ان بدانة تشيتشيكوف وتقدمه في السن يصلان ضده . والصفة الاولى في البطل جريمة لا تغتفر ، ومعظم السيدات في حالة كهذه سيستنجن بوجوههن عنه قائلات لأنفسهن «اوف ، اى وحش هذا !» نعم ، والمؤلف على علم بذلك . الا انه وان لم يستطع ابقاء على حياته - ان يتخذ انساناً فاضلاً ليقوم بالدور الرئيسي في القصة ، فقد تكون في القصة قضايا لم تطرق بعد ، وقد يبرز فيها كل الفنى الروحي الروسي الذي لا يحده حد . فهي تصور الى جانب تشيتشيكوف الفلاح بالفضائل التي حباه بها الله ، والفتاة الروسية الرائعة التي لا تضاهيها في العالم فتاة اخرى في جمال الروح الانثوية ذلك الجبال الذي تمتد جذوره الى الطموح النبيل والكرامة الاصيلية . ولو قابلنا في الواقع هذه النماذج الروسية بمثيلاتها في الشعوب الاخرى ، لبدت هذه جامدة عديمة الحياة كما يبدو كتاب جامد لا حياة فيه اذا ما قوبل بنص كتاب ينبض بالحياة والروح . نعم ، فمن حركة فكرية تظهر في روسيا ، يتضح جلياً ان هذه الحركة هي من صميم الطبيعة السلافية ، بينما هي الزبد

ان يكون . كان يجب ان يشبه احد ابويه ، ولكنه كما يقول المثل - لا لامة ولا لابيه بل رمته الريح نسي قارعة الطريق» . هكذا نظرت الحياة لتشييتشيكوف بامتعاض مرير ، فكان كالنافذة التي تجع عليها الصقيع فأصبحت تحجب النور : لا صديق له ، ولا زميل نسي المدرسة . غرفة صغيرة ذات خزائن حقيرة لم تفتح صيفا ولا شتاء ، أب عليل عليه دثار بطانته من جلد الخروف ، وقدمه حافية تلهفها الرباطات ، ما ينفك يزفر زفرات حارة عميقة ويذرع الغرفة جثة وذهوبا ويصق في علية رمل ، وهو نفسه يقضى الفترات الزمنية بالجلوس على مقعد خشبي ، الريشة في اليد والحبر يصيغ اليدين والشفتين ، وكان يسمح في فترات اخرى عبارة مأخوذة من كتاب تقول «لا تكذب ابداً ، بل اطع رؤساءك واراع الفضيلة في قلبك» . واصوات جرّ نعال لا تنتهي رائحة غادية في الغرفة ، واذا ما اضنت الصبي واجباته القاتلة فحاول ان يحلّ دفتره بصورة من بنات افكاره سمع دائما صوتا مجلجلا يصيح به قائلا «ها انت تنغابي مرة اخرى !» وهناك وقت عسير يحسّ فيه احساسا مألوقا ابداً ، لكنه مزعج ابداً ، يتبع الكلمات السابقة حينما تفرك اذا الصبي فركا مؤلماً بين اصبعين طويلتين ملتويتين عند الطرف - هذه هي الصورة البائسة لطفولة لم يعد تشييتشيكوف يذكر منها غير اطياف باهتة . لكن كل حال تحول ، وكل شيء في هذا العالم قابل للتغيير والتبديل الفجائيين . ففي ذات يوم من اطلالة الربيع عندما ذاب جليد الانهار ،

الذي يطفو على السطح في الامم الاخرى . لكن لماذا اتكلم هكذا ؟ وما الذي ارمى اليه من وراء هذا الحديث ؟ انه لمن العار حقاً على مؤلف بلغ منزلة الرجال منذ امد بعيد وربيّ نفسه على دراسة نفسه وتمحيصها تربية عنيقة ، وثقت نفسه ثقيفاً محترماً ان يعطي المجال لهذه التحليلات النافهة حول نقطة كهذه . فلكل شيء دوره ومكانه وزمانه . وكما كنت اقول ، فلم يكن بوسعي ان اختار شخصية فاضلة لبطلتي . وساخبركم عن السبب . السبب هو ان قد مرّ وقت طويل جداً على استعمال كلمة «فقير ، لكنه ذو فضيلة» . السبب هو ان كلمة «رجل محترم» اصبحت كلمة مبتذلة . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد انقلب الى حسان وليس من كاتب الا ويركبه ويجلده بمناسبة وبغير مناسبة . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد اجمع حتى لم يبق لديه ذبالة من فضيلة ولم يبق في جسمه الا الجلد والعظم . السبب هو ان «الرجل المحترم» يخفى دائما عن الانظار . السبب هو ان «الرجل المحترم» قد فقد احترام كل انسان . لهذه الاسباب اعود فأؤكد ان الوقت قد حان لنشدت سافلا الى النير . تعالوا اذن نشدنا هذا السافل الى النير . كانت ابتداءات بطلنا معتدلة كل الاعتدال ، غامضة كل الغموض . كان والداه في الحقيقة من الاعيان ولكن الابن لم يشبههما بحال من الاحوال . على اية حال فقد حضرت ميلاده امرأة قريبة له ، قصيرة بدينة ، وقالت وهي ترفعه بين يديها متعجبة «انه غير ما كنت اتوقّع

انطلق الاب وابنه الصغير في تَلِيْزْ كَا * يجرّما جواد اشقر من النوع الذي يسمّيه اصحاب الخيول «سوروكا» (اي عمق) ، ويسوقها احذب قليل الحجم هو ربّ العائلة الوحيدة من الاقنان التي يمتلكها تشيتشيكيوف الاكبر ويقوم في بيت تشيتشيكيوف بكلّ الاعمال . وساربهم سوروكا يوماً ونصف يوم كاملين ، قضا الليل بينهما في نزل على جانب الطريق ، وقطعوا نهاراً واكلوا فطائر باردة ولحم خروف مشويّ ووصلوا أخيراً الى المدينة . وظهرت الشوارع في عيني الفتى بمظهر برّاق غير مالوف . ففجر فاه ذاهلاً . وانقطعت العربة في زقاق موحد استدعى الوجل فيه جهد سوروكا الجهيد ومسبّات السائق والسيد ، ووصلت أخيراً الى رتاج حظيرة فيها بستان صغير للفواكه فيه بعض الشجيرات ، وشجرتان مبرعمتان من التفاح ، وسقيفة صغيرة فذرة خفيفة هي كل المنشآت التابعة للبيت الذي جار عليه القدر . هنأ عاشت احدى اقارب تشيتشيكيوف ، عجوز مسنة زاوية كانت تنزل الى السوق بنفسها وتجفف جواربها على السماور . وما إن رأت الصبيّ حتى ربتت على خديه وابدت الرضى عن صحته . واتضح له الحقيقة الآن ، وهي انه سيميش عندها فترة من الزمن يذهب فيها الى المدرسة . وعزم الوالد بعد ان استراح ليلة ان يعود الى بيته . ولم تتخلل الدموع الفراق بين الاب والابن . انما اعطى الاب

* عربية مكشوفة باربع عجلات . المترجم .

الصبيّ قطعة نحاسية او قطعتين ، ثم التقى عليه (وهذا هو الاعم) النصائح التالية ، «اصنع لي يا بنيّ . اجتهد في دروسك ولا تكسل ولا تتغاب . ولكن همك قبل كل شيء . استرضاء معلميك . وما دام هذا النهج نهجك فالنجاح حليفك ، وستبيّن اقرانك حتى لو حرمتك الله من نعمة العقل ولو اصابك الفشل في الدروس . ولا تندمج كثيراً مع الرفاق فانهم لا ينفعون ، واذا كان لا بدّ من ذلك فلتكن صداقتك مع اكثرهم غنى فقد يفيدونك ذات يوم . ولا عليك ان تكرم او تقرى منهم احداً ، بل دعمهم هم يكرمونك ويقرونك . واخيراً ، وقبل كل شيء ، احتفظ ووقّر كل كوبيك لديك . فاهم ما في الحياة هو توفير النقود . ان الرفيق والصديق يخيان ظنك دائماً وهما اول من يفسدك ان حلت بك ضائقة ، ولكن الكوبيك لن يتخلّى عنك مهما عظمت النازلة التي تلمّ بك . وفي هذه الدنيا لن يتعدّر عليك عمل شيء ، ولن تعجز عن الوصول الى ما تبغى بمساعدة النقود وعونها» . وما إن القى الاب هذه النصائح حتى ضمّ ابنه اليه وقل عانداً . ومع ان الابن لم ير اياه بعد ذلك ابداً الا ان كلمات الاب غرقت في اعماق نفسه واستقرت في زواياها .

وفي اليوم التالي حضر بافلوشكا الصغير المدرسة لأول مرة ، ولكن نفس الصبيّ لم تستكشف عن اية موهبة خاصة في ايّ فرع من فروع العلوم التسي يتلقاها . انما كانت ميزته البارزة هي المثابرة والترتيب . اما من نواحي الحياة العملية فقد نما عنده

ذكا، خارق . ففي أسرع من لمح البصر فهم كيف يجب أن تسيير الامور وحقق فئتها . ومنذ ذلك الوقت اخذ يسلك سلوكا خاصا نحو زملائه بحيث اذا ما قدموا اليه هدية - وشدة ما كانوا يفعلون - لم يكن يكتفي بعدم ردّها مثلها اليهم بل كان في بعض الاحيان يضع الهدايا في جيبه ويبيعها لرفاقه . ومع انه كان صيبيا - كما هو - الا انه تمكن من ان يصبح عصاميا . فلم يصرف كوبيكا واحدا من العطية النافذة التي اعطاها له والده ، بل زاد في الواقع الى ذخيرته في السنة نفسها بان صنع عصفورا من الشمع ودهنه وباعه بمربح غير قليل . وبالتالي ، ومع مرور الزمن ، شرع يشتغل في صفقات اخرى - هي بالذات بيع المأكولات . فكان يتخذ مجلسه قرب الاولاد الذين يحملون وفرة من النقود ، واذا ما بدت على احد هؤلاء الموسرين امارات الاعياء ، (وهذا يعنى افتتاح شهيته) دس له من تحت المقعد قطعة من الفطير او كعكة زينجيل ثم تقاضى الثمن حسب شدة الشهية وحجم القطعة . وقضى ايضا شهرين في تدريب فار احتفظ به في قفص خشبي صغير في غرفته . ولما وصل التدريب الى نهايته آخر الامر كان الفار يقف على رجليه الخلفيتين ويضطلع وينهض ثانية امتثالا لاوامر يلقيها عليه . ثم باع هذا المخلوق بكمية محترمة من النقود . وهكذا بمرور الزمن بلغت مدخراته خمسة روبلات وبناء على ذلك صنع لنفسه كيس نقود ، وابتدا يملا كيسا آخر مماثلا . لكن سلوكه تجاه اصحاب النقود

كان اكثر دقة واتقاناً . فلم يكن باستطاعة امرى أن يجلس في مقعده بالهدوء الذي كان يجلس به . وبهذه المناسبة يجب ان نذكر ان معلمه كان رجلا يحب الهدوء وحسن السلوك قبل كل شيء ، ولم يكن يطبق الاولاد الاذكياء الماهرين لانه كان يظنهم يضحكون منه . وبناء على ذلك ، فكل من استرعى انتباه المعلم بذكاانه في يوم من الايام كان يكفي منه انتقاله من موضعه او تحريك حاجبيه حتى تنور نائرة المعلم عليه فيطرده من الغرفة ويعاقبه عقابا لا رحمة فيه . وكان يقول ، «ايه ، يا لك من ظريف ! عندي دواء لوقاحتك وقلعة احترامك لمعلمك ! اننى اعرفك اكثر مما تعرف انت نفسك ، ولاكبحن جماحك واجعلك تجتو على ركبتيك» . ومن ثم يضطر الصبي التعميس لسبب لا يعلمه ان يخبر على الارض راکما حتى تنهرا ركبته وان يقيم على الجوع يوما كاملا . وكان المعلم يقول «ان المواهب والكفاءات هراء في هراء ، ولن احترم الا السلوك الحسن . وساعطى الغلامات الكاملة لأولئك الذين يحسنون السلوك حتى لو لم تساعدهم مواهبهم على تعلم الابجدية . اما اولئك الذين ارى فيهم الميل للدعابة والمزاح فلن يكون نصيبهم الا الرسوب حتى ولو كانوا يفوقون صولون علما» . ولهذا السبب نفسه كان المعلم يكره المؤلف كريلوف لانه يقول في احدى قصصه «من الاحسن ان تشرب الخمر ولكن تصرف عملك» . وغالبا ما كان الاستاذ يقص على تلاميذه كيف كان في سالف الايام معلما في المدرسة وكان الصمت

يُحَيِّمُ عَلَيْهَا حَتَّى يَسْمَعَ الْعَرَبَ طَنِينَ الذَّبَابَةَ وَكَيْفَ كَانَتْ تَنْقُضُ السَّنَةَ دُونَ أَنْ يَعْطُسَ تَلْمِيزًا أَوْ يَسْعَلَ فِي غُرْفَةِ الدِّرَاسَةِ ، وَكَيْفَ كَانَتِ الصَّمْتُ كَامِلًا فَلَا يَحْسُ أَنْسَانَ بِوُجُودِ أَنْسَانٍ . وَفِي لَمَسِ الْبَصْرِ أَدْرَكَ تَشْيِيشِيكُوفَ عَقْلِيَّةَ الْعَرَبِيِّ ، وَعَدَلَ مِنْ سُلُوكِهِ بِحَيْثُ يَرْضِيهِ . فَلَمْ يَكُنْ يَتَحَرَّكُ لَهُ حَاجِبٌ أَوْ يَطْرَفُ لَهُ رَمَشٌ خِلَالَ سَاعَاتِ الدِّرَاسَةِ مِمَّا تَلْتَقُ مِنْ خَلْفِهِ مِنْ قُرْصَاتٍ . وَإِذَا مَا قَرَعَ الْجُرْسُ رَكَضَ سَابِقًا زَمَلَاهُ لِيَقْدِمَ لِمُعَلِّمِهِ الْقَبِيحَةَ الْمُنْتَلَنَةَ الزَّوَايَا الَّتِي اعْتَادَ أَنْ يَلْبَسَهَا الْأَسْتَاذُ ، وَمِنْ ثَمَّ يَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَتْرَكَ غُرْفَةَ الدِّرَاسَةِ لِيَقَابِلَ الْمُعَلِّمَ فِي الطَّرِيقِ إِثْنَاءَ عَوْدَتِهِ إِلَى الْبَيْتِ لَا أَقْلَ مِنْ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا حَتَّى تَسْتَعِجَ لَهُ الْفُرْصَةُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ أَنْ يَرْفَعَ لَهُ قَبْعَتَهُ مَحْيِيًّا . وَقَدْ أَثْبَتَ هَذَا الْمَشْرُوعَ نَجَاحَهُ الْكُلِّيَّ . فَكَانَ طَوَالَ إِقَامَتِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ ذَا حِظْوَةٍ كَبِيرَى وَلَمَّا تَرَكَهَا حَازَ عَلَى عِلَامَاتٍ كَامِلَةٍ فِي كُلِّ مَوْضُوعٍ ، وَشَهَادَةِ دِرَاسِيَّةٍ وَكِتَابًا نَقَشَ عَلَيْهِ بِالْأَحْرَفِ الْمَذْهَبِيَّةِ «جَائِزَةُ الْإِجْتِهَادِ الثَّلَاثِي وَالسُّلُوكِ الْمُمْتَازِ» . كَانَتْ عِنْدُنَا قَدْ كَبُرَ فَاصْبِحَ فَتَى حَسَنَ الْمَنْظَرِ وَبَلِغَ السِّنِّ الَّتِي تَطْلُبُ الذِّقْنَ فِيهَا مُوسَى الْهَلَاةُ . وَفِي تِلْكَ الْأَيَّامِ مَاتَ وَالِدُهُ ، مُخْلَفًا لَهُ بَيْتًا ، وَأَرْبَعَةَ صَدَارَاتٍ مُمْتَرِنَةً وَمُعْطَفِينَ وَكَمِيَّةَ قَلِيلَةٍ مِنَ النُّقُودِ . يَتَضَعُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْوَالِدَ كَانَ بَارِعًا فِي إِسْدَادِ النُّصَائِحِ عَنْ تَوْفِيرِ النُّقُودِ لَا فِي تَوْفِيرِ النُّقُودِ . فَبِإِعْجَابٍ تَشْيِيشِيكُوفَ الْبَيْتَ الْقَدِيمَ وَمَا يَحِيطُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ بِأَلْفِ رُوبِلٍ ، وَأَنْتَقَلَ بِقَتْنِهِ وَقَتْنِ الْعَائِلَةِ إِلَى الْعَاصِمَةِ

حَيْثُ شَرَعَ يُؤَسِّسُ بَيْتًا جَدِيدًا وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَلْتَحِقَ بِخِدْمَةِ الْحُكُومَةِ . وَفِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَ فِيهِ تَشْيِيشِيكُوفَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ، حَدَثَ أَنْ فَقَدَ نَاطِرَ مَدْرَسَتِهِ (لِغِيَابِهِ أَوْ لِسَبَبٍ آخَرَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ) خِدْمَتَهُ فَسَى الْمَدْرَسَةَ وَالَّتِي اخْتَرْنَ فِيهَا الْكَثِيرَ مِنَ الصَّمْتِ وَحَسَنِ السُّلُوكِ . وَجَرَّهَ حَزَنُهُ إِلَى الْخَمْرِ . وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ لَدَيْهِ حَتَّى مَا يَفِي بِهَذَا الْغَرَضِ اعْتَزَلَ مَرِيضًا يَأْتِسًا جَالِعًا ، فَسَى خَصَّ مَحْطَمٌ كَثِيرٌ . وَلَكِنْ بَعْضُ تَلَامِيذِهِ السَّابِقِينَ - أُولَئِكَ الصَّبِيَّةِ الْأَذْكَِيَاءِ الْمَاهِرِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَمَهَّمُونَ بِالْوَقَاحَةِ وَسُوءِ السُّلُوكِ - سَمِعُوا بِحَالَتِهِ الَّتِي يَرْتَبِي لَهَا فَجَعَمُوا لَهُ مِنَ النُّقُودِ مَا اسْتِطَاعُوا حَتَّى أَنْهَمَ بِأَعْوَابِ بَعْضِ حَاجَاتِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ ، إِلَّا تَشْيِيشِيكُوفَ فَأَنَّهُ لَمَّا طُلِبَ إِلَيْهِ ذَلِكَ أَدْعَى بِعِزِّهِ وَسَاوَمَهُمْ عَلَى تَقْدِيمِ قِطْعَةٍ وَاحِدَةٍ فَقَطْ مِنْ قَتْنِ الْبِيَاتَاكِ * رَدَّهَا لَهُ زَمَلَاؤُهُ الْقَدَامَى فِي وَجْهِهِ صَائِحِينَ «أَوْه ! يَا لَكَ مِنْ بَخِيلٍ !» أَمَّا الْعَرَبِيُّ الْمَسْكِينُ فَلَمْ يَكِدْ يَسْمَعُ بِمَا عَمِلَهُ تَلَامِيذُهُ السَّابِقُونَ حَتَّى دَفِنَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَانْفَجَرَتِ الدَّمُوعُ مِنْ مَقْلَتَيْهِ الذَّابِلَتَيْنِ كَمَا تَنْفَجِرُ مِنْ عَيْنِي الطِّفْلِ الْيَانِسِ ، وَتَمَسَّ بِصَوْتِهِ الْإِضْعِيفَ يَقُولُ «لَقَدْ بَعَثَكُمْ اللَّهُ إِلَيَّ كَيْ تَبْكُونِي عَلَى فِرَاشِ مَوْتِي» . وَلَمَّا سَمِعَ بِأَنْبِيَاءَ تَشْيِيشِيكُوفَ تَنْهَدُ تَنْهَدًا عَمِيْقًا وَقَالَ «أَيُّهُ يَا بَافْلُوشْكَا . كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ الْإِنْسَانُ ! لَقَدْ كُنْتُ تَلْمِيزًا طَبِيْعًا ذَاتَ يَوْمٍ ، وَلَمْ تَسْبَبْ لِي الْبِتَاعَبَ ، وَلَكِنَّكَ الْآنَ أَصْبَحْتَ مُتَكَبِّرًا حَقًّا !» لَكِنَّا يَجِبُ أَنْ لَا نَسْتَنْتَجِجَ * قِطْعَةً فَضِيَّةً قِيَمَتُهَا خَمْسَةُ كُوبِيكَاتٍ . النَّاصِرُ .

من هذا ان شخصية بطلنا اصبحت قاسية متجهمة
او ان ضميره قد تجمد حتى ننفي عنه كل ذرة من
الشفقة والعطف . وحقيقة الامر انه كان يحسّ بهاتين
العاطفيتين وكان يسره جداً ان يقدم العون والمساعدة
لعلمه القديم لو لم يستدع ذلك المساس بذخيرته
التي قرر ان تبقى سليمة لا يمسه احد . وبكلمات
اخرى نقول ، ان نصيحة الوالد التي قال فيها «احتفظ
ووفر كل كوبيك» اصبحت قانوناً صارماً لا يخرق عند
الابن . الا ان الشاب لم يكن الدافع عنده لجمع النقود
هو حبّ النقود لذاتها ولم يكن مصاباً بغريزة البخل
وجمع المال . انما كانت تحوم امام عينيه صور الحياة
وملذّاتها وأطايها - صور عن العربات والبيت المؤثث
بفاخر الاثاث والولائم الفخمة . وعلى امل الحصول على
هذه الاشياء يوماً من الايام راح يدخر كل كوبيك
ويضيّق على نفسه وعلى الآخرين ، واذا ما مرّ به غني
في عربة فخمة يجرها جوادان متماثلان مسرعان كان يقف
مفكراً تفكيراً عميقاً ثم يقول لنفسه فعل من يصحو من
النوم ، «لا بد» ان هذا الرجل كان موظفاً اخصائياً في
دوائر المالية ، فكان تسريحه بسيطاً جداً !» خلاصة
القول ، ان كل ما يختص بالثروة والغنى كان يؤثر فيه
تأثيراً لا يمحي . حتى حين ترك المدرسة ، لم يروح
عن نفسه بعبلة يستجم فيها ، اذ كانت رغبته شديدة
جداً في الحصول على عمل والدخول في سلك الحكومة .
الا انه مع كل ما احتوت عليه شهادته من مديح
وتقريظ لم يتمكن الا بعد عناء شديد من تنسيب اسمه

في وظيفة صغيرة بمرتّب قدره ثلاثون او اربعون روبلا
في السنة . ومع كل ذلك ، وعلى يؤس الوظيفة التي
حصل عليها فقد صمّم ان يتقلّب على كل العقبان وان
يضل الى النجاح بالانتباه الشديد الى عمله . وقد ابدى
في الواقع من الصبر والعصامية والاقتصاد ما يستحقّ
الاعجاب . فكان يجلس منذ الصباح الباكر حتى هزيع
متأخر من الليل منعصماً في عمله الحثيث من نسخ
الوثائق الرسمية بحماس في الروح والجسد لا يعرف
الكلال ، وينام على المكاتب في غرف الدائرة ، وكان
ياكل ما تاتي له مع العارس صاحب النوبة . لكنه كان
يحاول دائماً ان يظل نظيفاً مرتّباً وان يحافظ على
بشاشة ملامحه وقد جرب ان يكسب حركاته سمات
الخفة والرشاقة . ويمكن ان نذكر عابرين ، ان زملاء
الموظفين كانوا على قدر غريب من البساطة ، ذوى اشكال
لا تستحبّ ، وكانت لبعضهم وجوه كالغيز الذي اسمي
خيزه ، وخذود متورّمة ، وذقون متقلّصة ، وشفاه
مشقّقة متقرّحة . ولم يكن في الحقيقة منهم انسان
جميل . هذا الى ان نعمة شرسة كانت دائماً في اصواتهم
كما لو كانوا يفكرون في ضرب من معه يتكلمون . وقد
اتضح من تضحياتهم المتكررة لباخوس ان الطبيعة
السلافية لا يزال فيها شيء من الوثنية . الا ، بل كانوا
يدخلون غرفة المدير وهم لا يزالون تحت تأثير الخمر ،
وبما ان رائحة انفاسهم لم تكن عطرة جداً فسرعان ما
يصبح جو الغرفة غير عطر ايضاً . وبطبيعة الحال ، بين
موظفين على هذه الشاكله ، لم يفشل تسميتشيكوف في

استرعاء الانتباه وإلفات النظر لانه كان على النقيض من
زملانه في كل شيء. - في المرح ورقة الصوت واهمال
المشروب اهمالا كلياً . غير أن السبيل لم يكن امامه
سهلاً . إذ كان يرأسه لسوء حظه ، رئيس كتبة كان
منحوتاً للتبلد وقوة الاستمرار . فهو دائماً بعيد
المنال ، على الوتيرة نفسها ، لم يبتسم في حياته قط
ولم يسأل مرة من المرات عن صحة احد معارفه . ولم
يعهده امرؤ ابداً يختلف في الشارع او في البيت عما هو
عليه في مكتبه ، او مبدياً اقل اهتمام بأى شيء مهما
كان ذلك الشيء ، او شارباً او منغمساً في نشوة الكاس
او مستسلماً لذلك المرح الغريب الذى يستسلم له
حتى اللص اذا نمل . لا ، لم تكن لديه ذرة واحدة من
هذا ، بل لم تكن لديه ذرة واحدة من أى شيء ، حسناً
كان ام سيئاً . شخصية سليبية تمام السلبية كان لها
أثر غريب . وعلى هذا المنوال ذاته كانت تقاطيع وجهه
الرخامية الذابلة التى لم تكن تذكر رائيتها بشيء ، كانت
على قسط كبير جداً من التناقض الجامد . وكانت آثار
الجدري المنتشرة في وجهه هي الشيء الوحيد الذى
يضمه الى ذوى الوجوه التى يقول فيها المثل الدارج
"امشى عليها الشيطان في الليل يطحن فولاً" .
وباختصار ، كان يلوح وكان أى امرئ لا يستطيع ان
يقرب هذا الرجل او ينال رضاه . غير أن تشميتشيكوف
حاول جهده . فقد أخذ بأدى ذى بدء باستماتته في كل
التوافه من الامور . فكان ينظف ريشته بكل عناية واذا
ما اتم ذلك وضعها حسب رغبته عند كوعه ، ثم ينفض

الغبار ورماد التبغ عن المكتب ويكنسه ويحضر مفرشاً
جديداً لمحبرته ، ويعتنى بقبعته - احقر قبعة عرفها
العالم - ويهيئها له في الوقت المحدد لانتهاه العمل ،
ويسمح ظهره بالفرجون اذا ما تطلعت بجير الحائط . الا
ان كل هذه الامور مرت دون ان تسترعى انتباه
الرئيس ، وكان شيئاً لم يكن . واخيراً ، حشر
تشميتشيكوف انفه في عائلة رئيسه وفي حياته
البيئية ، وعلم ان له بنتاً راشدة هي أيضاً بوجه مشى
عليه الشيطان ذات ليلة يطحن فولاً . هنا ظهرت فرصة
لشن هجوم جديد ! وبعد ان عرف أى كنيسة تزور
يوم الاحد اخذ يقابلها فيها بملبس مرتب وقميص
منشئ . وسرعان ما تكلم مشروعاً بالنجاح والتوفيق .
وتردد رئيس الكتبة الجاف بعض التردد ، لكنه ما
لبث ان انتهى بدعوته الى تناول المشاء . ولم يكن
بإستطاعة أى رجل من زملائه في المكتب ان يخبرك كيف
توصل تشميتشيكوف في فترة وجيزة الى الانتقال الى بيت
رئيس الكتبة وان يصبح ضرورة لازمة في البيت لا غنى
عنها . فاصبح يشتري الطحين والسكر ويعامل البننت
معاملة الخطيبة وينادى رئيس الكتبة «بابنكا» * ويقبل
احياناً يد بابنكاه . وقد ظن الموظفون في الواقع ان
الزواج في نهاية شباط (اى قبل الصوم الكبير) بل
وراح الأب الجاف يوصى السلطات بشان تشميتشيكوف
حتى تمكن هذا من الحصول على وظيفة شغرت آنذاك هي

* يا ابتاه . المترجم .

وظيفة رئيس كتبة . وكان ذلك ايذاناً بنهاية العلاقة بين تشيتشيكيوف ومضيفه لانه اسرع الى تعبئة اغراضه خلسة في حقيبتيه ، وفي اليوم التالي كان في بيت جديد . وانقطع فيما بعد عن مناداة رئيس الكتبة ببابنكا وعين تقبيل يده وانتهت حكاية الزواج نهاية فجائية كما لو لم تكن موضوع بحث في يوم من الايام . الا انه لم ينس يوماً ان يضغط على يد مضيفه السابق اذا ما قابله او يدعوه الى تناول الشاي معه . اما من الناحية الاخرى ، فكان رئيس الكتبة - مع ما هو عليه من الجمود وعدم المبالاة - يهز رأسه ويتمتم قانلاً ايه ، يا صديقي العزيز ! لقد ازددت كبرياء ، لقد ازددت كبرياء !

كانت الخطوة السابقة اصعب الخطوات التي كان على بطلنا ان يجتازها . فقد اصبحت الامور بعدها اكثر سهولة واسرع نجاحاً . وكان يسترعي الانتباه اينما حلّ لا سيما وقد نسي نفسه على كل ما هو ضروري في هذه الحياة - الخلق الجذاب والصبر الجميل والاجتهاد العظيم في شؤون الاعمال . واذ كان متسلحاً بهذا الدماء ، فقد تمكن من الحصول على ترقية الى مركز يوصف عادة بانّه «مركز تخين» ، فاستغفله الى اقصى حدود الاستغلال . وقد جرى في تلك الايام تحقيق شديد في موضوع الرشى ، ولكنه لم يخش - لا ، بل استفاد منه لتدعيم مركزه ، مظهرًا بذلك الدماء الروسي الذي لا يخفق في ان يبلغ الارجح فيما يتعلّق بالابتزاز . اما طريقته في ادارة الاعمال في مكتبه فقد كانت كما يلي .

حالما يأتي اليه المدعي او مقدّم الطلب ويمدّ يده الى

جيبه ليخرج النقود ، يمسك تشيتشيكيوف بيده مبتسماً ويصبح متعجباً « لا ، لا ! بالتأكيد انا لست . . . لكن لا ، لا ! هذا واجبتنا ، وان عمله فرض علينا . ولسنا بحاجة الى مكافآت اذا قمنا بما هو واجب . اما بشأن قضيتك فيجب ان يستريح بالك . سيتم كل شيء غداً . اذا تفضلت باعطائي عنوانك ؟ لا حاجة بك ان تكلف نفسك عناء الحضور مرة اخرى لان الوثائق سترسل الى بيتك بسهولة » . ويعود صاحب المعاملة الى بيته وهو يكاد يطير فرحاً ، ويقول لنفسه « لقد كنا بحاجة ماسة الى رجل كهذا منذ امد بعيد . ان هذا الرجل جوهره لا تقدّر بثمن » . ويجلس في بيته يوماً ويومين وثلاثة ايام ينتظر رسولا يحمل الوثائق ، لكن دون جدوى . ثم يعود الى الدائرة مرة اخرى ليجد ان قضيته لم تمسّها يد بعد . واخيراً يقابل «الجوهرة التي لا تقدّر بثمن» ، فيعمل صوت تشيتشيكيوف برثة ادب ولباقة يقول ، وهو يمسك بيد زائره ويضغط عليها «الحقيقة ان لدينا عملاً كثيراً جداً ! ولكن مسالتك ستعجز غداً ، واني متأسف جداً لتاخيرها » . وتظهر على وجهه اثناء ذلك تعابير معزّية جذابة . لكن الوثائق لاتصل الى بيت صاحب المعاملة لا في الغد ولا في اليوم الذي يليه ولا في اليوم الذي يلي الذي يليه . وبناء على ذلك يفكر فيما اذا كان عليه ان يعمل شيئاً ، وما يكاد يسأل حتى يجاب بان عليه ان يدفع شيئاً للناسخين . فيقول «حسناً ، لا ضير في ذلك . وقد اعددت قطعة او قطعتين من فئة ربع الروبل» . فيكون الجواب «اوه ، لا ، لا ، ان ربع

الروبل لا تكفي للناسخ ، فهو يتقاضى روبلا كاملا .
 «ماذا ؟ روبل لكل ناسخ ؟» - «طبعا ، وهل في ذلك ما
 يدعو الى التذمر ؟ سيتقاضى الناسخ نفسه ربع روبل
 فقط اما الباقي فيذهب الى الرئيس» . وعلى ذلك
 يستشيط صاحب المعاملة المضلل غيظا لهذه الطريقة من
 اختلاس النقود ويلعن سلوكهم الشائن العاتي .
 ويتحسر قائلا «كان الانسان قبل اليوم يعرف ما يفعل .
 كان اذا اعطى المدير ورقة مالية اصبح الامر في يده .
 اما الآن فيضطر» بعد انتظار اسبوع الى اعطاء كل
 ناسخ روبلا كاملا لكي تسير اموره كما يشتهي . الى
 الشيطان بهؤلاء الموظفين المحترمين !» وكان الحق كل
 الحق مع الرجل في سخطه هذا ، فما دام قد انتهى دور
 المرتشين وما دام المديرون قد اصبحوا ذوى مكانة
 واحترام - كما يقولون - فلماذا يوعزون الى الكتبة
 والموظفين بان يقوموا لهم باعمال اللصوصية ؟ ويمرور
 الزمن انفتح امام تشيتشيكوف مجال اوسع ، فتشكلت
 لجنة للاشراف على اقامة مباني للحكومة وقد رشح عضواً
 فيها فاقبت انه من انشط الاعضاء . وشرعت اللجنة
 بالعمل دون تاخير ، ولكن المباني المذكورة لم تتم فسي
 غضون ست سنوات . وقد يكون السبب في ذلك ان
 الطقس قد اعاق عملية البناء او ان المواد التي
 استعملت كانت من النوع الذي لا يسمح لمبان كهذه بان
 تملو عن الاساس . وفي الوقت نفسه شاهد اهل المدينة
 بيتاً جميلاً ذا هندسة غير حكومية يقام لكل عضو من
 اعضاء اللجنة . من الواضح ان التربة التي اقيمت عليها

اساسات هذه البيوت كانت اصلح من تلك التي اقيمت
 عليها بناية الحكومة المتكودة . وبالمثل ، فقد بدت
 مظاهر الرخاء على كل اعضاء اللجنة واكملوا نصف دينهم
 بالزواج . حتى ان تشيتشيكوف لاول مرة في حياته ،
 هجر القوانين العديدة التي فرضها على نفسه من كبت
 شديد وحرمان لا يرحم ، ولطف من حدة التشكف
 في الامتناع عن اطياب الحياة التي كان قادراً ايسام
 شبابه على الامتناع عنها . تقول ، ان بعض الحاجات
 الكمالية اخذت تظهر في بيته ، فاستخدم طاهياً ماهراً ،
 واخذ يلبس القمصان الكتانية ، واشترى لنفسه بذلة
 من نوع لا يلبسه احد في المقاطعة ، ولبس الثياب ذات
 النقوش المربعة بالوان حمراء ، وبتية زاهية ، واشترى
 حصانين اصيلين (كان يقودهما بلجام واحد) ، وتعود
 ان يستحم باللبن المخلوط بما الكولونيا ويفرك جسمه
 بافخر انواع الصابون حتى يكسب جلده مسحة مسن
 الصفاء .

الا ان الاحوال لا تدوم ، فقد ظهر على المسرح فجأة
 مدير جديد - رجل عسكري شديد التصصب في عدائه
 للمرتشين ولكل ما يشذ عن القاتون . وفي اليوم التالي
 لوصوله طلب دفاتر الحسابات واكتشف مواضع النقص
 والكميات المفقودة . وتنبه الى البيوت الجميلة السابقة
 الذكر والمبنية بناء مدنياً غير حكومي . ونتج عن ذلك
 تنقلات عامة . فاحيل كثير من الموظفين على التقاعد ،
 واستردت الحكومة بيوتهم ، وحوّلتها الى ملاجئ مختلفة
 او الى مدارس لابناء الجنود . وهكذا خرّ الصرح القديم

الى الارض هاويا - وخاصة تشيتشيكيوف . فكان المدير يتمتع امتعاضاً شديداً من وجه تشيتشيكيوف بالذات . اما لماذا كان ذلك بهذا الشكل ؟ فمن الصعب ان نجيب . لكنه امر يحدث غالباً في حالات مماثلة لا تعرف له سبباً . مهما يكن من امر ، فقد ابفضه المدير بغضاً قتيلاً لكن المدير على ما هو عليه من عقلية عسكرية لم يكن على علم بالدهاء الوافر في العقلية المدنية . لذلك لم يمض وقت طويل حتى تمكنت عصاة جديدة من الموظفين بمظهر من الحصافة والكياسة ومقدرة على المداينة والرياء ، ان تعيد اليه وداعته . فوجد الجنرال نفسه في ايدى لصوص ابرع من سابقهم ، لصوص لا يتسرب اليهم الشك ، ظنا منه انه اختار النخبة الصالحة ، وراح فوق ذلك يفتخر بان له عيناً ناقبة في ادراك المواهب . وما لبث الموظفون المذكورون ان اخذوا يكيلون له الناء على نفسيته وشخصيته . ونتيجة لذلك توهم ان الدائرة التي يعمل فيها قد تحولت الى مؤسسة لاكتشاف كل ما يشذ عن القانون . ففي كل مكان وفي كل حالة كانت تطارد هذه المخالفات كما يطارد الصياد بخطافه الحوت السمين . وقد برهنت هذه الرياضة على نجاح تام . ففي برهة وجيزة اصبح كل صياد من القوم المذكورين يمتلك عدة آلاف من الروبلات . عندئذ ارتد عدد كبير من العصاة السابقة الى الطريق السوي ، وسمح لهم بالعودة الى وظائفهم . ولكن تشيتشيكيوف لم يستطع بوسيلة من الوسائل ان يتخذ الى الرجوع سبيلا ، مع

ان السكرتير الاول للجنرال والمدير الحقيقي لشؤونه - مدفوعاً بمبالغ مختلفة من الاوراق المالية - حاول جهده ان يدافع عن صالح بطلنا . ويظهر ان الجنرال كان من صنف من الرجال الذين وان كانوا يقادون من اوتوهم بسهولة (شريطة ان يعجز ذلك دون علمهم) الا انه اذا تمسك بفكرة في راسه فانها تثبت فيه كالسمسار الذي لا يتقلع . وكل ما استطاع فعله ذلك السكرتير الداهية هو ان يمزق الوثيقة الرسمية التي تدل على سوء سيرة تشيتشيكيوف عند الحكومة - حتى هذا لم يستطع فعله الا بعد ان قدم استرحاماً للجنرال باسم زوجة تشيتشيكيوف واطفاله (الذين لم يكن لهم وجود في الواقع) .

وقال تشيتشيكيوف لنفسه «حسناً ، لقد بذلت جهدي ولكني اخفقت في كل شيء . حتى الآن . ان نذب الحظ لا يجدي فتبلاً . فالى العمل» . وصمم عندئذ ان يبدأ حياته من جديد وان يتسلح بالصبر والعصامية مرة اخرى . ولكي يسهل عليه ذلك ، كان عليه طبعاً ان يغير المدينة التي يسكن فيها . ومع هذا فقد اخفقت مساعيه فترة من الزمن . ووجد نفسه اكثر من مرة مضطراً الى تغيير وظيفته الى وظيفة اخرى لاقل اشارة . وكانت هذه الوظائف كلها على احقر واتعس ما تكون . غير انه وهو الرجل المتناهي في الاناقة ، لم يمنعه اختلاطه بزملاء اقل ما يقال فيهم انهم لا يعرفون ما هي الاناقة . من ان يحافظ على حبه الفطري لكل ما هو محترم المظهر وعلى غريزته التي كانت تقوده الى تزيين مكتبه بالزخارف

الخشبية المصقولة والى احلال الترتيب والنظام في كل مكان . ولم يكن يسمح في وقت من الاوقات للكلمة نابية ان تتسرب الى حديثه ، وكان يشعر باستياء شديد اذا ما مرت في حديث الآخرين اشارة مهينة الى ما يختص بالكبرياء ، والمناصب . وسوف يصرّ القارى ايضاً اذا ما علم ان بطلنا كان يبدل ثيابه يوماً بعد يوم ، وفي أيام الصيف عندما تشتدّ الحرارة كان يبدلها كل يوم ، لان اقل شك في رائحة كريهة كان يسبب الى تانقه . ولهذا السبب نفسه كان - عندما يأتي اليه بتروشكا - يحشو منخريه بقطعتي قرنفل . باختصار ، كان المساس بالوجهة والكبرياء يؤذى نفسه ويضر بها حتى كانت تمر عليه اوقات تنهار فيها اعصابه وكانها اعصاب فتاة ، وهذا مما يزيد امتعاضه من العمل مع رجال لا معرفة لهم بالاحتشام في هذه الحياة . وعلى الرغم من تمسكه الشديد بهذه العادات الا ان اوقات الضائقة والشدائد غيرت من صحته فبدأ عليه شي من الترهّل . وكان قد أخذ يسمن ويتخذ تلك الاشكال المدوّرة المعتبرة التي وجده القارى فيها ، حين تعرف عليه ، وحين كان يتطلع الى نفسه في المرآة كان يفكر غير مرة عن اشياء كثيرة لطيفة منها ما يتصل بالنساء ، ومنها ما يتصل بالطفولة ، وكانت الابتسامة تشبع هذه الافكار . وكان اذا ما رأى نفسه في المرآة لم يتمالك ان يصيح « يا للعدراء المقدسة ! اى وحش قبيح ارى ؟ » ويروح فيما بعد يفكر مدّة طويلة في هذه القضية بانفعال شديد . لكنه تجمّل ذلك كله بالصبر

والجلد . وانتهى به الامر الى الاشتغال في دائرة الجمارك . ويمكن ان نقول ان هذه الدائرة كانت الهدف الذى يطمح اليه في سرّه منذ امد طويل ، لانه لاحظ الرشاقة الاجنبية التى يتعلّم بها موظفوها ، ولاحظ انهم يرسلون بين الفترة والاخرى هدايا من الصينسى والقماش النفيس الى اخواتهم وعمّاتهم . . . بل الى صديقاتهم عموماً . نعم ، وكان يناجي نفسه ويتنهّد قائلاً « هذه هي الدائرة التى يجب ان اكون فيها . مدينة على الحدود ، وزملاء ذوو ذوق . عندئذ ساصبح قادراً على اقتناء القمصان الكتانية الممتازة » . ويمكن ان نقول ان افكاره كثيراً ما كانت تنجّ الى نوع من الصابون الفرنسي يكسب الجلد ابيضاضاً والحدود نضارة وبهاء . واسم هذا الصابون لا يعلمه الا الله ، لكنه على الاقل يمكن الحصول عليه عند الحدود فقط . وكما أقول ، فقد كان تشيتشيكوف يصبو دائماً الى الجمارك ، ولكن اعاقته عن تقديم الطلب اليها - برهة من الزمن - اللجنة البنائية وما فيها من خيارات متنوعة مداراة . وكان على حق في ان يرى في الاخيرة طيراً في اليد ، والاولى طيراً على الشجرة . ولكنه صمّم الآن - مهما كانت الظروف - ان يتخذ الى الجمارك سبيلاً . وقد اتخذ هذا السبيل وقد بدأ العمل الجديد بحماس شديد مصدره انه كان يعتقد ان الطبيعة قد خلقتة خلقاً خاصاً ليكون موظفاً في الجمارك . وفي الحقيقة كان ما ابداه من النشاط والبصيرة الناقبة وحضور الذهن شيئاً لم يعهد ولم يحلم به من قبل . ففي اربعة اسابيع على اكثر

تقدير احاط الاحاطة التامة بشؤون الجمارك واصبح على علم بكل صغيرة وكبيرة فيها . فلم يكن يتقن الكيل والميزان وحسب ، بل كان يستطيع ان يقدّر عدد الاذرع في لفّة القماش ، او اذا كانت مادة اخرى فانه يأخذ منها رزمة في يده فيعرف عندئذ عدد الارطال التي كان سيسجلها الميزان . اما عند التفتيش ، اجل ، فقد اعترف زملاؤه بان له حاسة الكلب الشموم . ولا يستطيع العراء الا ان يعجب بالصبر والاناة اللتين كان يتحلّى بهما اذ يفتش كل زرّ وعروة فسي الشخص الظنين . وهو اثناء ذلك كله محتفظ بأدب صامت وبرودة في الدم تفوق مدى التصوّر . وفي الوقت الذي يكون فيه المهريون يرغون غيظاً والزبد يعلو اشدائهم ويتمنون لو بدّلوا ضحكة سحنته بصفعة قوية رنانة ، تجده هادئاً لا تتحرك عضلة في وجهه ولا ينقص لطفه ذرة واحدة ، ويتمتم قائلاً «هل تسمح لي بان تكلف نفسك عناء الوقوف؟» او «الرجاء ان تتفضلني بالدخول الى الغرفة التالية يا سيدتي ، حيث ستمتنى بك زوجة أحد الموظفين» ، او «ارجوك ان تسمح لي بان اجرّ هذا السكين في بطانة معطفك» (ومن ثم يروح ينتزع البطانة قطعة قطعة بتور وبرود كالبرود الذي يخرج به امتعته من حقيبتة الخاصة) . حتى ان رؤسائه اعترفوا بانه شيطان في عمله اكثر منه انسانا . فكانت غريزته مدهشة جداً في التفتيش في عجلات العربات وصواربها وفي اذان الخيول وفي محلات يجب على المؤلف ان لا يفكر بها حتى في خياله - محلات لا يسمح الا لرجال

الجمرك بالتدخل فيها . وتكون النتيجة ان يصبح المسافر التعيس الذي قطع الحدود ضائعاً في بحر من الحيرة ، يتصبّب عرقاً ويفور جسده الفورة تلو الاخرى ، ويقبع يرسم علامة الصليب «مه ، مه ، مه ، مه !» ويشعر هذا المسافر في الواقع ان مثله مثل التلميذ الذي دعاه الناظر ليلقي عليه بعض التعليمات فكان نصيبه بدلا من ذلك ان ضربه ضرباً مبرحاً . وخلاصة القول ، ان تسميتشيكوف قطع رزق المهربين فترة من الزمن . وقد اوقع اليهود البولونيين بالذات في حالة من اليأس والقنوط . وكانت استقامته وزيافته من المناعة حتى لا تكاد تبدو طبيعية . فكان يتغف عن المال البسيط الذي يمكن الحصول عليه من البضائع المصادرة التي كانت لا تسلم للحكومة عادة توفيراً للعناء الكتابي . ولا حاجة بنا الى القول ايضاً ، ان عملاً كهذا بحماس طاغ لا مصلحة من ورائه قد استرعى انتباه الموظفين وتبعاً لذلك انتباه السلطات . وعلى هذا فقد وصلت ترقية ما لبث بعدها ان وضع مشروعاً متيناً لاكتشاف المهربين شريطة ان تخول له السلطة اللازمة لتنفيذه . وخولت له هذه السلطة حالاً ، كما اعطيت له صلاحية لا حد لها في اجراء اي نوع من البحث والتفتيش . كان هذا هو كل ما يريد . وحدث ان تا سست قبل ذلك شركة للتهرب على خطط مرتبة منظمة ، وكان هذا المشروع يبشر بالملايين . ومع ان تسميتشيكوف كان على علم بها من قبل الا انه قال لرسول الشركة الذي جاء لشراؤه اول الامر «لم يكن الوقت بعد» . لكنه الآن - وقد

أصبح زمام الامور في يده - أرسل كلمة للعصابة يقول فيها «ان الوقت قد حان». ولم يكن مخطئاً في حساباته ، فقد استطاع في غضون سنة واحدة ان يحصل على ما لم يكن ليحصل عليه في عشرين سنة من خدمة امينة . والحكمة نفسها هي التي جعلته يرفض في ايامه الاولى ان ينشئ علاقات مع الشركة ، لأنه لم يكن عندئذ شيئاً يستحق الذكر ولن يكون له في الغنائم شيء يذكر . اما الآن ، فالمسألة مسألة اخرى ويستطيع ان يملئ ما يريد من شروط . وبالإضافة الى ذلك ، ولكي تسير الامور على ما يرام ، لم ينس ان يتواطأ مع موظف مسؤول آخر من اولئك الموظفين الذين - وان شاب شعرهم - الا ان عزائمهم تغور امام المغريات . فاجرى العمد وباشرت الشركة العمل . وقد بدأ العمل في غاية التوفيق . لكن معظم القراء في الغالب يعرفون القصة التي كثر ترديدها حول الماعز الاسباني عبر الحدود ولكل ممزى منها جلدان تحمل بينهما ما فيه الكفاية من الدنتلات التي تباع بمليون روبل . ولن اعيد القصة مرة ثانية ، الا اننى اقول ان رحلات كهذه لم تقع قبل ان يصبح تشيتشيكوف رئيساً للجمارك ، وانه لو لم تكن له يد في المشروع لما استطاع يهود العالم اجمع ان يكللوه بالنجاح . ولما تمت ثلاث رحلات او اربع من هذه الرحلات الماعزية الضخمة حتى غدا تشيتشيكوف وشريكه يملكان اربعمائة الف روبل دفعة واحدة . وهناك من يقدرون ان ارباح الاول منهما بلغت نصف المليون لأنه بذل جهداً اكبر في هذا الشأن . ولا

يعلم الا الله ما هو الرقم الذي كان سيصل اليه ربحهما لو لم يقطع عليهما ترتيباتهما طارىء سي . تقول ، ان الشيطان لسبب ما اضاع احساس الموظفين المتأمرين فراحا يتنابذان بالحديث وانتهى الامر بينهما الى خصام . ذات مرة اثناء جدال عنيف قال تشيتشيكوف لزميله - وقد يكون نضوان ساعتهذ - «يا ابن الكاهن» ، ومع ان هذا الوصف هو الحقيقة الاكيدة بالنسبة للزميل ، الا انه استاء منه ورد على تشيتشيكوف بصوت حاد عال يقول «انت الكاهن ابوك» . وازداد نكاية في تشيتشيكوف يقول «نعم» ، هذه هي حقيقتك ، وليكن هذا معلوماً لديك» . ومع انه قلب لتشيتشيكوف ظهر المجن ورد التحية باحسن منها وتوج عمله هذا بالتاكيد الأخير ، الا انه لم يقنع الا بان اوسل خطاباً سريعاً للسلطات . ويروي آخرون رواية اخرى عن نزاعهما هذا ، فيقولون انه كان بسبب امرأة كانت على حد التعبير الذي وصفها به رجال الجمارك «كانها لباب اللفت في نضارتها وعنفوانها» ، وان اشقياء قد استزجروا ليهاجروا بطلننا في زقاق مظلم ، وان المشروع منى بالفشل ، وقد تبين ان تشيتشيكوف وزميله كانا مخدوعين لأن السيدة كانت تكن الود لكاتبين اسمه شمشاريف . على اية حال فلا يعلم الحقيقة الا الله . ولندع القارى الفضولي يستنبطها بنفسه اذا اراد . اما ما حصل في الواقع فقد كان ان اكتشفت الاتصالات بالمهربين اكتشافاً تاماً . ومع ان الموظف نفسه قد وقع في المكروه ، إلا أنه اغرق

زميله . ووقع الموظفان تحت طائلة التحقيق وجرّداً ما
 يملكان وأجبراً على تسجيل كل ما علاه . ولم يتحمل
 زميل تشيتشيكوف وطأة خطيئته فادمن على شراب حسب
 العادة الروسية . أما تشيتشيكوف فقد واجه الامر
 بالحزم ، وعلى الرغم من جهود السلطة الجديده في معرفة
 مغامره الا انه استطاع ان يخفى قسماً منها ، ولجأ الى
 كل الحيل والالاغيب التي يتقنها رجل حنك الزمان فخير
 زملاءه خبرة واسعة . فلم يترك وسيلة مجدبة دون ان
 يستخدمها - الاخلاق السمعة والخطب المثيرة والنفاق
 والرياء وحشو راحة اليد بالنقود بين آونة وأخرى .
 وكانت نتيجة ذلك ان ما لحقه من الفضيحة كان اقل
 مما يزميله ، وان نجا من محاكمة فعلية بتهمة جنائية .
 بيد انه خرج مجرداً من كل راساله ، مجرداً من كل
 ما جمعه ، مجرداً من كل شيء . وكان هناك راغبون في
 كل هذه الاشياء . تقول ، ان كل ما تبقى لديه هو عشرة
 آلاف روبل ادّخرها ليوم عاصف ، واربعة وعشرون
 قميصاً كتانياً وعربة صغيرة من النوع الذي يقتنيه
 العزاب ، وخادمان اسمهما سيليفان وبتروشكا . نعم ،
 وقد دفع العطف موظفي الجرمك الى ان يعطوه بعض قطع
 الصابون التي كان يستحسنها لضارة الخدود . وهكذا
 وجد بطلنا نفسه موهوناً مرة أخرى . فما هذه المصائب
 المتجمعة التي انصبت على رأسه ؟ - لكنه كان
 يسيئها «المقاساة في سبيل الحقيقة» . وسيظن القارى
 ظناً لا مراء فيه ان تشيتشيكوف بعد هذه الصدمات
 والمحن وتقلّب الحظوظ - اى بعدما ذاق مرارة الحياة

وصابها - سينسحب بنفسه (وبالعشرة آلاف روبل
 الغالية) الى ركن هادى في مدينة ريفية حيث يقبع
 مرتدياً عبائه يستمع الى الفلاحين وهم يتشاجرون في
 ايام الاعياد او يذهب (ترويحاً عن النفس) الى بانح
 الطيور ويجسّ الفراخ اذا كانت تصلح للحساء فيقضي
 حياة هادئة ليست عبثاً . لكن شيئاً كهذا لم يحدث ،
 وهنا علينا ان نعترف بقوة شخصيته . وبكلمات
 أخرى ، مع انه قد اصيب بما كان سيعتبره معظم
 الرجال دماراً وتشبيطاً وقضاء على الآمال الا انه ظل
 محتفظاً بهيبته . وقد شعر - وهو المنبوذ الساخط
 المستاء من العالم اجمع - بثورة على القدر الظالم وتبرّم
 من معاملة الرجال . غير انه لم يتمالك الا ان يكرّر
 المحاولة مرة أخرى . وباختصار ، كان ما ابداه من
 الصبر يزيد عن نوع الثبات الالمانى المتخشّب -
 الثبات الذي يرتدّ اصله الى دورة دمه البطيئة
 الوسنى . ولكن الامر عند تشيتشيكوف لم يكن كذلك ،
 لأن طبيعته تجعل تدفق الدم في عروقه غنياً ، وكان
 عليه ان يبذل الكثير من قوة الارادة ليكبح في نفسه
 جماح العناصر النائرة التي تؤشك ان تنفجر وتعيد في
 طلب الحرية . وقد فكر ثم فكر ، ولاح له في تأملاته
 المنطق .

وقال لنفسه «كيف صرت الى ما صرت اليه ؟ ولماذا
 لاحقنى سوء الحظ هكذا ؟ ومن يترك فرصته تضيع
 الآن في الخدمة عند الحكومة ؟ الجميع يحصلون . لم
 اسيء في حياتي الى فقير ، ولم اسلب ارملة ، ولم اُطرد

مخلوقاً من بيتي . كان كلُّ همّي دائماً أن اغنم من اولئك الذين يملكون أكثر مما يستحقون . ولم أكن - زيادة على ذلك - التلقط الحبّ إلاّ حيث يلتقطه كل انسان ، ولو لم أفضل لالتقطه غيري بدلا مني . إذن لماذا ينبجس الآخرون بينما أهوى أنا الى الحضيض ؟ ما أنا ؟ ولماذا أصلح ؟ وكيف استطيع في المستقبل أن انظر الى وجه أيّ أب شريف ؟ وكيف اتخلص من عذاب الفكرة التي أحملها عن تحطيمي ؟ وماذا سيقول ابنانسي عنّي نفسي السنين المقبلة إلا أن ابانا كان حيواناً لم يخلت لنا شيئاً نعيش من ورائه ؟»

ويجب أن أشير هنا الى مدى التفكير الذي كان تشيتشيوكوف يكرسه لسلالته المقبلة . والحقّ أقول ، انه لو لم يطور عقله دائماً هذا السؤال القائل «ماذا سيقول اطفالسي ؟» لما انغمس في فعّاله بهذا العمق . ومع ذلك فقد كان كالمقطعة الحذرة التي تختلس النظر يمناً ويسرة لتري فيما اذا كانت ربتها ستاتي قبل أن تستطيع اختطاف شيء ، ما وقع تحت مخلبها (سواء كان زبدة أم دهناً أو شحم خنزير أو كئاري أو أيّ شيء آخر) . - كان مثل صاحبنا مؤسس الاسرة المقبلة مثل هذه القطعة ، يبكي ويندب حظّه دائماً إلاّ أن عينيه لا تتغاضيان عن شاردة ولا واردة . فاحتفظ بتوقد ذهنه ونشاطه وأبقى على قدح فكره وأعماله ، وكان كل ما يحتاج اليه هو خطة يسير عليها . لذلك كله ، مرة أخرى استجمع قواه ، ومرة أخرى خاض غمار الحياة ، ومرة أخرى حشر نفسه في كل شيء ، ومرة أخرى ترك

الجوّ النقيّ المحترّم الى حياة القذارة والانحطاط . وبكلمات أخرى اشتغل في وظيفة كاتسب للدعاوى - ريثما يتيسر له عمل افضل - وهي وظيفة لا مكانة لها ، يتزاحم عليها الكثيرون ، ولا يحترمها حتى صغار الموظفين في المحاكم ، وظيفته دعت اليها الضرورة ينظر اليها الجميع بظفاظة واستخفاف . ولكن الحاجة الماسّة أرغمت تشيتشيوكوف عليها . ومن بين المهام التي عهد اليه بها هي ان يقدم لمجلس الخزينة بضع مئات من الفلاحين كانوا يعملون في مزرعة حلّ بها الخراب . وقد حلّ الخراب بهذه المزرعة من مرض اصاب الماشية ومن سفالة المديرين ومن اخفاق الموسم ومن الاوبئة التي تقتل احسن العمال ، واخيراً وليس آخراً ، من ادارة صاحبها الحفماء الذي اعدّ لنفسه بيتاً في موسكو على احدث طراز وبعزق كل كوبيك لديه بحيث لم يبق له ما يقيم به اوده فاضطر الى رهنها بكل ما فيها من فلاحين . كان الرهن الى خزينة الدولة في تلك الايام بدعة ينظر اليها بكثير من التحفظ ، فاضطر تشيتشيوكوف ، كوكيل في القضية ان يستفسر من كل الموظفين الذين يعينهم الامر (ونحن نعرف ان ابسط المسائل القانونية لا يمكن ان توضع موضع التنفيذ إلاّ اذا صيبت في حلق كل كاتب زجاجة من الماديرا سلفاً) ، وان يبين لهم - مخافة ما قد يجد من الاعتراضات القانونية - ان نصف الفلاحين قد ماتوا .

فساله السكرتير «هل هم مسجلون في لوائح

الاحياء؟» واجاب تشيتشيكوف «نعم» ، فاکمل السكرتير يقول «اذن ما الذى يخيفك ؟ اذا ماتت نفس من النفوس تولد اخرى تحمل محلها» . وبهذا هيملت على بطلنا افكار ملهمة لم تطرق عقلا بشرياً من قبل ، وراح ينادى نفسه قائلاً «يا لبساطتى ؟ لقد كنت افتش عن قفازى بينما هو معلق طول الوقت في نطاقى . اجل ، افلو قمت بشراء الف نفس ميتة قبل صدور اللوائح الجديدة فسيمعطينى مجلس الغزينة العام مائتى روبل لكل نفس ، وساجد نفسى عندئذ براسمال قدره مائتا الف روبل مثلنا ! واللحظة الحالية هي الوقت المناسب اذ قد حلت اوبئة في مختلف ارجاء البلاد ، وقد مات عدد كبير من النفوس والحمد لله ، وقد اخذ الملاكون في هذه الآونة يلعبون الورق ويقومون الولايم ويصرفون النقود بغير حساب وراحوا ينضمون الى خدمة الحكومة فسي بطرسبورج . واملاكم بناء على ذلك سائرة الى الخراب والدمار ، فهي تدار كيفما تيسر الامر ، ولا يستطيع اصحابها دفع الضرائب عنها الا بشق الانفوس سنبة بعد اخرى . واذا كان ذلك كذلك ، فسوف يسرهم ان يتنازلوا عن انفسهم الميتة بدلا من دفع الضرائب عنها . بهذه الوسيلة سوف اجمع من المال غير قليل . هناك بعض المصاعب طبعاً ، لكنى يجب ان استعمل كل الدهاء لكى اتجنب الفضيحة . لقد اعطى الانسان عقلا ليستعمله لا ليطرحة جانباً . واحدى مزايا هذا المشروع هو انه غير محتمل الوقوع ، واذا ما طرا طارى فلن يصدق انه انسان . حقيقة ان شراء الفلاحين او رهنهم

دون الارض هو عمل غير قانونى ، ولكنى استطيع ان اتظاهر بسهولة اننى اشترىهم لنقلهم الى مكان آخر . والاراضى في توريدا وخرسون لاتكاد تساوى شيئاً ، وليس على المرء الا ان يصلحها . اذن الى خارسون سوف اتقلهم وليعيشوا هناك طويلاً ! وسيكون تسجيل نفوسى الميتة على ادى الاصول القانونية ، واذا ما طلبت منى السلطات اثباتاً بشهادة فسأبرز لهم كتاباً من رئيس الشرطة الخراسونى . واخيراً سيكون اسم القرية المنتظرة في خارسون «تشيتشيكوفى» ، بل الافضل «بافلوفسكى» حسب اسمى الاول . هكذا ثبت في عقل بطلنا هذا المشروع الغريب الذى قد يرضى عنه القارىء او لا يرضى ، ولكن المؤلف راض عنه بكل تأكيد ، لانه لو لم يخطر ببال تشيتشيكوف لمسا رات هذه القصة النور .

وبعد ان رسم على نفسه علامة الصليب ، حسب العادة الروسية ، راح منطلقاً بمشروعه . واخذ بخبة التفيتش على مكان يستقر فيه يتفحص زوايا الامبراطورية الروسية ، موجهاً اهتمامه الى تلك التى حلت بها الكوارث الطارئة كاخفاق الموسم وارتفاع نسبة الوفيات او اى شىء آخر يمكنه من شراء الانفوس بارخص سعر مستطاع . لكنه لم يختر البلاكين اختياراً عاجزاً ، انما اختار اولئك الذين توسم فيهم الخير وراى انهم يلاتمون ذوقه وتوقع ان يعقد معهم الاتفاقيات دون عناء . وكان يحاول اول ما يحاول - سواء على اساس التعازف ، او الافضل من ذلك على اساس الصداقة - ان يحصل على

النفوس مجاناً حتى يتجنب تكاليف الشراء . وبهذه المناسبة يجب أن لا يلومني قرآني إذا لم تعجبهم الشخصيات التي وردت على هذه الصفحات أيما إعجاب . فالخطأ ليس بخطي إنما هو خطأ تشييتشيكوف لأنه سيد الموقف وعلينا أن نتبعه حيث سار . وإذا ما تدد بي قرآني ، أيضاً ، لشيء من الغموض أو لنقص في الأيضاح عن بعض الشخصيات الرئيسية فجوابي على هذا بأن منحي الكتاب ومغزاه العام لن يتضحاً منذ البداية . مثل ذلك مثل المسافر الذي يدخل المدينة ، أو العاصمة ، لأول مرة ، فينطبع عندئذ في ذهنه للوهلة الأولى طابع من الغموض ويبدو كل شيء أمام عينيه رمادى اللون على وتيرة واحدة وتظهر أعمدة دخان المصانع وصفوف المعامل لا نهاية لها ، ولكنه مع مرور الوقت تنجلي أمام عينيه معالم البناءات ذات الطوابق الستة والحوائث والشرفات ومناظر الشوارع العريضة وخليط من الأبراج والأعمدة والمسلات - كل هذا ضمن إطار من الضجّة والصخب والعجائب التي لا حد لها مما توصل إليه عقل الإنسان ويده . أما الطريقة التي اتبعها تشييتشيكوف في مشربياته الأولى فالقارى على علم بها . وسيعرف أيضاً تبعاً لذلك كيف تطوّرت الامور ، وما مرّ به بطلنا من النجاح والاختفاق ، وكيف كان عليه أن يتدرّج بالجزم ليتغلّب على مشاكل هي أكثر صعوبة من سابقتها ، وبأى قوّة جبارة كانت تتحرّك مجريات هذه القصة الممتدة الأطراف ، وكيف يترتب على ذلك كله أن ينفسح الاقن حتى ينتهي كل

شيء فيه منحي العظمة والشاعرية . نعم ، فلا تزال هناك فرستات عديدة ستقطعها فرقة مكوّنة من رجل وعربة من النوع الذي يقتنيه العزّاب وخدام اسمه بتروشكا وسائق اسمه سيليفان وثلاثة خيول من المستشار الى الارقط عرفناها بأسمائها واحداً واحداً . وبالإضافة الى ذلك ، ومع أنني قد قدّمت وصفاً كاملاً لمظهر بطلنا الخارجى (كما هو تماماً) الا أنني قد أسأل عن تعريف شامل لشخصيته الخلقية . أما أنه ليس بالبطل الذي يتحلى بالفضائل والكمال ، فهذا أمر يجب أن يكون واضحاً منذ الآن . إذن ماذا يكون ؟ هل هو نذل ؟ ولماذا ندعوه نذلاً ؟ ولماذا نقسو هذه القسوة على رجل مثلنا ؟ لقد انعدم الاندال من الوجود في هذه الايام . بل هناك اناس اصحاب شهامة لطف . ولكنك قد تجد اثنين او ثلاثة اهانوا انفسهم بأن عرضوا خدودهم للمصفع على الملأ . وحتى هؤلاء يتحدثون الآن عن الفضيلة . من الافضل أن ندعوه جسعاً . ان الجسع وحبّ التحصيل خطأ شائع عند معظم الناس ، وهو السبب في نزوات كثيرة ، وكثيرة جداً توصف عادة بأنها «غير شريفة» . وشخصية من هذا القبيل ، فسي الحقيقة فيها عنصر من القباحة . ولكن القارى اثناء تجواله في الحياة قد يجلس مع شخصية من هذا النوع وقد يقضي مع صاحبها أطيب الاوقات ، ولكن سيكون اول من ينظر اليه نظرة المتسائل اذا ما علم أنه يتزيّناً بزى بطل في رواية أو قصة . لكنه حكيم جداً ذلك القارى الذي اذا قابل شخصية كهذه يتفحصها بامعان

ويسير غورها الى الاعماق بدلا من أن ينكمش عنها بامتعاض . وما من شيء في شخصية الانسان الا وهو قابل للتبديل والتغيير في طرفه عين - لا شيء فيها الا وقد تبنيت منه سوسة اكلة تمتص منها العصاره الحية في لمح البصر . فلن تبدو لك في الانسان العاطفة الطاغية وحسب ، بل ستبدو لك عاطفة اخرى من اخط الدرجات في رجل خلق لأمر اجل من هذا . وهذه العاطفة الاخرى تقوده الى نسيان واجباته العظيمة وفرائضه المقدسة فيرى الجلال والتقديس في اتفه الامور . ان عواطف الانسان كرمال الشاطئ لا يحصى لها عدد ، وهي بلا شك اكثر تنوعا . وتبتدى كلها ، رفيعها ووضعها ، في خدمة الانسان ، ثم تتدرج حتى تصبح سيده المستبد . سعيد ، اذن ، هو ذلك الانسان الذي ينتخب من سلسلة العواطف البشرية عاطفة نبيلة ! ساعة بعد ساعة ستنمو هذه الغريزة وتتكاثر الى ان تصبح خيرا عميقا ، وساعة بعد ساعة ستغوص اعمق واعمق في جنان نفسه السرمدية . غير ان هناك عواطف لا يستطيع الانسان ان يتخلص منها ، ولدت معه منذ ولادته ولا حيلة له في تركها . وعلى هذه العواطف تسيطر قواه العليا فتكبتها ، ولكنها تظل تناديه وتأبى السكوت حتى نهاية حياته وستأخذ دورها الكامل فسي مجال الحياة ، سواء تسترت تحت جنح الظلام أم تزيّت بزى ستحوّل الى نور يضيء أرجاء العالم . وهي فسي كلنا الحاليتين قد انبثقت لصالح الانسان . عل هذا المنوال قد يكون منشأ العاطفة التي جرت تشييتشيكوف

الى ان يعمل ما عمل دون ان يكون نفسه شاعرا بما يعمل ، وعلى المنوال نفسه قد يكمن وراء الجوهر البارد شيء يجعل الرجال يتدلون يوما امام حكمة الله السرمدية . وهناك نقطة اخرى غامضة ، وهي لماذا طلعت تلك الشخصية في هذه القصيدة التي توشك ان تنتشر . اما ان لا يرضى الناس عن بطل ، فهذا ليس من الالهية في شيء ، فالذي يهمنى هو استحسانهم الذي لا بد منه تحت ظروف معينة وفي مواقف معينة . فلو لم يتوغل المؤلف كثيرا في نفس تشييتشيكوف ولو لم يترك في اعماقها ما انكمش واختبأ عن الانظار ولو لم يكشف عن افكار بطله التي لم يكن هذا البطل ليكشف عنها حتى الى اعز اصداقائه وفي الواقع لو اظهر المؤلف تشييتشيكوف كما اظهر هذا نفسه لأهل مدينة «ن» ولمانيلوف وللباقين - لكان علينا عندئذ ان نطمئن الى أنه سيحوز على رضى كل قارى وسيعده هذا انسانا لطيفا جدا . وقد لا يكون من الضروري ان نصور تشييتشيكوف للقارى بهذه الصورة التي رسمناه بها فجعلناه مائلا امام العين بشكله وهيبته ونفسيته حتى نترك له (اي للقارى) من هدوه البال ما يستطيع به بعد فراغه من مطالعة الكتاب من ان يعود الى اعتكافه وعبادته للعب الورق الذى هو السلوان والمسرة الكبرى لخيرة الروس كلهم . نعم ، يا قارئى هذا الكتاب ، ليس فيكم ممن يكثر عن صدق لرؤية البشرية وهي تنعري . وتقولون «ولم نفعل ذلك ؟ وما قانده ؟ الا نعرف من قبل ان في البشرية كثيرا مما

هو ثقيل محتقر؟ الا يكفي ان نرى بأم عيننا الكثير من المزعجات؟ كان من الافضل لو وضعت لنا قصة لطيفة جذابة ننسى بها انفسنا قليلاً». وعلى هذا الطراز يخاطب الملاك مأمور املاكه فيقول «لماذا جئت تخبرني ان شؤون املاكى متدهورة؟ انسى اعرف هذا دون مساعدتك. اليس عندك شيء آخر تنبئني به؟ ارجوك ان تسمح لي بنسيان هذه الحقيقة، او دعنى ابقى جاهلها. ولك منى اطيب الشكر». ومن ثم يروح هذا الملاك يصرف على ملذاته النقود التي كان يجب ان يصرفها في ترميم املاكه. والعقل الذي يمكن ان يكتشف مصدراً غير متوقع للتأثيرات العظيمة ناسم الآن. بينما انتهت ضربة مطرقة عملية بيع ضيعة نسي مزاد علني، ومالكها رحل ليطوف في العالم، وينسى، وروحه من التطرف مستعدة لكل القبائح الذي كان هو نفسه يرتعب منها من قبل.

وقد يعترض المؤلف للسلامة من الذين يدعون «بالوطنيين» الذين يجلسون بهدوء في زواياهم يجمعون الاموال ويصبون رأسمالين على حساب الاخرين، نعم، واذا ما حدث شيء مما يسمونه ماساً بسمعة الوطن - كنشر كتاب عن الحقائق المرّة مثلاً - فستجدهم عندئذ يخرجون من مخابثهم كالعنكبوت التي لمحت ذبابة تقع في نسيجها. وسيصيحون قائلين «هل حسن ما اظهرت للعالم وتركت الناس يلوكون الحديث حوله؟ ان الذي وصفت يمسنا وهو من شأننا نحن». هل هذا هو سلوك المواطن الصالح؟ لماذا تريد من

الاجانب ان يفترضوا ان كل شيء لدينا على غير ما يرام واننا خلوا من الشعور الوطني؟» اجل، فليس نسي الحقيقة من جواب يجاب به على هذه الملاحظات الحكيمة، وخاصة فيما يتعلق برأي الاجانب فينا. لكن رويدك لقد عاش في يوم من الايام في زاوية من زوايا روسيا البعيدة مواطنان روسيان. احدهما كان رجلاً طيباً اسمه كيفا موقيتش وهو اب له عائلة، كان لين العريكة وكان سائراً في حياته بمباهة يتدثر بها. ولم يكن يكثر لشؤون بيته، وسبب ذلك انه كان قد ركز اهتمامه في التفكير والتأمل في الطبيعة. وكان في هذه بالذات منهمكاً في مسألة فلسفية يصيغها عادة في السؤال التالي، «لماذا لا يولد الحيوان عارياً. ولماذا كان ذلك كذلك؟ لماذا لا يولد الحيوان كما يولد الطير - اى بان يفقس من بيضة؟ ان الطبيعة اعلى من الادراك مهما حاول المرء ان يسير غورها». كان هذا هو محور تفكير كيفا موقيتش. لكن هذه ليست هي النقطة الرئيسية. اما الآخر فكان اسمه موكي كيفوقيتش، ابن الاول. كان ما نسميه - نحن الروس - بطلاً. اذ بينما كان والده يفكر في مولد الحيوان كان مزاج الابن العنيف ابن العشرين سنة يناضل فضلاً جباراً في سبيل تطوره، غير انه لم يستطع ان ينجز امرأ دون ان يحدث معه حادث مماثل في الجبروت والعنف. كسر مرّة اصبح احد الناس ومرّة اخرى لكم شخصاً على انفه، حتى اصبح يهرب منه كل انسان وكل حيوان - من الخادم حتى الكلب في الساحة، ولم يسلم من ذلك حتى

فراشه في سريره فقد تناثر قطعاً . هكذا كان موكي
 كيفوفيتش . ومع هذا فقد كانت روحه خفيفة لطيفة .
 لكن هذه ليست هي النقطة الرئيسية ، بل النقطة
 الرئيسية كانت تتمثل في الواقع التالي . اذ كان الجيران
 والخدم يأتون الى الاب قائلين ، «سيدنا العزيز كيفا
 موكيفتش ، ماذا انت عامل لنا بموكي كيفوفيتش ؟ اننا
 لا نرتاح منه ، فهو يرى نفسه اكبر مما هي» . فكان
 الاب يجيب «ان هذا لعب منه فقط ، ان هذا لعب منه
 فقط . وماذا تنتظرون منه غير هذا ؟ لقد فات اوان
 الخصام معه ، ولو حاولت ان افعل فسيتهمني الناس
 بالخشونة والفظاظة . انه مفرور في الحقيقة بعض
 الفرور ، ولكني لو وبخته امام الناس فسيصبح هذا
 مدار الحديث وسيلقتبه الناس بالقباب الكلاب . واذا
 فعلوا ذلك فسوف يستنى القول لاننى ابوه . ثم اني
 ايضاً مشغول بالفلسفة ولا وقت لى لهذه الاشياء . في
 بعض الاحيان ، ولكنى ابو موكي كيفوفيتش هو
 ابني ، وهو عزيز جداً على قلبى» . واكد لهم كيفا
 موكيفيتش مرة اخرى وهو يضرب صدره بيده ، واضاف
 ان ابنه لو رآى ان يظل سادراً في لعبه ذلك ، فليس
 له - اى للاب - ان يصرح بالحقيقة او ان ينفصل عن
 ابنه . وبعد ان تلفظ كيفا موكيفتش بهذه الكلمات
 المليئة بالحنان الابوى ، ترك موكي كيفوفتش لأعماله
 البطولية وعاد بنفسه الى تأملاته المحبوبة التي كان
 موضوعها الآن المسألة التالية «لنفرض ان الفيلة بدأت
 تنفقس من البيض ، الا تكون قشرة هذه البيضة من

السلك بحيث لا تخترقها قنابل المدافع وهذا ما يدعو الى
 اختراع اسلحة من نوع جديد ؟»

وهكذا ، فاننا نرى بانتهاء هذه القصة اثنين من سكان
 زاوية هادئة من زوايا روسيا ، يريان - كما لو كانا
 يطلان من نافذة - يجيبان جواباً متواضعاً عن الاتهامات
 الموجهة من جانب الوطنيين المتحمسين ، المنشغلين
 بهدوء حتى الآن بفلسفة من الفلسفات او بطرق الاثراء
 على حساب وطنهم الذي يحبون ، وهم لا يفكرون في
 ان يتجنبوا فعل ما هو شائن ، بل في ان لا يتحدث
 الناس عن كونهم يقومون بهذا الفعل الشائن . نعم ،
 فالشعور الذي يثير من يسمون بالوطنيين ليس من
 الوطنية في شيء اطلاقاً . انما هنالك شيء آخر يكمن
 وراءه . ولم الخوف من قول ذلك ؟ ومن ذلك الذي سيرفع
 الصوت عالياً لاطهار الحقيقة ان لم يكن المؤلف نفسه ؟
 ان رجلاً مثلكم - يا مواطني الزائفين - ليرتجفون
 رعباً من العين التي تستطيع ادراك الامور ، فانتم
 انفسكم ترتعبون من توجيه نظرة عميقة الى شيء ما ،
 وتحبون ان تمرروا عيونكم غير المفكرة على كل شيء
 خطفاً . وبعد ان تضحكوا ملء قلوبكم على نكبات
 تشيتشيكوف - وربما تمدحون المؤلف على براعة
 الملاحظة او طرافة الخاطرة - ستشعرون بكبرياء
 متعاطفة في انفسكم وستبتسمون ابتسامة ملؤها الرضى
 وتقولون «اجل ، اننا لا ننكر ان هناك في بعض
 المقاطعات افراداً على جانب من الغرابة والسخرية وان
 هناك سفلة انذالا لا ضمير لهم» .

بيد أنكم إذا ما جلستم هادئين وحيدين وأخذتم
تحاسبون أنفسكم ، فمن منكم لا يحسن صنعا إذا ما
راح يسير غور نفسه وي طرح عليها السؤال الرزيين
التالي «اليس قتي عنصر من تشيتشييكوف؟» ولماذا لا
يكون؟ ومن منكم لا يحتل ان يمر به في الشارع ذات
يوم احد معارفه ، فيلكر جاره ويقول بسخرية لا تكاد
تخفى «انظر ! هو ذا تشيتشييكوف ! ان الذي مر بنا هو
تشيتشييكوف نفسه !»

لكننا كنا نتكلم بأعلى اصواتنا بينما كان بطلنا لا
يزال نائما في العربة ! وقد تردّد اسمه كثيرا ونحن
نسرّد قصة حياته ، ولا يدّ انه قد سمعنا ! وهو دائما
نزق سريع الغضب اذا ما وردت سيرته بغير احترام .
وقد لا يهتم القاري فتيلاً لأغضاب تشيتشييكوف ، ولكن
خصام المؤلف مع بطله معناه الخراب ، اذ لا يزال عليه
ان يمشي مع تشيتشييكوف ، بدأ بيد ، مسافات بعيدة
المدى .

وصدّرت صيحة من تشيتشييكوف تقول «ايه ، ايه ،
يا سيليفان !»

فأجاب سيليفان بصوت ناعس «ما المسألة؟»
«ما المسألة؟ ما بالك تسوق ناعسا؟ اسرع حرك
نفسك قليلا!»

وكان سيليفان في الواقع جالسا منذ مدة طويلة
يعينين نصف مغمضتين ويدين لا تستحان الجيصاد
الوسنى الا بمسها باللبام على اذناها بين فترة
وأخرى . اما بتروشكا فقد اضاع قبعتها وكان متعنيا الى

الخلف حتى ارتاح رأسه على ركبتي تشيتشييكوف -
وهو امر استدعى ايقاظه بلكمة . وتحمس سيليفان
وجاد على الارقط بوضع ضربات على ظهره جعلته يركض
خبيا ولوح سيليفان للجميع بسوطه من فوق ، وغمض
بصوت مترنم رخم : «لا تخف !» وما إن حذا زميلاه
الأخران حذوه حتى راحت العربة تدرج الى الامام كأنها
حبة من خرز . وشخذ سيليفان صوته وصاح «هيه ،
هيه !» بينما كانت تعاريج الطريق تهزّه صاعدا نازلا
على مقعده . وانكا تشيتشييكوف في الوقت نفسه على
الوسادة الجلدية داخل العربة وابتمس ابتسامة الرضى اذ
احس ان العربة تنطلق كالريح . وأى روسى لا يجب
ان يسرع؟ ومن منا لا يتوق بعض الاحيان الى ان يطلق
لجياده العنان ويلقي لها الحبل على الغارب ويصبح قائلا
«الا فليذهب العالم الى الشيطان !» وكيف لا تحبها نفسه
هذه اللحظات ، وفيها شيء رائع عجيب اذ يحس المرء
ان قوى جبارة ترفعه فكانه على جناح ، فيجد انه
يطير الى الناحية المعاكسة كل شيء آخر يطير - علامات
الفرستات والتجار على عربات الشحن والغابسة ذات
الخطوط المعتمة التي يرسمها شجر التنوب والصنوبر
والتي قد يسمع منها صوت بلطة الحطاب ونعيق
الغراب . نعم ، ومن خلال ذلك البون الشاسع المدى
الذي يكتنفه الغموض تتقدم الطريق الى ، ولا يبدو
للعين شيء ساكن غير السماء والغيوم الخفيفة التي
يشقها القمر . ايه اينها الترويكما ، اينها الطائر ، من
اخترعك؟ لا يمكن ان تولدي إلا في شعب عالي الهمة ،

بحواقرها ، وتحولت إلى خط واحد ممدود طائر فسي
الهواء ، منطلقة بوحى من الرب ا روسيا ، الى ايسن
انت تنطلقين ؟ اجيبيني . انها لا تجيب . جرس يملأ
الهواء برنين عجيب ، والهواء يردد ، ويصير ريحاً ،
ويتحول الى مرق . كل شيء على الأرض يمرق عانراً ،
وتنظر الشعوب شزراً وتتنحي الشعوب والدول الأخرى
فاسحة الطريق لها .

في أرض لا تحب المزاح ، بل تنداح منبسطة لتكون
نصف العالم ، فيظل المسافر يعد صوَى الطريق ويعد
حتى تتعب عينيه . وقد يظن المرء أن واسطة السفر
هذه لا دهاء فيها . إنها غير مثبته بمسامير حديدية ،
ولكنها صنعت على عجل بالفأس والازميل ، وضمٌ بعضها
الى بعض فلاح حاذق من يارسلاف . وسائقها ليس المانياً
في جزمة طويلة الساقين ، بل ملتج مورد الخدين يقعد
على شيء لا يعلم ما هو إلا الله . ولكن ما إن يرفع
جسمه ، ويقرق بسوطه ، ويطلق صوته بالغناء حتى
تنطلق الخيول كالعاصفة ، وتصير قضبان المجلات
دائرة واحدة متماسكة ، والطريق وحده يهتز ، والماشى
يتوقف صائحاً في فزع ، وتنطلق الترويكا
وتنطلق ! . . . ولا يبقى إلا الفجار يدوم في البعيد ،
ويتلوب في الهواء .

وأنت ، يا روسيا ، الست انت أيضاً ، تنطلقين
مثل ترويكا خاطفة لا تسابق ؟ الطريق يتزويج تحتك
كالدخان ، والجسور تهدر ، وكل شيء يتراجع ، ويبقى
الى الخلف . ويتوقف المتفرج مصعوقاً بهذه الاعجوبة
الالهية . العلهلها بارقة هبطت من السماء ؟ ما هذه الحركة
التي تثير الفزع ؟ وما هذه الروح غير المنظورة فسي
تلك الخيول التي لم ير العالم مثلها ؟ آه ، يا خيول ،
يا خيول ، واية خيول ! اهي الزوابع مخفية في اعراك !
اهي الذن مرهفة السمع تنهج في كل عصب منك .
سمعت صوت اغنية مالوفة تغنى في الاعالي ، فوترت
صدورها النحاسية على الفور ، وهي لا تكاد تمس الأرض

مقطعاً صغيراً من مشهد مسرحي صغير ، كان قد أعجبه ، على كل حال ، أكثر مما قرأته له سابقاً ، قال : «كيف يمكنك أن لا تبدأ بعمل كبير ، ولك هذه القدرة على حدى الانسان ، وتصويره ببضع لمسات ليطلع أمامك حياً ! ان ذلك جرم تماماً !» وفى اثر ذلك أخذ بصوري ضعف بنيتي ، وعلى ، التى يمكن أن تبتز حياتي فى وقت مبكر ، وضرب لى مثلاً فى سرفانتس الذى كتب بعض الروايات الصغيرة الرائعة جداً والجيدة ، ولكن لو لم يأخذ بكتابة «دون كيخوت» لما احتل تلك المكانة التى يحتلها الآن بين الكتاب ، وختاماً لكل ذلك اعطانى موضوعاً من عنده كان يريد هو نفسه أن يكتبه على شكل قصيدة ، وما كان سيعطيه لشخص آخر ، حسب قوله . وكان ذلك موضوع «الانفس الميتة» .

ويشير غوغول فى موضع آخر أورده فيما بعد (الرسالة الثالثة ، فى «الرسائل الاربع» لاشخاص مختلفين بخصوص «الانفس الميتة») الى ان المسودات الاولى للقصيدة كانت مكتوبة بشبرات مختلفة قليلاً وأكثر جهامة ، وشخصياتها تشبه «الغيلان» . وقد شعر غوغول بضرورة تغيير هذه الطريقة بعد قراءة القصيدة فى بيت بوشكين (كان ذلك فى نهاية ١٨٣٥ او فى النصف الثانى من عام ١٨٣٦) . «حين بدأت اقرأ لبوشكين الفصول الاولى من «الانفس الميتة» بما فى ذلك ما كانت عليه من قبل أخذ بوشكين الذى كان يضحك دائماً عند قراءتي (وكان مولعاً بالضحك) يتعجب شيئاً فشيئاً ، واخيراً صار فى منتهى الجهامة . وما ان انتهيت

تعليقات

صدر المجلد الاول لاول مرة فى عام ١٨٤٢ فى كتاب مستقل بعنوان : «مغامرة تشيتشيكوف او الانفس الميتة . قصيدة ن . غوغول» . موسكو . ١٨٤٢ .
ترجع بداية العمل فى هذه القصيدة الى عام ١٨٣٥ . والرسالة التى أرسلها غوغول الى الكسندر بوشكين ، بتاريخ ٧ تشرين الاول ١٨٣٥ - وهى الرسالة التى طلب فيها أن يعطيه موضوعاً لمسرحيته المقبلة «المفتش العام» تتضمن أيضاً المعلومات الاولى عن «الانفس الميتة» : «بدأت اكتب «الانفس الميتة» . الموضوع امتد ليصير رواية طويلة جداً ، واعتقد انه مضحك جداً . . . احب ان اظهر فى هذه الرواية جانباً واحداً على الاقل من روسيا» . وغوغول ، فى ابلاغه بوشكين هذا المشروع المعروف له يبدو وكأنه يستأنف حديثاً قد بدأه من قبل .

وفيما بعد ، تحدث غوغول فى «اعترافات مؤلف» عن الظروف التى قدم فيها بوشكين له موضوع «الانفس الميتة» : «كان يحبنى منذ زمن بعيد على البدء بمؤلف كبير ، واخيراً ، وذات مرة ، بعد ان فرغت من قراءتى

القراءة حتى قال بصوت ملئوع : «يا الهى ، كم هسى
موحشة بلادنا روسيا !» اذهلنى هذا . . . ومنذ ذلك
الحين أخذت لا أفكر الا بتخفيف الانطباع المرهق الذى
يمكن ان تتركه «الانفس الميتة» .

فى خريف ١٨٣٦ استأنف غوغول العمل فى «الانفس
الميتة» الذى كان قد بدأ فى بطرسبورج استأنفه فى
فيف (سويسرا) ومن ثم فى باريس . وهو يبلغ صديقه
الشاعر فاسيل جوكوفسكى فى رسالة مؤرخة فى ١٢
تشرين الثانى : « . . . كل ما بدأتاه قد راجعته من
جديد ، وفكرت اكثر فى الخطة كلها ، وأنا الآن اسير
بها بهدوء كمدونة تاريخية . ومنذ ذلك الحين بدت لى
سويسرا أفضل ، وجبالها الرمادية الليلية الزرقاء
السماوية الوردية أخف وأشف . ولئن انجزت هذا
العمل بالطريقة التى يجب ان ينجز فيها . . . فأى
موضوع ضخم أصيل سيكون» . وحسب خطة غوغول
الجديدة يجب ان لا يكرس محتوى العمل الجديد للجوانب
المظلمة من الحياة الروسية فقط ، وبدلا من تصوير
روسيا من «جانب واحد» يتحدث غوغول الآن عن
«روسيا كلها ممثلة فيه» . وفى الرسالة المذكورة الى
جوكوفسكى لم تعد «الانفس الميتة» تسمى رواية (كما
فى رسالته الى بوشكين) بل «قصيدة» . والسطور
التالية التى وردت فى رسالة الى الكاتب والمؤرخ
والصحفى ميخايل بوغودين بتاريخ تشرين الثانى ١٨٣٦
تشير الى تلك التغييرات : «العمل الذى انكب عليه الآن
واكده . . . لا يشبه رواية قصيرة ، ولا رواية . . . انه

طويل ، طويل ، فى عدة مجلدات . واذا اعاننى الرب
فسأنجز قصيدتى ، كما يجب ، انها ستكون اول عمل
ابداعى معتبر لى . روسيا كلها منعكسة فيه» .

ورسائل غوغول فى تلك الفترة الى معارفه وذويه
مشبعة بالرجاءات لتزويده بمختلف المعلومات فى
موضوع «القضايا العثيرة للفضول» ولا سيما تلك التى
«يمكن ان تحصل عند شراء النفوس الميتة» . ويطلب
غوغول من جوكوفسكى : «ابلىغ بوشكين بذلك ، فقد
يجد هو ايضا شيئا من جانبه» . وكل هذه المادة
ضرورية للاستمرار فى القصيدة .

فى شباط ١٨٣٧ يصل الى غوغول ، وهو فى باريس ،
نبا مقتل بوشكين . ويكتب غوغول من روما : «كل متعة
حياتى ، كل متعتى الرفيعة اختفت مع . لم اكن اقدم
على اى شىء بدون نصيحتته . . . وعمل الحالى ، الموحى
منه ، هو ابداعه . . .» والآن يعتبر غوغول «الانفس
الميتة» بمثابة «وصية مقدسة» لبوشكين . (رسالة الى
ف . جوكوفسكى بتاريخ ١٨ نيسان ١٨١٧) .

فى اواخر عام ١٨٤٠ انتهى العمل فى المجلد الاول
بشكل عام ، واخذ غوغول يعده للطبع . وفى كانون
الاول يبلغ الكاتب سيرغى اكسكوف فى رسالة من
روما : «أنا الآن اعد المجلد الاول من «الانفس الميتة»
فى صيغته النهائية . اغبر ، وانقح ، واعيد العمل كليا
فى اشياء كثيرة . . .»

وساعد فى استنساخ القصيدة الاديب فاسيل بانوف
قريب سيرغى اكسكوف ، والذى صاحب غوغول فى

رحلته الى ايطاليا ، وبعد ذلك ساعد في الاستنساخ
بافيل اينيكوف ، الناقد والنائر وكاتب المذكرات . وقد
خلف اينيكوف رواية بديعة يصف فيها كيف جرى
استنساخ القصيدة في صيف ١٨٤١ في روما .

«بعد ان يضع نيقولاي فاسيليفيتش الكراسية
امامه . . . كان يستغرق فيها كلياً ، ويبدأ بالاملاء
بتوازن وانتشاء ، وباحساس وزخم تعبير جعل فصول
المجلد الأول من «الانفس الميتة» يكتسب في ذاكرتى
نكهة خاصة . كان ذلك اشبه بالهام هادى متدفق
باتساق يولده عادة الادراك العميق للموضوع» .

وحين استنسخ اينيكوف «قصة الكابيتن كوبيكين»
التي اثار في مؤلفها الاحساس بارتياح واضح غير
اينيكوف عن شكه في ان تنشر القصة في يوم ما .
فاجاب غوغول بثقة في النفس : «النشر شئ هين كل
شئ سينشر» . «وتجلى شعور المؤلف بالارتياح
النفسي بقوة اشد ، عند وصف حديقة بلوشكين . وأنا
اتذكر ان حماسة الاملاء لم تبلغ هذا العلو في غوغول
كما بلغته في هذا الموضع ، مع الاحتفاظ بكل الطبيعة
الفنية . حتى ان غوغول نهض من مقعده (والظاهر ان
طبيعة ما يصفه مرء أمام عينيه في تلك اللحظة)
وصاحب املاءه بشاردة فخورة آمرة . وبنهاية كل هذا
الفصل السادس المذهل كنت منفصلاً ، فوضعت الريشة
على الطاولة ، وقلت بصراحة : «اعتبر هذا الفصل ، يا
نيقولاي فاسيليفيتش ، شيئاً عبقرياً» . كور غوغول
بقوة الكراسية الصغيرة التي كان يمل منها ، وقال بصوت

نحيل لا يكاد يسمع : «صدقنى ان بقية الفصول ليست
اسوا» .

في تشرين الأول ١٨٤١ عاد غوغول الى موسكو عن
طريق بطرسبورغ لاستنساخ «الانفس الميتة» بشكل
نهائى وطبعها .

في ٧ كانون الأول قدّم غوغول المخطوطة الى الرقيب
ايفان سنيجيروف ، وقد رجاه ان يبدى رايه فيما اذا
كانت لجنة الرقابة في موسكو ستسمح بها .

وفيما بعد تحدث غوغول الى صديقه الكاتب والصحفي
بيتر بليثنيف (رسالة مؤرخة في ٧ كانون الثانى
١٨٤٢) عن الوقائع التي حصلت في اجتماع اللجنة :
«ما ان سمع غولوخاستوف * الذى كان يحتل مكان
الرئيس اسم «الانفس الميتة» حتى جأ بصوت الرومانى
القديم : «لا ، هذا لا يمكن ان اسمح به ابداً . النفس
خالدة ، ولا يمكن ان توجد نفوس ميتة . ان المؤلف
يحارب الخلود» . ووضح للمراقبين ان المقصود فى
ذلك الاقتان المسجلون فى الاحصاء ، فزاد ذلك من
انزعاج المراقبين . فان ذلك غير مسموح به ، ان ذلك
يعنى الخروج على نظام القنائة» . كما لم تنفع حماية
سنيجيريف الذى كان قد قرأ المخطوطة . والى جانب
معارضة «المراقبين» الاسويبين» عارض «المراقبون»
الاوربيون» . وقد قال احدهم ، وهو نيكيتا كريلوف

* مساعد ناظر الدائرة التعليمية الموسكوفية ، وعضو
رقابة الناشر .

استاذ القانون الرومانى فى جامعة موسكو : «مهما قلت
فان الثمن الذى يدفعه تشيتشيكوف . . . الروبلين
والنصف التى يدفعها للنفس الواحدة ، تقلق
النفس . . . ان هذا لا يمكن ان يسمح به لا فى فرنسا ،
ولا فى انجلترا ، ولا فى ان مكان . . . ثم ان اى اجبتى
لن يأتى الينا بعد هذا» .

واسترجع غوغول المخطوطة من لجنة الرقابة فسى
موسكو خانقا من منعتها ، وسلمها لبيلىنسكى الذى كان
مسافراً الى بطرسبورغ وكان غوغول يعتمد على مساعدة
اصدقائه فى العاصمة وهم - اوديفسكى * وبليتنوف
وسميرنوف * - فى تسهيل طريق «الانفس الميتة» الى
الرقابة . وبالفعل ، سمحت الرقابة فى ٩ آذار بنشر
القصيدة مع بعض التعديلات ، ولكن بحذف «قصة
الكابيتين كوبيكين» . وفى الاول من نيسان ابلغ الكسندر
نيكىتنكو الذى راجع المخطوطة كرقيب ، ابلغ غوغول
ان «من المستحيل تماماً السماح بقصة كوبيكين ، وما
من احد بمن فيهم ذوو السلطة ، يقدر ان يبقى عليها ،
وانت نفسك ستوافق ، بالطبع ، على اننى غير قادر على
ان افعل شيئاً فى هذا الخصوص» .

ومع ذلك فقد قرر غوغول ان يبقى على «القصة» بكل
ما يملك من جهد . فقد كتب الى نيكىتنكو فى ١٠

* كاتب وفيلسوف وناقد وصحفى . الناشر .

** اميرة متقربة من الامبراطورة صديقة غوغول .
الناشر .

نيسان : ان القصيدة ، بدونها ، «ستصاب بشق لا يمكن
ترقيعه بشئ» و«هذه القطعة ضرورية ليس لربط
الاحداث ، بل لجذب اهتمام القارى وتسويقه بانطباع
تلو انطباع . . .» . ويشير غوغول الرواية ، منزلاً رتبة
الشخصيات ، اذا صح القول : كبير القوم ، الجنرال ،
يصير مجرد «رئيس» وليس من يبين زواره جنرالات .
ويبلغ غوغول صديقه بليتنوف فى ١٠ نيسان «اننى
حذفت كل الجنرالات ، بل وحذفت حتى اسم «كورنيش
القصر» تحاشياً لان يتبادر الى الذهن قصر الشتاء
الموجود فى هذا الكورنيش مع قصور كبار الموظفين
البارزين . كما حذفت من خلق كوبيكين صفات من مثل
التزمت وشدة الحساسية ويوافق غوغول حتى على تغيير
اسم البطل («اذا كان اسم كوبيكين يضايقهم فانا مستعد
الى تسميته «بياتكين» وما شاءوا» يكتب الى نيقولاى
بروكوفيتش ، فى ١٥ نيسان خانقاً ، كما يبدو ، من
ان يتبادر الى الذهن الشقى كوبيكين الذى كان اسمه
شائعاً فى الفولكلور الشعبى فى ذلك الحين . ولكن لم
تظهر حاجة الى ذلك فى هذا الخصوص . فقد سمح بنشر
الصيغة المعدلة من الرواية (النص المنشور فى الطبقات
الحديثة ، بما فى ذلك الطبعة الحالية ، قبل خضوعه
للقابة) كما عدلت الرقابة اسم القصيدة : اذ كتب
نيكىتنكو بالحبر الاحمر العنوان الجديد : «مغامرة
تشيتشيكوف او . . .» فوق عنوان الكتاب القديم
«الانفس الميتة» (والقصيدة فى الطبقات المعاصرة تصدر
تحت الاسم الاول) .

وبيتما كان الكتاب يطبع رسم غوغول نفسه غلافاً له . وهذا الغلاف مهم كمثال للتصميم الغروتسكى بشكل واضح ، والذي يجمع فى تأليف عجيبة مواضع الحياة اليومية ، وصور الناس والحيوانات ، مع عدد كبير من الجماجم الانسانية مما يناسب ، من جهة ، المحتوى الغروتسكى نفسه ، وقد قاد ، من جهة اخرى ، الى التقاليد القديمة فى الزخرفة الغروتسكية الحائطية بجمعها الفريد لتفاصيل الطبيعة الجامدة ، والعالم النباتى والحيوانى والانسانى .

وصدر الكتاب فى أواخر آيار . وتركز اهتمام الراى العام كله على عمل غوغول الجديد هذا ، وقد اثارته من قبل قراءات فصول منفصلة منه (ابتداءً من صيف ١٨٣٧ ، على اقل تقدير ، قام غوغول لعدة مرات بقراءة مقاطع من القصيدة فى بيوت مختلفة) وحمسته الشائعات عن تعقيدات الرقابة . ويذكر بيلينسكى : «كـل الاهتمام الادبية ، وكل الاسئلة الصحفية مركزة الآن على غوغول» .

ومن بين التقييمات الاولى لهذه القصيدة احد المدونات من يوميات الكاتب الكسندر غيرتسين الذى صار فيما بعد ثورياً وشخصية اجتماعية ، مؤرحة فى ١١ حزيران : «الانفس الميتة» لغوغول كتاب مدهش ، تفرغ مريـر لروسيا الحالية ، ولكن لا يخلو من أمل» .

بقلم يورى مان

ترجمة غائب طعمة فرمان

مع تحياتي : علي مولا